

المثقفون الغربيون وأحداث غزّة

المثقفون الغربيون وأحداث غزّة

قراءات في موقف الانتلجونسيا
الغربية من القضية الفلسطينية

(كتاب جماعي)

تقديم: د. بثينة شعبان
إشراف وتنسيق: ادريس هاني



جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي
نظام إلكتروني يمكن استرجاع الكتاب أو أي جزء
منه دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي A LITTLE HISTORY OF ECONOMICS
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر YALE UNIVERSITY PRESS
مقتضى الاتفاق الموقع بينه وبين الناشر

اسم الكتاب: المثقفون الغربيون وأحداث غزّة

اسم المؤلف: كتاب جماعي

تقديم: د. بثينة شعبان

الطبعة الأولى 1445 هـ / 2024 م

عدد الصفحات: 536

الناشر: دار الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع. العراق - بغداد

ISBN: 978-9922---

الرقم الدولي:



للنشر والترجمة
PUBLISHING & TRANSLATION
العراق - بغداد - المنصور
darmanairaq@gmail.com



العراق - بغداد - شارع المتنبي
07819141219 | 07702931543
darktbalmya@yahoo.com

المحتويات

أناقدون أم مؤسسون لسردية جديدة؟	٩
تقديم: أ. د. بشينة شعبان	٩
بين يدي الكتاب: ادريس هاني	٢٩
القسم الأول: مقالات ودراسات	٣٥
التحدي الكبير.. فلسطين وُنُخبة الفكر الغربي: ادريس هاني	٣٧
في الحرب على غزة.. منطق «الضحية» في رهان المثقف العربي	
على «ضمير» المثقف الغربي: د. فيصل جلول	٦٥
تأملات في الحق والكذب على ضوء فضيحة الفلسفة الغربية	
إزاء إبادة سكان غزة: د. محمد المصباحي	٧٩
نهاية الإفتتان بفلاسفة الغرب: د. طلال عترسي	٩٧
خلف ظلال المواقف ينكشف الفكر الحق:	
تحليل لرؤى مفكري الغرب: د بهاء درويش	١١١
طوفان الأقصى: صراع الإرادات والعقول	
تأملات فكرية وحقوقية: عبد الحسين شعبان	١٣١

- ما يحدث في غزة ليس «تطهيرًا عرقيًا»
 عن شكيزوفرينيا الغرب: د. حسن أوريد ١٤٥
- اللاهوت الإسرائيلي بما هو جوهر الأطروحة الأميركية
 النشأة والغاية هي نفسها: د. محمود حيدر ١٥١
- المفكرون والقضية الفلسطينية: أ.د. أحلام بيضون ١٩٧
- قضية فلسطين: بين الرومانسية الغربية
 والعاطفة الانتقائية: د. ياسر عبد الحسين ٢٢٣
- «عن مأزق الخطاب السياسي-الإعلامي الفرنسي
 بشأن المسألة الفلسطينية»: د. فؤاد بلحسن ٢٤٩
- «مبادئ التضامن» والانعطاف الانتكاسية
 أمام زخم مانيفاتورات الثقافة: عبد العالي العبدوني ٣٠١
- «مبادئ التضامن» «منتوج» صناعة الثقافة:
 التلقي الغربي لطوفان الأقصى: د. أحمد فال السباعي ٣١٧
- ميلان كونديرا والقضية الفلسطينية
 الوعي المغلوط بالصراع العربي الإسرائيلي: عبد الله الحيمر ٣٤١
- محاولات يائسة ومحتشمة للفيلسوف «بيتر كيف» في الدفاع عن نزعة
 إنسانية أخلاقية مما يحدث في غزة من جرائم حرب: الزاهيد مصطفى ... ٣٥١

- القسم الثاني: قراءات سياسية ٣٦٣
- الطلبة الأمريكيون يطلقون طوفان الأقصى: د. إبراهيم علوش ٣٦٥
- الحرب على غزة: الحقائق والمآلات: د. رفعت سيد أحمد ٣٩٧
- طوفان الأقصى والتحويلات الثقافية في الغرب: محمد محفوظ ٤٢١
- غزة، د. سناء شامي ٤٣٥
- القسم الثالث: حول بيان هابرماس: ٤٤٣
- قراءات وردود: نقد الموقف المتحيز لإسرائيل من فلاسفة ألمانيين
يدعون الدفاع عن القيم الكونية؟! : د. محمد الأشهب ٤٤٥
- غزة في اليوم العالمي للفلسفة: ادريس هاني ٤٥٢
- فلسطين هابرماس وفلسطين دولوز: عبد السلام بنعبد العالي ٤٦١
- حين تغسل الفلسفة يدها من دمٍ بدمٍ آخر: د. صلاح بوسريف ٤٦٥
- إذا لم تتعاطف مع المعاناة الإنسانية لا يمكنك الاحتفاظ
باسم الإنسان! : آصف بيات، شاعر إيراني ٤٦٩
- ردًا على بيان تضامن الفيلسوف هابرماس
مع الهمجية الإسرائيلية: محمد المعزوز ٤٧٥
- موقف هابرماس وبيان التضامن.. هابرماس وإسرائيل
فلسطين وفاتورة الهولوكوست: د. سهيل القش ٤٨٠

- أقنعة المركزية والكونية المشتركة: د. عبد الله السيد ولد أباه ٤٩٠
- ملحق: نصوص ٤٩٧
- نوربرتو باريديس: «الغرب يظهر التفاف والمعايير المزدوجة بالنسبة للقضية الفلسطينية»: ترجمة عبد الله الحيمر ٤٩٩
- المؤرخ الفرنسي هنري لورنس: «بالنسبة للغرب ، من غير المعقول أن يكون للفلسطينيين أيضا الحق في الدفاع عن أنفسهم» ٥٠٩
- د. حميد لشهب يفكك خلفيات دعم الغرب لإسرائيل حاوره بالنمسا الإعلامي عبد العزيز كوكاس ٥١٧
- دومينيك فيدال: ما يحدث في غزة إبادة جماعية ٥٣٣
- أجرى الحوار: وسام البزديني ٥٣٣

أناقدون أم مؤسسون لسردية جديدة؟

تقديم أ. د. بشينة شعبان^(١)

ترددت كثيراً قبل أن أشرع في كتابة هذه المقدمة استجابةً لطلب الصديق الدكتور إدريس هاني، ذلك لأنّ ما أعقب طوفان الأقصى من حرب إبادة غير مسبوقة على الشعب الفلسطيني ودعم غربي بالمال والسلاح والإعلام لأبشع جريمة ترتكبها البشرية، قد عبّر بها لا يدع مجالاً للشكّ، أنّ حكّام الغرب على الأقلّ لا يرون البشر متساوين في الإنسانية بل لديهم تصنيفات ودرجات لإنسانية الإنسان، يعاملون كل تصنيف ودرجة وفق ما تستحقّ حسب قناعاتهم. ولا أدلّ على هذه التصنيفات والدرجات من مواقف غربية وصلت إلى حدّ الفضيحة، هو أنها لم تنبس ببنت شفة ولم تُبد أيّ تعاطف أو ردّة فعل على قتل آلاف النساء والأطفال الفلسطينيين، بينما تحرّكت لديها الحميّة لدى قتل ثلاثة موظفين أمّيين من الغرب، وتعالّت الأصوات لمساءلة الإسرائيليين وأخذ كلّ الإجراءات كي لا تتكرّر مثل هذه الجريمة.

الاستهتار الذي عبّر عنه الغرب حيال الإبادة التي مارستها القوات

(١) مستشارة الرئيس السوري للشؤون السياسية والإعلامية.

الصهيونية المدعومة بكل أنواع الدعم من الغرب، بحق حياة الفلسطينيين، لا اسم له سوى عنصرية مفرطة ضدّ العرب، وربما ضدّ أيّ شعب لا ينحدر من الغرب. وقد كشف هذا الاستهتار عن هشاشة القيم التي يدّعي الغرب احتضانها لها ورفع رايها وحرصه على ترسيخها بين الأمم، إلا إذا كان القصد أنه حريص على نفاذ هذه القيم مع أبناء جلدته فقط، ولا شأن له فيمن تبقى من سكان هذا الكوكب. إذا كان الأمر كذلك، فلماذا يدّعي الغرب المركزية العالمية وأنه هو الذي يمتلك موازين الأخلاق السياسية والاجتماعية، وهو الذي يصدر الأحكام على من يشاء وكيف يشاء؟ لا شك أنّ تخليّ الغرب عن الشعب الفلسطيني، بل ووقوفه بكل عدته وعتاده إلى جانب محتّلّ مستوطن مجرم شرس يرتكب أبشع أنواع الإبادة والتطهير العرقي بحق سكان أصليين يدافعون عن بقائهم على أرضهم، لا شك أنّ هذا التخليّ وهذا الموقف قد أصاب المركزية الغربية في الصميم وبرهن كما لم يحدث من قبل أبداً أنّ ثقة الشعوب المستضعفة بحكمة وعدالة ونزاهة هذا الغرب هي ثقة جوفاء لا أساس لها من الصحة، وأنه يجب سحبها وإعادة النظر الشاملة بالعلاقة مع هذا الغرب.

ومن خلال حرب الإبادة على فلسطين، اتّضحت أيضاً علاقة الغرب مع نفسه ومع جامعاته وطلابه وأساتذته ومفكره إذ أنّ الكلام عن الحريات والحقوق والمساواة مسموح طالما أنه بقي حبيس غرف الدراسة وكتابة الأبحاث على ألا يصدّقن أحد أنه يمكن تطبيق هذا على أرض الواقع، وكشفت تصرفات الشرطة والمؤسسات الأمريكية أن من يؤمن بتنفيذ هذا الكلام على أرض الواقع ويحاول ذلك مصيره الاعتقال والسجن والطرّد من الجامعة التي علمته القيم التي يحاول أن يبعث فيها الحياة ويمارسها في حياته اليومية وفي مواقفه من الأحداث.

ومع كلّ ما توضّح وتّضح خلال شهور من الإبادة والقتل والعنف اللذين لا يمتّان للصفات البشرية بصلة ومع كلّ الألم الذي اعتصر قلوبنا نحن الشهود العاجزون عن فعل شيء تحرّك كُتّاب عرب لدراسة هذه الظاهرة وتطرح الأسئلة الكبرى عن موقف المثقفين في البلاد التي طالما ادّعت أنّ تاريخها هو تاريخ التحرر والتنوير. ومهما كانت المبررات ومهما كان العقد الاجتماعي بين المثقف في الغرب والسلطات الحاكمة فإنه من الأهمية بمكان وخاصة في هذا الفصل التاريخي المؤلم والحاسم في آن وضع النقاط على الحروف دون مواربة أو خجل أو تخفيف وقع أو استرضاء، خاصة وأنّ الآلة الإعلامية الغربية برهنت في حرب الإبادة هذه على فلسطين سواء من خلال ما سمحت بنشره وهو النذر اليسير أو ما كتبه وهو الجزء الأعظم من مجريات الأحداث أنها آلة لا تقلّ أذى وتأثيراً وحشياً من الآلة العسكرية التي تفتك وتقتل وتدمّر.

كان من المهمّ جداً ونحن نعيش الأحداث القاسية المؤلمة أن نتابع ردود الأفعال الغربية والعالمية وأن نستعيد في الذاكرة كلّ المعارك الإعلامية الوهمية التي اختلقوها حول أكاذيب بثّوها هنا وهناك، وأن نكتشف موقنين هذه المرّة أنّ أسطورة الإعلام الحرّ في الغرب إنما هي أسطورة تمّ ابتداعها لتبرير وتسويق سياساته العدوانية واحتلاله وقمعه وقهره للشعوب، وأنّ هذه الأسطورة كانت دائماً هي الحامية للوجه الإنساني الراقي الذي يدّعيه ولحرصه على حقوق وحرية الإنسان، يستخدمها حيناً ويقمعها أحياناً بما يتناسب مع أهدافه الخارجية والداخلية، ولذلك نرى أنه يفتح أبوابه وعلى أمد غير محدود لمقتل امرأة إيرانية اسمها همسة أميني، بينما يتلعّ كلّ ألسنته وأدواته وهو يشهد قتل مئات آلاف الفلسطينيين وتدمير حياة ومنازل

ومؤسسات الملايين منهم، وتعرضهم للأمراض والجوع والفقر والبؤس دون أن يتحرّك ضمير أو أن تحتلج نبضة إنسانية في قلوبهم. ورافق مع هذا إعلان الفشل المطبق للنظام الدولي بحيث اتّضح بما لا يقبل الشكّ بعد اليوم أنّ النظام الدولي اليوم هو الولايات المتحدة وحين سمحت بكلّ هذا القتل والدمار فلم يتمكن حتى أبناء الولايات المتحدة الذين انتفضوا ضدّ هذا الظلم الشنيع من تغيير مسار الأحداث التي تتحكّم بها القلّة القليلة الحاكمة فقط.

بعد هذه التجربة القاسية التي لم تنته بعد، لا بدّ من التوصل إلى ركائز في التقييم والأحكام؛ ركائز نعتمدها نحن وأجيالنا المقبلة شرط أن تكون مستخلصة تماماً من أحداث الواقع وكلّ ما رافقها من سرديات وإعلام وتحليل وكتابات ومناظرات بحيث ننفض عن كاهل الأجيال المقبلة الخلط الذي تسبّب به الاستشراق وتلامذة المستشرقين من فوضى معرفية يكمن جذرها الأساسي قبل الاستشراق في حكومات الطغيان التي حرقت كتب ابن رشد وابن سينا وابن خلدون، بينما تلقّف الغرب هذه الدرر الثمينة، وبنى على أساس فكرها المبدع تطوّر المعرفي، وأعاد إنتاجها لنا في أدب استشراقي استعلائي يضع منتجي النسخة المؤدّجة من هذا الفكر في موقع السيد، وأبناء الضاد الأضلاء الذين وهبوا العالم كلّ هذه المعرفة في خانة التابع والعاجز عن استثمار مفكريه والبناء على ما قدّموه من إبداع كان حرباً بالعرب أن يستخدموه رافعةً لمكانتهم ودورهم بدلاً من إحراقه والدخول من بعد ذلك في غياهب الظلمات لقرون تلت.

في هذا الفصل التاريخي الهام، يأتي هذا الكتاب: «المثقفون الغربيون

وأحداث غزة: قراءة في موقف الأنتلجنسيا الغربية من القضية الفلسطينية « ليقدم شهادة، أمل ألا تكون عابرة في العلاقة بين مثقفي الغرب والشرق، وأن يبنى عليها فيما سيليها من دراسات بهذا الصدد.

حسناً فعل الأستاذ إدريس هاني حين سرد للقارئ في مقدمة بحثه تجربة إدوارد سعيد مع سيمون دي بوفوار وجان بول سارتر وانقشاع الوهم لدى إدوارد سعيد عن حيادية وعالمية هذين الكاتبين والمفكرين حيث أن كل ما أرادت سيمون دي بوفوار الحديث عنه هو موقفها ضدّ الشادور الإيراني وضدّ الحجاب، وكلّ ما أراد سارتر الحديث عنه هو تمجيد السادات واتفاقية كامب ديفيد. لقد كشف إدريس هاني وفيصل جلول في مطلع هذا الكتاب عن الوهم الذي اعترى المثقفين العرب بأنّ المثقف الغربي هو مثقف عالمي وحيادي ويضع الأمور في نصابها الصحيح بغضّ النظر عن توازن القوى بين بلاد الغرب والشرق، أو أنه فوق كلّ التجاذبات السياسية التي نشأ وترعرع عليها في مدرسته وجامعته ومحيطه الفكري والسياسي، ولكن موقف الفلاسفة أو المثقفين الغربيين من طوفان الأقصى ومما جرى في غزة وفلسطين بعده يُري أنّ ما قامت به حماس من ردود فعل على احتلال استيطاني مهين قد تمّ وصفه من قبل هؤلاء وعلى رأسهم هابرماس وزملائه بالهمجية والعنف بينما استمرّت حرب الإبادة من قتل وتدمير وتجويع وإرهاب غير مسبوق لمدة أشهر دون أن يتجرّأ أحد من هؤلاء الفلاسفة والمفكرين على اتّخاذ موقف صريح وجريء ضدّ هذا العدوان الذي لا مثيل له في عصرنا الحديث.

وهنا لا بدّ لنا من أن نتوقّف ملياً عند عدد من الحقائق الهامّة:

١ - إنّ معظم المثقفين العرب تلامذة نجباء لأساتذتهم الغربيين، آمنوا فعلاً بما يدّعيه هؤلاء الغربيون بأنهم أجداد وآباء عصور التنوير، وأنّ أهداف بلدانهم في استعمار الجزائر وأفريقيا ودول في آسيا هو انتشار هؤلاء من قمقم التخلّف ونشر المعرفة والحضارة لديهم، وهذا بحدّ ذاته منتج طبيعي من نتائج الاستشراق الذي عكف على دراسة فلاسفتنا ومبدعينا العرب، وادّعي لنفسه التفوق العلمي والمعرفي، بينما أظهر المنتج العربي كتابع فقط للمنتج الغربي لا يمكن له أن يساويه أو يطمح أن يكون نظيره في أيّ ميزان. ورغم مرور قرون على الدراسات الاستشراقية المجحفة بحقّ تاريخنا وثرواتنا الفكرية والفلسفية القيّمة لم نشهد في عالمنا العربي حركة تأصيل حقيقية تعيد لابن رشد وابن سينا وابن خلدون وغيرهم مكانتهم الصحيحة، ليس فقط في تاريخنا وإنما في تاريخ نهضة الغرب وبزوغ عصر التنوير فيه.

٢ - إنّ علاقة الغرب بالكيان الصهيوني مختلفة تماماً عن علاقته بأيّ استعمار آخر في أيّ بقعة من بقاع الأرض، ذلك لأنّ هذا الكيان يعتبر قاعدة متقدّمة للغرب في الشرق الأوسط، ولأنّ التدخل بين مكوّنات هذا الكيان والمكونات المجتمعية والسياسية في الغرب متداخلة إلى حدّ التماهي.

كما أنّ وجود هذا الكيان ضروري للغرب من أجل بسط سلطته على مقدّرات الدول العربية ونهب ثرواتها تحت مسمّيات وغطاءات مختلفة، وتمكين القوى الاستعمارية الغربية من ولوج أبواب تضمن لهم استمرار

تدقق النفط واستمرار التبعية العربية للغرب واستمرار هيمنة الغرب على القرار العالمي.

وفي هذا الصدد من الخطأ الظن أن هؤلاء المثقفين الغربيين لديهم من الموضوعية والحيادية والصفات العالمية ما يؤهلهم لقول كلمة الحق في صراع تعتبره بلدانهم مصيرياً لاستمرار قبضتها، ليس فقط على فلسطين والمنطقة وإنما على الإرادة الدولية. لقد عشنا جميعنا تعامل الحكومات الغربية مع تمرّد طلاب وأساتذة الجامعة ضدّ حرب إبادة مخزية وشنيعة، ومحاولتهم الوقوف مع الضحية الفلسطينية والانتصار لها، وكيف تمّ سحل أساتذة وعمداء كليات وطلاب ورؤساء أقسام، والتحقيق مع رؤساء الجامعات التي تعتبر فخر الأكاديمية الأمريكية وكأنهم لصوص صغار أو مجرمون يقبعون في قفص الاتهام بعد إثبات التهمة عليهم، حيث تمّ إجبارهم بعدها على الاستقالة. وليس هذا فقط، بل تمّ تشويه سمعتهم الأكاديمية على أنهم لا يستحقون هذا المنصب العلمي الذي شغلوه وأنهم احتلوه للأسباب الخطأ. لذلك أرى وصف الأستاذ فيصل جلّول لهم بأنهم كلاب الحراسة في الداخل وكلات الصيد في الخارج هو وصف دقيق. وأنّ من يشدّ منهم عن الدور المرسوم له والمطلوب منه يتمّ عزله وتهميشه بشتى الوسائل. ومن الصحيح أيضاً أنّ هذا الموقف الاستعلائي العنصري الغربي ليس وليد اليوم، ولكنه يتجذّر في الأدب الغربي وكل المنتج الفكري الغربي الذي ينظر للجنوب برمته ولذوي السحنة الداكنة أنهم أقلّ ذكاء وأقلّ إمكانات، وربما أقلّ إنسانية من الذين حظاهم الله أن يولدوا في بلدان الغرب بسحنة بيضاء وعيون ملوّنة.

ولكنّ هذا الاستعلاء والاستقواء الغربيين تمكّنا من الاستمرار كلّ هذا الوقت بسبب عوامل الضعف والتشتّت التي زرعوها بين ظهرانيها، والتي لم نمتلك ما يكفي من الحكمة والعقل كي نجبطها ونطوّر آليات العمل الضامنة لتغيير ميزان القوى لصالحنا، خاصةً وأننا نحن الذين نمتلك الثروات التي نهبها لبناء امبراطورياتهم وتصنيع أسلحتهم ومن ثمّ الإجهاز علينا بطريقة تضمن لهم استمرار عوامل قوّتهم وتشظي وجودنا الذي يضمن لهم استمرار ضعفنا واستمرار قدرتهم على احتلال واستيطان أرضنا وخوض الحرب تلو الأخرى لتهجيرنا من هذه الأرض، وبناء مستقبلهم على أنقاض وجودنا.

إنّ النظام السياسي والمعرفي الغربيين قد تشكّلا لخدمة وجود واستمرار الغرب الاستعماري ذاته، وليس لخدمة القضايا العالمية كما يدّعون. إذ ليس هناك في الغرب ما يمكن وصفه بالعالمية فعلاً إلا إذا أردنا أن نوافقهم أنهم العنصر الأنقى وأنّ كلّ ما هو غربي يكتسب بطبيعته صفة العالمية ولا يمكن لسواه أن يرقى إلى مثل هذه الصفة. وقد برهن النظام الدولي برمّته في حرب الإبادة المشينة على غزّة أنه عاجز أن ينصف طفلاً أو امرأة أو يأمر بإطعام جائع في غزّة، وبهذا فقط سقط ما يسمونه «النظام الدولي» وأسقطت عنه صفة الدولي تماماً ليصبح نظاماً غربياً استعمارياً فقط يسهر على مصالح الغرب وحمايته وعلى ترهيب كلّ من يقف في مواجهته، ويضمن امتثال الإرادة العالمية له من خلال استخدام الحروب والقتل والتدمير والإرهاب ونشر الأوبئة أدوات فعّالة لإخضاع إرادة كلّ الشعوب الأخرى، مع الحفاظ على أدوات إعلام وترويج يبرّران كلّ ما يرتكبه الغرب ويعطيانه لبوساً حضارياً وإنسانياً يعمل المثقفون الغربيون من خلاله على تعزيزه واستمراريته. وهذا ليس دوراً جديداً للنخبة الغربية، وليس متناقضاً مع دورها في الماضي ولكن

شدة الأحداث بعد طوفان الأقصى ووضوح ما يجري على أرض الواقع من ظلم لشعب أصيل كشف حقيقة المواقف الغربية السياسية والإعلامية والفكرية، وبرهن أن الانتقائية الغربية تجهز على كل من يهدد مكانتها المتفوقة في العالم تحت مسميات مختلفة من التحرر إلى الحقوق إلى الادعاءات الإنسانية لصالح أقلية هنا أو فئة هناك.

إن صمود بضعة مقاومين محاصرين براً وبحراً وجواً في وجه كل الترسانة الغربية العسكرية على مدى عشرة أشهر قد برهن أمرين اثنين بالغي الأهمية:

١- إن الأسطورة التي نسجها الغرب وقاعدته المتقدمة، المتمثلة بكيان الأبارثيد الصهيوني، عن قوتهم التي لا تقر وجيوشهم التي لا نظير لها قد سقطت بحث تمكنت حركات مقاومة محاصرة من إشغال هذا الغرب وقاعدته وإلحاق الخسائر به.

٢- برهنت المقاومة سواء من خلال تعاملها مع الأسرى الإسرائيليين أو من خلال كل تحرّكاتنا أنها الأعلى والأنجب أخلاقياً وأنها هي التي تمثل المثل الإنسانية العالمية بينما برهن الغرب على نفاق مخز بين ما يدّعيه من جهة وبين الإجرام اللامسبوق الذي هو مستعدّ على دعمه وارتكابه من جهة أخرى. ومن هذا المنظور قد يكون طوفان الأقصى والدماء البريئة الطاهرة الزكية التي سُفكت على أرض فلسطين ولبنان وسورية واليمن والعراق هي النار التي صهرت المعادن لنكتشف الغثّ من السمين مرةً وإلى الأبد، وكى نعيد قراءة تاريخنا والتاريخ الذي سطرّوه لنا، ونعيد تأصيل مورثاتنا والبناء عليها وفق مصالح شعوبنا النيلة، وبعيداً عن الغبار الذي ذرّوه في

العين ونتج عنه رمد مازال يغطي الأبصار لأجيال وأجيال.

يتفق معظم الكتاب في الجزء الأول من هذا الكتاب على انكشاف حقيقة الأنتلجنسيا الغربية وأنها أسيرة الأنظمة السياسية التي ترعرت في أحضانها، وأنها إما لم تؤمن باتخاذ موقف يناقض التوجهات السياسية لبلدانها، أو أنها لم تجرؤ على فعل ذلك نتيجة الترهيب المادي والمهني والمجتمعي لها، وفي هذه الجزئية تنتفي صفة الديمقراطية عن هذه الأنظمة وتظهر على حقيقتها الاستبدادية مغلفة بقفازات الحضارة وحرية الرأي والديمقراطية. وأما النزر اليسير من الذين عبّروا وحاولوا إعلاء صوت الحق في مجتمعاتهم فقد تمّ عزلهم أو تشويه مواقفهم وسمعتهم وتهميش أدوارهم في مجتمعاتهم. هنا من المستحسن أن نتذكّر السردية الغربية حول الأدب الملتزم خلال الحرب الباردة؛ فقد كان الغرب يتهّم الأدب الملتزم الصادر عن الكتلة الاشتراكية أنه لا يرقى إلى مصاف الأدب العالمي، حيث احتكر الغرب لنفسه صفة «العالمية» على كلّ الصعد، وأنّ معيار العالمية يحدده الغرب الذي يعبر أدباؤه ومفكروه عن آرائهم بحريّة مطلقة وبغضّ النظر عن وجهات نظر أنظمة بلدانهم السياسية. اليوم ونحن نواجه المفكرين الغربيين والذين بدا واضحا من كلّ ما اطلّعنا عليه ومن خلال هذا الكتاب الذي بين أيدينا أنهم أكثر من ملتزمين بما تقرّه حكوماتهم ولكن مع تغطيات إعلامية وسردية تخلق وهما بحرية الرأي أو تقدّم نماذج عن دعمهم لحرّيات في بلدان كلّ ما يريدونه لها هو تغيير التفكير والعمل والمقاربة بحيث تصبح هذه البلدان تابعة للمركزية الغربية، ولذلك فهم يلتحفون غطاء حقوق الإنسان والحرّيات وحقوق المرأة والطفل فقط من أجل التوصل إلى أهداف سياسية خبيثة تقوّض الاستقلال الوطني وتضمن التبعية لهم. في هذا الصّد، فقد كان ما جرى

في غزة وفلسطين أهم وأظهر اختبار لصدق الأقوال ومطابقتها للأفعال، هذا الاختبار الذي سقط به الغرب، حكومات وإعلاماً وسرديات، سقوطاً مدوياً بحيث لا بد وأن تشكّل الأشهر التالية لطوفان الأقصى وكل مجريات الأحداث على كل الصعد مفرقاً جوهرياً لا يشبه بعده ما كان قبله. وفي هذا المنحى آمل أن يشكل هذا الكتاب ليس فقط نقداً للأنتلجنسيا الغربية وإنما أسساً واضحة ومتمينة لمقاربة مختلفة مزدوجة: لتاريخنا وأساليبنا من جهة، ولعلاقة الغرب الحقيقية بالشرق والجنوب من جهة أخرى خاصة وأن المشاركين في هذا الكتاب قد تناولوا بالتحليل والدراسة والنقد المدارس الغربية الفكرية وعلاقة الفلاسفة والمفكرين الغربيين بهذه المدارس من جهة، وبارتدادات تاريخ أحداث الهولوكوست على عدد منهم كان منخرطاً مع النازيين وبات عليه أن ينظّف اسمه من هذا الإرث من خلال الانحياز الكامل والمطلق للصهيونية وتجاهل الحق الفلسطيني تحت مسميات مختلفة. كما ناقشوا في أبحاثهم القيمة العلاقة العضوية بين المشروع الصهيوني في المنطقة والأطروحة الأمريكية كما فندوا غياب منظومة دولية حقيقية رادعة للاستيطان والاحتلال وعدم إمكانية التوصل إلى قرارات منصفة للفلسطينيين على مدى عقود بسبب الانحياز المطلق للولايات المتحدة لهذا الكيان واعتباره حالة خاصة ذات صلة وثيقة بأمن ووجود الولايات المتحدة الصهيونية نفسها. وبالفعل فقد برهنت حرب الإبادة التي ارتكبتها الصهيونية في غزة وفلسطين منذ أكتوبر ٢٠٢٣ على أن هذا الكيان يكاد يكون الوحيد في العالم الذي لا ينطبق عليه قانون أممي ولا يخضع لأي محاسبة أو ردع مهما فعل. وكما يشرح بعض الكتاب في هذا الكتاب، فإن موقف معظم المفكرين في الغرب هدفه عدم إلحاق الأذى بالمنظومة الغربية وسمعتها، وليس اتخاذ

مواقف جريئة وحاسمة في الدفاع عن حقّ الفلسطينيين في أرضهم وحقّهم في الحياة.

تظهر هذه الدراسات القيّمة أنّ ادّعاء النخبة الغربية العالمية والكونية قد سقط فعلاً في اختبارات عملية وحقيقية، وأنّ هذا الادّعاء كان مجرد غطاء من أجل تسويق المركزية الأوروبية الغربية والتي سعت على مدى قرون لتقديم نفسها على أنها الأنموذج الأفضل والأكثر التصاقاً بحرية وحقوق الإنسان حيثما كان، كما عمل فرع الدراسات الاستشرافية لهذه المركزية على تكوين صورة الآخر عن نفسه، أيّاً كان هذا الآخر، في الشرق والجنوب بأنه عاجز عن الارتقاء إلى الحالة الغربية «الكونية» وأنّه يفتقد المقوّمات الأساسية الجينية والفكرية التي يمكن أن ترتقي به إلى هذا المستوى. وللأسف فإنّ هذه المدرسة الاستشرافية قد أثرت في أفكار وأعمال النهضويين والمحدثين في مجتمعاتنا وبشكل ما شكّلت عائقاً طبيعياً في درب مفكرينا للعودة إلى الأصول وإعادة قراءة وتفسير إرثنا الثقافي والفكري والفلسفي باستقلالية كاملة عن آراء وانحيازات المستشرقين. ذلك لأنّ صورة الغرب عن نفسه بأنّه الأرقى والأكثر موضوعية والكونية بامتياز قد اخترقت كلّ طبقات تفكير الآخر بحيث أصبح من الصعب عليه اختراق هذه المعادلة أو إثارة أسئلة جذرية عن ماهيتها وصدقها وبراهينها في الإنتاج الفكري الغربي.

من هذه المنظور يمكن لنا أن نقول أنّ الإصدارات الإعلامية والفكرية ومواقف المفكرين الغربيين الذين كانوا يؤخذ بحياديّتهم في أمثلة أخرى، قد برهنت بعد حرب الإبادة في غزّة أنها ملتزمة بالمفاهيم الفكرية والحقوقية

والسياسية التي ينسجها السياسيون المتصهينون في الغرب والتي يعتبر الدور الإسرائيلي متماهياً معها. ولم لا ضمن واقع لم يقبل العرب جميعاً على استخدام أدنى وأبسط الأدوات التي يمتلكونها للضغط على الكيان وأسياده لإيقاف هذه المجازر المشينة.

وهنا لا بدّ من التطرّق إلى فكرة في غاية الأهمية وهي أنّ أنتاج المعرفي في أي مجتمع مرتبط ارتباطاً وثيقاً بهيئة هذا المجتمع ودرجة تطوره، وبما أنّ الحكومات والمجتمعات العربية لم تعبّر عن مؤازرة جوهريّة ورادعة مع فلسطين وشاهدوا إعلاميهم ومفكريهم وأطبائهم في غزّة وهم يستشهدون بالعشرات والمئات والآلاف فإنّ هذا لا يعني فقط أنهم خذلوا الفلسطينيين ولكنه يعبر أيضاً عن خذلان داخلي وعجز عن قراءة الصورة بوضوح وتقديم رؤية لما يمكن أن يكون بالانتظار في المستقبل من الأيام، بل ويمثل تغلغل الصهيونية إلى المواقف العربية ذاتها.

لا شكّ أنّ الإنتاج الفكري الضئيل على المستوى العربي قد كان عاملاً مساهماً في الاستناد على الفكر الغربي المتصهين وإنتاج المستشرقين، وهذا بدوره شكل عاملاً آخر في إعاقّة التأسيس والانتقال من المركزية الغربية إلى مركزية فكرية عربية تستخلص الدروس من تراث الفلسفة والفكر والإبداع العربي وتعيد إحياءه في المناهج الدراسية بحيث ننتهي من مرحلة التغريب للشباب العربي الذي يشكّل الانتقال للغرب أولى أولوياته ليتمكن من الإبداع وتحقيق المستوى العلمي والفكري اللذين يطمح إليهما.

لا شكّ أننا نتحدث هنا عن عقود من إهمال وامتهان الثقافة والفكر والفلسفة وحتى لغتنا العربية الجميلة على مستوى الوطن العربي برمّته ومن

اضطهاد حركة الكتاب بين البلدان العربية ومن عدم التعامل مع النخب بما تستحق من مكانة ودور في إعلاء المجالات التي أبدعت وحقت تميزاً بها، ولا شك أيضاً أنّ عكس هذا التيار إلى تيار آخر مختلف تماماً يحتاج إلى خطوات وإجراءات وآليات جريئة تبدأ أولاً في تشخيص الواقع العربي برمّته دون خجل أو وجل، وتضع تحت المجهر كلّ الظروف التي تسببت في هذه الانحدار الذي نشهده، ومن ثمّ تحديد الخطوات الحكيمة التي يجب اتخاذها كي تشرع المجتمعات والمؤسسات العربية في بناء مختلف تماماً عن الواقع المعاشي.

كما أنّ الانحدار الذي استغرق عقوداً حتى يصل إلى هذه النقطة فإنّ انبعاث واقع جديد مغاير سيستغرق وقتاً أيضاً ولكن مسافة الألف ميل تبدأ بخطوة. أهمية هذا الكتاب الذي بين أيدينا في هذا المضمار هو أنه تناول مواقف وجذور وأصول وأهداف الأنتلجنسيا الغربية وعلاقتها الحقيقية بالنخب العربية والقضايا العربية وحقيقة مواقفها من هذه القضايا. ويتضمن الكتاب بين دفتيه دراسات وازنة لمفكرين عرب من معظم أقطار الوطن العربي تناولوا بالدرس والتمحيص كلّ النتائج التي درجت بعضاً منها في هذه المقدمة والتي يمكن الاعتماد عليها بالفعل لإحداث نقلة نوعية في المقاربات الفكرية العربية وعلاقتها مع الأنتلجنسيا الغربية من جهة ومع ذاتها وتاريخها وضرورات مستقبل أمتها من جهة أخرى.

ويبقى السؤال الذي أرغب بطرحه على المؤلفين والقراء على حدّ سواء: إلى أيّ حد ساهمت شعوبنا وساهم مفكروننا من حيث يعلمون أو لا يعلمون في تعزيز المركزية الغربية، وإعطاء الأنتلجنسيا الغربية صفة الأهمية والكونية

التي ادّعتها لنفسها. وأقرب مثال في هذا الكتاب هو المساحة التي حظي بها برنار هنري ليفي ويورغن هابرماس؛ فبالنسبة لي يمثل برنار هنري ليفي أنموذج الغربي المتصهين والعنصري ضدّ العرب والعروبة والعامل بكلّ ما أوتي من قوة لتقويض عوامل الاستقرار والازدهار في المجتمعات العربية. وبما أنه كذلك، كما برهن من خلال عمله الحثيث والمنقطع النظير للترويج للربيع العربي وإذكاء أواره، فلا يعنيني فكره على الإطلاق ولا فلسفته، ولا الإبداعات التي يدّعيها ولا يستحقّ أن تغرّد له صفحات لاكتشاف جوهر فكره ووضعها في الميزان كي نصل إلى الخلاصات السليمة. والأمر ذاته ينطبق على يورغن هابرماس الذي اتخذ موقفاً عدائياً للشعب الفلسطيني من خلال تأييده حرب الإبادة وتجاهل التاريخ الاستعماري المشين الذي قاد إلى عملية طوفان الأقصى. وإذا كان هابرماس، حسب رأي عود لشهب القارئ المغربي، لا يمثل تاريخ الفكر الألماني الحديث إلا فاصلة وضعت بالخطأ فلماذا كلّ هذا الاهتمام به والدراسات حوله. وها هو برنار هنري ليفي يثبت مرة أخرى وبعد الربيع العربي أنه صوت رخيص تستخدمه الإمبريالية الغربية حيث تشاء وتعطيه غطاء الفكر والفيلسوف يستهدف هذه المرة الرئيس فلاديمير بوتين واصفاً إياه بالإمبريالية الغربية بينما لم يوجه هو ولا غيره من المفكرين الغربيين قرار دول الناتو المجتمعة في واشنطن قبل أيام بتخصيص مئات المليارات للحرب في أوكرانيا وتزويد أوكرانيا بأسلحة تصل الوسط الروسي كما لم تقم أي دولة من هذه الدول باتخاذ موقف واحد مشرف ضدّ حرب إبادة أقل ما يقال عنها أنها مخزية ووصمة عار في جبين البشرية في هذا القرن. وأنفق تماماً مع الكاتب محمد المغروز في الردّ على بيان مبادئ التضامن للفيلسوف هابرماس:

«أظنّ أنّ الوقت حان لخلق مسافة نقدية مع فلاسفة الغرب بالاجتهاد في خلق منظومة فكرية وفلسفية عربية مضادة لشناعة تبرير همجية إسرائيل من داخل التداول الفلسفي الغربي وأن وزن المعرفة بميزان المعرفة فقط وإهمال وزنها بميزان السياسية والإيديولوجيا خطأ تاريخي ومعرفي قد تمّ ارتكابه ولم نحن معه إلا اننا كنا طلاب نجباء نردّد بزهو ما تعلمناه منهم في الفلسفة والعلوم الإنسانية، ونسينا أن المعرفة إذا لم تكن إنسانية تنتصر للقيم الثابتة للبشرية، تبقى مجرد لغو وهذيان.»

في هذا الإطار ادعى الغرب أن المعرفة لديه مجردة عن السياسة والمواقف السياسية وأن مفكره أُمّيون وحياديون وكونيون يزنون الأمور بالقسط المستقيم ولا يعترى أحكامهم الباطل من بين يديهم أو من خلفهم. ولم نكن ندرك من قبل أن هذا الغلاف البراق هو مجرد أداة من أدوات عمل الغرب لفرض هيمنته على إرادة وفكر وإنتاج الآخرين. ولهذا فإن الاستنتاجات التي تمّ التوصل إليها في هذا الكتاب هي استنتاجات هامة يجب التوقف عندها والعمل على أفراد مساحات لها وإغنائها في دراساتها الجامعية ورسائل الماجستير والدكتوراه التي يمكن أن تستلهم المواضيع الجديرة بالبحث والتمحيص بعد طوفان الأقصى كما لم يحدث من قبل.

لقد أدخل يورغن هابرماس وزملاءه في البيان المشترك: «مبادئ التضامن في إعلان موقفهم من الحرب على غزّة أنّ كلّ ما جرى قبل السابع من أكتوبر ضمن ما قبل التاريخ، ليعتبر أن تلك البداية التي ينبغي أن يعلن بصدها مبادئه ليهتدي بها ويعلن تخوّفه من معاداة السامية. بعد كل ما جرى في غزّة وبعد ردود الأفعال الغربية المخزية التي لم تُقم حياة الفلسطينيين وزناً

على الإطلاق حريٌّ بنا أن نعتبر العلاقة السابقة مع الغرب ومفكره علاقة ما قبل التاريخ لأن هذا التاريخ الذي بدأ بعد السابع من أكتوبر بسحق إنسانية الفلسطينيين بأشنع صور ممكنة مع سابق تصميم صهيوني معلن على الإبادة الكلية للمدنيين في غزة ومن ثمّ تقول هؤلاء المفكرين والفلاسفة الغربيين عن خوفهم من انتشار معاداة السامية لأمر يستحق وقفة جذرية لا تشبه غيرها من الوقفات. لا شك أنه يستحق بدء صحيفة جديدة تماماً في الإنتاج الفكري العربي المتعلق بتقييم الأنتلجسيا الغربية المتصهينة وتصنيفها بما يستحقّ وبما برهنت أنها تمثله في أدق الظروف وخطّ أسلوب جديد تماماً في جامعاتنا العربية للتعامل المبدئي والمنهجي مع هذا الموضوع.

إنّ الفصل الثاني من الكتاب «طوفان الأقصى الحثيات والمآلات» يبدأ وبشكل عفوي وجميل المسار الذي اقترحته للتوّ في هذه المقدّمة للدارسين والمفكرين العرب؛ إذ إنه يقدّم قراءة دقيقة لحقيقة وأهمية ما جرى في ٧ أكتوبر خاصة حين نأخذ بالاعتبار هيمنة السردية الغربية على الإنتاج الفكري والإعلامي المتداول ومسرحة الحدث من قبل كلّ الدول الغربية التي تداعت إلى الكيان للتعبير عن وقوفها مع هذا الكيان العنصري المعادي لكلّ القيم الإنسانية، ولترهيب كلّ من تسوّّل له نفسه بالوقوف ضدّه ولتضخيم حدث ٧ أكتوبر واختلاق الأكاذيب حول ما جرى بحيث يتمّ تبرير القادم من العنف الوحشي والإبادة والتصميم ليس على القضاء على حماس، كما ادّعوا في كل إعلاناتهم، بل القضاء على كلّ ما هو فلسطيني مع مؤازرة غير مسبوقة لصمت دولي وانحياز مجلس الأمن والأمم المتحدة برمتها للمعتدي ضدّ المعتدى عليه بعد رفع شعار حقّ إسرائيل في الدفاع عن نفسها؛ أي حرمان الشعب الفلسطيني من حقه في تقرير المصير.

بينما عبر الفلسطينيون عن نكبة ثانية أمرّ وأقسى يعيشونها فإنّ ما خططت له الصهيونية في غزّة هو أبعد من نكبة وأكبر من كارثة بعد أن وصف مسؤولوها الفلسطينين بالحيوانات البشرية، وتمّ إشغال سرديّة معاداة السامية والبكائية الصهيونية خاصة التغطية على جرائم الإبادة، رغم أنّ المقاومة قد تفوّقت أخلاقياً وميدانياً على جيش متوحّش مدعوم من قبل الدول الغربية بأحدث أسلحة الدمار، بينما تستخدم المقاومة أدواتها البدائية البسيطة مسلّحة بإيمان بالله والأرض والنصر. وبهذا فقد كشفت هذه المقاومة التي شغلت كيان الأبارثيد الصهيوني أكثر من عشرة أشهر في أطول حرب خاضتها، كشفت زيف كلّ ما يدّعيه الكيان والغرب الداعم له وكل ما بثّه في أذهان الآخرين على أنه حقيقة لا غبار عليها لنكتشف جميعاً حجم الأكاذيب والأوهام التي نسجوها لإحباط الآخرين ومحاولة كسب المعركة قبل أن تبدأ. يقول الدكتور عبد الحسين شعبان في القسم الثاني من الكتاب: «إن عملية طوفان الأقصى وردّ الفعل الإسرائيلي إنما هي صفحة جديدة مهمة في صراع الإرادات والعقول حيث تكون المطاولة فيها متنوعة ثقافياً وقانونياً ودبلوماسياً وإعلامياً واقتصادياً وعسكرياً ونفسياً. حيث لا تنتهي المعركة بجولة واحدة لأنها طويلة الأمد، ولكن النتيجة لن تكون إلّا لصالح الشعوب مهما طال أمد الصراع». وأضاف إلى ما قاله الدكتور شعبان: إن نتائج هذه المعركة الفريدة من نوعها في العصر الحديث لن تكون محصورة بوقتنا الراهن ولا بالصراع فقط بين الفريقين المنشغلين على أرض المعركة، بل إنّ ارتداداتها ستكون عالمية وستغيّر من مستقبل البشرية وقد تودي هذه الارتدادات إلى أبعاد أكبر بكثير من حجم المعركة وقد لا تخطر لأحد على بال.

إحدى النقاط الهامة التي كشفتها حرب الإبادة الصهيونية الغربية على غزة هي أن كل التنظيمات الإرهابية التي عاثت في الدول العربية قتلاً وتدميراً باسم حماية الإسلام والمسلمين خلال الربيع العربي وأصدرت كل أنواع الفتاوى من أجل تخريب البنى الأساسية للدول لم تحرك سامناً في الدفاع عن حماس والفلسطينيين والمقاومة الإسلامية في غزة ولبنان واليمن، وهذا يكشف زيف ادّعائهم بعلاقتهم بالإسلام والمسلمين بل أنهم مجرد عملاء صغار في حرب الغرب المتصهين ضدّ العرب، وأنهم اتخذوا من الإسلام غطاء لتشويه صورة الإسلام في نظر العالم ولشقّ الصفوف في العالم العربي وإيهام البعض أنّ هؤلاء ذوو قربي ولا يمكن محاربتهم بينما استخدمتهم القوى الغربية الصهيونية ومازالت أدوات لها في استهداف العروبة والإسلام في منطقتنا.

لا شكّ أن نتائج صمود الشعب الفلسطيني الأسطوري في وجه كلّ القوى الغاشمة الغربية المتصهينة سيغيّر مسار التاريخ ولن تقتصر النتائج على ما سوف يحرزّه الفلسطينيون ومحور المقاومة من هذا الصمود، وها هو اليوم رغم أن المجازر ما زالت مستمرة في غزة بتشكّل العالم من جديد بعيداً عن الإرادة الغربية المتهاكمة للظالمات للجنس البشري برمته. إن الإجراءات التي اتخذتها الحكومات الغربية بحقّ من طالب بإيقاف المجازر وارتكازهم إلى مقولات فاقدة الشرعية كمعاداة السامية وتسخير النظام الدولي برمته لخدمة المعتدي ضدّ المعتدى عليه لن تمرّ في التاريخ دون أن تحدث زلزالاً عاجلاً أو آجلاً في التقييم العالمي لما جرى، وفي تصرّفات الدول وتحالفاتها وفي نظرة العالم برمته للغرب المتصهين الذي كان هو والكيان الصهيوني أكبر الخاسرين؛ فقد خسروا مصداقيتهم وخسروا ثقة العالم برمته وها هي

القوى الصاعدة من روسيا إلى الصين والهند وأفريقيا وأمريكا الجنوبية تتخذ الخطوات الضرورية والهامة لتغيير شكل العالم الذي نعيش فيه والأسس التي تتحكم بمعاييره ومساره. إن جرائم هذا الحجم لا تظهر نتائجها مباشرة وإن صموداً واستبسالاً بهذه الفريدة لا تحسب نتائجه بالأيام والأشهر، ولكن الحقيقة المؤكدة هي أنّ العالم بعد طوفان الأقصى لن يكون كما كان قبله.

يُسعدني أن المفكرين في الجزء الأخير من الكتاب ركّزوا على صناعة الرأي والمواقف وعلى استغلال الصهيونية للغرب والهلوكوست لارتكاب جرائم بشعة ضدّ الإنسانية بينما يرفعون شعار جرائم معاداة السامية والتناقض الملموس بين تنظير المفكرين الغربيين في الفضاء العمومي وبين وقوف معظمهم مع الإبادة والقتل والدمار وما هي مسؤولية المفكرين العرب في التصديّ لهذه السرديات وخلق سرديات واقعية وذات مصداقية. كما طرحت أسئلة جوهرية وهامة حول كيفية التصدي لمواقف المفكرين المؤثرين في صناعة الرأي العام وكذلك التصدي لأصحاب القرار. إن أهمية ما تكشف خلال الحرب الصهيونية على غزّة سواء للرأي العام العالمي عن فشل المنظومة الدولية وكذب السرديات الغربية يجب أن يشكّل أساساً لإعادة قراءة الواقع والأدوات والقطاعات التي يجب إعادة النظر بها كلياً من أجل كتابة تاريخ مختلف يليق بصمود أهل فلسطين وتضحياتهم التي تجاوزت كلّ القدرات البشرية المعهودة ويليق بجبهات الإسناد والمقاومة التي آمنت بهؤلاء المقاومين وبالحق وحتمية انتصاره. لقد بذل الفلسطينيون والمقاومون في جبهات الإسناد دماء طاهرة زكية لإيمانهم الأكيد أننا هنا وأننا سنكمل الدرب على المستويات كافة بطريقة والتزام يليق بصمودهم وإيمانهم وتضحياتهم.

بين يدي الكتاب

ادريس هاني

هذه المرة تفوّقت الشعوب الغربية على نُخبها، إنّما تبدو ظاهرة فريدة في حقبتنا الموسومة بالنزاعات المركّبة والخيارات السورالية. ما الذي يجعل المثقف في بلاد التحرر هو الأكثر ارتعاباً من التعبير عمّا يمليه الضمير، متى تعلّق الأمر باحتلال مُبتدؤه وعدّ انتدابي وخبره عنفٌ احتلالي؟ ما الذي تغيّر في تاريخ الأفكار الغربية، في تاريخ التحرر والتنوير وعهد التضامن والأنسنة؟ هل حقاً الغرب ينهار في صمت؟ هل هو انحطاط الغرب غير المُعلن؟ حتى أولئك الذين ذهبوا مذهباً في الاجتماع، يقوم على النقاش العمومي المفتوح، التّفوّا منذ السابع من أكتوبر على كل القيم والمواثيق الدّولية، ليحدّثونا عن أفكار بدت للغادي والبادي انتهاكا سافرا لكلّ الأساطير المؤسسة للاستعمار وسياسة التّدخل الدّولي. لقد كان الثمن الباهض لهذا الانحياز المفرط للاحتلال، السقوط المدوّي لمصادقية القانون الدّولي، الذي أظهر عجزاً كبيراً أمام سطوة السياسات الدّولية. إنّ محتوى العهود والمواثيق

الدولية كانت دائما تزرع الأمل في وجدان الأمم والشعوب، لا سيما تلك التي ارتهنت للمنظومة الثالثة، غير أنّ الحرب على المجموعة البشرية في غزّة، التي تسكن حيزاً جغرافياً محدوداً بكثافة سكانية رفيعة، حرب الإبادة الكاملة الأركان، لم تضع الاحتلال وحده في مأزق، بل جعلت النظام الدولي نفسه في مأزق كبير أيضاً.

في هذا العمل، نسجّل موقف المثقف العربي تجاه موقف المثقف الغربي، الذي أظهر هشاشة تحيل إلى بنية ثقافية مرتتهن لحسابات إمبريالية مشهودة. لم تترك غزّة فرصة لانبعاث أفكار تضليلية صعبة التحليل، بل لقد داهمت الضمير العالمي، ووصل معها الإسفاف الدولي ذروته.

كان هذا القدر من المشاركة في هذا الكتاب نابع من استعجال إخراج هذا العمل كوثيقة تاريخية، تُخلّد هذه اللحظة من انهيار المعايير وازدواجيتها وسقوط الانتلجونسيا الغربية، نتحدث هنا عموماً وتغليبا، دون أن نتجاهل موقف طيف منهم خلق الاستثناء، وهم قلة لا تغيّر تقليد الأغلبية. وطبيعي أيضاً أن نؤكد بأن ميل المثقف الغربي إلى الاحتلال وتبني سرديته اللامنتظية في علاقة احتلال مع شعب يقاوم الاحتلال، نابع من ضعف أمام العقوبات التي تطال الانتلجونسيا الغربية، عبر مراكز الضغط وقوى المصالح، أي استقالة المثقف الغربي تفادياً للكلفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية لمناهضة سياسة الاحتلال. إنّ الاحتلال يتهدّد الغرب وتاريخه ونهضته ومنظومته ومصداقيته. إنّ ثمة ما هو مرعب خلف كلّ هذا الصمت. إنّ الاحتلال الذي جاء نتيجة ترانسفير غربي إلى المنطقة، ذرئاً للمخاطر المعروفة، ها هو يتهدد الغرب اليوم في جوهر وجوده الحضاري، إنّه بات

باهض التكلفة على الغرب نفسه، إنّه يستهدف هوية الغرب ومكتسباته. وأمام هذه المخاطر، أصبح دور المثقف الغربي ليس قضية تضامنية فحسب، بل هي اليوم قضية تتعلق بحماية مكتسباته التاريخية، حيث بعد غزة، اتضح أنّ الغرب بدأ يتصالح مع همجيته بوقاحة وعناد.

لقد آثرنا أن لا نحاجج الانتلجونسيا الغربية بعد هذا السقوط المدوي للقيم الإنسانية، المشهد الفظيع الذي لم يحرك ضمير المثقف ولا استفز قناعاته، بل فضلنا تشخيص وضعية المثقف داخل هذه الأزمة، وحولنا الانتلجونسيا الغربية إلى موضوع دراسة، لنثري به الدراسات الاستغرابية، ونكشف عن مساحة أخرى من ازدواجيته في علائقه السياسية وعنصريته المزمنة واضمحلال منظومته القيمية. لم يعد للمثقف الغربي ما يغري أبناء الجنوب، فغزة باتت هي الجنوب كلّ، وهي صورة لما يحدث اليوم في العلاقة غير المتكافئة بين المركز والهامش، العلاقة المحكومة بجدلية السيد والعبد الهيغلية. إننا لا نعلن موت المفاهيم الكبرى التي عرفها تاريخ الأفكار، بل نعلن موت المثقف وتنكّره لقيم الإنسان والتنوير، موت المثقف وانتحاره داخل منظومة ارتهنت لنظام معرفي (إبستيمي) مرتتهن هو الآخر لعلائق وسلط عيقة حسب ميشيل فوكو، باتت في تقديرنا مقبرة للعقل والمعنى. إنّ نهاية المثقف وتاريخ نظام معرفي فقد كلّ عناصر الإقناع والجذب. فالغرب، كما كشفت الحرب على غزة، يفقد ما تبقى من قوته الناعمة.

إنّ عملاً تحليلياً يخضع لمنطق المقاربة ويمنح المفاهيم مساحة للتفاعل مع الواقع بكل ما يحبل به من تعقيد، سيرقى بالفعل التضامني إلى مستوى التفكير والتوثيق، الفريضة التي تكاد تنقرض بسبب صعود الشعبوية

والاستهتار بموقف المثقف وقوة المفاهيم. فالقضية الفلسطينية هي القضية الأولى لدى المثقف العضوي الذي يقف على تفاصيل تلك السردية التضليلية التي اختطفت أرضاً من شعب بوعد كاذب، لكنه معزز بسلطة الانتداب. سقط المثقف الغربي المنحاز للاحتلال، وانتصرت الطفولة الشجاعة في غزّة، عنوان صمود وأمل.

تتميّز المشاركات ببعدها التحليلي وتنوع المقاربة التي يجمعها شيء واحد لا يحتمل اتجاهها معاكساً، ألا وهو الموقف التضامني مع قضية عادلة. أعادت غزّة المثقف إلى الواجهة. وعليه أن يدرك مسؤوليته التاريخية، وينقد الفعل التضامني من الجمود والتكرار، ومعارك الوعي بلا مفاهيم واعية، هي واحدة من مقاتل كفاح شعوبنا. لم يكن همتنا التسرّع، على الرغم من أنّ مبادرتنا تمّ الإعلان عنها في الأسابيع الأولى من العدوان، لإيماننا العميق بأنّ توثيق اللحظة التاريخية للأمم تتطلب تأنيًا ورويّة، كما أنّ الوعي بشقيّه: التاريخي والبنوي، يقتضي رؤية منظورية تتجاوز خفة التمثّلات التي تفرّضها الانفعالات السياسية من دون علم السياسة وفلسفتها فضلاً عن جيوسراتيجيتها، وهذا ما حدث.

ينقسم العمل إلى ثلاثة أقسام: الأوّل، يضمّ الأبحاث والدراسات المتعلقة بتحليل مواقف وآراء النخبة الغربية، والثاني، يضمّ مقالات وتحليلات سياسية، والثالث مخصص لنقد بيان وموقف هبرماس، والذي يتضمن ترجمة مباشرة للنص الأصلي للبيان من اللغة الألمانية، مع تعليق عليه قام بها الصديق ذ. محمد الأشهب مشكوراً. بالإضافة إلى ملحق مخصص لنصوص مترجمة. ولقد اكتفين بهذا القدر مما وصلنا وكذلك مما استأذنا كتابه، مما ظهرت لنا أهميته.

وعليه، نشكر كل الذين شاركوا في هذا العمل تطوُّعياً واستجابوا لهذا النداء، معتبرينه جزء من كفاح أمّتنا ونضالاً من أجل القضية العادلة، من الأصدقاء والزملاء مشرقاً ومغرباً، واحتفظ بالشكر الخاص للصديقة المثقفة معالي المستشارة د. بثينة شعبان لحضورها المميز بتقديم هذا العمل الجماعي. كما نأمل أن يكون هذا العمل نموذجاً لمزيد من تحليل وتوثيق الوضعية البشرية، برسم ما يجري في غزّة المكافحة. آمّلين أن نكون قد أشعلنا شمعة في ظلام دامس. وقد باتت الكرة اليوم في مرمى الإنتلجونسيا الغربية.

لا يفوتني أن أتقدّم أيضاً بالشكر لكل من ساهم وشارك في إنجاز هذا العمل، كما أتقدم بالشكر للمراكز والجمعيات التي ساندت هذا العمل معنوياً، وأخصّ بالذكر:

- المجمع الفلسفي العربي/ بغداد
- الجمعية المغربية لمدرسي الفلسفة/ المغرب
- الرابطة العربية للدراسات المستقبلية
- مركز دلتا للدراسات المعمّقة/ بيروت

القسم الأول: مقالات ودراسات

التّحدّي الكبير فلسطين و نخبة الفكر الغربي

ادريس هاني^(١)

مقدمة

لا زال يتتاب نخبة الفكر الغربي شعور مُفارق، متى تعلق الأمر بالقضية الفلسطينية. هنا يبدأ التبرير، الصمت، الهروب، الالتباس. حتى من عودوا الرّأي العام على ضرب من الوضوح والنزعة التّضامنية، يفضلون الإقامة بين الأطروحة ونقيضها: ميشيل أونفري مُسقط الأضنام، المتكلم في كلّ الأحداث، ناقض البديهيّات والبروباغاندا، أين هو؟ ماعدا عبارة: أنا صهيوني^(٢). من السهولة تقليد نيتشه في المساحات الرخوة، لكن نيتشه هو نيتشه، عصي عن التقليد.

(١) باحث مغربي في الشؤون العربية

(2) <https://www.youtube.com/watch?v=FEdbYhTen-I&list=PLX6Vm60TcU1LaHospkHpPKshyPjfYjfnu&index=8>

برنار هنري ليفي (BHL) نفسه الذي تسكّع في عواصم الربيع العربي - مع أنّنا نبهنا منذ البداية إلى تفاهة الأدوار التي يلعبها هذا المثقف الزائف^(١)، كما أدرجه باسكال بونيفاس في خانتهم^(٢)، وحيث لا أذن صاغية يومئذ - يقيم هذا الأخير قياساً غيبياً بين ما يقع في أوكرانيا وما يقع في غزة. إنه يساوي بين بوتين وحماس، وبين أوكرانيا والاحتلال، كما أن بوتين يحارب أوكرانيا ظلماً، حماس تحارب الاحتلال ظلماً. بكائيات الـ (BHL) على الشعوب المضطهدة تفضحها غزة. أنصت لأمين معلوف، وإن كان أذكى من الطاهر بنجلون الذي كان أسرع إلى الكشف عن مواقفه، اختار الهروب ليعلن أن لا وجود للإبادة قطّ، لأطفال غزة، للإنسان الذي تسحقه التقنية الموجهة من قبل أيديولوجيا غير آبهة لخطاب الأنسنة الذي يستعمل في لعبة السرد ويغيب في الحدث. هؤلاء على الأقل يجعلوننا نتذكر قيمة المواقف الرائدة للمثقف الحقيقي، جون جونييه في «أربع ساعات في شاتिला»^(٣)، جيل دولوز في «كبر ياسر عرفات»^(٤) في كتابه «Deux régimes de fous»، وآخرون أصدق لهجة في التضامن، حيث الإنسانية ليست «ملاوغة» أداتية^(٥)، بل تضحية وموقف يتعذر أن يتمثله أفضل تمثيل حجيج الصالونات الرّخوة.

(١) ادريس هاني: بؤس الربيع العربي: مقارنة فلسفية وجيو-ستراتيجية، ط ١، (١٤/٠٢/٢٠١٧)، دار روافد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت

(2) Pascal Boniface : Les intellectuels faussaires, Editeur Gawsewitch Jean-Claude(20/05/2011)

(3) Jean Genet : Quatre heures à Chatila ; Librairie Des Colonnes Date de parution -tanger(15/02/2016)

(4) Gilles Deleuze : Grandeur de Yasser Arafat, Revue d'études palestiniennes, 1984, n°10 : 3-5

(٥) أستعمل هذه العبارة المزيجة. فهي من ناحية الأصل الاشتقاقي تحيل على اللغة، ومن ناحية الوزن -مُفاعلة- تحيل على مُراوغة ومُغالطة، كأننا إزاء ضرب من المغالطة باللغة.

إدوارد سعيد والاحتلال وخيبة الأمل السارتريّة

لا يكفي أن ندرك موقف المثقف من قضية عادلة في مستوى القضية الفلسطينية، فلا بدّ من تأويل الموقف. وسيكون الأمر غاية في التعقيد حين نقف على مواقف ملتبسة وتناقضية، حين نجد أنفسنا أمام وضعية التمييز والاستثناء بين جملة القضايا العادلة. بل ثمة موقف ثالث، حين يقف المثقف موقفًا خاطئًا ضدّ قضية عادلة، وهذه الصورة الثالثة قد تكون ناتجة عن سوء تدبير معرفي بالقضايا أو لأسباب أخرى، لسنا هنا في واردها. ولقد سبق أن تناولت مقاربة عبد الكبير الخطيبي صاحب النقد المزدوج من التباس الموقف السارترّي، وسوف أحفظ بتأويل ذلك الموقف بعد الحديث عن تجربة إدوارد سعيد في لقاءه المثير مع سارتر.

في عدد من لوموند ديبلوماتيك قبل عشرين عاما ونيف، تم عرض مقالة لإدوارد سعيد تحت عنوان «لقاءي مع جان بول سارتر»⁽¹⁾ (Ma rencontre avec Jean-Paul Sartre)، يتناول فيه حكاية ذلك اللقاء الذي يعكس رؤية نخبة من المفكرين والفلاسفة والمثقفين الفرنسيين من القضية الفلسطينية.

وفيها يتناول كيف بات هدفا للفلاسفة الجدد الذين ليس في رصيدهم سوى تلك الحماسة التي يبدو أنها في مواجهة الشيوعية، حيث هاجموا شعبية سارتر ومواقفه الشجاعة، كما سخرُوا من تفاؤلية وتطوعية ما كانت تستهدفه نظراته الوجودية الإنسانية. وقد بدا أقل مقروئية خلال العشرين سنة، بعد أن كان أكثر من يستشهد بهم. لقد جعله عمله الواسع كروائي وفيلسوف

(1) Edward W. Said : Ma rencontre avec Jean-Paul Sartre ; Le Monde diplomatique, p :4-5, Paris, septembre , 2000

ومثقف سياسي يخيف قراءه أكثر مما يكسبهم، لقد فاز بجائزة نوبل في الأدب قبل أن يرفضها، كما يقول إدوارد.

يضيف إدوار سعيد قائلاً: « يتعين القول بأن جيلي ظل يعتبر سارتر واحداً من الأبطال الفكريين لهذا القرن ».

في مقدمة هذا المقال المهم، أطنب إدوارد في مدح سارتر مديحاً باهراً، لكنه لم ينس أن يذكر ما كان استثناء في مواقفه تلك، حيث أشار إدوارد إلى رحلة سارتر إلى مصر عام ١٩٦٧، حيث سيتحدث عن ذلك في مقالته التي نتناول محتواها تباعاً.

يتذكر إدوار سعيد يوم تلقى برقية من باريس عام ١٩٧٩ في منزله بنيويورك، وفيها دعوة من قبل Les Temps Modernes المجلة التي أسسها سارتر بعد الحرب. في ندوة حول السلام في الشرق الأوسط. وكانت الرسالة موقعة من طرف كل من سيمون دي بوفوار وجون بول سارتر. ومن قوة الصدمة ظنها مجرد مزحة، فهي رسالة من شخصيتين كبيرتين، وهذا ما جعله يمضي يومين للتحقق من أن الرسالة صحيحة وليست مزحة.

و حين وصل إدوارد إلى باريس، سيجد في الفندق رسالة مكتوب فيها باختصار: لأسباب أمنية، سيتم الاجتماع في منزل ميشيل فوكو. وهناك، في تلك الشقة الواسعة لم يحضر سارتر ولا أحد شرح لهم تلك الأسباب الأمنية الغامضة. لكن هناك كانت سيمون دي بوفوار تلقي محاضرة حول إقامتها هي و كيت ميليت بطهران «بعد أن خططوا للتظاهر ضدّ التشادور». يصف إدوارد المشهد كالتالي:

«أذهلني الأمر كله بغبائه المتعالي، وعلى الرغم من ميلي لمعرفة ماذا

ستقوله، إلا أنني لاحظت بأنها كانت مهمة بذاتها غير مستعدة لأي نوع من النقاش، بل أكثر من ذلك، غادرت بعد ساعة تقريبا، قبل أن يصل سارتر». تناول إدوارد موقف ميشيل فوكو، حيث لاحظ أن هذا الأخير لم ينسب بنت شفة وسيغادر أيضا. ومع أن حديثا ودّيا جرى بينهما، إلا أن إدوارد لم يفهم سبب تردد ميشيل فوكو في النقاش حول سياسات الشرق الأوسط إلا عام ١٩٨٤. ويستند إدوارد سعيد على كل من ديديه إريون وديفيد ماسي، حيث سيكشفان في سيرتهما الذاتية، أن فوكو سيغادر تونس، التي كان أستاذا في جامعتها، بعد حرب يونيو، وذلك حسب فوكو نتيجة أعمال الشغب المعادية لإسرائيل والمعادية للسامية. ويضيف إدوارد سعيد بأن أحد زملائه التونسيين حكى له في ثمانينيات القرن الماضي أنه «تم طرده لأسباب أخرى. ما زلت لا أعرف أي حكاية هي الصحيحة».

يحكي إدوارد سعيد أن فوكو أخبره يومئذ بأنه عاد منذ فترة قريبة من إيران كمراسل لصحيفة إيطالية. وفي أواخر الثمانينيات سيُسّر جيل دولوز لإدوارد بأنه حصل انفصال بعد تقارب كبير بينه وفوكو، بسبب الخلاف حول القضية الفلسطينية، بتعبير إدوارد: «فوكو يدعم إسرائيل، ودولوز يدعم الفلسطينيين، فلا عجب أن لا يناقش معي أو غيري مسألة الشرق الأوسط».

عندما تحدث إدوارد سعيد عن سارتر، كان يشير إلى من كان يؤطر النقاش وربما هو من كتب الخطاب الرديء لساتر الذي بالكاد تحدث لتجاوز الموقف، يقصد فيكتور، بعد أن كان هذا الأخير ماويا تحول الآن إلى يهودي متدين وأرثوذكسي كما يصفه إدوارد، حيث سيكتشف بأن أصله يهودي

مصري إسمه بيني ليفي شقيق عادل رأفت، وثنائيّه بهجت المعروفان معا باسم واحد هو: محمود حسين، حيث عملا تحت هذا الإسم في اليونسكو. كما أشار إدوارد إلى هيلين فون بولو، التي كانت تتقن ثلاث لغات وهي مترجمة لسارتر الذي سيكشف ادوارد خيبة أمل أخرى، وهي أن سارتر كان يجهل الألمانية على الرغم من إقامته فترة في ألمانيا وكتب عن هيدغر وغيره من الفلاسفة الألمان، كما أنه كان يجهل الإنجليزية. سيحتفظ سارتر بصمت مريب طيلة اليوم، بينما كان فيكتور كما يروي إدوارد يحدد القوانين، دون استشارة أحد، ويتهمس مع سارتر، فيقول ادوارد بأن هذا الأخير وبنوع من الغطرسة فرض علينا مناقشة الآتي:

١. قيمة اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل

٢. مسألة السلام بين إسرائيل والعرب

٣. شروط أعمق للتعايش الممكن بين إسرائيل والمحيط العربي

لا أحد من العرب الحاضرين، حسب إدوارد، كان راضيا، ومنهم الدقاق الذي سيغادر الجلسة.

لم يعد إدوارد متحمسا حدّ الغرابة للقاء سارتر، خيبة أمل سيعبر عنها قائلا: «تساءلت مع نفسي: هل كنت ساذجا جدا ومتحمسا جدا للذهاب إلى باريس للقاء سارتر؟».

يصف إدوارد خيبة أمله تجاه سارتر وسيمون دي بوفوار:

«اتضح أنّ سيمون دي بوفوار كانت خيبة أمل كبرى، هذا فضلا عن أنه بعد ساعة من الحديث المسهب والدوغمائي حول الإسلام وارتداء الحجاب، غادرت الجلسة». أما عن سارتر الذي لم يقل شيئا، ولا كان لحضوره حينئذ

أي إثارة، وبدا كالأصم، كالشبح بل « بدا لي قبحه الذي هو مضرب المثل ». أدرك أخير إدوارد غاية الاجتماع، لقاء صمم لتكون لكل واحد كلمة دون فتح المجال لأي نقاش، كانت الغاية هي التطبيع، وليس الفلسطينيين. خيبة الأمل كما يروينا إدوارد سعيد تتجلى في أنه رأى نفسه ككل العرب الآخرين مدفوعين بحسن النية لإقناع مثقف كبير مثل سارتر. ففي اليوم التالي وأخيرا سيتحدث سارتر، لكن ماذا سيقول يا ترى؟ سيثني على الموقف الشجاع للسادات، ثم ماذا؟ يقول ادوارد: « لقد ذهلت لما رأيت البطل الفكري استسلم، في سنواته الأخيرة، لمعلم رجعي (يقصد فيكتور) ».

يرى إدوارد بأن سارتر الذي يخالف مثله الأعلى جان جونه، سيظل وفيا لمبادئه الفلسفية الصهيونية، وذلك خوفا من أن يتهم بمعاداته للسامية. فباستثناء موقفه في المسألة الجزائرية لم تؤثر القضية العربية عليه كثيرا، وذلك إما بسبب إسرائيل أو لأسباب ثقافية. يقول إدوارد سعيد: « بعد عام من لقائنا القصير والمخيب للآمال في باريس، توفي سارتر. أذكر بكل وضوح مدى الحزن الذي انتابني على وفاته ».

تبدو هذه وثيقة، بكل التفاصيل التي رواها إدوارد سعيد، والذي كان مدفوعا كمثقف بحسن نية لرؤية سارتر يقف من فلسطين الموقف نفسه الذي عُرف عنه بخصوص الجزائر، فيتنام وقضايا أخرى. وهي من ناحية أخرى، أن مسار التطبيع طويل، وأنه لا بد أن يبدأ من اللحظة التي أمضى فيها السادات على معاهدة السلام، وهو لهذا نال ثناء سارتر في بيان، يرجح إدوارد أن من كتبه هو فيكتور.

ثم الأهم من ذلك، أن سارتر كان مع ذلك صامتا، وهذا هو ما يؤكد

أنّه غير متحمّس لقضية شديدة التعقيد، ربما قد ينجو سارتر من فرنسا نفسها حين ناهض احتلالها للجزائر، ولكنه لن يفلت من إسرائيل إن هو وقف الموقف نفسه. هذا يؤكد أن الاحتلال اشتغل ويشتغل على قمع الفعل التضامني في الغرب، الغرب الذي وصفه دولوز بأنه هو وليس العرب، مدين بتعويض اليهود. وسارتر الفيلسوف الوجودي يدرك ما واجهه هيدغر في موضوع معاداة السامية. ويؤكد كل هذا خطورة موقف وموقع المثقف من هذا النضال المثلث بالمفاهيم الرخوة وخيبات الأمل. بات المثقف الغربي رهينة لشعار ملتبس، وسيحاول الاحتلال أن يعيد إنتاج الوضعية نفسها في الوطن العربي. الفرق هنا أن سارتر وفوكو سكتا، لكن المثقف العربي غير العضوي، ومن دون سابق إنذار، يمنح الاحتلال تاريخاً وفلسفة أقوى من أساطيره المؤسسة للاحتلال، بل الأكثر من ذلك، إنّ المثقف حتى العضوي، يعاني من مستويات عديدة من القمع والتآمر والاستهتار، بعضها يفوق تدابير المحتل، أعني التآمر الذي تمثله دكاكين السياسية، الذي يزداد قبحها وغباؤها وتفاهتها يوماً بعد يوم.

راهن الاحتلال ومستقبله من منظور رجيس دوبريه وماريك هالتر

لابد من معرفة موقف الإنتلجنسيا الغربية من القضية الفلسطينية، وأن نعرف عن طبيعة الرؤية والشروط التي تفرض نمطاً معيناً من التحليل، هو بالأحرى ما يساهم في تكوين صورة عن المسألة الفلسطينية لدى الرأي العام الغربي والنخبة المثقفة والطبقة الحاكمة في عملية صنع القرار. هذا القدر من الاستيعاب يساعد على تحليل الوقائع، وكيف يمكن لعمليات المقاومة أن

تمزق ذلك الحجاب السميّك من التّورخة الخاطئة ولا حتى الأنسنة المضلّلة التي تستعمل كمغالطة في تجاهل الحق الأصلي لمن وقع عليهم الاحتلال. كيف يفكر هؤلاء قضايانا، وحيث التّضليل لا يترك مساحة من تلك المساحات، بل أحيانا تلتقي الأطراف كلها، لأنّ هناك نموذج للتّفكير تمّ فرضه ليكون هو الأرضية المشروعة للنقاش. فالخلاف أحيانا يكون داخل الرؤية نفسها، تلك الرؤية التي لا زالت في منتهى ما تصبوا إليه تتطلّع إلى حالة من الاندماج.

وثمة كثيرون يجهلون هذا الاختلاف، والبعض يفضّل التعصب ضد مواقف لا يدرك في أي سياق ومسار يجب أن توضع. وطبعاً، نعني هنا بالمثقف العضوي الذي انخرط في الحركة الحقوقية والتحريرية لبلدان كثيرة، ولا نتحدّث عن المثقف غير الآبه، إن لم نقل خائن لقضايا المجتمع.

إنّ تأمّل موقف المثقف هي قضية أساسية، لأنّهم مصدر كل الأفكار، سواء الإيجابية أو السلبية، من قضايا الإنسان والأمم. فالمثقف هو من يصيغ مفاهيم التاريخ والاجتماع والصراع والسياسة. لا يمكننا مواجهة وضعية احتلال مدين للمثقف والبحث العلمي بحثاً من الأفكار الجامدة أو شعارات انفعالية ركيكة. هناك من يؤثر خوض معركة معقدة برؤية مبسّطة للصراع، وبأدوات استشرافية ضعيفة، بالانفعال وليس بالوعي التاريخي والاجتماعي الضروريين.

في هذا النص الذي حاولت تلخيصه وترجمة والتعليق عليه، نقف على أسئلة تجد جوابها فيما يجري اليوم في جيوب غزّة، وانفجار الوضع بشكل مختلف عن الأساليب القديمة. هناك، ليس فقط الاحتلال، بل المنطقة كلها

على حافة اندلاع مواجهة كانت منتظرة، لأنّ الاحتلال ظنّ أنّه ربح كلّ الجولات واستهانة بقدرة الشعب الفلسطيني على ابتكار أساليب الردع. العنف الذي بات ملازماً للاحتلال ضدّ الشعب الفلسطيني أصبح مرتهناً له. فالفرص التي يتحدث عنها النص، لم تعد ممكنة، ثمة شعب محتل، ولا يمكن أن توجد لغة أوضح من هذا لوصف وضعيته. العالم ينتهك منطقته ومعجمه اللّفظي حين يكون أمام مأساة الشعب الفلسطيني.

يتعلق الأمر بنقاش أداره باسكال بونيفاس، تحت عنوان: هل الحوار لازال ممكناً في الشرق الأدنى؟ ونشر في المجلة الدولية والاستراتيجية (Revue internationale et stratégique) عام ٢٠٠٨ في عددها رقم ٧١، بمشاركة كلّ من رجيس دوبريه، الفيلسوف الغني عن التعريف، وماريك هالتر اليهودي البولندي الأصل الفرنسي النشأة، والذي أسس الكلية الفرنسية بموسكو غداة سقوط الاتحاد السوفياتي.

متاهة أخرى في الرؤية، تؤكد على أنّ الاحتلال، نجح في إدخال المسألة الفلسطينية في لبس عظيم. وهذا اليأس الذي لم نعهده على رجيس دوبريه نفسه، حين نظّر في «ثورة في الثورة» وأقام في سيرا مايسترا، حين كان يرى في تلك المجموعة من الشوار الذين يقودهم فيديل كاسروا وتشّي غيفارا مثلاً، كلّ هذا الحماس تكسر على صخرة القضية الفلسطينية. يكفي كما فعل سارتر في اللقاء المشهود بحضور إدوارد سعيد، يكفي تمجيد اتفاقية السلام، وتحميل الفلسطينيين وزر هذا التعقيد الذي افتعله الاحتلال.

يسأل بونيفاس رجيس دوبريه إذا ما كان ممكناً اعتبار أعماله الأخير تجسد تشاؤم العقل بينما يمكن اعتبار مارك هالتر يجسد تفاؤل الإرادة. وكان

جواب رجليس دوبريه، أنه لا يملك حماسة وفضيلة الأمل اللتين يتمتع بهما ماريك هالتر، ولأنه أكد بأنه لا يملك الإيمان، فهو ينظر بتشائومية مفرطة لما آلت إليه الأمور في الشرق الأوسط، أو بتعبيره: «إنني مضطر للحديث عن الطريق المسدود الذي آل إليه الشرق الأوسط».

إن كان دوبريه مثل كثيرين لم بهم التشاؤم، فإن ماريك هالتر يتحدث عن تفاؤل من جنس آخر، تفاؤل بنضال محتلّ، يصبح فرض واقعه التاريخي بمثابة تحقيق السلام. لا نستعجل، لنرى ماذا يقول هالتر، كمثال لنوع آخر من المثقفين الذين يفكرون تبعاً لرهانات القوة وليس المبدأ. فهو يتفق مع ما ذهب إليه دوبريه، اتفاق كلام فحسب، لأنه سيردّفه بـ «ولكن»، العبارة التي تقتضيها المجاملة. هو يرى بخلاف دوبريه أنه يضع نفسه في منظور تاريخي، وهو يشير إلى احتفال - يومئذ - إسرائيل بعامها الستين لإعلان استقلالها، بينما يضيف: «وتكمن مأسأتنا في نفاذ الصبر الذي يولد التشاؤم». وجب في نظره أن نميز بين التاريخ الشخصي والتاريخ العام، لأن «٦٠ عاماً، هي بمثابة فترة زمنية تاريخية قصيرة جداً، وبالتالي، فإن كل ما حلمنا به لا يزال من الممكن تحقيقه».

في حفنة من الجمل، تسكن غابة من المغالطات. ذلك لأنّ الحديث عن التاريخ العام في موضوع احتلال لم يركن الأهالي فيه إلى الاستقالة، بل هو ميراث جيل بعد جيل، يؤكد بأنّ هالتر خارج التاريخ وفلسفته، فهو يتحدث عن زمن من المواجه، يؤكد أنّ ثمة إصراراً على استدراج وإرشاء التاريخ، قصد إبداء شهادة زور على الاحتلال. كيف نجعل من محتل يحتفل بذكرى استقلاله؟

يعود بونيفاس إلى رجليس دوبريه ليعمق السؤال حول جدل الواقع

والإسقاط التاريخي، ليأتي الجواب غاية في التشاؤمية، وهي مغالطة أخرى، حيث ما يمكن اعتباره انتصارات المقاومة وإفشالها سياسة الإخضاع، تعتبر قضية مأساوية. لذا يرى دوبريه الذي فقد تفاؤلية سير مايسترا، بأن الوضع لم يعد ممكناً لإنشاء دولة فلسطينية. يبني دوبريه ملاحظته تلك على سؤال: كيف يمكن إزالة ٤٠٠ ألف مستوطن يعيشون في القدس الشرقية والضفة الغربية. لا يمكن تصور الأحداث الكبرى العنيفة التي ستحصل، اليوم بتنا أمام منطق الضم الواضح بدل القضم. وسوف ينعى الموقف الراض لخطّة السلام العربية باعتبارها فرصة، بل اعتبرها بديلاً مناسباً لأمن إسرائيل.

أشار دوبريه إلى الانقسام الفلسطيني وأيضاً إلى كون السلطة الفلسطينية أصبحت بمثابة هيئة فرعية للغرب، وذلك بالحديث عن وجود قوى بالمنطقة لا زالت لا تعترف بوجود هذا الكيان. صحيح أن الذين كانوا يرفضون هذا الكيان تغيروا، لكن التهديد باقٍ. يتحدث هالتر عن ذلك اللقاء الذي جمع كلا من شمعون بريز وياسر عرفات للمرة الأولى في بيت هالتر، كان هناك أمل بحل وسط نهائي، لكن هذا لم يحدث، فضاعت فرص كثيرة في نظره.

غير أن هالتر سيدي خلافاً مع دوبريه حول وجوب اندماج إسرائيل في المنطقة، وهنا يكشف هالتر عن رؤية غربية هي جوهر الأيديولوجيا الاحتلالية، يقول: «إن فكرة وجوب اندماج إسرائيل في المنطقة لا علاقة لها هنا، نظراً لأن البلاد مندجّة وتتمتع بشرعية تاريخية كبيرة. لا يمكننا المقارنة بين إسرائيل ومملكة القدس المسيحية. لم يغادر اليهود المنطقة قط إلا في عهد النصارى، حين أبادوا اليهود في القدس واختبأ آخرون في الجليل. تحدث شاتوبريان، قبل قرنين، بعد أن أقام في القدس، عن الشعب اليهودي

باعتباره «السيد الحقيقي لهذه الأماكن». لقد ظلت مدينة القدس دائماً، منذ الملك داود، مأهولة بشكل رئيسي باليهود.

يبدو دائماً ومن خلال تفاصيل أحاط بها الاحتلال نفسه منذ مؤامرة التأسيس لحركته، أنّ الرهان على القوة لا يتهدد الجغرافيا وحدها، بل يقضم التاريخ أيضاً، ويفرض عليه خيال المحتل. وهالتر بهذه المقاربة المنحولة، يغالط التاريخ ويغالط بالتاريخ. يؤكد رجيس دوبريه في هذا النقاش بأنّ وجود سلام رسمي بين إسرائيل وبعض الدول كمصر والأردن، هو سلام غير دافئ. المسألة في نظره أن إسرائيل باتت مقبولة من قبل دول المنطقة ولكنها غير مندمجة.

من جهته، يرى هالتر، أنّ هذا الوضع لن يبقى هكذا، ويلجأ إلى قياس مفارق بين فرنسا وألمانيا، كما طالب بالحوار مع الأعداء وليس فقط مع الأصدقاء، حيث يرى أنه «علينا خاصة أن نفتح على سوريا. وقد كنت من أوائل المؤيدين للحوار المباشر مع بشار الأسد. حيث إذا كان الحديث فقط مع الأصدقاء، فلن تستطيع الحديث كثيراً، يجب أن تتعلم التحدث إلى أعدائك».

يشير أيضاً إلى الخلاف بين اليهودية والمسيحية في موضوع الحب، فهو يفضل الاحترام على الحب، يحيل على فرويد: لماذا أحب شخصا يريد قتلي؟ لذا يقول بأنه لا يطلب من دول المنطقة وشعوبها أن يحبوا إسرائيل، بل يؤكد على الاحترام المتبادل للبحث عن سبل التعايش. من هنا يطالب إسرائيل بمساعدة الفلسطينيين لتأسيس دولة خاصة كخطوة ضرورية أولاً وقبل كل شيء.

غير أن دوبريه يعقب بأنّ الحديث عن الاحترام كأساس بدل الحب، هو

أساس مثالي، لكن كيف يمكن في نظره حل مشكلة الاحتلال؟ كيف يمكن ممارسة الضغط الأممي على الكيان، بل لا يرى دوبريه «أحدًا في الوضع المناسب للضغط على إسرائيل اليوم، لا الولايات المتحدة ولا أوروبا». ذلك بسبب أنّ الولايات المتحدة في نظره هي واقعا مرتبطة لاهوتياً وعاطفياً بالشعب العبري، حيث يعتبرون أنفسهم امتداد لتاريخه بوصفهم شعباً مختاراً جديداً، هذه الروابط في نظر دوبريه هي نابعة من اللاوعي اللاهوتي، ومن هنا فإنّه يرى من الناحية الرمزية، أنّ «الولايات المتحدة مستعمرة لإسرائيل وليس العكس». هذا بينما ينظر إلى أوروبا بوصفها تعاني الشلل بسبب المحرقة. لا أحد إذن مستعد في نظر دوبريه لفرض شيء على الاحتلال، ويقول: «أحياناً يجري الحديث عن إنشاء قوة تدخل عسكري دولية على الحدود الإسرائيلية الفلسطينية، هذا إن كان أصلاً هناك حدود. ولكن من هو هذا الأوروبي الذي قد يجازف بإطلاق النار على إسرائيلي؟ هذا أمر مستحيل التصور». إضافة إلى ذلك، يرى دوبريه استحالة تقسيم فلسطين أو تشكيل الدولة الفلسطينية حين نأخذ بعين الاعتبار خريطة المناطق من الطرق والأنفاق وتجميع المياه، هناك لا توجد سوى جيوب فلسطينية في فلسطين حسب دوبريه.

يواصل دوبريه رفض فكرة الدولتين لأسباب، كما لا يرى في المعضلة الديمغرافية خطراً مادام التوازن الديمغرافي عاد إلى المستوطنين حيث ارتفع منسوب الولادات إلى حد اعتبر من أعلى المعدلات في العالم. لذا يقوض دوبريه فكرة أن النمو الديمغرافي الفلسطيني سيكون ضاراً بالإسرائيليين. لكن دوبريه يصرح بأن التعايش بين الدولتين أمر ممكن، كما يرى أنّ «الدولة ذات القومية المزدوجة، مفارقة اصطلاحية». ذلك لأن اليهود الذين سعوا لإنشاء دولتهم، لن يقبلوا أن يصبحوا أقلية خلال خمسين عاماً قادمة. من هنا

تشاؤمية دوبريه بخصوص مستقبل المنطقة. ويرى أيضا أنّ وجود أشخاص، يصفهم بغير العاديين، مثل هالتر نفسه، يؤمنون بمستقبل إسرائيل، هل يا ترى يستطيعون إقناع شعبهم الذي أنشئت إسرائيل على أساس أن تكون وطناً لهم، بالتخلي عن الجدار العازل. يقول دوبريه: «تبدو فلسطين اليوم حالة فريدة، فأراضيها تتقلص بقدر ما تزيد المسافات. ويغدو الانتقال من نقطة إلى أخرى الآن يستغرق خمس ساعات حيث كان يستغرق ساعة واحدة من قبل. لقد غدت حركة الفلسطينيين غير ممكنة بعد تجزئة أراضيهم. إنّنا أمام وضعية خانقة».

يشير دوبريه بأنّ الوضع في غزة بات متفجراً. ويرى أنه بعد جيل من القادة العرب وجب عليهم أن يتغيروا. ويخشى دوبريه أن تؤدي عملية التغيير تلك إلى استبدال من وضعهم الغرب بآخرين أقل قابلية للصلح مع إسرائيل، في سياق ما أسماه النهوض الإسلامي في المنطقة. والحل؟ يجب دوبريه بأنه ينتظر ديغول إسرائيلي.

يبدو أن دوبريه لا يعالج المعضلة من جوهرها، هو أيضاً هنا يسلم بأنّ الاحتلال قدر. ديغول آمن بالاستفتاء في المستعمرات، لكن ما حكاية ديغول إسرائيلي؟ هل سيمنح الفلسطينيون حق الاستفتاء على أراضيهم فقط، تلك التي حشرهم فيها بعنف الاحتلال؟ إسرائيل تبدو كارثية في نظر دوبريه فقط لأنها تسمح لأحزاب دينية صغيرة بممارسة ابتزازها ضد الحكومة.

من جهته يتباكى هالتر على الفرصة الذهبية السابقة حين تقاسم حزب العمل بزعامة شمعون بيريز السلطة مع الليكود بزعامة إسحاق رابين في ثمانينيات القرن الماضي. كما ضيعت الحكومة الإسرائيلية فرصة التفاوض

مع عرفات ومحمود عباس، اليوم الأمر بات أكثر حساسية. ويقول هالتر: «وكمثال على ذلك، كنت قد ناقشت مع خالد مشعل، الزعيم السياسي للفرع السوري لحركة حماس، فقال بأنه على استعداد لتوقيع هدنة مع إسرائيل لمدة ثلاثين عاما، ولكن بالنسبة إليه، لا يتعلق الأمر بقبول إسرائيل، التي تشبه مملكة القدس المسيحية، حتما ستتفكك في يوم من الأيام».

ويقول هالتر بأنه كان ضد فكرة الجدار العازل، نظرا لأنه ولد خلف جدار الغيتوهات، لكنه اعتبر أن للجدار انعكاسات إيجابية، فهي من جهة الفلسطينيين جعلتهم يتطلعون إلى وضع ما قبل الجدار ولم يعودوا يطالبون بتل أبيب ويافا وحيفا، كما من جهة الإسرائيليين، أدركوا أن ما بعد الجدار ليس ملكا لهم. ويضيف هالتر بأنه واثق من قدرة العرب على قبول وجود إسرائيل.

يقول معلقا على سؤال بونيفاس: «لدي قناعة أن من داخل هؤلاء الشباب الإسرائيلي الذين التقينا بهم أنا وريجس دوبريه، سيظهر يوما ما زعيم يتمتع بكاريزما تمكنه من فرض التغيير».

المعطى الغريب الذي يذكره هالتر وهو يعقب على دوبريه، يتعلق بموقف كيسنجر الذي، يقول هالتر: «على الرغم من أنه يهودي، هو من قام بمنع منح قطع الغيار للجيش الإسرائيلي في حرب سيناء، والذي أدى إلى تدهور الإسرائيليين. وهذا يؤكد على أن أمريكا بإمكانها تشجيع التنمية وأن تقيد إلى حد ما إسرائيل».

يرد عليه دوبريه بأنه من الصعوبة بمكان أن نكون متفائلين. تبدو مشكلة دوبريه في دخول الدين طرفا في النزاع، أي ما لا يساعد على التفاوض، فقد

أظهر ذهولا كما يقول من النفوذ المتزايد لحماس في المجتمع الفلسطيني. يخشى دوبريه من أن صعود الحركات الدينية، من شأنه أن يجعل الحرب لانهاية عبر الزمان والمكان. ففي نظره، أن فشل الغرب في فرض العدالة في المنطقة عزز اليأس. الإسرائيليون في نظره أيضا، لهم حساسية من التغيير، هم متورطون في تكرار التاريخ. ثمة ما يسميه دوبريه بعمى المحرقة باعتبارها التجربة التأسيسية للإسرائيليين. هذا العمى السياسي يتسبب في ذهان الذاكرة. يرى دوبريه وهو مخطئ لا محالة، بأن سوء الفهم الكبير نابع من صدام بين ذاكرة تعاني التضخم وغياب الذاكرة عند العرب، من هنا حوار طرشان. ففي هذا النقاش الثنائي يحضر إثنان ليس من بينهم فلسطيني. هذا في عرف التنظير والحوار يعتبر خيانة.

يضع هالتر أفقا تبريريا آخر وهو يتحدث عن إشكالية علاقة الهوية اليهودية بوضع الضحية، التمييز بين إسرائيل والمحرقة، يتحدث هالتر عن النقاش الذي جرى بينه وبين غسان كنفاني، الذي اعترف كما يزعم هالتر بفظاعة المحرقة لكنه أكد على أن العرب غير مسؤولين عنها، ومن الظلم تعويض ذلك الضرر بمنحهم الأرض العربية. يجيبه هالتر: «إن كان التعويض هو بالأرض فعلا، فإن جميع أراضي شبه الجزيرة العربية وحتى أمريكا وأوربا لن تكون المقابل لضحايا ٦ ملايين»، من هذا التعليل يخلص إلى أن الرغبة في إنشاء دولة يهودية تسبق المحرقة، بل إن إسرائيل ولدت بلا دولة منذ زوال العثمانيين ومجيئ البريطانيين، يقول: «وهو الهيكل الذي تولى بن غوريون زمامه عام ١٩٣٥. وقد تم إنشاء أول صحيفة يومية عبرية، هآرتس، عام ١٩١٩. المركز النقابي الرئيسي، الهستدروت، وكذلك الضمان الاجتماعي في عام ١٩٢٠، الجامعة العبرية في القدس في عام ١٩٢٤. غير

أن لا أحد قام بشرح هذا للفلسطينيين إطلاقاً. ومن الغريب أن عرفات كان مفتوناً بهذه الدولة قبل الدولة، كان فخوراً بأن يطلق عليه «العجوز»، باعتباره اللقب الذي أطلق على بن غوريون».

ويشجب هالتر الاستعمال الخاطيء للمحرقة كذريعة أخلاقية، ويرى أن إسرائيليين يستمدون حقوقهم من المعركة التي خاضوها في سبيل حيازة دولتهم قبل المحرقة.

ما قيمة أن يتجاذب مثقفان النقاش حول مسألة تتعلق بالاحتلال، بنوع من الاعتقاد الخاطيء، وتبييض الخيانة بالمفاهيم التي توضع في سياق المغالطة التاريخية. اكتساب الشجاعة في النقاش تفضحه الرغبة في إخفاء ما هو أبسط من كلّ ذلك، فضيلة الاعتراف ومنطق الاعتراف، أنّ هنا تم تثبيت أمر واقع بأدوات لعبة الأمم، ظُفر إمبريالي في الشرق الأوسط. في موضوع فلسطين تحديدًا وجب الحذر، الحذر حتى من أولئك الذين جربوا أن يكونوا في يوم من الأيام مناهضين للاستعمار.

غزّة والمثقف السّرنام

ثمة سوء فهم كبير، بعد الحدث الكبير، حيث لا صوت يعلو فوق صوت العويل الجنائزي، وحيث العاطفة والأنوسة لا انفكاك بينهما سوى عند من لم يدرك نكتة المشاعر في صميم الاستنتاج، فهي مكوّن أساسي في تشكّل المعرفة، هل أدركوا تجريبية ديفيد هيوم؟ وحيث ثمة خيانة عقل مُنتظم، لأنّ العقل الناظم محاصر بكاطيغورياس خفيّ، حين باتت الفلسفة نفسها خيانة للأغورا، للسعي في السوق، لما كانت اليد الخفية في الاقتصاد السياسي

الكلاسيكي بريئة. تساقط الفلاسفة والمثقفون تُباعاً كأوراق الخريف، ذلك لأنّ الذين سعوا إلى التماهي مع نيتشه، هم أنفسهم يحملون شواربهم عند كل حدث يتعلّق بالتحرر، وتحديدًا حينما تنفّس فلسطين من تحت الرّماد.

سوء الفهم هنا يتعلق بسؤال الـ«نحن» والغرب. هذه العلاقة القلقة برسم الشروط التي كرستها العلاقة غير الطبيعية بين المركز والهامش. لقد سعينا للتطبيع مع الغرب، لكنه أبى أن يُطبّع معنا. نحن نُطبّع مع المبادئ الكبرى التي جاء بها العهدان الدوليان للحقوق، وهو يشترط علينا في التطبيع معه تطبيعاً مع الاحتلال، مع الإبادة، مع النقيض لتلك المبادئ. التطبيع له إطار خفي، مهما عزف على الوتر الثقافي، هو تطبيع جيوسراتيجي، وجب أن يأخذ هذا المفهوم ترجمته من هناك، بوصفه اعترافاً بالمعنى الكوجيفي (نسبة إلى أليكساندر كوجيف)، الذي يجد أصله في جدل الصراع الأزلّي بين السادة والعبيد. هذا هو جوهر ما حاولت أن أحوم حوله في كتابي: «حادثة السادة وحادثة العبيد». إن الروح النقدية تنتهي عندما نطلب الحقّ في الاختلاف. تتنكّر الفلسفة بعد أن رُسم لها هامش، فبات الفلاسفة مستضعفون في الأرض، ومن أراد أن يختار وظيفة عبيد المنزل، صُبت فوق رأسه الأضواء، ومن تمنّع، فضّل سكنى المنزلة بين النقيضين، ومن هنا تأتي مفارقة المثقف، أو بتعبير باسكال بونيفاس: المثقفون المزيّفون.

إنّني أنبّه قبل أن أذهب بعيداً في هذه الفدلكة، إلى تلك العلاقة، إلى ذلك الرهان، مع الغرب المثقف، لا الغرب صانع عصر قلق، عصر المهانين بتعبير برتراند باداي. إنّ المثقف الغربي لم تعد لديه مساحة حرّة منذ الحرب العالمية الثانية، حين يتعلّق الأمر بفلسطين. إنّ حرب البروباغندا على العقل السياسي الأوروبي مُهولة. إنّها جزء من الدعاية اليومية التي ترافق

الإنسان، وتجعل المثقف عاجزا عن تدبير موقف منطقي. إنّ علاقتنا مع الغرب كما أتصورها ضمن استراتيجيا «الاستيعابية»، وهي استراتيجية تقوم على التفاعل الخلاق مع الغرب، بوصفنا في لحظة بروميسوسية ثورية، توجب علينا الاشتباك عن قرب مع مخرجات تجربة لا يمكن الاستهانة بها إطلاقا. ومع أنّي أهجو موقف هابرماس السيئ جدا من أحداث غزّة، إنما أجد في ذلك فرصة لإعادة التموقف النقدي من مفهوم الفضاء العمومي الذي يقصي صوت الجنوب، صوت من شملتهم لعنة الإقصاء. الحدث بالمعنى الدولوزي هو أيضا فرصة لمزيد من الكشف عن الإغوار الخفي في النظرية، تلك التي تحتاج إلى اختبار خارجي. التفاعل والاستيعابية تعفينا من الانتقائية ومن القطيعة المفردة، وتضعنا في قلب التفاعل الحضاري: من هنا التبني الحضاري والتجديد الجذري، الشجاعة في الاشتباك بدل الهروب. حوار مستحيل بين الشمال والجنوب في فضاء جيوستراتيجي مغلق.

أعود لتلك العلاقة القلقة والرهان المبهم بين الغرب وما وراء البحار، والتي جعلت سؤال التقدم والحادثة نفسه مُبهما، حيث باتت تكلفته باهضة حسب صدام المصالح من جهة، وصدام الثقافات من جهة أخرى. صدام الحضارات في جوهره ليس صدام التقدم والتأخر، بل جوهره عنصري. إنّ الحادثة التي باتت مطلبا مؤكدا وناجزا في حقل البنى التحتية للمجتمعات المذكورة، أصبحت مورد ابتزاز بين الغرب وعالم الجنوب^(١). وسأكون وفيًا لتلك الفكرة التي تناولتها قبل ثلاثين عاما ولا زلت أؤكد عليها اليوم، وهي «إذا كان موقفنا يتسم بنوع من الممانعة، فإنّ هذا لا يعني أننا ضد الانفتاح على

(١) ادريس هاني: العرب والغرب - أية علاقة، أي رهان -، ص ١١، ط ١ - ١٩٩٨، دار الاتحاد، توزيع دار الطليعة - بيروت

الغرب مطلقاً». من هناك أثرت الاستيعابية التي ستقودني حتماً إلى العبر-مناهجية. اعتبرت أن آفة الانتقائية لا تقف عند وضع العقل العربي أمام فوضى وخليط غير متجانس موزع بين أطاريح متدبرة فحسب، بل سيكون طريقاً للتعسف على مناهج الغرب ومناهله أيضاً.

نتجنب الحديث عن معضلة النخبة مفهومها وتنزيلاً في الغرب، منذ باريتو وبوندا إلى مايلز وشومبر مرورا بغرامشي، حيث نشط التنظير الإيطالي تأسيساً وتفريعاً. ولكنني سأركز على دال روبيرت، حيث تبرز ميزات النخبة عند حدوث الأزمات المتعلقة بالمجتمع. هذا سيساعدنا في الربط بين المثقف والأزمة. ويبدو هنا أن نكوّص المثقف، وتحليلات هذا النكوّص الذي يأخذ معاني وأوصاف كثيرة، كخيانة المثقف ونهايته وزيفه وكذبه.

في الغرب توجد مساحة للتفكير الحرّ، لكن في حدود يفرضها العرف. نحن لسنا أمام كذب صريح تمثله النخبة الغربية حينما يتعلق الأمر بالقضية الفلسطينية، لا سيما في الوضعية الأخيرة من جريمة حرب الإبادة كاملة الأركان. إنّ التفكير ضدّ الغرب نفسه هو مهمة أقلّ كلفة من نقد الاحتلال. إنّ نقد تاريخ الإبادة ضدّ الهنود الحمر أقلّ تكلفة من نقد الإبادة ضدّ الفلسطينيين. والسبب، هو أنّ الشعب الفلسطيني لا زال صامداً على مقربة من الهارتلاند الجيوسياسي. وكلّ الوعود التي كرستها العهود الدولية هي أقلّ مصداقية من وعد بلفور. إنّ العقل السياسي الغربي يستقبل حين يتعلق الأمر بكيان الاحتلال. هنا يختفي العقل والتنوير والفضاء العمومي والتقاليد النيتشية في تحطيم الأصنام.

تواطأت البروباغاندا والقانون والشعبوية، لكي تقمع كل سؤال يتعلق

بفلسطين. سارتر نفسه تراجع واختار منزلة بين المنزلتين، يفضح ذلك إدوارد سعيد، كما سيفعل عبد الكبير الخطيبي. وجب المُضيّ استغرابا كي نفهم كيف أنّ التاريخ الذي اختصر لدى المتلقي الغربي في مخرجات الحرب العالمية الثانية، وضع أكثرهم تساؤلا أمام ذلك الغموض الذي لا مناص منه سوى بالتموضع في منزلة بين المنزلتين، في لعبة الألفاظ، في مُسقط الأصنام كما ذكرنا آنفا، ميشيل أونفري الذي عجز عن التحرر من الباراديغم التّاريخي نفسه، عند بورديو الذي منح السوسولوجيا ميزة العلم الثوري، ميزة قول الحقيقة، يعجز عن حلّ ذلك اللغز حول علاقة الضحية بضحية «الضحية»، حين يتعلق الأمر بفلسطين، عن آلان فينكيلكروت معلن هزيمة الفكر، كيف يبرر موقف الاحتلال بصلافة؟ هذا لا يحجب مواقف متقدّمة نوعا ما، مع آلان غريش، باسكال بونيفاس الخ.

هذا الشّلل الذي يصيب العقل السياسي الأوروبي، يدفعه إلى منزلة بين المنزلتين في أحسن تقدير، وإلى التحيز المسبق مع الاحتلال، وهو التيار الغالب، يؤكّد على وجود سياقات وأطر تعيق النظرة الواقعية، وتجعل انتهاك المبادئ أقلّ كلفة من دفع ضريبة الخروج عن التيار. دولوز يخرق الإجماع المنقول، لأنّه خلافا لها برماس، يكفر بدور الإجماع والنقاش بالنسبة لفيلسوف، مهمته صناعة المفاهيم. المهمشون كجون جوني يحتجّ من ممشى تسكّعه ضد الاحتلال. أعني الغرب الآخر، الذي مارس تحرره خارج مجموعة المصالح، خارج رونق الصالونات، في محاضن التّشرد. أصبحت أنفهم لعبة التمرد والهيييزم، الإمبريالية تسمح بهذه الاستقالة، شريطة أن تُصبح حالة إكلينيكية أو مُروقا سوسولوجيا، هذا ما نجده ماثلا في «ضدّ-أوديب» لجيل دولوز وفيليكس غواتاري.

الحدث الذي يكشف عن ازدواجية المعايير، عن عجز مزمن عن قراءة الحدث في سياق يتجاوز مخرجات الحرب العالمية الثانية، حيث الشعب الفلسطيني غير معني بالنازية التي لا تُفارق النزعة التبريرية للمثقف الغربي. إنَّها فوبيا النازية التي فاقت الواقع والمتوقع، وباتت باراديعها تاريخية لإدانة ما لم يقع بعد. ومثل هذه النزعة الاختزالية القائمة على رُهاب النّازية، تجدها تنزيلا بتوزيع موسيقي مختلف في بيئتنا الإقليمية.

الاستغراب، ليس موقفا من الغرب، بل هو حركة نقدية يتعين أن تدرك مهمّتها التاريخية. إنَّها في ما آمل منها، حركة استيعاب مباشرة، تحرر الآخر في فهم السياقات والشروط في تاريخ الأفكار، ثقة في الذات ومنحها سلطة التفكير في الذات والآخر خارج لعنة الهيمنة، مساعدة المثقف الغربي نفسه على التحرر من شروط المستحيل التفكير فيه. إن المثقف الغربي إزاء موضوع النازية، والالتباس الكبير الذي يجعله عاجزا عن قراءة الاحتلال خارج هذا الرُّهاب الذي ولدته البروباغندا والتربية والفضاء العمومي الموجه، إنه بالفعل يفكر في وضعية جيوسراتيجية تدعو للاجتثاث. فمعاداة السامية لا تقتصر على الآخر، بل هي الصفة التي نال منها مثقفون يهود نصيبا غير قليل، مثل بونيفاس، إدغار موران وهلم جرا.

أخذ تفكير المثقف الغربي في المساحات التي ندرك أنَّها مُتاحة أو مغفول عنها، لكن لا آخذ رأيهم في موضوع الاحتلال إلا بتحقيق وتأمل وحذر. إنَّهم في هذا الفضاء المغلق غير أحرار، ورقابتهم الذاتيّة تبلغ ببعضهم حالة الخيانة، وهم كما قال لينين عن المثقف، أنه الأكثر قابلية للخيانة وتبريرها، لأنَّه يمتلك أدوات الرِّيف. الصورة النمطية نفسها توجد في بيئتنا العربية،

حيث هناك نصيب من هذا التوضع بين منزلتين وأحيانا البحث عن نازيين مفترضين، حيث لم تعد النازية تُعرّف إلا بالمحركة، ولا يُعرّف الاحتلال إلا بها.

من حقّ الجميع أن يخشى من جدوى الفضاء العمومي إن كان سيصبح تدويرا للنفايات، ويُسوّش على المعنى. ما هو المصير الذي ينتظر المثقف؟ لقد أصيبت مصداقيته في صميم العقلانية والتنوير والأنوسة، إن طفلا تمتشقه القاذفات من مأوى طفولته، لتجعل منه أشلاء ممزقة على مرأى من فضاء عمومي أخرسه هابرماس نفسه، هو اليوم الفيلسوف الذي صنع الحدث وجاوز به سُلطة المقولة. هنا ليست الجغرافيا وحدها - كما ذهب إيف لاكوس- التي تساعد على صناعة الحرب، بل الفلسفة نفسها تصبح وسيلة حرب، حين تسخر مقولاتها لتبرير الإبادة بالمغالطة والتضليل، بما في التضليل القانوني.

تمنحنا أنثربولوجيا النخب الكثير من القدرة على فهم سرّ هذه « السّرنة » (le somnambulisme)، داء ضربة « حمار الليل » حسب تعبيرنا العرفي، استحمار ليلي إن شئت، من خلاله يقف الساري المُستحمر على حافة السقوط وهو في غفلة عن ذلك. يحدث أن يوقظك الإنسان فتضطرب وتسقط، لذا تنتظر حتى يُكمل المثقف السّرنام مشواره، ويتحمّل مسؤوليته.

تواجه نخبة الفكر الغربي تحدّيات مركّبة، تظهر بصورة حرجة عند كل عدوان يقوم به الاحتلال ضدّ الشعب الفلسطيني. وخلال الأحداث التي أعقبت عملية طوفان الأقصى فقد الاحتلال وحلفاؤه الغربيون قوّة الإقناع. هذا التلكؤ في موقف النخبة نابع من حالة الاستنزاف التي تقوم بها جماعات المصالح داخل الغرب. رُهاب العزلة والخوف من الحصار المادّي والرمزي.

هذا لا يحجب مواقف أكثر شجاعة في مقاربة المشهد. ما يحدث اليوم في غزة، هو حدث له أثر كبير على المجتمع الدولي، ومن هنا خطورته. في حرب لا أفق سياسي لها، تبدو منهجية مفتوحة لفعل الثأر. يصفها إدغار موران منذ سنوات بأنها حالة تعويض قانون العدالة بقانون الثأر، معتبرا أنّ الشرق الأوسط «يقع في قلب منطقة زلزالية تمتد إلى جماع الكرة الأرضية». حيث المواجهة بين الأديان، والأديان واللائكية، الشرق والغرب، الدول الفقيرة والدول الغنية، هذا فيما يرى إدغار موران بأنّ الصراع في فلسطين يشكل سرطان قد ينتقل إلى كل أصقاع المعمورة^(١).

الإصرار على فرض الأمر الواقع بوسائل القوة - لا الشرعية القانونية والتاريخية - يعني بلوغ الأمر في الشرق الأوسط إلى الباب المسدود. وهذا الأخير يعني العودة إلى الحرب. كانت الحرب متوقعة، وهي حتمية بالنسبة إلى ذلك الذي لا زلنا نخشى أن نسميه باسمه الحقيقي: الاحتلال، والاحتلال يعني المقاومة. وبقدر ما يطور الاحتلال في وسائل الإخضاع، تبتكر المقاومة أساليبها أيضا في التحرر. الأخطر هنا أنّ المقاومة لا تنتظر شرعيتها من أي قوة أخرى غير الشرعية التاريخية الموصولة بكرامة شعب يرفض الإهانة والاحتلال.

كانت عملية طوفان الأقصى ردّا على كل الانتهاكات التي طالت المدنيين في بيت المقدس، على التصعيد الذي اتخذ أشكالا جديدة، منها استعمال المستوطنين وتسليحهم في الحرب المباشرة على المجتمع الفلسطيني.

(١) إدغار موران: هل نسير إلى الهاوية، ص ١٢-١٣، ت: عبد الرحيم حزل، ط ١ - ٢٠١٢، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء-المغرب.

لم تخضع القضية الفلسطينية لشروط التقادم، لأنّ شعباً حياً لم يتوقّف يوماً عن المطالبة باستقلاله والكفاح التحرري. ليس لفلسطين ذاكرة مفصولة عن حاضرها. هناك معركة متواصلة، ووعي متنامي بالحق الفلسطيني. ولا شيء على الإطلاق يمكنه أن يُخضع القضية الفلسطينية للتصفية أو يفرض عليها مسارات ملتبسة تحت سقف التحرر الوطني من ربقة الاحتلال.

الشروط الجديدة لعملية طوفان الأقصى، هو الوعي بأهمية التحام مكونات الشعب الفلسطيني، والتطور النوعي في الخطط والأسلحة، مما يربك قواعد الاشتباك. الحرب على الفلسطينيين لم تعد نزهة، وثمة ما هو أخطر، ألا وهو التآمر الساحات ووحدتها، وكل ذلك جاء نتيجة الرّهان على القوة وتجاهل الحق الفلسطيني في الدوائر الأممية، وتجاوز الاحتلال لكل الأعراف الدّولية في فرض الأمر الواقع.

خاتمة

في معركة الوعي القصوى، لا مجال لترك القانون الدولي في لعبة النرد الكوكبية، التي جعلت من القانون الدولي مطية لشرعة ما لا يشرعها التاريخ والجغرافيا بالمعنى الأعمق دلالة للجغرافيا، بوصفها تنشأ وتقوم فيه أعقد العلاقات الاجتماعية. الجغرافيا ليست أرضاً نستطيع أن نخترقها ونعدّل في نتوئها ومعاييرها، بل هي كنسق دلالي واحدة من الرغبات التي كبتها الإمبريالية التي لا زالت وفيّة للداروينية الاجتماعية والأوديبيّة: منتجة العُصاب الدولي. قصة لا مجال لبحثها الآن. ولكن الجغرافيا بمعناها الأنطولوجي، هي مكان قيام العلاقات الروحية والحضارية بين مجموعة، تكتسب خصوصيتها من تلك العلاقة التي تشكل واحدة من أبعاد ماهية المكان نفسه. وبالتالي إنّ خطوط الصدع الثقافي بالمعنى الذي دارت حوله مقاربات هنتغتون لصدام الحضارات، هي حدود جيو-ستراتيجيا القيم. إذا كانت الجغرافيا حتى بمعناها المادي هي متماهية مع أهداف الحرب منذ كلاوزفيتش، وستكون الفكرة الأثيرة في تجربة إيف لاكوست حول الحرب بوصفها تُستعمل أولاً في القيام بالحرب، جغرافيا الضباط لا جغرافيا الأساتذة، فإنّها برسم هذا القيد للجغرافيا الناسوتية والروحية، تصلح للحرب. إنّ الربط بين الجغرافيا والنسق القيمي يتجلّى اليوم في الحرب على غزة. إنّ احتجاب الرغبة في التدمير خلف مظاهر القوة الناعمة، بما فيها إخضاع القانون الدولي لمغالطة القوة الناعمة، انكشفت في حرب غزة. النظام الدولي عاجز عن الوفاء لميثاق الأمم المتحدة والعهديين الدوليين الخاصين بحقوق الإنسان. غير أنّ مناورات العرب داخل النظام الدولي لا زالت ضعيفة، حضور النضال القانوني محدود. ما معنى أن تكون مناضلاً

داخل المؤسسة الدولية؟

غزّة، وهي تزرع اليوم تحت أعنف أشكال حرب الإبادة، تنحت بصمودها ونزيفها ملامح نظام عالمي جديد، بالغ التكلفة، لكنه آت لا ريب فيه.

في الحرب على غزة

منطق «الضحية» في رهان المثقف العربي على «ضمير» المثقف الغربي

د. فيصل جلول^(١)

صدر خلال فترة الحرب على غزة بيانان وربما أكثر من مثقفين عربا الى مثقفين أوروبيين او غربيين في سياق «مساءلة ونقد المثقف الغربي الذي تلكأ عن دعم قضية غزة بوصفها قضية نضال ضد الكولونيالية» ويأخذ المثقفون العرب على المثقفين الغربيين «حياديتهم» وانتهاكهم لقضية «التنوير وحقوق الانسان» وخضوعهم لازدواجية المعايير وتنكرهم لقيم العدالة واهمالهم فكرة التحرر الوطني عبر نموذجها الفلسطيني.

ويتضح من البيانين ومن مواقف أخرى، أن المثقفين العرب يشعرون بـ «خيانة» نظرائهم الغربيين لقيم مشتركة من بينها «التنوير والحداثة» كما ذكرنا، ومنظومة حقوق الإنسان والتحرر الوطني ورفض الكولونيالية

(١) باحث ومفكر عربي من لبنان

والدفاع المشترك عن الحريات والديمقراطية.

ويرشح من البيانين شعور ما بـ «الفاجعة» أو بـ «الخيانة» وفي أفضل الأوصاف بـ «التلكؤ»، مشفوعا بحض المثقفين الغربيين على نصرة الحق الفلسطيني. بيد أن «الفاجعة» أو في وصف درامي أخف، الاستهجان والإحباط، تمثل لدى كبار المثقفين العرب في موقف الفيلسوف الألماني من أصل يهودي يورغنه هابرماس الذي أصدر بيانا مع ثلاثة ن المثقفين الألمان - كلاوس غونتر، نيكول ديتلهوف وراينر فورست - ينطوي على «إدانة فعل الإبادة الجماعية ضد اليهود والمتمثل في المجزرة التي ارتكبتها حماس في إسرائيل» في السابع من أكتوبر - تشرين الأول من العام الماضي وزاد البيان «أن انتقام إسرائيل بهجوم مضاد على غزة لا يبرر ردود الفعل المعادية للسامية في المانيا». وينطوي البيان على صمت حول الإبادة الجماعية للفلسطينيين في القطاع الفلسطيني.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن موقف هابرماس يتساوى مع القسم الأكبر من المثقفين الغربيين، ما يعني أن الاستهجان العربي يطالهم أيضا.

لكن سببا آخر «للفجعة» لم يتطرق إليه المثقفون العرب، يكمن في أن الفيلسوف الألماني نفسه أيد أيضا الحرب على العراق التي شنها المحافظون الجدد في واشنطن عام ٢٠٠٣. وهذا يعني أن السيد المثقف الألماني اليهودي الكبير، كان وما زال منطقيا في مواقفه المؤيدة لإسرائيل والغرب. هو لا يتتقد الحرب البربرية الوحشية التي شنتها الدولة العبرية على غزة، بل يتضامن ببساطة مع بيئته الغربية وأبناء دينه ويمتنع عن إدانة فعل الإبادة الذي يارسونه في غزة، وبالتالي فإن ما كان يبدو أنه «قيم تنوير وأخلاق

وحقوق إنسان» أممية مشتركة بيننا وبين الفيلسوف الألماني قبل حرب غزة، ليس خديعة أو استهبال من طرفه، وإنما سوء تقدير من طرفنا، وفي أفضل الحالات هو سوء فهم من جهتنا لمعنى العلاقة بين المثقف العربي التابع والمثقف الغربي المتبوع.

يتسع سوء الفهم أكثر عندما تُبين لنا الوقائع أن الرابط «التنويري» بين هامبرماس والمثقفين العرب يسير باتجاهين مختلفين. فقد رفض الفيلسوف الألماني جائزة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان «شخصية العام الثقافية» في مايو - أيار عام ٢٠٢١ لأنها تناقض «قيم فكري التنويري» كما صرح. ذلك أنه «لم يتضح لي عندما قبلت الجائزة أن هذا البلد ليس حراً بفعل القيود الكبيرة التي يفرضها على الحريات المدنية، وانتهاك حقوق العمالة الأجنبية» بحسب مقال نشرته «دير شبيغل» الألمانية حول هذا الموضوع في حينه.

لكن هامبرماس لا يؤرقه على ما يظهر، قتل الولايات المتحدة الأمريكية مليون طفل عراقي في حربها الأولى على بلاد الرافدين ومئات آلاف العراقيين في حربها الثانية عام ٢٠٠٣، ومثلهم مئات الاف الليبيين والأفغان والسوريين. إن انتقاء العمالة الأجنبية في الامارات وسيلة قياس للتنوير والديمقراطية واحترام حقوق الناس واستبعاد الغربيين من منتهكي القيم والحقوق في أماكن أخرى، هذا الانتقاء يطيح بذريعة الفيلسوف الألماني لرفض الجائزة الإماراتية، بل يثير التساؤل حول احتمال امتناعه لكون المانح عربي، وهنا افتراق كبير بين موقف المثقف الغربي والمثقفين العرب إزاء دولة الإمارات الناهضة في الخليج.

ذلك أن المثقفين «التنويريين» العرب يتدافعون نحو هذا البلد، ويتنافسون

على جوائزه ويعبرون من خلال منابرهم ومسارحهم الفنية ومنطقته الإعلامية الحرة ويتوافدون للحصول على إقامته الذهبية. ولعل القسم الأعظم منهم أصيب بالذهول بعد تراجع الفيلسوف الألماني عن جائزة الشيخ زايد المذكورة وازداد ذهولهم جراء حقه على الفلسطينيين في غزة. وهنا أصف موقفه بالحاقد والعدائي، لأنه لم يلحظ كلمة واحدة للتعاطف مع مأساتهم ولم يُحمّل نصه عبئ التمييز الذي اصطنعه البعض بين الشعب الفلسطيني وحماس وبالتالي تحميل المنظمة مسؤولية الحرب ونزع المسؤولية عن أهالي القطاع.

لا يقتصر سوء الفهم بين المثقف العربي والمثقف الغربي على هابرماس، بل ينطوي على إهمال أو استخفاف أو فهم سطحي لموقع المثقف الغربي عموماً في مجتمعه وعلاقته بنظام الحكم في بلده. مع لفت الانتباه إلى أن هذا الوصف يشمل القسم الأعظم من المثقفين الغربيين ويستثني الهامشيين أو قلة محدودة من المتمردين اليساريين الذين لا يمثلون شرائح وازنة في المجتمعات الغربية.

أقول بعبارة أخرى أن نظرة معمقة لعلاقة المثقف الغربي بالسلطة والمجتمع في بلاده يجب ألا تفضي إلى أي استهجان أو «فجيرة» كتلك التي عكسها بيان ومواقف المثقفين العرب الموجهة للمثقفين الغربيين. وإذا كان ثمة ما يوجب الفجيرة هنا، فهي تتمثل في نوع الوعي السياسي للمثقف العربي الباحث عن العدالة والمساواة والنهضة في مجتمعات تقيس مستوى معيشتها بمقدار سيطرتها على الأسواق العالمية ومصادر الطاقة ومستوى ونوع خضوع المجتمعات الأخرى لسيطرتها ونفوذها وثقافتها السائدة.

طبيعة هذه العلاقة هي التي تحدد موقع المثقف الغربي من قضايا وقضايانا بوصفها علاقة تابع مهيز الجناح بمتبوع مهيمن كلي القدرة في شؤون هذا العالم المتعولم. وهنا لا بد من بعض التفصيل.

العلاقة بين المثقف الغربي ومجتمعه ودولته، وصفها المثقف الفرنسي الشاب بول نيزان في النصف الأول من القرن العشرين في كتابه الشهير «كلاب الحراسة» من خلال نقده اللاذع لـ «المدرسة العليا للأساتذة» التي خرج منها القسم الأعظم من مثقفي فرنسا الكبار، وهو منهم، إلى جانب ريمون آرون وجان بول سارتر. وما يصفه عن فرنسا يصح بقدر كبير على الدول الغربية الأخرى.

يقول نيزان عن هذه المؤسسة: «يخرج منها شيوخ مرسمين بالجوائز، يقدمون أفكاراً مطوعة ونظريات ذات أسنان مسنونة في مجالات علم النفس والأخلاق والتقدم والتأخر. لقد تعلموا كيف يهمشون «الأفكار الخطيرة». هؤلاء «منافقون ومتواطئون مع الظلم والاستغلال والاشغال الشاقة». لعل ما يعتبره نيزان الماركسي الراديكالي تواطؤاً هو في جوهره جزء لا يتجزأ من شروط إنتاج الثقافة والمعرفة ومن حرص المنتجين، أي المثقفين على الدفاع عن إنتاجهم بوصفه مجموعة قيم حضارية غربية منتشرة خارج الحدود، وتحتاج دائماً إلى حراسة في كل مرة يلوح خطر ما يتهددها أو في كل مرة تلوح في الأفق «طريدة» ما في العالم الجنوبي يمكن صيدها واقتناصها. ويلعب هنا المثقف الغربي دور كلب الحراسة في الداخل وكلب الصيد في الخارج من دون أي اختلاف في طبيعة الدورين.

إن من نرجو تضامنهم مع غزّة ومن نعاتبهم على امتناعهم ومن نستهجن

إهمالهم هم «كلاب الحراسة» الذين يتحولون في الأزمات الكبرى بين الغرب والعوالم الأخرى إلى كلاب صيد. مرة أخرى لا يستحق هؤلاء اللوم، بل يبدو الموقف من لومهم أشبه بموقف الرجل المخدوع الذي خانتته صديقه أو زوجته فيصب جام غضبه عليها مفترضا انه غير جدير بالخيانة في حين أن كل خيانة هي رد فعل على نوع العلاقة بين طرفين.

لعلنا في هذه العلاقة بين المثقفين العرب والغربيين، أشبه بالطبيب شارل بوفاري بطل رواية مدام بوفاري للروائي الفرنسي الشهير غوستاف فلوبير، الذي ارتضى طويلا فعل الخيانة وحاول تبريرها جراء فهمه الخاطيء لعلاقته بزوجته.

كيف لا يمكن أن تقع خيانة للمبادئ والقيم والأخلاق التي ندعي أنها مشتركة بيننا وبين المثقفين الغربيين، ما دمنا على علم بمواقف وسير وأنشطة البارزين منهم على كل صعيد، كيف نطلب احترام قيم التنوير وحقوق الانسان ومناهضة الكولونيالية من مثقفين غربيين برهنوا مرارا وتكرارا أن دفاعهم عن هذه القيم انتقائي ويستند الى مصالح بلدانهم الى معايير مزدوجة من نوع مقاومة إسرائيل في غزة عمل إجرامي وبربري ووحشي ومقاومة أمريكا في العراق عمل صدامي ديكتاتوري، فيما الدفاع عن السفارات في إيران عمل مقاوم تنويري وجدير بالدعم. وحتى لا يبقى هذا الكلام مجردا لا بد من تناول بعض الحالات.

كلاب الحراسة وكلاب الصيد^(١)

نبدأ مع مثقف نموذجي مشهور في فرنسا:

يلعب برنار هنري ليفي دورا مهما في الثقافة السياسية الفرنسية والغربية عموما، فهو فيلسوف، مليونير، أديب، مسرحي، سينمائي، ناشر وصحافي. كان صديقا ومستشارا للرئيس الراحل فرانسوا ميتران وللرئيس السابق نيكولا ساركوزي ولخليفته فرانسوا هولاند وصولا للرئيس الحالي إيمانويل ماكرون. هو أيضا صديق فاكلاف هافل والأمير الأردني الحسن بن طلال وآخرين. انطلق ليفي مع مجموعة «الفلاسفة الجدد» الذين حصلوا مبكرا في سبعينيات القرن الماضي على فتوى ومرتبة أشبه بـ «حجة» الثقافة من «بطريك» الثقافة الفرنسية العبقرية الراحل ميشال فوكو. الفتوى شملت في حينه فلاسفة شبان من بينهم اندريه غلوكسمان وجان ماري بنوا مع هنري ليفي وآخرين.

تجاوز ليفي الجميع، فهو لم يكتف بدور كلب الحراسة لحماية دولته ونخبها

(١) يختلف موقع الكلب في البلدان الأوروبية عنه في البلدان العربية. الوصف بالعربية يستخدم غالبا للتحقير كأن يقال فلان «كلب أو جرو» أو فلان «ينبح كالكلب». أما في الغرب، فالكلاب تنعم ربما بعصر ذهبي لم تبلغه في تاريخها، فهي جزء لا يتجزأ من حياة الناس اليومية الحميمة وتتمتع الكلاب بموازات لا يستهان بها تصرف على العناية بصحتها ونفسياتها وتحسين ذريتها. وعندما نستخدم تعبير كلب الحراسة، فهو لا يضير المثقف الغربي الذي يلعب هذا الدور عن سابق تصور وتصميم لحماية مجتمعه وبلده وحضارته.

تبقى الإشارة إلى أن وصف كلاب الحراسة استعرت من بول نيزان، علما أن كاتبها فرنسيا آخر هو سيرج حليمي، استخدم التعبير نفسه في كتاب نشره عام 1997 بعنوان كلاب الحراسة الجدد وفيه يعتبر أن الجدد هم بدرجة أساسية رجال الإعلام الذين احتلوا المشهد المعرفي بعد انهيار الحرب الباردة. أضفت من جهتي تعبير كلاب الصيد على الذين تولوا في الربيع العربي هذه المهمة خارج بلدانهم.

الحاكمة، بل لعب دور كلب الصيد خارج حدودها. مارس الصيد في جنوب السودان ودعم انفصاله، فخاض حملة إعلامية لانفصال دارفور، ودشن حملة أخرى من أجل استقلال كردستان العراق، ودعم الحريين الأمريكيتين على العراق، وعمل مع الـ«سي أي إي» في أفغانستان ضد الاحتلال السوفييتي، ونسق علاقة المعارضين السوريين، وعلى رأسهم احد زعماء الإخوان ملهم الدروبي مع الرئاسة الفرنسية. لا يوارب ليفي في مواقفه الغربية، بل يذهب بعيدا في الدفاع عن الغرب وإسرائيل، إذ يرى «أن العداء لأمريكا هو امتداد للعداء للسامية».

ايدّ ليفي عام ٢٠١٠ الاعتداء الإسرائيلي على سفينة المساعدات الإنسانية المتجهة إلى غزة، وفي موقف آخر جريء دافع عن رومان بولنسكي المخرج البولوني المتهم بالاغتصاب، كما دافع عن دومينيك ستروس خان مدير صندوق النقد الدولي المتهم أيضا بالاغتصاب وكلاهما من أصل يهودي.

قال عام ٢٠١١ بأنه دعم الحرب على ليبيا بوصفه يهوديا وصهيونيا واسرائيليا. حصل على ثلاث شهادات دكتوراه فخرية من جامعات إسرائيلية. وافتخر في مؤتمر للمجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية في فرنسا بأنه شارك في قيادة الحرب على ليبيا من اجل مصلحة إسرائيل. وحاول في العام ٢٠١٤ المشاركة في أنشطة تونسية الا انه حوصر من طرف ناشطين لمدة اربع ساعات في مطار قرطاج في تونس لمنعه من دخول البلاد واتهمه المتظاهرون بكونه صهيونيا يكره العرب والمسلمين.

يلتقي جان ماري بنوا مع ليفي في السيرة نفسها وان كان العمر لم يسعفه كثيرا. فقد انطلق يساريا ثم صار اطلسيا. كتب عن «موت ماركس» وترشح

في الانتخابات النيابية ضد جورج مارشيه الأمين العام الراحل للحزب الشيوعي الفرنسي.

أما اندريه غلوكسمان فقد انطلق ماويا مع ربيع الطلاب وثورتهم عام ١٩٦٨ وانتهى مؤيدا لنيقولا ساركوزي الرئيس الفرنسي الذي رفع شعار التخلص من إرث الثورة الطلابية المذكورة. دافع غلوكسمان عن عمليات الحلف الأطلسي في البلقان، وأيد اجتياح سوريا وليبيا. أيد مبادرة الرئيس الراحل جاك شيراك في اجراء تجارب نووية جديدة، وخاض حملة من أجل انفصال جمهورية الشيشان عن روسيا الاتحادية. وتحمس للتدخل الأمريكي في العراق، وكتب افتتاحية في جريدة لوموند الفرنسية دافع فيها عن الحرب الإسرائيلية على غزة عام ٢٠٠٩.

الهامشيون الشجعان

في مواجهة كلاب الحراسة وكلاب الصيد، يتقدم بضعة مثقفين شجعان، غالبا ما يتم تهميشهم وعزلهم وبالتالي الحؤول دون انتشار آرائهم ومواقفهم لدى قطاع واسع من الرأي العام. من بين هؤلاء الباحثين المستشرق فرانسوا بورغات والباحث باسكال بونيفاس.

بورغات (٧٥ عاما) ينتمي إلى نفس الفئة العمرية للثلاثة المذكورين انفا، لكنه يختلف تماما عنهم، ويمكنني القول انه نقيضهم في الموقف من غزة ومن القضية الفلسطينية. هو أيضا ينتمي الى المؤسسة الرسمية فقد عمل مديرا للمعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية في صنعاء (سيفاس) ومديرا لفروع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى في سوريا والعراق ولبنان والأردن

وفلسطين. وتولى بعد تقاعده إدارة فرع مركز الأبحاث ودراسة السياسات فرع فرنسا، الذي يديره الدكتور عزمي بشارة في الدوحة.

انفرد بورغات بتفسيره لصعود الإسلام السياسي عن الباحث جيل كييل وأيضاً أوليفيه روا والباحثين الكبار في الإسلاميات الذين يردون التطرف إلى النصوص الإسلامية. فهو يعتبر أن التطرف الإسلامي ناجم عن الماضي الكولونيالي ومن ضمنه «نشوء دولة إسرائيل» واختلف عنهم أيضاً بتأييد حركة المقاومة في غزة وهو كان مناصراً لحركات الربيع العربي جراء تقربه من تيار الإخوان المسلمين.

أُتهمَ المستشرق بـ «تمجيد الإرهاب» لأنه نشر بياناً صحفياً لحركة حماس على صفحته في محطة اكس (تويتر سابقاً). يردُّ البيان على مزاعم نشرتها صحيفة (نيويورك تايمز) عن أعمال عنف واغتصاب ارتكبتها مقاتلون من حماس في ٧ أكتوبر — تشرين الأول الماضي، في حين تؤكد الحركة في بيانها أن هذه المزاعم كاذبة وهي جزء من «محاولة صهيونية لشيطنة مقاومة الشعب الفلسطيني».

وإذا كان بورغات يتحلى بشجاعة نادرة في هذا الصدد، فإن هامشيتة وعزلته تحوله إلى ضحية، وإلى شريك للمثقفين العرب المدافعين عن غزة، لكن هذه الشراكة لا تغير الشيء الكثير من طبيعة المشهد الثقافي الفرنسي والاوروبي الذي تبقى الكلمة الفاصلة فيه لـ «كلاب الحراسة» و«كلاب الصيد» ومن يسير على رسمهم.

من جهته تعرض الباحث المعروف باسكال بونيفاس (٦٩ عاماً) لحملة تنكيل بسبب تقرير أعده عن الأوضاع في فلسطين المحتلة عام ٢٠٠١ بوصفه مستشاراً للحزب الاشتراكي الفرنسي في القضايا الدفاعية والاستراتيجية.

اقترح في تقريره الامتناع عن تأييد حكومة ارييل شارون المتطرفة والابتعاد عن سياستها المكرسة لاضطهاد الفلسطينيين وبخاصة الأطفال، والحوؤول دون إنجاز حل الدولتين بحسب اتفاقات أوسلو.

أصدر بونيفاس من بعد كتابا بعنوان «هل يمكن انتقاد إسرائيل في فرنسا؟» الامر الذي ضاعف الهجوم عليه من قبل اللوبي الإسرائيلي الى حد اتهامه بالعداء للسامية، لكنه لم يتراجع رغم تهديده بالقتل، ونشر في العام ٢٠١٨ كتابا بعنوان «معاد للسامية» يشرح فيه مواقفه ويؤكد انه لم يقاضى يوما بهذه التهمة التي تعتبر جريمة في فرنسا يعاقب عليها القانون.

أدت الحملة الى اقالة بونيفاس من الحزب الاشتراكي والى حرمانه من محاضراته الاكاديمية والضغط من اجل اقالته من إدارة مركز معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية (ايريس) الذي اسسه ويشرف على اعماله منذ العام ١٩٩٠، من دون جدوى، فهو ما زال يدير هذا المركز الذي صنف في الدرجة الـ ٢٦ بين مراكز البحث العالمية.

تفيد هذه القراءة المكثفة للمشهد الثقافي الفرنسي والتي تعكس الى هذا الحد او ذاك قدرا كبير من المشهد الثقافي الأوروبي تفيد بأن تطلع المثقفين العرب الى تشكيل مشهد ثقافي واحد مع نظرائهم الأوروبيين دفاعا عن غزة وبخاصة والقضية الفلسطينية عموما، هذا التطلع يعاني من سوء فهم او سوء تقدير لطبيعة الثقافة والمثقفين في أوروبا والغرب يمكن اختصاره في الخطوط العريضة التالية.

أولا: ان التنوير الذي يظنه المثقفون العرب مجالا مشتركا يتساوون فيه مع الأوروبيين، هو في حقيقته غطاء لتبعية تأسست في الفترة الكولونيالية منذ حملة بونابرت على مصر، مروراً باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ «كل الرجال

في الجزائر تقريرا يجيدون القراءة والكتابة في حين كانت فرنسا تضم ٤٠ بالمئة من المتعلمين فقط وكان الجنود الذين ارسلوا لتنوير الجزائري اميين» بحسب إحصاء اجراه السينمائي الفرنسي الشهير رينيه فوتيه.

إن إرسال جنود اميين لـ«تنوير» الجزائريين يلقي ضوءا ساطعا على معنى التنوير الذي حملته الكولونيالية الى بلداننا بوصفه شعارا للتكريس الغلبة العسكرية بغطاء ثقافي حضاري ما زال قائما حتى اليوم باشكال وصور مختلفة.

ثانيا: يعكس بيان المثقفين العرب سوء فهم لطبيعة المثقف الغربي الذي يلعب دور كلب الحراسة في خدمة بلاده ومجتمعها ومصالحها، وعندما يعرف المثقف الغربي نفسه بوصفه مواطنا عالميا فهو يفعل ذلك انطلاقا من مرتبة بلاده وليس من موقع المساواة بينها وبين غيرها.

لا يمكن للغالب ان يساوي المغلوب في مرتبته والا انتفت الغلبة. ان مواقف غالبية المثقفين الغربيين من حرب العراق الأولى والثانية اندرجت تحت سقف «حماية مستوى معيشتنا» أي حماية موقع الغالب.

ثالثا: لا يتساوى موقف المثقفين العرب والغربيين عموما من الكولونيالية والاستعمار. فما يبدو استعمارا استيطانيا جديرا بالرحيل في فلسطين في عرف المثقف العربي هو بنظر المثقف الغربي رحيل لـ«الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» التي تشكل امتدادا متقدما للغلبة الأوروبية. لقد راينا في العرض مدى التهميش والتهديد الذي يتعرض له باحث متقاعد أوروبي عندما يخالف هذه المعادلة، عبر انتصاره لاطفال غزّة، او عبر تفسيره للتطرف الإسلامي بطريقة مخالفة للتفسير الرسمي المستند الى خطاب «كلاب الحراسة».

رابعاً: يحذر بيان المثقفين العرب «نظرأهم» الأوروبيين من الخلط بين «المقاومة والإرهاب» مفترضين ان المثقف الغربي ربما يرتكب خطأ في هذا المقام. اغلب الظن ان «فرضية الخلط» واردة من فكر العرب ومن افتراضهم الوهمي بان المثقف الغربي يمكن ان يقاتل الى جانب «حماس» ضد إسرائيل. يجب ان نتذكر جميعاً ان المثقفين الغربيين عموماً ايدوا القضية الفلسطينية عندما تخلى ياسر عرفات عن الميثاق الوطني الفلسطيني السابق ووقع اتفاق أوسلو بما يتناسب مع المصالح الاسرائيلية التي عبر عنها في حينه رئيس الوزراء الأسبق اسحق رابين.

خامساً: يقول بيان المثقفين العرب «نرى في المثقفين الغربيين الفئة الحية المؤمنة، في مجتمعاتها، على حماية المبادئ والقيم الكبرى، التي صنعت الحضارة الإنسانية الحديثة والمعاصرة، ولأننا نتقاسم وهؤلاء المثقفين الإيمان بالمبادئ والقيم الإنسانية عينها: الحرية والعدالة، والمساواة، وحقوق الإنسان، وحماية الكرامة الإنسانية، ونبذ التعصب والعنصرية ونبذ الحرب والدفاع عن السلم، ورفض الاحتلال، والاعتراف بحق الشعوب في استرداد أراضيها المحتلة، وفي تقرير المصير والاستقلال الوطني... إلخ»

إن القيم المشتركة التي يذكرها البيان تظاهر بها برنار هنري ليفي في مشروعه الليبي الذي رأينا كيف صنفه في خدمة مصالح إسرائيل. ويمكن تداول القيم نفسها في مشاريع الغلبة كما رأينا في المثال الجزائري حول التعليم والتحضير (من حضارة) وفي العراق وسوريا وأفغانستان وامثلة أخرى كثيرة.

إن الطريقة الوحيدة التي تتيح تقاسم هذه المبادئ مع المثقفين الغربيين هي في طي صفحة الغلبة والتحرر من الاحتلال بوسائلنا، ساعتئذ يمكن

تقاسم الحرية بين احرار والعدالة بين متساويين وحقوق الانسان بين شعوب حرة. هذه القيم لا تسود بالاستعطاء ولا تُطلب من موقع الضحية ذلك ان الضحية تستحق الشفقة وليس المساواة والعدالة والحقوق الكاملة. من هنا نعود مرة أخرى الى مثال برنار هنري ليفي الذي وبخ أحد كبار المعارضين السوريين في ندوة أشرف عليها عام ٢٠١٢ في قاعة الموتوياليتيه الشهيرة في باريس، ردا على اشارته العرضية للاحتلال الإسرائيلي فقال له «هنا لا نتحدث عن إسرائيل نتحدث عن النظام السوري فقط والا تذهب الى مكان اخر»...

سادسا: ختم المثقفون العرب رسالتهم بالقول: «نحن على ثقة بأن الضمير الثقافي خليق بأن يصحح الرؤى الخاطئة والهفوات التي يقع فيها كثير من أهل الرأي والإبداع في الغرب، وأولها تلك التي نسجت طويلاً، حول فلسطين وحقوق شعبها، وحول حركة التحرر الوطني الفلسطينية، من أجل أن يستقيم الموقف الثقافي من هذه القضية على قاعدة مرجعية المبادئ الكبرى الإنسانية بصدق وشفافية.. بعيداً من كل نفاق أو خداع أو ازدواج في المكايل».

من المؤسف القول ان المثقفين العرب الذين يراهنون على الضمير الثقافي الغربي من اجل نصره غزّة هم اشبه بجنود المستعمرات الأوروبية الذين قاتلوا مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية املين ان تعيد إليهم استقلال بلادهم بعد الحرب فكان ان عزز المنتصرون سيطرتهم على المستعمرات ولم تتحرر البلدان المستعمرة الا بعد قتال شرس وتضحيات قُدرت بملايين القتلى في شمال افريقيا والهند الصينية وغيرها.

تأملات في الحق والكذب

على ضوء فضيحة الفلسفة الغربية
إزاء إبادة سكان غزّة^(١)

د. محمد المصباحي^(٢)

مقدمة:

إذا كانت الأزمنة الحديثة في نظر أكثر من مؤرخ للكذب قد تميزت بوصول الكذب فيها إلى أعلى مداه، إذ أننا «لم نكذب قط بالقدر الذي نكذبه اليوم. كما أننا لم نكذب بهذا النحو السفه والنسقي والراسخ كما نكذب اليوم»، كما لاحظ ألكسندر كويري، فإنه يمكن اعتبار أن الكذب وصل مع إسرائيل إلى أوجه في السفه والبذاءة والخطورة. فهي تُمطر العالم يومياً وعلى مدار الساعة وابتلاً من الكذب بشأن فلسطين والفلسطينيين والمقاومين والمقاومات،

(١) أُلقيت هذه الورقة في المؤتمر ١٢ للجمعية الفلسفية الأردنية «تجديد الفكر النهضوي العربي» في عمان ٢٧-٢٩ يوليو ٢٠٢٤.

(٢) فيلسوف مغربي.

بحيث لم يعد العالم اليوم يتنفس سوى بالكذب الإسرائيلي صباح مساء. بكل وقاحة أمست إسرائيل، وبخاصة أثناء حربها على غزة منذ السابع من أكتوبر ٢٠٢٤، تزور كل شيء: التاريخ، الجغرافيا، الطبخ، اللباس، لتثبت أن لها الحق وحدها في أرض فلسطين التي اغتصبتها من أهلها. حتى الصور التي من طبيعتها أن «تنقل الحدث الساخن كما هو في الحال في الحروب» تعرضت هي الأخرى لشتى أنواع التزييف البشع إلى حد أنها عرضت لصور مفبركة لأطفال يهود قُطعت المقاومة رؤوسهم - وهو الأمر الذي تم تكذيبه - حتى تعبت بعواطف السياسيين الغربيين في وتعبتُهم بالحق على المقاومين من الفلسطينيين الذين تسميهم بالإرهابيين. هكذا يمكن أن نتكلم عن مرحلة الثالثة تتوج المرحلتين السابقتين لتاريخ الكذب، الكلاسيكية والحديثة، نسميها المرحلة النازية-الصهيونية، حيث تحوّل الكذب فيها إلى كذب أونطولوجي مارس النازيون بموجبه محرقة فظيعة لليهود، ويمارس الصهيونيون يوميا منذ أربعينات القرن الماضي محرقة ثانية في حق الفلسطينيين والفلسطينيات. سنقسم كلامنا في هذه الورقة إلى ثلاث فقرات، نتكلم في الأولى عن كيفية تحول الكذب إلى سمة جوهرية للسياسة الإسرائيلية، وفي الثانية سنتحدث عن انجرار ورضوخ بعض الفلاسفة الغربيين إلى تصديق الكذب الإسرائيلي ونفي الحق الفلسطيني، ونخصص الفقرة الثالثة لواجب مقاومة الكذب الإسرائيلي بالحق بما هو حق.

أولاً) الكذب جوهر السياسة الإسرائيلية

اقترحنا مفهوم «الكذب الأونطولوجي» للدلالة على أن إسرائيل مجبولة على الكذب بالفطرة منذ أن طرأت على العالم العربي، وأن وجودها صار متوقفاً على عدم أو إعدام الوجود الفلسطيني أرضاً وشعباً أولاً باستعمال قوة الحديد والنار لإخراج الفلسطينيين والفلسطينيات من ديارهم والاستيلاء عليها؛ وثانياً بالكذب والبهتان السلاح الأشد فتكاً من سلاح القوة.

نعم، نعتقد أن الكذب هو «أحد موجودات العالم» منذ أن وُجد الإنسان على الأرض، لكن الذي طمّ الوادي على القرى هو الكذب الإسرائيلي الفج والفاجر، الذي استند إلى كذبتين صارختين، كذبة أولى كانت على شكل اسطورة دينية تبرر احتلال اليهود لأرض غيرهم بالعنف والإكراه بناءً على وعد توراتي؛ وكذبة ثانية هي الديمقراطية التي تسخرها إسرائيل يومياً لشرعنة سلب الأراضي من أهلها وتشريدهم من بيوتهم وطردهم من حقوقهم عبر تصويت «ديمقراطي» لبرلمانها. وتوسعت عملية الافتراء وإظهار الظلم بمظهر الحق من سرقة الأرض إلى سرقة المدخرات الثقافية من لباس، ومطبخ، ورموز بل وحتى الأغاني.

هنا يجدر بنا أن نتساءل سؤالاً كانطياً قائلين: هل لإسرائيل «الحق في الكذب» دون غيرها، أي هل يمكن ترخيص الكذب لها دون غيرها واعتباره فضيلة أخلاقية لا شراً مستطيراً ما دام يضمن حقها في الوجود وفي الدفاع عنه؟ إذا كان بعض الفلاسفة ومعظم السياسيين الغربيين يُجيزون لإسرائيل مثل هذا الحق، وينكرون على أصحاب الحق الأصلي من الفلسطينيين المطالبة به والدفاع عنه، فإننا سواء كنا كانطيين (بأن نقول بأن لا حقَّ لإسرائيل بأية حال من الأحوال في الكذب لأنه يقوّض مصدر الحق، وبالتالي ينسف كل

المبادئ الأخلاقية والعقود السياسية، ما دام الكذب شرّاً مطلقاً) أو كنّا ما بعد كانطيين (نميل إلى القول بوجود أكثر من حق واحد، وبالتالي بصراع الحقوق)، لا نستطيع أن نمنح إسرائيل الحق في الكذب تحت أي غطاء أو مبرر سياسي كان، لأن تماديها في الكذب من شأنه أن يؤدي إلى إبادة شعب وإحلال مجموعة من الآفقيين الذين أتوا من كل أنحاء الأرض ولا علاقة لهم بأرض فلسطين إلا عن طريق السرديات التوراتية، وهو أمر ترفضه كل الشرائع والأخلاقيات.

نعم، عانى اليهود الأمرين من اضطهاد وقهر الأوروبيين على مدى عشرات القرون، وكان من الإنصاف أن يُبحث لهم عن وطن خاص بهم لطبيّ ملف اضطهادهم الديني وكرهية عرقهم السامي، لكن أن يكون هذا الحل على حساب شعب آخر كان يعيش مطمئناً في أرضه منذ الأزل أمر ياباه العقل وترفضه كل الشرائع الإنسانية والإلهية. بعبارة أخرى، إن الجور والتعسف الذي مارسه الأوروبيون على اليهود لا يشفع لهؤلاء أبداً أن يستولوا على أرض غيرهم بالحديد والنار ويأرسوا نفس البطش والتنكيل بالفلسطينيين والفلسطينيات الذي مارسه الأوروبيون عليهم على المستويين الديني والعرقي على مدى عهود من الزمن. إن إدانتنا لكذب إسرائيل ليس فقط لكونه يُفسد الفضيلة ويطيح بالكرامة الإنسانية ويهدد بخلط الفضيلة بالرديلة، ولكن بالخصوص لكونه يشردّ شعباً بريئاً مما اقترفته الشعوب الأوروبية بحقهم. فلماذا يدفع الفلسطينيون ضريبة ما فعله الأوروبيون؟

بات الكذب، إذن، يشكّل هوية الدولة الإسرائيلية. وهو كذب غريب في نوعه وطبيعته. فكذب إسرائيل ليس من النوع الذي كان يرفضه كانط، مثلاً أن يأتي رجال الغيستابو إلى ربة بيت ليسألوها فيها إذا كان يختبئ لديها المقاوم

أم لا، فتنفي وجوده لديها بالرغم من أنه موجود في بيتها؛ بل إن الكذب الإسرائيلي هو من نوع آخر، وهو أن يأتي رجال الموساد لأسرة فلسطينية تعيش منذ آلاف السنين في بيتها ليقولوا لها أخرجي من هذا البيت فهو لنا، هو بيتنا، فيتم تشريد الأسرة وطردها تحت وابل من الرصاص والإهانة.

واضح أن هذا الكذب لا يتعلق بأمن الدولة، أو بتدبير الحياة العامة، وإنما هو كذب جوهري، كذب وجودي هدفه سلب حق الوجود من شعب بأكمله ظلماً وعدواناً ومنحه لشعب آخر إفكاً وبهتاناً. وهو أيضاً كذب ميتافيزيقي لأنه يستند إلى نص توراتي دموي يبيح تشريد شعوب منطقة بأكملها باسم وعد إلهي مزعوم. هكذا يتحول الحق إلى ظلم، والظلم إلى حق، ويصبح الكذب حقاً؛ أما الحق الأصلي للشعب الفلسطيني فهو بالنسبة لإسرائيل كذب، كأن وجود شعب بقضه وقضيضه في أرضه منذ آلاف السنين هو مجرد أضغاث أحلام. هكذا تتحول الحياة البشرية في فلسطين إلى جحيم لا يشعر بهوله إلا القليل من شرفاء العالم ومن بينهم شرفاء اليهود.

أمام هذا الوضع الغريب لا يسعنا إلا أن نتساءل هل الصهاينة - من اليهود ومن غير اليهود - عاجزون على إدراك الحقيقة لأنها تتطلب منه مجهوداً مضنياً لا طاقة لهم به، أم لأنها تهدد إيمانهم العقدي وترزع استقراره النفسي، أم لأن ضياء الحقيقة يُعميهم للوهلة الأولى، فيهربون منها إلى كهف المعتقدات والظنون والآراء والأحكام المسبقة، أم أنهم - وهذا ما نعتقده - يعرفون الحقيقة لكنهم يفضلون أن يعيشوا بضدها، بالكذب والظلم.

ونعود إلى أكذوبة «الأرض الموعودة» التي نعتقد أنها أكبر أكذوبة عرفها تاريخ السرديات البشرية، أولاً لأنها كذب على الله من جهتين، الجهة الأولى أننا نعرف من ملتنا أن الله يقول في الحديث القدسي «يا عبادي إني حرمت

الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»، والحال أن إسرائيل اتخذت هذه الكذبة على الله مطيةً لإبادة الفلسطينيين بشكل أعتى وأقسى مما فعله النازيون باليهود؛ والجهة الثانية التي نذهب فيها مذهب الدليل الأونطولوجي فنقول فيها إن تعريف الله يقتضي ضرورة نفي الظلم عنه، وإلا لو كان ظلاماً للعباد لما كان إلهاً.

وبارتباط مع أكذوبة الشعب المختار، راجت في أوروبا القرن التاسع وما تلاه أكذوبة شبيهة بها تقول بتفوق العرق الآري على العرق السامي، فتحول الشعب المختار من اليهود إلى الآريين. ومن مفارقات القدر أن اليهود أرادوا إثبات تفوق عرقهم السامي على العرق السامي العربي بإقامة دولتهم على أرض فلسطين.

نخلص مما سبق إلى أن الكذب الإسرائيلي يدخل في باب الكذب المستحيل لأنه يطمع في اقتطاع موضوعاته من مجال المستحيل، وهو استحالة محو شعب ابن البلد لصالح قوم آخرين لا بلد لهم. في مقابل ذلك يدخل الحق الفلسطيني في باب الحق الضروري، الذي بطبيعته لا يؤدي إلا ذوي العقول الضعيفة.

فضيحة الفكر الغربي:

فضحت حرب غزة، أو بالأحرى طوفان الأقصى، رهطاً من المفكرين الغربيين الذين سارعوا للدفاع عن «حق» المحتل الإسرائيلي في الدفاع عن نفسه، متجاهلين حق الفلسطينيين في الذود عن أنفسهم وأراضيهم. بموقفهم هذا يكونون قد تنكروا لمبدأ المساواة في الإنسانية بين اليهود والفلسطينيين، وهو المبدأ الأساس الذي قام عليه التنوير. إن هؤلاء

الفلاسفة الغربيين بسلوكهم التمييزي هذا يكونون قد اعترفوا بأن مبادئ التنوير، من حرية وكرامة ومساواة وعدالة وحقوق الإنسان، لا تنطبق إلا على الغربيين ومن يواليهم، وأنهم بموقفهم هذا يكونون شبيهين بإسرائيل التي تستثني الفلسطينيين من الإنسانية وتعتبرهم حيوانات وعبيداً. هكذا يكون هؤلاء الفلاسفة قد فضّلوا رؤية تشابيح الحقيقة وظلالها في كهوف سردياتهم التوراتية وأيديولوجيتهم الصهيونية على أن يواجهوا أنوار الحقيقة الفلسطينية الساطعة في وضوح النهار لأنها تؤلمهم. وهذا يثبت أنهم فعلاً ليسوا مستقلين في أفكارهم وأحكامهم ومشاعرهم لأنهم واقعون تحت طائلة الرعب الصهيوني.

وفقدان المفكرين الغربيين لحاسة إدراك الحق نفهمه بمعنى فقدانهم لحاسة التفلسف طالما أن الفلسفة في أصلها الأولي والبريء هي البحث عن الحق. بالفعل دخل هؤلاء المفكرون في سبات دغمائي صارت بموجبه أضغاث أحلامهم تُزيّن لهم الظلم في هيئة الحق، «فيلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم يعلمون» خوفاً من عقاب رهيب ينتظرهم إن هم صدحوا به. إن «تبييض» هذه الزمرة من المفكرين الغربيين للكذب الإسرائيلي في «حقهم» في الوجود، وإنكار الحق الفلسطيني الصريح في الوجود، يدل على أنهم عاجزون عن إدراك الاختلاف والتعارض، وبخاصة التعارض بين الحق والظلم، والحق والباطل، وهو ما يُدرجهم تحت تعريف ابن رشد للعامة.

لكن من جهة أخرى، بوسعنا أن نتصور علاقة إسرائيل بالغرب، أو علاقة إسرائيل الأولى بإسرائيل الثانية، بكونها علاقة متضادة. فالمتلقي الغربي للكذب يعرف أن إسرائيل تكذب عليه، ولكنه يستلذ به ويعتبره عين الحقيقة.

مع ذلك، لا ينبغي أن نتخلى عن مبادئ التنوير والقيم المتصلة بها والتي تطورت وما زالت بشكل رائع في المجتمعات الغربية، واعتبارها مجرد أكاذيب رُددت على مسامعنا برطانة لمدة طويلة. إذن علينا ألا ننحي باللائمة على قيم العدل والمساواة والإنصاف والعقلانية والحرية والإنسية... دون وجه حق، فهي فتوحات تنويرية ما زالت صالحة وقابلة للتطوير. وإنما علينا أن ننحي باللائمة على خيانة بعض المفكرين الغربيين لهذه القيم وبخاصة لرأس هذه القيم وهي المساواة في الإنسانية بين مختلف المجتمعات، وتلميحهم بأننا، نحن العرب، لسنا أهلاً لأن نكون متمتعين بهذه القيم: إبادة أطفال غزة ونسائها وأطبائها وعلمائها وأساتذتها ومعلميها والعاملين في المستشفيات وتعذيبهم لا أهمية لها بالنسبة لهم، ولا تثير أي شعور بالمواساة والتعاطف والاستنكار، لكن أن يُقتل إسرائيلي واحد فإنّ دينا الإعلام ينتفض تنديدا بالإرهاب الفلسطيني. وهذه وضعية مرعبة في تاريخ الإنسانية لأنه حينما يتوقف أن يكون هناك مكيال واحد بالنسبة لكل الإنسانية، فعلى أن نترحم على موت الأخلاق والكرامة الإنسانية. فالقيم الإنسانية العليا إما أن تكون شاملة وعلى حد سواء بين الناس أجمعين أو لا تكون. إننا لا نقبل استثناءً حتى بالنسبة لليهود.

بعبارة أخرى، علينا ألا نتخذ من تعطيل بعض الفلاسفة الغربيين مثل الأنوار بالنسبة لأهلنا ذريعة للتخلي عنها والسقوط في فخّ العدمية التي تروج لتعدد الحق، ولتساوي الظلم بالحق، والحق بالباطل، ولتفضيل بشر على آخرين. إذ المساواة والحرية وحقوق الإنسان والديموقراطية والعلمانية والإنسية وحق الاختلاف ستظل قيماً صالحة للإنسانية جمعاء. فإذا كان بعض فلاسفة الغرب قد فضّلوا تعطيل عقولهم وضمايرهم أمام مقاومة الفلسطينيين للمحرقة التي تقترفها إسرائيل في حقهم يوماً هذه الأيام، فإنه

علينا ألاّ نعطلّ المبادئ التي عطلّوها. فنحن نشبث بقيم التنوير والحداثة قيماً حية وكونية، ونرفض تطبيقها على قوم ورفضها بالنسبة لأقوام آخرين.

هل أخطأ الفلاسفة الألمان أم كذبوا في حق الفلسطينيين؟ ما يميز المخطئ أنه يثبت شيئاً غير حقيقي إما عن جهل أو عدم فهم، بينما الكاذب يعرف الحق، لكنه يسعى إلى إخفائه أو تزويره بوعي وتصميم لإيقاع الخصم في الاعتقاد بكذبه. من ثم، لم يُخطئ الفلاسفة الألمان عندما رفضوا حق المقاومة في الدفاع عن أرضها، وإنما كذبوا لأنهم يعرفون حقيقة أن ذويهم هم الذين أنشأوا هذا الكيان المصطنع، ومع ذلك قاموا بتضليل الرأي العام الأوروبي.

أكّد الفلاسفة الألمان بفعلتهم هذه أن زماننا هذا هو زمن إسرائيل بامتياز، إذ تفاقم فيه الكذب السياسي تفاقماً مذهلاً إلى درجة أنه أصبح سلاح دمار شامل ينشر الخراب في كل أنحاء العالم. ومن الغريب أنه بالرغم من أن الإنسانية لم تعرف بهتاناً مثل الذي تقترفه إسرائيل الأولى وإسرائيل الثانية، فإنه لم تتحسن جودة الكذب، إذ ما زال الكذب يُقدم بفجاجة أفضع من السابق محتقراً الحقيقة وعقول الناس معاً. فالغرب اليوم يعرف أن مخاطبيه يعرفون الحقيقة، مع ذلك يصرون على ترديد كذبه البذيء المرة تلو الأخرى بدون ملل أو كلل، وكأنه يريد أن يثبت أن الكذب هو الذي يصنع الحقيقة.

ولا شك أن الفيلسوف المؤسس لعقيدة وصناعة «تبييض» الكذب بلا منازع هو ليو شتراوس التي نددت بها الباحثة الكندية شادية ذُروري. فهرباً من كانط الذي كان يقول بأن الكذب ينطوي على احتقارٍ لكرامة الجمهور أو الشعب الذي نكذب عليه، احتّمى ليو شتراوس وراء سلطة كل من أفلاطون ونيشيه لإحياء فكرة التمييز بين الخاصة والعامة وبث ثقافة احتقار الحقيقة وشرعنة استعمال الكذب بمختلف أشكاله لخداع الشعوب

غير الغربية وقايةً للحضارة الغربية من أهوال الكشف عن الحقيقة. لكننا نعلم أن أفلاطون ونييتشه لم يجرّضا الفلاسفة قط على الكذب على الجمهور والإيقاع به لممارسة الإرهاب ضد الشعوب. فقد ظل أفلاطون يعتقد دائماً بأن الفعل السياسي ينتمي إلى الفعل الأخلاقي، ولا يمكن أن تكون السياسة أخلاقية إن هي قامت على الكذب والخداع. أما ليو شتراوس، الذي كان له تأثير كبير على المحافظين الجدد، فقد رَوّج بأنه لا يمكن تُساس الشعوب والجماهير إلا بالكذب والجهل، وحشو دماغها بمختلف ضروب الترهّات والأراجيف والأساطير المؤجّجة لغرائزه وانفعالاته. من هنا كانت مقاومة هذا الرجل واجبا فلسفياً لمواجهة الهدف الذي وضعه لفلسفته وهو تعطيل الحقيقة، وترقية الكذب إلى مرتبة المحرك الأول للتاريخ في هذا العالم.

جماع القول، كذّب الفلاسفة الألمان على شعوبهم وعلى العالم كافة لإخفاء فضيحة إنشاء أوروبا لإسرائيل تطهيرا لقارتهم من الساميين، ولتبرير حقها في شن الحرب تلو الحرب على الفلسطينيين. هكذا صار العدم مبررا للممارسة العدم، مما يجعل كذب إسرائيل ما بعد الحداثي كذبا وقحاً وكارثيا بامتياز.

في ضرورة مقاومة الكذب

نخلص من تحاليلنا السابقة إلى أن الكذب أصبح «طبيعة» ثانية لإسرائيل بكل تياراتها اليمينية واليسارية. فالكذب بالنسبة لها ليس صفة عَرَضية ومؤقتة، أي ليس كذبا نفسيا أو اجتماعيا أو تربويا أو أخلاقيا أو حقوقيا أو سياسياً، وإنما هو كذب أونطولوجي، أو لا لأنه يشكل ماهية الدولة الصهيونية، وثانياً لأن هذه الدولة صارت مصنعا ضخماً لإنتاج وفبركة الأكاذيب، واختلاق الإشاعات، ونكث الوعود، والتحلل من العهود، والتنصل من الالتزامات،

احتقاراً منهما للشعوب العربية والعالمية التي لا ينبغي، في نظرها، أن تعرف الحقيقة. ومما يدل على الطابع الأونطولوجي لكذبها اعتبار نفسها فوق الحق والقانون وفوق دول العالم بما فيها الولايات المتحدة التي أضحت مجرد مرآة لها. وقد بدا هذا جلياً في تحدّيها لفظ محكمة العدل الدولية والمحكمة الجنائية الدولية ولكل منتظم دولي يسهر على الكشف على وضعية حقوق الإنسان في العالم. وهي لا تكتفي بعدم الاعتراف بقرارات المنظمات الدولية بالإيقاف الفوري لمحرقتها لسكان غزة، بل تتحداها بالإفراط والشطط في حدة عدوانها على السكان والتنكيل بهم وتجويعهم والنيل من كرامتهم كلما صدر قرار أممي بالوقف الفوري للحرب.

ومما زاد الطين بلة أنه في هذا الجو التراجيدي الذي لا يطاق بظلمه ومآسيه انبرت، كما مر بنا، زمرة من الفلاسفة الأوروبيين «المتنورين» لمساندة إسرائيل في الدفاع عن «حقها» في الوجود، من دون أي اعتبار لما يعانیه الشعب الفلسطيني من اغتصاب لحقه التاريخي في وجوده، وحقه في مقاومة مغتصب وجوده. بهذه المساندة المطلقة «لحق» المحتل الإسرائيلي في الوجود وفي الدفاع عنه، والإنكار اللامشروط لحق فلسطين في الوجود وفي المقاومة، يكون هؤلاء الفلاسفة الغربيون الموقعون على عريضة المساندة قد أقرّوا ضمناً بوجود حقين متضادين: اليهودي والفلسطيني، والحال أن «الحق لا يضاد الحق» كما قال ابن رشد. وبالتالي، إذا سلّمنا بصحة هذا المبدأ الرشدي، فسيكون أحد الحقين باطلاً، وهو في نظرنا «الحق» الإسرائيلي لأنه استند إلى الكذب في انتزاع حق الغير. أما إذا كنا ما بعد حداثيين فقد نقول بمشروعية وجود أكثر من حق واحد، ووجود أكثر من معيار واحد للحق، وفي هذه الحالة سيكون علينا الاعتراف بتضاد الحقوق، وهو ما يؤدي إلى نفي الحق

من أصله وهذا منتهى السفسطة والسفاهة.

من هنا سيكون على الفلاسفة والمفكرين العرب أن يصدحوا بواجب مقاومة الكذب الإسرائيلي-العربي وأن ينفدوا أطروحة الحق المزدوج أو تعدد الحق معاً. ومن شأن هذا الواجب الأخلاقي والفكري والسياسي أن يحرر الفكر العربي من ريق الاستلاب والتبعية المطلقة للفلسفة الغربية، واعتبارها غير مؤهلة في هذه النازلة الفلسطينية لأن تُملّي علينا ما هو حق وما ليس حقاً، ما هو خير وما ليس خيراً. كما أن واجب مقاومة الكذب بالحق من شأنه أن يوقف نزيف العدمية المنتشرة في عالمنا العربي والعودة بكل تواضع إلى روح الحداثة في كنهها الأصلي بما تقتضيه من عقلانية وموضوعية ونقد، وأن يوقف فعل إنهاك الشعب الفلسطيني وإرهاقه بإغراقه في جو من اليأس والإحباط الذي هو البيئة المواتية لتفريخ الإرهاب الذي هو وليد الكذب السياسي والثقافي والإيديولوجي في أعلى صورته.

من أجل تحقيق هذه الأهداف نقترح بضع خطوات لمقاومة هذا المدّ من الكذب المركّب، العربي الإسرائيلي هي:

أولاً، بما أن الكذب الإسرائيلي ذو طبيعة ميتافيزيقية بحكم شموليته، إذ أنه لا يكتفي بإنكار حق الفلسطينيين في الوجود وحسب، بل ويهدد الوجود البشري برمته على هذه الأرض عن طريق إفساد ميله الفطري للحق والصواب والصدق، وإشعال نار الفتنة والهيمنة في كل مكان، وتهديد التنوع الحضاري والثقافي في العالم بفرض ثقافة الرياء والنفاق والخداع والمراوغة والمكر والافتراء والكذب على العالم، فإنه ينبغي أن تكون مقاومة الفكر العربي لمرض الكذب الإسرائيلي شاملة: بالفكر النظري النقدي، وبالعمل

الجمعي المدني، والعمل السياسي الذي تقوم به الأحزاب السياسية. باختصار، إذا كان الكذب الإسرائيلي كذبا مطلقا لا كذبا نسبياً، فعلى مقاومة الفكر العربي له أن تكون مقاومة مطلقة وشاملة.

المبدأ الثاني لمقاومة المد التضليلي أن لا تكون مواجهة الكذب بالكذب، كأن نعتبر الكذب جزءاً من المقاومة الثقافية، بل ينبغي أن تكون مقارعة الكذب بالحق، والتصدي للباطل بالصدق، لأن الواجب يقضي أن يكون الإنسان صادقا في قوله الحق مهما كانت العواقب والتبعات التي سترتب على واجب الصدق بالحق. فالإنسان ليس حُرّاً في أن يقول الحق أو لا يقوله، بل من واجبه أن يقول الحق في جميع الأحوال.

المبدأ الثالث لمقاومة الإفك والبهتان أن يتصدى الفكر العربي لخرافات إسرائيل وتخرصاتهما انطلاقاً من إيمانه أنه يتكلم باسم الإنسانية جمعاء من أجل إنقاذها من الغرق في «جحيم» العدمية واليأس. ذلك أن مقاومة الفكر العربي للإيديولوجيا الإسرائيلية-الغربية الرامية إلى تحويل «العالم إلى كذب في كذب» يؤهل هذا الفكر لأن يكون ضمير الإنسانية الحي، وهذا بفضل نضال ومقاومة أهل غزة بخاصة، وأهل فلسطين بعامة. بعبارة أخرى، مهمة مقاومة الكذب المركب الإسرائيلي-الغربي تمكّن الفكر العربي من أن يقوم بواجب إيقاظ الغرب من سباته السياسي والفكري بتنبهه إلى ضرورة التوقف عن إلbas الحداثة لباس «ما قبلها» كما يفعل الإرهاب الإسرائيلي في غزة والضفة الغربية منذ عقود، حيث يستندون إلى أساطيرهم التوراتية لتبرير اغتصابهم لأرض الشعب الفلسطيني وإبادة سكانها باسم الحداثة الديمقراطية. وهذا الواجب، واجب تنبيه الضمير الإنساني إلى ضرورة

العودة إلى الحق والصواب، يشمل حتى اليهود أنفسهم الواقعين تحت طائلة الكذب الإسرائيلي. بعبارة أخرى، أمام أزمة الفلاسفة الغربيين مع أنفسهم ومع العالم، لم يبق إلا أن نكون نحن هم القادرون على إيقاظ الذات الغربية من سباتها بشأن العودة إلى فكرة الحق الذي هو من مقومات التنوير، وأن نُخبر هابرماس ومن معه بأنهم مارسوا الكذب في حق أنفسهم وفي حقنا وفي حق مبادئ التنوير عندما دافعوا فقط عن حق إسرائيل في الدفاع عن النفس بهذه الطريقة، أي بمحرقة كل النفوس الفلسطينية، وإنكار حق فلسطين في الدفاع عن النفس بالمقاومة.

من واجبات مقاومة الفكر العربي للكذب المركّب الإسرائيلي-الأمريكي أن يقوم بتنفيذ أطروحة ليو شتراوس الذي أوّل نيتشه تأويلاً رديئاً بالقول بأن «الحقيقة فظيعة» و«عقيدة وقاسية» وتتسم بالظلمية والخسة، وأنها تشكل تهديداً للنظام والاستقرار السياسي العالمي، وبأنه كلما كان الإنسان أخلاقياً بدا سطحياً وساذجاً وغُفلاً، والعكس حينما يمارس الإنسان الكذب والبهتان يبدو في أبهى تجليات وجوده الخلاق والفعال. كما تقتضي مواجهة ليو شتراوس لأنه أثّر تأثيراً بليغاً على كثير من الفلاسفة الغربيين الذين أُصيبوا بعمى الألوان. في مقابل ذلك، على الفكر العربي أن يعيد الأمور إلى نصابها بإحياء التقليد الماثور الذي يعرف الإنسان بالحق، لا بالباطل، ما دام الحق من ثمرات العقل الذي هو ماهية الإنسان.

من جهة أخرى، على الفكر العربي أن يقوم بنقد الأسطورة التي تقف وراء تأييد قطاع كبير من المسيحيين لإسرائيل وحرصهم على انتصارها على المقاومة الفلسطينيين، وهي أسطورة عودة المسيح، وتعويضها بشعار عودة

الحق.

ومن مهام المقاومة الفكرية العمل على إيقاف ازدياد هذه الدولة المارقة للعدالة الدولية وللقيم الأخلاقية الإنسانية، وبذل قصارى جهدنا كيلا ينتصر البطلان الإسرائيلي على الحق الفلسطيني لأن ذلك من شأنه أن يكرس نظاما عالميا كليا قائما على الغش والكذب، وذلك بالدعوة إلى إنشاء محكمة دولية خاصة بمراقبة الكذب الدولي كيلا يتم تكريس نظام عالمي قائم على الكذب، والعمل على أن يصبح للحق والمنطق السليم السيادة في العلاقات الدولية،

وأخيرا ولدرء مخاطر الكذب على شبابنا علينا أن نهتم به علميا بالمطالبة بخلق قسم خاص للكذب في مدارسنا وجامعتنا ومراكز بحثنا أولا لدراسته دراسة علمية وفلسفية، وثانيا لتدريسه لناشئتنا حتى يكونوا على محجة العقل.

خاتمة

من أفضال محنة غزة أنها أيقظت الفكر العربي من تخدره بالفكر الغربي، وجعلته قادراً على أن يميز بين حادثة وحداثة على أساس الاعتبار بالحق. لذلك سيكون على هذا الفكر أن يغتنم فرصة اليقظة الفكرية والأخلاقية ليأخذ زمام المبادرة لإيقاظ الضمير الغربي من سباته جراء نسيانه لمبدأ الحق. ونحن نذهب إلى أن نسيان الحق أهم شأنًا من نسيان الوجود الذي نند به هيدغر، ذلك أننا إن كنّا لا نملك أن ننسى الوجود لأننا نعيش في غمرته أحببنا أم كرهنا، وحتى إن نسيناه لا تتلاشى إنسانيتنا، فإننا متى نسينا الحق توقفنا أن نكون بشراً لأن الحق هو الذي يقوم ماهيتنا بوصفه وليد العقل،

النور الذي يمنحنا القدرة على رؤية الحقيقة كما هي لا كما نتوهمها. ولأمر ما كان أهلنا من الفلاسفة والمتصوفة والمتكلمة يرون بأن الحق هو أحد معاني الوجود حيناً، وحيناً آخر بأنه أجدر معاني الوجود عندما يدل على المبدأ الأول، الوجود الحق.

إن نسيان زمرة من المفكرين الغربيين حق فلسطين في الوجود على أرضه وفي مقاومة من يعيشوا فيها تدميراً وفساداً، في مقابل دفاعهم عن «حق» إسرائيل في الوجود والدفاع عنه، يدل على أنهم أمسوا عاجزين عن إدراك الفرق بين الوجود الفلسطيني والوجود الإسرائيلي، بين وجود قائم على الحق والعدل وعلى حب الأرض والحياة، ووجود قائم على الكذب والبهتان وعلى تعطش الموت للآخر وتدميره وإبادته بنشوة هستيرية لا تليق بالإنسان بما هو إنسان. كما أن تنويعهم بحق إسرائيل في الدفاع عن وجودها يدل على عجزهم عن إدراك الاختلاف والتعارض بين الحق والظلم، وبين الحق والباطل، مما يسمح لنا بإدراجهم تحت مسمى العوام حسب التعريف الرشدي لهم. معنى هذا أن الموقّعين على عريضة التنديد بالمقاومة الفلسطينية لإسرائيل، لم يعودوا ينتمون إلى «الخاصة» الذين ينعمون بملكية تميز التضاد بين الحق والظلم. وهو ما يفسر أن هذا الرهط من الفلاسفة وغيرهم عاجزون حتى على الإحساس بفداحة إبادة شعب بأطفاله ونسائه وطلابه وأطبائه وصحافيه ومسعفيه، والشعور بالتعاطف مع المظلومين.

لكن يبدو أن الكذب انطلى حتى على إسرائيل نفسها. ذلك أن فبركة أوروبا لدولة إسرائيل في العالم العربي، هو في حقيقة الأمر رفض من هذه القارة لأن تكون هذه الدولة جزءاً منها دون أن يفتن الصهاينة بذلك. فكان

إقدام أوروبا الآرية على تصدير اليهود الساميين للمنطقة السامية بامتياز وهي المنطقة العربية لإنشاء دولتهم إنما هو تعبير صريح عن معاداة أوروبا الآرية الجذري والثابت للسامية. لقد حلت إسرائيل ضيفاً ثقيلاً على العالم العربي، ولعل هذا هو السبب الدفين في تشريح وتفكيك بعض الفلاسفة الأوروبيين لموضوع الضيافة التي لا يعرفون معناها.

يتشدد المفكرون الغربيون بحجة الاستثناء الإسرائيلي فيما يخص تبنيها لديموقراطية في محيط غارق في الاستبداد، والحال أن في هذا التنويه شيء من التمييز والتزييف لمفهوم الديموقراطية الحق، لأنه متى انتفت الفضيلة من الديموقراطية أمست مضادة مع نفسها، أو قل أمست استبداداً مقنناً.

إن اعتراف كثير من المفكرين الغربيين بالحق التوراتي لليهود في أرض الميعاد بجانب الحق الواقعي والتاريخي للفلسطينيين ينتهي بهم إلى القول بنظرية «الحق المزدوج». لكن إذا سلّمنا بحكمة أن الحق لا يضاد الحق، أي باستحالة القول بحقين والجمع بينهما، فإنه عليهم أن يختاروا ما هو الحق وما هو الباطل، وإلا فإنه لا يمكن القول بوجود حقّين متضادين، لأن الحق عندما يضاد الحق يصبح فاسداً، أي باطلاً وكاذباً.

ارتبطت غزة هذه الأيام بحدث جليل هو حدث طوفان الأقصى، فتعاملت إسرائيل معه كما تعاملت أمريكا مع حدث ١١ سبتمبر. والحال أنه شتان بين الحدثين، فحدث نسف برجَي نيويورك حدث إرهابي بالتعريف، بينما حدث طوفان الأقصى حدث مقاومة أسقطت ورقة التوت عن إسرائيل وانكشفت عورتها العرقية، وافتضح حقدّها على الإنسانية جمعاء وبخاصة عداوتها للعرب والفلسطينيين. هذا علاوة على أنه قبل طوفان الأقصى كانت

إسرائيل تُلوّح بوجود فرق نوعي بين الخاصة والعامة حتى بين الشعوب،
ناسبةً نفسها إلى الخاصة بمعية الغرب، والأقوام غير الغربية وبخاصة العرب
إلى العامة، فأثبت الطوفان أن لا فرق بين الشعوب في الذكاء والفطنة وحسن
التدبير، وأن الإسرائيليين هم في الحقيقة جماعة مجانين أصابتهم هستيريا القتل
والتنكيل والتدمير، أن الحق الفلسطيني ليس حقاً سياسياً يُكسب بالمناوره
والخداع والغش، وإنما هو حق وجودي لا تنازل عنه إلى الأبد.

نهاية الإفتتان بفلاسفة الغرب

د. طلال عترسي^(١)

فوجئ الكثيرون ببيان نشره الفيلسوف الشهير يورغان هابرماس في ١٣/ تشرين الثاني نوفمبر ٢٠٢٣ مع ثلاثة آخرين من النّخبة الأكاديميّة الجرمانية، في الصّحافة الأوروبيّة والعالميّة، هم نيكولا ديتلهوف أستاذة العلوم السياسية، ورينر فوريسست الفيلسوف المعروف، والأستاذ كلاوس غونتر- بيأنًا حول ما يجري في قطاع غزة، أدانوا فيه «المجزرة التي ارتكبتها حماس ضد إسرائيل بنيّة إبادة الحياة اليهودية بشكل عام».

حمل البيان عنوان: «مبادئ التضامن، اتّخاذ موقف»، وذلك بعد شهر تقريباً على عملية «طوفان الأقصى» التي قامت بها حركة حماس في ٧ أكتوبر على المستوطنات الإسرائيليّة واختطفّت فيها مجموعة من الضباط والجنود والمستوطنين للمطالبة بإطلاق آلاف السجناء الفلسطينيين من السجون الإسرائيليّة.

(١) أستاذ وعالم اجتماع بالجامعة اللبنانية

وبعد يومين فقط على هذه العملية فرضت إسرائيل حصاراً خانقاً على قطاع غزة، شمل منع دخول الغذاء والماء والدواء والوقود والكهرباء. قبل أن تنتقل بعدها إلى الحرب العسكرية المباشرة. ووفقاً للأمم المتحدة (الأسكوا) في أكتوبر ٢٠٢٣ «أفضت الحرب على غزة، تحت وطأة الحصار الكامل الذي تفرضه إسرائيل على القطاع، إلى زج السكان في دوامة غير مسبقة من الحرمان والفقر المتعدد الأبعاد، وبالتالي إلى كارثة إنسانية على كافة المستويات».

وهي التي قالت عنها France 24 في ٢٦/١٢/٢٠٢٣ بعد ٨٠ يوماً «أن الدمار الهائل في غزّة لم يشهد له العالم مثيلاً خلال القرن الواحد والعشرين». بعدما شنت إسرائيل حملة عسكرية شملت قصفاً جويًا وصاروخياً ومدفعياً وعمليات برية ميدانية أسفرت عن مقتل أكثر من ٢٠ ألف فلسطيني وإصابة نحو ٦٠ ألفاً آخرين، وأدت إلى تدمير معظم البنية التحتية والمنازل المدنية والمساجد والكنائس وانهيار القطاع الصحي في غزة «وقد ارتفع هذا العدد من الضحايا حتى نهاية مارس ٢٠٢٤ إلى أكثر من إثنتين وثلاثين ألفاً. وهي الحرب التي قال فيها يوأف غالانت وزير الدفاع الاسرائيلي عن الفلسطينيين أنهم «حيوانات بشرية».

صدر بيان هابرماس ورفاقه في ظل هذا الوضع العسكري والانساني، وقد تعمّد موقعوه «إعلان موقف» التأييد للعدوان الاسرائيلي على قطاع غزة في فلسطين، في وجه ما أطلقوا عليه «هجوم حماس الوحشي الذي لا مثيل له». ولم يكتف الموقعون بهذا، بل عدّوا مايقومون به بمثابة «مبادئ لا يمكن الاعتراض عليها وتشكّل أساس التضامن مع إسرائيل ويهود ألمانيا».

«لأن المذبحة التي نفّذتها حماس، بهدف معلن هو تدمير الحياة اليهودية بشكل عام، ما دفع إسرائيل إلى الرد».

ويذهب البيان إلى نفي التهمة حتى عن النوايا الإسرائيلية بارتكاب إبادة جماعية « لأن معايير التقييم تُخطئ تماماً عندما نعزو نوايا الإبادة الجماعية إلى الفعل الإسرائيلي. وعلى وجه الخصوص، فإن تصرفات إسرائيل لا تبرر ردود الفعل المعادية للسامية، وحتى أقل من ذلك في ألمانيا. من غير المحتمل أن يتعرض اليهود في ألمانيا مرة أخرى لتهديد في حياتهم وسلامتهم الجسدية، وأن يضطروا إلى الخوف من العنف الجسدي في الشوارع ».

أي أن هابرماس ورفاقه يعلنون من دون أي تردد موقف التضامن مع ما يقوم به الجيش الإسرائيلي لحماية «الحياة اليهودية» التي تريد «الوحوش البشرية» تدميرها، في حين أن إسرائيل لا تنوي حتى تنفيذ أي إبادة جماعية للسكان الفلسطينيين. وصولاً إلى القلق من أن يتعرض يهود ألمانيا مرة أخرى للتهديد في حياتهم وسلامتهم!! بحيث يُحيلنا هابرماس، في الوقت الذي «يُقتل فيه الأبرياء الفلسطينيين، إلى ما تعرّض له اليهود في ألمانيا من اضطهاد وخوف إبان النازية، ليررّ موقف التضامن «الإنساني» مع هذا الجيش، ومع اليهود في وجه «وحشية حماس» التي تهدد حياتهم وسلامتهم، «وتريد القضاء عليهم مجدداً» مستعيداً «فوبيا» تهمة العداء للسامية وسردية اليهود «الضحايا» الذين لا يفعلون سوى «الدفاع عن النفس».

إن المشكلة في موقف هابرماس ومن وقع البيان معه، أنهم يتجاهلون أن ما قامت به حركة حماس لا يمت إلى يوم السابع من أكتوبر. ولم يكن مفاجئاً بالمعنى التاريخي والاجتماعي، فهو نتاج تراكم سنوات وعقود طويلة من الحصار والاحتلال للشعب الفلسطيني. أي أنه نتاج تراكم عملية تعنيف متشابكة ومتينة على المستويات كافة للفلسطينيين، كان لا بد من التمرد عليها في لحظة ما. ومن اللافت أن يتجاهل الفيلسوف سياق وخلفيات تفسيره لحدث ما! لكن هابرماس يعود إلى هذا السياق التاريخي عندما يستحضر

المجتمع الألماني في نص البيان وما ارتكب فيه من فظائع بحق اليهود والتي لا يجب أن تتكرر على أيدي الفلسطينيين. ما يفعله هابرماس في بيانه الشهير تكرار للسياسات الغربية اللاأخلاقية التي تكيل بمكيال المصلحة والقوة على حساب مكيال الحق والعدل عندما يتعلق الأمر بمصالح الغرب، أو بمصالح إسرائيل.

هكذا يتعاطى نص هابرماس في بيانه وكأن قضية فلسطين لا تاريخ لها، أو كأن حركة حماس قامت فجأة من مكان ما، وشتت هجومها «الوحشي» على اليهود الآمنين. لكن هابرماس يستعيد التاريخ في الوقت نفسه للتذكير بما تعرض له اليهود على يد النازية في ألمانيا.

ما فعله هابرماس ورفاقه أثار الجدل حول قضية ادعاء الفيلسوف أو المثقف الغربي عامة هويّة إنسانية من جهة، وتحيزه في الوقت نفسه إلى غربيته الاستعمارية، من جهة ثانية، خاصة وأن هابرماس كأنموذج كان يدعو في فلسفته إلى حل إشكالية الحداثة وعلاقة الذات بالآخر.^(١) هذه الفلسفة التي تبلورت كما يقول هابرماس نفسه إبان حقبة الحكم النازي في ألمانيا الذي تأسس على مبدأ تفوق الذات الألمانية والعرق الآري، والذي «ارتكب فظائع بحق الأجناس والأعراق الأخرى المختلفة عنه».

وكان هابرماس يدعو إلى تأسيس عقلانية تواصلية تستند على مبادئ قيمية وأخلاقية تتلافى علاّت العقلانية الأداتية. وكان مسعاه النقدي يتمثل في تقويم الحداثة والعقلانية من خلال تأسيس معايير أخلاقية تقوم بضبط عمليات العقلنة وتحركاتها، وتتأسس هذه المعايير على

(١) راجع يورغان هابرماس، «الحداثة وخطابها السياسي»، دار النهار، بيروت ٢٠٠٢.

اعتبارات التواصل والاعتراف بالآخر^(١)

ولكن يبدو أن هذه الإشكالية التي بُنيت عليها فلسفة هابرماس تكاد تقتصر على العلاقة مع الآخر الغربي / اليهودي، الذي تعرض «لفظاعات الحكم النازي في ألمانيا». كما يبدو أن تلك «المعايير الأخلاقية» و«اعتبارات التواصل والاعتراف بالآخر» الفلسفية لم يكن المقصود منها عملياً سوى الفضاء الغربي الذي يعيش فيه ويفكر فيه هابرماس، وهو الذي كانت اهتماماته الفلسفية كما مواقفه المبدئية مرتبطة بمصير ألمانيا وملتزمة بهوموم المجتمع والدولة الألمانية بُعيد انتهاء الحرب العالمية الثانية، حتى وصفه وزير الخارجية الألماني الأسبق يوشكا فيشر بأنه «فيلسوف الجمهورية الألمانية الجديدة»، وذلك منذ أكثر من خمسين عاماً.

ولذا ستختفي هذه «المعايير الأخلاقية» كلها في الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة ويتحيز هابرماس علانية، ويتضامن مع المحتل الإسرائيلي الذي يرتكب إبادة يشهد عليها العالم بأسره. وسيتضامن في الوقت نفسه مع حكومته الألمانية التي لن تعود إلى اضطهاد اليهود، وتمدد الجيش الإسرائيلي بأكثر أنواع الأسلحة فتكاً بعد الولايات المتحدة، وتقف إلى جانب هذا الجيش في حربه على الشعب الفلسطيني وترفض الدعوة إلى وقف الحرب.

لم تكن المرة الأولى التي يتحيز فيها فيلسوف أو مثقف غربي «إنساني» إلى سياسات الغرب التي يبرر بها احتلال الشعوب ونهب ثرواتها بذريعة نقلها من التخلف إلى التمدن. فقد فعل ذلك مفكرون آخرون، منذ القرن التاسع عشر، في لحظة التوثب الغربي للاحتلال والتوسع. وها هو «فيكتور هوغو»

(١) راجع يورغن هابرماس «الدين والعقلانية، نصوص وسياقات»، دار الحوار سوريا

(Victor Hugo) على سبيل المثال، مؤلف قصّة «البؤساء»، يرى في احتلال فرنسا الجزائر «خبراً مفرحاً». يقول صاحب تلك الرواية الشهيرة: «إنّ الغزو الذي قمنا به في الجزائر ذو شأن كبير ومفرح. إنّها الحضارة التي تكتسح البربريّة. إنّهُ الشعب المستنير الذي يذهب باتجاه شعب غارق في الظلام. نحن أغريق العالم وعلينا أن نضيئه».

كما خطب «هوغو»، والذي كان عضواً في مجلس الشيوخ الفرنسيّ، مشجعاً أبناء وطنه على تسريع عمليّة استعمار أفريقيا، واصفاً هذا الاستعمار بالضروريّ والسّهّل. فأردف قائلاً: «هيا أيّها النّاس، استولوا على هذه الأرض، حصلوا عليها. لمن تعود ملكيّتها؟ إنّها ليست ملكاً لأحد. اذهبوا واحصلوا على هذه الأرض لأجل الرّب، إنّهُ هو الذي يهب الأرض للنّاس، والرّب أهدى أفريقيا لأوروبا...»^(١).

لم يرَ «هوغو» أيّ تناقض بين تشجيعه على تحرير السّود من العبوديّة واحتلال قارّتهم! «لأنّ الرّجل الأبيض، كما يقول «هوغو»، صنّع من الأسود إنساناً في القرن التّاسع عشر. وبالطّريقة نفسها، ستصنع أوروبا من أفريقيا عالماً في القرن العشرين»^(٢).

ومن هذا المنظور الاستعلائي نفسه أنكر الرّئيس الفرنسيّ إيمانويل ماكرون أصل وجود الجزائر خارج الحقبة الاستعماريّة؛ ذلك لأنّ «الاستعمار هو بداية

(١) سعدي بزيان، جرائم فرنسا في الجزائر: صفحات مظلمة من تاريخ الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر من الاحتلال ١٨٣٠ إلى الاستقلال ١٩٦٢، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، ٢٠٠٥، ص ٢١. راجع أيضاً

Pierre-Jean Luizard «Le choc colonial et l'Islam, Les politiques religieuses des puissances coloniales en terre d'islam» Editions la decouverte, Paris 2006 p18

(٢) ملف في مجلّة Le Nouvel Observateur الفرنسيّة بعنوان: «عندما احتلّت فرنسا أفريقيا لتضع حدّاً للعبوديّة»، ١٨ / ٧ / ٢٠٢٠.

تاريخ شمال أفريقيا. وقبل هذا الاحتلال لم يكن لهذه الشعوب تاريخ»^(١)! في حين يعترف من سبقه من رؤساء فرنسا مثل جاك شيراك «أنّ فرنسا من دون خيرات أفريقيا ستكون من دول العالم الثالث»، وأنّ ثروات بلاده هي من استغلال أفريقيا. وفي مقابلة معه في ٩ / ١١ / ٢٠٢٢ قال حرفياً: «إنّ جزءاً من المال الموجود في جيوبنا أتى بالتحديد من الاستغلال منذ قرون لأفريقيا، ليس كلّه ولكن الكثير منه أتى من استغلال أفريقيا. ويجب أن نملك القليل من العقل السليم ومن العدالة، لنعيد للأفريقيين ما سلبناه منهم، إذا أردنا أن نتفادي أسوأ أو أصعب الصّراعات، مع التّائج السّياسيّة المترتبة عن ذلك في القرون المقبلة». وبدوره يعترف الرّئيس الأسبق فرنسوا ميتران: «من دون أفريقيا فرنسا لن تملك أيّ تاريخ أو تواجد في القرن الواحد والعشرين؛ فبقاء سيطرة فرنسا على أفريقيا يكسبها قوّة عالميّة».

وينضمّ إلى قائمة المدافعين عن استعمار أفريقيا، من منطق الاستعلاء نفسه، الأديب الفرنسيّ «ألبير كامو» بقوله: «إنّ الأرض ملك لمن يراها بشكل أفضل»^(٢). و«جول فيري» (Jules Ferry) الذي اشتهر برؤاه الإصلاحية التّربويّة في فرنسا، وهو من أشدّ أنصار الحركة التّوسّعية الفرنسيّة، إذ قال أثناء نقاش برلمانيّ في العام ١٨٨٥: «إنّ سبب التّوجّه إلى استعمار أفريقيا هو أنّ العرقيّات المتفوّقة لديها حقوق على حساب العرقيّات السّفلى. كما أنّ للأولى واجباً يتمثّل في نشر الحضارة لدى الثّانية. وإنّ مقولة (حرية، مساواة، إخاء) لم تشأ ولا تصلح للشعوب المولّى عليها»^(٣).

لقد جعل الغرب الأوروبيّ النّزعة الإنسانيّة «تقتصر على المتسبين إليه،

(1) Le Monde 22021/10/.

(٢) سعدي بزيان، مرجع سابق، ص ٥٠.

(٣) مجلّة Le Nouvel Observateur، مرجع سابق.

مع اعتقاد بأنّ الشعوب الأخرى كانت متخلّفة، وتعيش وفاق مواصفات العهود السحيقة؛ أي إنّها بدائية^(١). أي إنّهم «وحوش بشرية» كما قال وزير الدفاع الاسرائيلي، عن الفلسطينيين، وهجوم حماس «وحشي»، كما وصفه بيان الفيلسوف هابر ماس ورفاقه. وهؤلاء «المتمدنين» في الغرب هم «الحديقة» وباقي العالم هو «الغابة» أو «الأدغال»، كما وصفهم «جوزف بوريل» (Josep Borrell)، منسق الاتحاد الأوروبي للشؤون الخارجية، في خطابه في افتتاحيّة الأكاديمية الديبلوماسية الأوروبية ببلجيكا، في ١٩ / ١٠ / ٢٠٢٢، الذي قال فيه: «إن أوروبا حديقة، لقد بنينا حديقة، أفضل مزيج من الحرية السياسية والرخاء الاقتصادي والترابط الاجتماعي استطاعت البشرية أن تبنيه، لكن بقية العالم ليس حديقة تماما، بقية العالم... أغلب بقية العالم هو أدغال». وأضاف: «الأدغال يمكن أن تغزو الحديقة، وعلى البستانيين أن يتولوا أمرها، لكنهم لن يحموا الحديقة ببناء الأسوار، حديقة صغيرة جميلة محاطة بأسوار عالية لمنع الأدغال من تكون حلا، لأن الأدغال لديها قدرة هائلة على النمو، والأسوار مهما كانت عالية لن تتمكن من حماية الحديقة، على البستانيين أن يذهبوا للأدغال، على الأوروبيين أن يكونوا أكثر انخراطا مع بقية العالم، وإلا فإن بقية العالم سوف تغزو أوروبا».

أمّا الأسوأ ممّا قاله «بوريل» في بيان اعتذاره الذي نُشر على موقع الاتحاد الأوروبي، فهو أنّ استعماله مصطلحيّ «الحديقة» و«الأدغال» ليس من اختراعه، إنّما كان هذا المفهوم حاضراً في النقاشات الأكاديمية والسياسية منذ عقود^(٢)! أي أنّ مفاهيم الاستعلاء مثل الحديقة والغابة والتمدين والتخلف

(١) إدغار موران، مرجع سابق، ص 25.

(٢) موقع الجزيرة 2022/10/19.

أُنتجت في البيئات الأكاديمية أساساً ليستخدمها السياسيون استناداً إلى مشروعاتها الأكاديمية.

يبدو أن «الوحوش البشرية»، التي يُطلق عليها البدائية والمتخلفة أيضاً مقارنة مع «تمدن» الغرب المكلف بنقل الحضارة إلى تلك «الوحوش» له امتداده في التشكّل الفكري التاريخي للغرب نفسه. فهذا هو «هيجل»، الفيلسوف الشهير (١٧٧٠-١٨٣١)، يجزم، «في الغرب فقط تقف الحرية... ففي الغرب يدخل الفكر في ذاته ويصبح فكراً كونيّاً، وبذلك تنصّب أوروبا نفسها مركزاً تدور في فلكه آلاف السنين من الحضارات الشرقيّة التي تنتظر ولادة المعجزة الإغريقيّة ووريثها التنويريّ الأوروبي».

ولا يجب أن يفاجئنا هابرماس «فهيجل يأبى تدنيس تاريخ البشرية بمجتمعات داكنة البشرة ومصنّفة دون (الاستبداد الشرقيّ)، مدّعياً أنّ أفريقيا «لا تنتمي إلى تاريخ العالم». (كما قال ماكرون عن الجزائر أنها لم تكن شيئاً قبل الاحتلال الفرنسي). وبما أنّ أفريقيا أرض تدبّ فوقها كائنات غير عاقلة، تعيش ولكنها لا تتطور، فإنّها تشكّل فرصة ذهبيّة للتّوسّع الألمانيّ الذي سينعم عليها بالتّطور»^(١). إنه التطابق بين الفكرة الفلسفية والفكرة الاستعمارية.

وحتىّ الماركسيّة نفسها، الفلسفة التي تنتقد النظام الرأسماليّ كانت تعتقد بدورها بالاستعلاء الغربيّ «التمدن». وربما يفاجئنا «ماركس» (Karl Marx) (١٨١٨-١٨٨٣) برويّه التي لا تختلف جوهريّاً عن رؤية «هيجل». يقول، في مقالة له نشرت في مجلّة أميركيّة عن «سياسة روسيا التقليديّة إزاء السلطنة العثمانيّة»: «إنّ القسطنطينيّة هي المدينة الخالدة، إنّها روما الشرق. ففي القسطنطينيّة اختلطت الحضارة الغربيّة بالبربريّة الشرقيّة، وقد تكثّف

لاحقاً هذا الاختلاط مع البربريّة الشرقيّة، تحت السيطرة التركيّة، لدرجة أنّ المدينة كمركز لإمبراطوريّة تيوقراطية أصبحت تشكّل سدّاً منيعاً في وجه التّقدّم الأوروبي^(١).

يستخدم «ماركس» مصطلحات «الحضارة الغربيّة» و«البربريّة الشرقيّة» و«السّد المنيع في وجه التّقدّم الأوروبي». إنّها المصطلحات نفسها عن «الوحوش البشريّة» وعن الحديقة والأدغال التي يستعيدها من المخزون الثقافيّ الغربيّ منسّق الاتحاد الأوروبيّ للشؤون الخارجيّة. «إنّه الخطاب الكولونياليّ الغربيّ الذي يقدّم رؤية متعصّبة وصورة نمطيّة عن الشّرق تجعله في خانة التّابع والهامشيّ للمستعمر، لتأييد هيمنته ومركزيّته». كما يقدّم هذا الخطاب صورة المستعمر «التّابع» بوصفها غير قابلة للتّقدّم في التّاريخ، لتحقيق رغبة استعلاء الذات الاستعماريّة التي توصف بأنّها ذات قدرة كليّة وذات حضور كليّ في التّاريخ، كما وصفها إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق^(٢).

ومن مدرسة فرانكفورت «النقدية» نفسها التي يتّمي إليها هابرماس نُشرت أحد أكثر نصوصهم السياسيّة صراحةً في عام ١٩٥٦ التي بدلاً من دعم حركة التحرر العالميّة المناهضة للاستعمار، «انضمت إلى جوقة المتغنيّن بتفوق الغرب، عبر تشويه سمعة الاتحاد السوفيّاتي والصين، واستحضار الأوصاف العنصريّة لـ«برابرة» الشرق، مستخدِمين مفردات «الحيوانات»

(1) G.W.F. Hegel: Leçons sur l'histoire de la philosophie. Tome 1. Paris: Vrin 1971.

ذكره سهيل القش، المرأة المتكسرة تشظّي الكيان اللبناني، رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٢٢، ص ٧١-١٠٢.

(٢) طلال عتريسي، «التقدم الغربي وتبدّد الوعد العظيم»، مجلة جامعة المعارف، لبنان، العدد التاسع ٢٠٢٣.

و«القطعان» التي تحط من قدر الإنسانية بشكل صارخ (كما استعمل الصهاينة هذه الأيام العبارات نفسها لوصف الفلسطينيين)، معلّنين بصرحة أن الروس «فاشيون» اختاروا «العبودية». ووصل الحدُّ بأدورنو (وهو أحد رموز مدرسة فرانكفورت) أن انتقد الألمان الذين يعتقدون خطأً أن «الروس يمثلون الاشتراكية»، مذكِّراً إياهم بأن الروس في الواقع «فاشيون». (كما هو حال توصيفهم روسيا وشيطنتها، في موجة عداها تشبه الإسلاموفوبيا) .

يزايد عليه هوركهايمر بشوفينيته الأوروبية مركزية عبر التأكيد، «أن أوروبا وأميركا ربما تكونان أفضل الحضارات التي أنتجها التاريخ حتى الآن من حيث الرخاء والعدالة. الأمر الرئيسي الآن هو الحفاظ على هذه المكاسب».^(١) وعلى الرغم من أن تاريخ الغرب كما يقول المفكر الفرنسي «إدغار موران» (Edgar Morin) «هو منذ خمسة قرون اندفاع هائج من البربرية الأوروبية، ومن الغزو والاستعباد والاستعمار»^(٢) إلا أن هذا الغرب بسبب كبريائه واستعلائه يحتزل تاريخ باقي الحضارات إلى مجرد بضعة أحداث... إنها الكبرياء التي تتكلم؛ كبرياء الغرب الأوروبي الذي لا يردع يقينه أي شك، والذي يوهننا أن التاريخ الذي يعود إلى آلاف السنين في كل من الصين ومصر يمكن اختزاله إلى بضعة أحداث، بينما يجري تضخيم الأحداث في الغرب مع لوثر ونابليون بشكل يجعل من تاريخ بضعة عقود أشباحاً تحجب عنارؤية تاريخ الحضارات الشرقية الممتد إلى آلاف السنين»^(٣).

ومع ذلك، يشكو الغرب في بدايات احتكاكه بالشعوب غير الغربية

(١) رشيد وحتى «هابرماس ومدرسة فرانكفورت» ماركسية» معطوبة، تغسل آثام الأباطورية». الأخبار ٢٠٢٣/١٢/٢

(٢) إدغار موران، ثقافة أوروبا وبربريتها، دار توبقال للنشر، المغرب، ٢٠٠٧، ص ٢٠.

(٣) القش، المرجع نفسه، ص ٧١، وكذلك كتاب إدوارد سعيد «الاستشراق».

لاستعمارها من أن بعض هذه الشعوب لا يمكن تمدينه؛ «مثل الصينيين واليابانيين والمصريين الذين يلهثون في مؤخّرة هذا التطوّر، ومن أنّ بعضها لا يستطيع أن يقلّد المتحضّرين ويتعلّم منهم إلّا بالقدر الذي تستطيعه البهائم. فأَيّ كيمياء تستطيع تغيير طبيعة دمهم؟ كيف يمكن بطرفة عين انتشالهم ورفعهم إلى المستوى الرفيع الذي تطلّب منّا ألف سنة لجعلنا على ما نحن عليه الآن، نحن الأنكلوساكسون»^(١).

هكذا، عدّ الغربيّون احتلال شعوب أفريقيا والهند «ذات الأديان المتخلّفة والعادات البائسة» مهمّة إنسانيّة. وعندما أتوا إلى العراق ومصر ولبنان وسوريا وفلسطين والأردن والجزائر، كرّروا سرديّة «التمدين» الإنسانيّة نفسها، لينقلوا شعوب هذه البلدان من «البداوة إلى الحضارة». وتحول «التمدين» في القرن العشرين إلى «الدّفاع عن الدّيمقراطيّة» وعن «حقوق الإنسان»، لتبرير احتلال أفغانستان في العام ٢٠٠١ والعراق في العام ٢٠٠٣.

لا يختلف نص بيان هابرماس ورفاقه عن هذه الرؤية العنصرية الاستعلائية تجاه قضايا شعوب غير أوروبية. ففي حين ينشغل النص الفلسفي للفيلسوف الألماني بتفهم الآخر وحمايته عندما يكون أوروبياً أو يهودياً، يترّاجع إلى الاتهام بالتوحش والدموية عندما يكون الآخر فلسطينياً أو «شرقاً أو سطيّاً» أو أفريقياً.

هكذا باتت فلسفة هابرماس التواصلية موضع شك وتهافت أخلاقياً عندما تحيّر في بيانه إلى الغرب، وإلى كيان إسرائيل الذي صنعه الغرب، بذريعة الحرص على «الحياة اليهودية» فقط، ومن دون الحرص على «الحياة الفلسطينية».

(١) منير العكش، أميركا والإبادات الثقافيّة: لعنة كنعان الإنكليزية، دار الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٩، ص ٢٣٥-٢٣٦.

التحيز السياسي الغربي الاستعلائي لدى هابرماس لا ينفصل عن تحيزه الفلسفي. « فعلى خلاف موقفه من الدين عامة ووصمه بالعقم في حركة الفلسفة وفي عموم التراث المعرفي الإنساني، صاهر هابرماس بين اليهودية والفلسفة، وخلص إلى أن مفهوم العقل بصفته المصدر الأول برز أول مرة من خلال أقوال الأنبياء اليهود. كما جعل الروحية اليهودية حاكمة على علم الاجتماع الألماني منذ عصر لودفيك غومبلوفيتش. مع أن هابرماس التزم موقفاً متشددًا من الفكر الإسلامي الذي أدرجه موصوماً في خانة «الأصولية» وعدّ أي محاولة يقوم بها الفكر الإسلامي للإسهام في دورة المناقشات الفكرية المعاصرة انتهاكاً لحرمة الحداثة. »

وفي بيان «مبادئ التضامن»، انقلب هابرماس على كونيته، و يقينياته في الفلسفة التواصلية، بل وحتى على منهجه في الانفتاح على الفلسفات والمدارس الفكرية الأخرى، بانحيازه إلى اليهود الألمان ضد من سُمّاهم «أولئك الذين يقيمون في ألمانيا» بنزع صفة المواطنة عن الأجانب الذين هاجروا إلى ألمانيا وحصلوا على جنسيتها، ولكن «معاداة السامية» أصبحت مبرراً لإلغاء حقوق المواطنة والجنسية، وكأنه يمنح فئة من الناس حق التعبير والتواصل في الفضاء العام وسلبه من فئات أخرى. هابرماس ينقلب على فلسفته التواصلية، بما تتضمنه من دعوة حوارية مفتوحة وتلاقٍ بين الثقافات والأديان عامة.

«إن الإفلاس الأخلاقي لتصريح هابرماس بشأن فلسطين يمثل نقطة تحول في العلاقة الاستعمارية بين الفلسفة الأوروبية وبقية العالم. لقد استيقظ العالم من سبات الفلسفة العرقية الأوروبية الزائفة. واليوم، نحن مدينون بهذا التحرير للمعاناة العالمية لشعوب مثل الفلسطينيين، الذين أدت بطولاتهم وتضحياتهم التاريخية الطويلة إلى تفكيك الهمجية السافرة

التي كانت تقوم عليها «الحضارة الغربية».^(١)

لقد درجت تقاليد جامعاتنا في البلدان العربية والاسلامية منذ أكثر من نصف قرن على مجرد نقل ما يُنتجه فلاسفة الغرب وعلماء الاجتماع والنفس وسواهم. ما أنتج أجيالاً من الطلاب ومن المثقفين الذين يعتقدون بيقينية الفكر الغربي وعالميته. لم نلتفت إلى أن المعرفة حتى في الغرب لم تنفصل عن بيئاتها الاجتماعية والسياسية، وأنها يمكن أن تكون في خدمة هذه البيئات كما كان هابرماس في خدمة الدولة الألمانية ومشاريعها وقوتها وسلطتها. «كان من الخطأ التاريخي وزن المعرفة بميزان المعرفة فقط، وإهمال وزنها بميزان السياسة والإيديولوجيا... وكنا طلاباً نجباء نردد بزهو ما تعلّمناه من الغربيين في الفلسفة والعلوم الإنسانية؛ ونسينا أن المعرفة إذا لم تكن إنسانية تنصرف للقيم الثابتة للبشرية، تبقى مجرد لغو وهذيان».^(٢)

إن بيان هابرماس كأنموذج على تحييز فلاسفة الغرب إلى مركزيتهم الأوروبية أسقط ادعاءات كونية فلسفتهم، وأسقط معها «أنموذج» الفيلسوف الغربي الذي انشغل المثقفون العرب والمسلمون طوال عقود في جامعاتهم بما قال وبما كتب، وبما ألقى من محاضرات. التحيز هو سمة الفيلسوف الغربي الذي عندما ينتقد الغرب فلائنه يخشى عليه من الإنهيار أو من سقوط التجربة، أو من صعود تجارب مغايرة. وهذا التحيز ليس ظرفياً، بل سنعرّض عليه في تجربتهم الحياتية وفي عمق مخيلتهم الفلسفية.

(١) فؤاد ابراهيم، «فلاسفة الغرب وفلسطين»، تواصلية هابرماس مشروطة بالتهاهي مع إسرائيل» الأخبار ١٤/٣/٢٠٢٤.

(٢) رشيد وحتى» هابرماس ومدرسة فرانكفورت» ماركسية» معطوبة، تغسل آثام الأمبراطورية». الأخبار ٢٠/١٢/٢٠٢٤.

خلف ظلال المواقف ينكشف الفكر الحق: تحليل لرؤى مفكري الغرب

د بهاء درويش^(١)

مدخل

عندما ثارت مجموعة من المقاومة الفلسطينية أكتوبر الماضي في غزة معبرة عن رفضها لاحتلال دام حوالي خمس وسبعين سنة، فزع العالم بأسره لرد فعل الاحتلال الصهيوني من هجمات تطال اليابس والماء، المدني والعسكري، الأطباء والمرضى، العجزة والنساء والأطفال، رجال الإعلام والدبلوماسيين، في اختراق لكل أشكال القوانين والقيم الإنسانية المعروفة والمتفق عليها، دون اكتراث لأي قوانين أو أعراف، حتى أن أفراداً أكثر من شعوب العالم التي لم تكن القضية الفلسطينية في يوم من الأيام تعنيهم ثاروا- ربما للمرة الأولى- ضد هذه الإبادة الجماعية وهذه الهجمات اللانسانية التي راح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف من المدنيين حتى تاريخ كتابة هذه الورقة

(١) أستاذ الفلسفة، جامعة المنيا، ونائب رئيس اللجنة الدولية لأخلاقيات البيولوجيا، اليونسكو، باريس.

والأعداد مازالت في تزايد الذين كل جريرتهم أنهم أبناء هذه الأرض - أبناء غزة - . ورغم أن الساسة لم يتمكنوا من الوصول إلى تهدئة أو هدنة أو إيقاف لهذه الهجمات التي لا تطال سوى المدنيين، إلا أن المظاهرات في كثير من بلدان العالم لم تتوقف معبرة عن سخطها وإدانتها لهذه الجرائم اللاإنسانية التي ارتكبها ولازال يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي.

انتظر العالم أن يُظهر المفكر الغربي استقلالاً عن أسلوب تفكير الساسة وأن يحيا متسقاً مع نفسه وأن يدين مخالفة المبادئ والقيم التي عاش الفلاسفة عبر تاريخ البشرية ينادون بها، إلا أن ما حدث كان مفاجأة للبعض، وهو أن كبار فلاسفة العالم لم يدينوا هذه المخالفة للقيم والأعراف والمبادئ التي تعد مهمتهم في الحياة أن ينادوا بها ويضعوا الحجج التي تقنع الناس بها، بل تناولوا هذه القضية تناولاً مجتزأً مقطوعاً من سياقه حيث تجاهل البعض منهم تاريخ القضية وأن هذه الأرض محتلة من قوم ليست هذه أرضهم وأن المقاومة لإخراج المعتصب تعد في هذه الحالة أمراً مشروعاً واكتفوا بالنظر لما حدث على أنه هجوم من مجموعات مسلحة من ميليشيات إرهابية على دولة تعترف بها الأمم المتحدة تدعى إسرائيل وبالتالي فمن حق هذه الدولة أن ترد دفاعاً عن نفسها.

الأمر بالنسبة لي لم يكن مدهشاً وهذا ما سأحاول بيانه في هذه الورقة، ذلك أن كثيراً من مفكري الغرب في العصر الحديث - وليس فقط الفلاسفة المعاصرون - درجوا على رؤية غير الغربي بشكل مختلف عن الغربي في مخالفة صريحة وتناقض واضح مع مبادئهم كما أنهم لم يحرصوا على تطبيق المبادئ التي نادون بها على غيرهم متناسين أن الإنسانية لا تنقسم والمبادئ لا تتجزأ.

وإلى تفصيل القول:

الفلسفة وضرورة الاتساق

الفلسفة نشاط بشري لا يعرف حدوداً زمانية أو مكانية لانطباقه. المبادئ الفلسفية مبادئ عامة لا تختلف من مكان لآخر أو من زمان لآخر. بمعنى أنه متى أراد فيلسوف أن يُنظر لمبدأ « العدالة » أو يضع تبريرات لمبدأ منطوقه مثلاً أن « الشباب قوام المجتمع »، فإنه لا يُنظر للعدالة في القرن الحادي والعشرين فقط أو العدالة في أوروبا وحدها. المبادئ الفلسفية مبادئ عامة تنطبق على الإنسان من حيث هو إنسان، والتفسيرات الفلسفية كذلك. فعندما يرى الفيلسوف النفعي أن الخير هو ما يحقق أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد من الناس فإنه لا يعني أن هذا الفهم للخير ينطبق على مكان أو زمان دون آخر ولكنه يعني أن هذا هو تصور الخير في كل مكان وزمان. وعندما وضع أو جست كونت مثلاً تفسيره للتقدم بقوانين المراحل الثلاث لم يعن أن هذا يحدث في مجتمع دون آخر، أو مع ظاهرة دون أخرى، ولكنه قصد به تفسيراً لكل أشكال ومظاهر التقدم. أمر آخر وهو ضرورة أن يتنبه الفيلسوف لاتساق مبادئه مع بعضها البعض. ذلك أن ضمان اتساق المبادئ التي يعتنقها الفيلسوف بعضها مع بعض - بحيث لا يدخل مبدأ متعارض داخل نسق المبادئ المتسقة - يؤدي إلى عدم تضارب الحلول التي يقترحها الفيلسوف كما يحول دون تحقيق أهداف متعارضة كان مرجعها هو تعارض المبادئ التي تعتمد عليها الحلول. لتحقيق هذا الأمر يجب أن تكون المبادئ التي تستند إليها الحلول واضحة في أذهان مستخدميها وضوحاً يبرر عدم تعارضها مع بعضها البعض.

الانبهار بالفلاسفة الغرب للأسف أعمى البعض عن رؤية تناقضات

حدثت من كبار الفلاسفة عبر تاريخ الفلسفة الغربية تؤثر على مصداقية ما ينادون به، وهو ما سنحاول بيانه وتحليل مبرراته.

المبادئ المعلنة للفلسفة الحديثة

تبنت أوروبا منذ بدء المرحلة الحديثة مبادئ التسامح والعدالة والمساواة وفصل السلطات وحاربت من أجله على الصعيدين النظري والعملي. إذا أخذنا مثلاً اهتمام الفلاسفة في الغرب بتصور التسامح، نجد أن سبب الاهتمام به سبب تاريخي محض. ذلك أنه وبعد حدوث حركة الإصلاح الديني في الكنيسة الغربية في القرن السادس عشر التي قسمت أوروبا إلى معسكرات دينية متنازعة، أدى ذلك إلى نشوء حروب أهلية عداوات وكرهات دينية. قاد الإصلاح - أو الثورة الدينية في الكنيسة الغربية - مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) وجون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤). أسست هذه الحركة - والتي كان لها تأثيرات سياسية واقتصادية واجتماعية بعيدة المدى - للمذهب البروتستانتي (أحد الأفرع الثلاثة الرئيسية للديانة المسيحية). ما دعا لخروج هذه الحركة من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أن الحياة داخل الكنيسة قبيل حدوث هذه الحركة كانت قد أصبحت شديدة التعقيد. أصبحت الكنيسة تتدخل في الشؤون السياسية بشكل متزايد. أدى الفساد السياسي والمؤامرات وصكوك الغفران والتزايد المستمر لقوة الكنيسة في الحياة السياسية في أوروبا أن بدأت الكنيسة تفقد دورها كقوة روحية^(١). من هنا فقد اكتسبت فكرة التسامح الديني أهمية بالغة في القرن

(1) Petruzzello, M. (2019). Reformation: Christianity. ENCYCLOPEA-DIA BRITANNICA. In <https://www.britannica.com/event/Reformation> تم الدخول بتاريخ 14 سبتمبر 2019

السابع عشر في أوروبا. عاصر الفيلسوف الانجليزي جون لوك في هولندا نشأة دولة علمانية تسمح بالاختلافات الدينية، وهي الدولة التي نشأت كرد فعل لكرهية الكاثوليك للبروتستانت وإساءة معاملتهم. ورغم أن هنري الرابع في فرنسا وقّع مرسوم نانت edict of Nantes والذي بموجبه منح البروتستانت الفرنسيين حقوقاً في الدولة، إلا أن لويس الرابع عشر ألغى هذه الاتفاقية عام ١٦٨٥. في هذه السنة نفسها بدأ فيها جون لوك كتابة الرسالة الأولى في التسامح الديني.

ورغم أن الصراع الديني في القرن السابع عشر في إنجلترا هو الصراع الذي ساهم في إحداث الحرب الأهلية وهو ما دفع جون لوك لكتابة رسالته، فإن تحديد موقع جون لوك من التسامح الديني مسألة ليست سهلة. بالطبع كان للدين وخاصة المسيحية تأثيره الأكبر في فلسفة جون لوك. ولكن لأي طائفة من المسيحية كان ينتمي لوك؟ ظل لوك حتى وفاته يقول أنه ينتمي للكنيسة الانجيلية Anglican بينما زعم البعض أنه ينتمي لطائفة المساحية latitudinarianism (وهي إحدى طوائف البروتستانت الأكثر تسامحاً التي ترى أن التمسك بتعاليم معينة وممارسات خاصة ليس ضرورياً بل ربما كان مضرراً بصورة أكبر). ظل لوك يكتب عن التسامح الديني منذ ١٦٥٩. رأى لوك بعينه الجموع وهي تهرب من فرنسا وذلك عندما ألغى لويس الرابع عشر اتفاقية مرسوم نانت edict of Nantes. ورغم أن لوك لم يقصر حديثه في التسامح الديني عما يحدث في وقته، وأعطى تنظيراً لمبدأ التسامح الديني نفسه بصفة عامة، إلا أن تنظيره كان مختلطاً بحجج تنطبق على المسيحية فقط، بل وأحياناً خاصة بالبروتستانتية فقط. لم يدرج لوك الكاثوليك ولا الملحدين ضمن الطوائف التي يجب أن نتسامح معهم.

ربط لوك تسامحه الديني برؤيته للحكومة المدنية. الحياة والحرية والصحة والممتلكات اهتمامات مدنية وحقوق طبيعية. من حق الحكومة المدنية أحياناً التدخل بالقوة لحماية هذه الاهتمامات. أضاف لوك لهذه الحقوق الطبيعية حرية المرء في اختيار الطريق الذي من خلاله يعبد الله. وبالتالي ليس من حق الدولة إجبار أي إمريء على طريق معين لعبادة الله أو إجباره على الإيمان باعتقادات معينة^(١).

ثم مبدأ فصل السلطات الذي ينسب عادة إلى الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو الذي وضعه في عمله الضخم «روح القوانين» ١٧٥٠ الذي وفقاً له يجب على كل دولة تشد الحرية أن تفصل بين السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية. متخذاً من انجلترا مثلاً يحتذى. يعد هذا المبدأ أكثر المبادئ أهمية في الفكر السياسي في القرن الثامن عشر وأدى التأثير به إلى صدور «إعلان حقوق الإنسان والمواطن» Declaration of the Rights of Man and Citizen ١٧٨٩، والذي كان أحد المواثيق التي أدت إلى الثورة الفرنسية. كما كان له تأثير في صدور دستور الولايات المتحدة ١٧٨٩.

يعد جان جاك روسو أيضاً من الفلاسفة الذين مهدت أفكاره لقيام الثورة الفرنسية. يمثل كتابه «العقد الاجتماعي» واحداً من أهم الكتب التي كتبها واشتهر بها. سبق جان جاك روسو هذا الكتاب بكتاب حاول أن يناقش فيه أسباب التمييز وعدم المساواة. رأى روسو أن الإنسان بطبيعته خير، وأنه لم

(١) بهاء درويش، الفلسفة تطبيقية بالضرورة. ١ يوليو ٢٠٢١

يعرف الشرور إلا مع تكوين المجتمعات. عندما عرف الإنسان ما يعرف بالملكية ظهر الظلم وعدم المساواة واحتاج الناس للقانون والحكومات لحمايتهم وحماية ممتلكاتهم. عندما كانت الأرض في مجملها ملكاً للجميع، عاش الناس في سلام ولكن عندما احتاج الناس لحمايتهم وحماية ممتلكاتهم نشأ مفهوم المجتمع المدني أو الدولة.

تحتاج الناس - إذًا - وفقاً لروسو إلى عقد اجتماعي عليهم وفقاً له طاعة القانون، فإذا ما فعلوا ذلك حصلوا على حريتهم السياسية التي تحقق لهم الأمان. إلا أن تعريف الحرية السياسية هنا تقابل مشكلة وهي أنه إذا ما أطاع الناس قوانين وضعوها بأنفسهم، فإنهم بهذا المعنى يكونون أحراراً. إلا أن هذا يصدق لأن لكل فرد حرية فردية أما المجتمع فمجموعة من أشخاص لكل منهم حرية خاصة وبالتالي قد تختلف إراداتهم. يرد روسو على هذه المشكلة بأن المجتمع شخصية اعتبارية له إرادة موحدة، والعقد الاجتماعي هو بمثابة إتفاق بين الناس بالتنازل عن حقوقهم الطبيعية من أجل حقوق مدنية⁽¹⁾.

تناقضات واختلافات

هذه المبادئ التي تبناها فلاسفة عصر التنوير، والتي عرضنا لأهمها، لم تمنع بعض هؤلاء الفلاسفة الكبار الذين أثروا في مجرى الفكر البشري مثل ديكارت وهيوم وكانط وهيغل وجون ستيوارت مل أن يصدر عن كل منهم ما يظهر تناقضاً وتحيزاً في قناعاتهم تخالف ما يسطرون وينادون به.

(1) Cranston, M. Oct 27, 2023. The Social Contract. Britannica.
<https://www.britannica.com/topic/The-Social-Contract>

تعد فكرة تمييزهم عن غيرهم من الشعوب والأجناس من أكثر الأفكار التي استوطنتهم ونسوا أفكار العدالة والمساواة التي نادوا بها.

يمكن القول أن مفهوم التمييز وقناعتهم بأنهم - كغربيين - متميزون بدأت منذ العهد اليوناني قبل الميلاد. آمن أفلاطون بتفوق الإغريق على البرابرة، وبأن الطبيعة قد أوجدت بعض البشر ليكونوا حكامًا وبعضهم الآخر ليكونوا محكومين.

آمن رينيه ديكارت بالسمو الأوروبي على غيرهم من الشعوب وإن لم يذكرها صراحة. ذهب ديكارت إلى أن منفعة الفيلسوف لها أهمية كبيرة لأنها وحدها « تميز الأوروبيين عن الأقوام المتوحشين والهمجيين ذلك أنها تحوي كل ما يمكن للعقل البشري أن يعرفه. لذا تقاس حضارة أي شعب وثقافته بمدى وجود فلاسفة لديهم »^(١). لقد ثار خلاف بين مفسري هذه العبارة. فالبعض يذهب إلى أن ديكارت يعكس بها مفهوم الأوروبي عن نفسه أنه مركز المدنية وأن غيره همجي ومتوحش^(٢). والبعض يرى أن تمييز ديكارت بين من يعرف ومن لا يعرف لا يعني إيمانه بالعنصرية وأن الأوروبي أفضل من غيره، أو أن غيره بربري وهمجي. السؤال الآن: هل التمييز المعرفي تميز عنصري؟ من الواضح من نصوص كثيرة كتبها ديكارت أنه يرى أن العقل البشري خاصية مشتركة بين كل البشر، وبالتالي لا يمكن القول أنه كان عنصري التوجه. ولكنه من ناحية أخرى يميز بوضوح بين أهل الثقافات والحضارة وأنهم أولئك الذين لديهم فلسفات وبين الهمجيين والمتوحشين

(1) Descartes, R. Extracts from Principles of Philosophy. <https://www.lancaster.ac.uk/users/philosophy/courses/211/Descartes%27%20Principles.htm>

(٢) عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، الرباط، دار الأمان، الطبعة الأولى ٢٠١٠ ص ١٧.

غير الحاصلين على أية فكر فلسفي. فهو ممن يفخرون بتفوق العرق الأبيض. كذلك كان دافيد هيوم يميز العرق الأبيض عن غيره. يقول « أنا أميل للاعتقاد بأن الزواج- وبصورة عامة جميع الأعراق البشرية الأخرى- أقل شأنًا بطبيعة الحال من العرق الأبيض. لم يوجد أبداً أية أمة متحضرة من غير ذوي البشرة البيضاء، ولا يوجد من بينهم حتى أفراد بارزون في العمل والتفكير^(١). »

دون أن يجعل التميز المعرفي معيار التميز، اعتقد كانط- وفقاً لما رآه كثير من الباحثين- أن الجنس الأبيض هو أرقى الأجناس^(٢). لقد أثار موقف الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) خلافاً حول ما إذا كان يتبنى موقفاً عنصرياً من غير الأوروبيين أم لا. بداية: يظهر كانط موقفاً عنصرياً بعبارات واضحة. يقول: « ليس للسود بطبيعتهم أية مشاعر سوى مشاعر تافهة »، ويقول: « إن أهل أمريكا الأصليين غير قادرين على أن تكون لديهم أية ثقافة »^(٣). لقد نشر كانط مباشرة عقب نشره كتاب نقد العقل العملي

(١) ستيفن داركي، عن الفلاسفة العنصريين عموماً: هايدغر على وجه التحديد. ترجمة فاطمة الزهراء علي. حكمة:

<https://hekma.org/.d8%b9.d9%-86%.d8%a7.d984%/.d981%/.d984%/.d8%a7%.d8%b3.d981%/.d8%a9%-.d8%a7%.d9%84%.d8%b9.d986%/.d8%b5%.d8%b1.d98%a%.d98%a%.d9-86%/.d8%b9.d985%/.d988%/.d985%/.d98%b%.d8%a7%-.d987%/.d8%a7%.d98%a%.d8%af%.d8%ba%.d8%b1%-.d8%b9/>

(2) Kleingeld, P. Kant and Forster on race, culture, and cosmopolitanism. In Kant and Cosmopolitanism, (Pauline Kleingeld, ed.). p.92. <https://doi.org/10.1017/CBO9781139015486.006>

(3) ZORN, DANIEL-PASCAL, AUGUST 21, 2020. Kant- A Racist? Public History Weekly. <https://public-history-weekly.degruyter.com/8-2020-8/kant-a-racist>.

مقالاً ذهب فيه إلى أن الأمريكان والهنود يفتقرون لأية قدرة على العمل. فالطبيعة تمنع الأجناس من القدرة على الهجرة من منطقة جغرافية لأخرى بجعلهم غير قادرين على العمل في غير منطقتهم التي خلقوا فيها أو الانتقال من منطقة حارة إلى منطقة باردة. يقبل كانط عدم تحرير الشخص الأبيض الحاصل على المعرفة لعبد أسود لأن الأخير غير قادر على العمل بنفسه. نعم يمكن للسود العمل ولكنهم لا يملكون القدرة على العمل بأنفسهم أو الدافع الذاتي للعمل. أهل أمريكا الأصليون جنس لا يتطور لأن آبائهم وأجدادهم انتقلوا إلى منطقة ذات مناخ مختلف قبل أن يتكيفوا مع مناخ المنطقة التي جاءوا منها. لذا فهم ضعفاء، غير قادرين على أن تكون لديهم ثقافة ويحتلون أدنى مرتبة في أجناس البشرية التي يقف البيض على قممتها⁽¹⁾.

حاول بعض الباحثين الدفاع عن كانط بأنه كان من دعاة الإيمان بوحدة البشرية وأن ما عناه بالتمييز كان تمييزاً ثقافياً من جانب يؤدي بالضرورة إلى اختلافات في العادات والتقاليد، ومن جانب آخر تمييزاً جغرافياً يؤثر في لون البشرة: فحيث ما كانت هناك شمس حارة، كانت البشرة أكثر دكانة، دون أن يكون هذا تمييزاً⁽²⁾. إلا أنه من الثابت أن كانط رأى في أصحاب البشرة الداكنة كسلاً يعود للحرارة وبالتالي فهم شعوب أقل تقدماً. ما عناه بأنهم أقل تقدماً أنه يجعل من الأوروبيين المعيار لتحديد من هو أكثر أو أقل تقدماً. وفي ذلك وحده تمييز واضح.

يعد الفيلسوف الألماني جورج هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) من أبرز الفلاسفة الذين أظهروا توجهاً عنصرياً واضحاً وأيد استعمار الغرب

(1) Kleingeld, P. op. cit

(2) ZORN, DANIEL-PASCAL, op.cit

للشعوب الأخرى من خلال تفسيره لحركة تطور التاريخ. في كتابه الشهير «محاضرات في فلسفة تاريخ العالم» الذي هو في أساسه مجموعة محاضرات ألقاها على طلابه وتم جمعها بعد وفاته، يضع هيجل تصوراً خاصاً لحركة التاريخ، يرى من خلاله أن العقل يسكن التاريخ وأن التاريخ يتقدم مع تقدم وعي الإنسان بنفسه. هنا يميز هيجل بين ثلاث معانٍ أو مناهج للتاريخ: التاريخ الأصلي، التاريخ الانعكاسي، التاريخ الفلسفي. الأول هو ذلك التاريخ الذي يعيش أحداثه المؤرخ أو ينقلها عمن سمعها فيكتبه كما هو. أما التاريخ الانعكاسي - يترجمه إمام عبد الفتاح «التاريخ النظري» - فينقسم لأربعة أنواع. الأول هو ذلك الذي يأمل المؤرخ من سرده الخروج برؤية لتاريخ العالم أو الدولة ككل⁽¹⁾. الثاني يسمى التاريخ البراجماتي وهو ذلك الذي نستخلص منه العبر والعظات⁽²⁾. النوع الثالث هو التاريخ النقدي أو تاريخ التاريخ⁽³⁾ أما النوع الرابع فهو التاريخ الذي يجزيء نفسه إلى تاريخ الدين، تاريخ الفن، تاريخ القانون، فهو المرحلة الانتقالية الموصلة للتاريخ الفلسفي للعالم⁽⁴⁾. المعنى أو المنهج الثالث هو التاريخ الفلسفي. هنا تتأمل الفلسفة التاريخ فتخرج بفكرة العقل Reason. العقل الذي يسود العالم والذي يجعل من التاريخ عملية عقلية⁽⁵⁾. ولما كان التاريخ لا يظهر إلا مع ظهور الوعي، عد هيجل مسار تاريخ العالم مساراً تكافح فيه الروح لكي

(1) Hegel, G. (1894). Lectures on the Philosophy of History. Translated from the third German Edition by J. Sibree. London, George Bell and Sons, York St., p.4

(2) Ibid., p.6

(3) Ibid., p.7

(4) Ibid., p.8

(5) Ibid., p.9

تصل فيه إلى الوعي بذاتها أي تعي حريتها. قسم هيجل حضارات العالم إلى حضارات كل مجموعة منها تمثل درجة من درجات الوعي بالحرية. أول هذه الحضارات هي الحضارات الشرقية الهندية والفارسية والصينية والفرعونية القديمة حيث تميزت هذه الحضارات بأن المواطنين كانوا عبيداً للحكام. فالحاكم وحده كان حراً. أما المرحلة الثانية فتمثلها الحضارتان اليونانية والرومانية حيث اتسع نطاق الحرية قليلاً بمعرفة الحضارتين أن البعض أحرار. هؤلاء البعض هم من يتمتعون بالمواطنة (اليونانية أو الرومانية)، أما أبناء الشعوب الأخرى فهم - وفقاً له - برابرة وهمج. يجد هيجل في هذه الواقعة تبريراً لقبول فلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو لنظام الرق، ذلك أنهم لم يكونوا يعرفون أن الإنسان خلق حراً بطبيعته. أما الشعوب الجرمانية فقد كانت أول الأمم التي تصل إلى الوعي بأن الإنسان بما هو إنسان حر، وأن الحرية تؤلف ماهية الروح⁽¹⁾. هذا الوعي الكامل بأن الإنسان حر لم يحدث - وفقاً لهيجل - سوى في التربة الأوروبية حيث الانتقال من « البعض حر » إلى « الجميع حر ». أما أبناء الحضارات الشرقية فلما لم يكن لأي منهم وعي بالحرية وكان التاريخ هو الوعي بالحرية، فهي أمم - وفقاً لهيجل - لا تاريخ لها ومع هذا يدرجهم هيجل في تاريخ العالم لأن لديهم حداً أدنى من الوعي بالحرية وهو معرفة أن الحاكم الذي ينتمون إليه حاكم حر⁽²⁾.

فالتطور الذي أدى إلى ظهور قيم الحرية والمساواة والقيم الليبرالية الأخرى تطور داخلي حدث في أوروبا فقط. وإذا كانت بعض المناطق في أوروبا لم تظهر فيها الحرية أو مازالت لم تظهر، فإن هذا نتيجة أن مبادئ

(1) Ibid., p. 18, 19

(2) Stone, A. 2017. Hegel and Colonialism. In Hegel Bulletin. The Hegel Society for Great Britain. Doi: 10.1017/ hgl.2017.17. p.5

الحرية والمساواة الحاكمة لم تمارس في هذه المناطق. لم يحدث تقدم نحو الحرية والمساواة مكافئ لما حدث في أوروبا في أي مكان آخر في العالم^(١).

هذه القسمة للشعوب إلى أوروبا حرة وشعوب غير أوروبية غير حرة هي ما أدت إلى موقفه من الاستعمار. الاستعمار هو ما نشر مبدأ وروح الحرية. وفقاً لهيجل - كما اسلفنا - لم يع ويمارس الحرية سوى الغرب الأوروبي وبالتالي لن تستطيع بقية الشعوب اكتساب الحرية إلا إذا فرض الأوروبيون حضارتهم عليها. هذا الفرض للحضارة - وإن كان استعماراً - إلا أنه مبرر لأنه السبيل لحصول بقية الشعوب المستعمرة على حريتها على المدى الطويل^(٢).

العبودية أيضاً - وفقاً لهيجل - لا يجب إلغاؤها فجأة ولكن يجب أن يتم إلغاؤها بالتدريج حتى يعي العبد الحرية أنه في الأساس حر. قبل العبودية لم يع الأفارقة الحرية، فكان كل منهم يستعبد الآخر وتعاملوا مع بعضهم البعض على أنهم أشياء أو كائنات لا تختلف عن موجودات الطبيعة. من هنا لم يكن من الصواب إلغاؤها إلا بعد أن يعي العبد من خلالها الحرية وهو الوعي الذي ما كان من الممكن أن يتحقق إلا من خلال استعباد الغرب للأفارقة وغيرهم من الشعوب غير الحرة في الأساس^(٣). على هذا النحو يبرر هيجل عبودية الغرب للشعوب الأخرى واستعمارها^(٤).

اعتقد جون ستيوارت مل أن الشعوب غير الأوروبية لا تتمتع أساساً

(1) Ibid., p. 3

(2) Ibid., p.1

(3) Ibid., p.9

(٤) كان الباحث قد عرض فكرة هيجل عن التمييز بين الشعوب وتبريره لاستعمار أوروبا للشعوب الأخرى في بحثه الذي جاء تحت عنوان « الأبعاد القيمية للمركزية الأوروبية حيال الشعوب الأخرى » ونشر بمجلة الاستغراب العدد ٢٩.

بالكفاءة وتفتقر إلى القدرة على الاستقلال وتقرير المصير. وفقاً له، فإن السيطرة الاستعمارية لم تكن فقط أمراً جيداً، بل إن عد سلوك المستعمرين أمام الشعوب المهمجة غير قانوني أو غير أخلاقي خطأ جسيم. يرى مل أن الطغيان هو الوضع الشرعي للحكومة التي تتعامل مع البرابرة. كذلك قال في كتابه « في الحرية » إن الشعوب المستعمرة كالأطفال تحتاج إلى تحسين بالطاعة القسرية للمشرفين الخيرين^(١).

لم يكن يورجن هابر ماس وراينر فورست وكلاوس جونترونيكول ديتلهوف بأقل تناقضاً مع أنفسهم من الفلاسفة السابقين عليهم الذين ذكرناهم. إذ أصدر هؤلاء المفكرون الأربعة في نوفمبر ٢٠٢٣ تقريراً أسموه « مبادئ التضامن: موقف Grundsätze der Solidarität: Eine Stellungnahme » يعبرون فيه عن موقفهم من الحرب الدائرة منذ أكتوبر بين المقاومة الفلسطينية وإسرائيل. يتلخص موقفهم في انحياز تام لإسرائيل وتعاطف معها وتصوير المقاومة الفلسطينية - التي اختزلوها - على خلاف الواقع - في فصيل واحد وهو حماس - بأن ما فعلته هجوم وحشي على إسرائيل ومجزرة مصحوبة بنية لإبادة الحياة اليهودية بشكل عام. ثم يتحدث عن الروح الديموقراطية لألمانيا وأنها تقوم على أساس احترام الكرامة الإنسانية وبالتالي فيجب الالتزام بها^(٢).

استخفاف واضح بالقراء من قبل من يعد أكبر فيلسوف في العالم الآن على قيد الحياة (٩٤ عاماً) وكَيْل بمكيالين كعادة من سبقه من فلاسفة الغرب. يتذكر الكرامة الإنسانية ويتجاهل ما فعلته إسرائيل في المدنيين في غزة.

(١) ستيفن داركي، عن الفلاسفة العنصريين عموماً، مرجع سابق.

(٢) مبادئ التضامن .

هل التزمت إسرائيل احترام الكرامة الإنسانية حين كانت تقصف البيوت وبداخلها مدنيين أحياء؟ اهتز وقلق من تهديدات وجهت ليهود في ألمانيا ولم يهتز من آلاف الضحايا الذين قتلوا ومنع عنهم الماء والغذاء والوقود. لم يتضمن التقرير كلمة إدانة واحدة لإسرائيل بل دفاعاً حتى عما تفعل: «ان تصرفات إسرائيل لا تبرر بأي حال من الأحوال ردود الفعل المعادية للسامية، وخاصة في ألمانيا. فأن يتعرض اليهود واليهوديات في ألمانيا مرة أخرى لتهديدات تهدد حياتهم وأجسادهم... فهذا أمر لا يطاق وغير مقبول إطلاقاً»^(١).

ثم يتحدث عن «الحقوق الأساسية في الحرية والسلامة الجسدية» بأنها «حقوق غير قابلة للتجزئة وتسري على الجميع بالتساوي.» من الغريب أنه بعد أن يذكر هذه العبارة يتلوها بالقول «وعليه يجب على جميع هؤلاء الذين يقيمون في بلادنا والذين بشوا القناعات المعادية للسامية.. أن يلتزموا بتلك الحقوق»^(٢). وكأن الالتزام باحترام كرامة الإنسان يلزم فقط من يعادي السامية ولا يلزم أحداً غيرهم.

الغريب أيضاً أن يصدر هذا عن فيلسوف عاش حياته الفكرية جُلها يحاول الدفاع عن العقلانية التي نادت بها الحداثة والتي رأى فلاسفة القرن العشرين أنها فشلت ولم تحقق أهدافها. رأى هابرماس أنه يمكن علاجها بدلاً من إعلان فشلها. ولكن أية عقلانية هذه التي يتحدث عنها اليوم؟

يبدو أن هذه ليست المرة الأولى التي يتناقض فيها هابرماس مع نفسه. اعتاد هابرماس أن يقدم نفسه دائماً على أنه وريث كانط فيما يتعلق بنظريته الأخلاقية بضرورة التعامل مع كل البشر على أنهم متساوون وأحرار وأن هذه الفكرة

(١) السابق .

(٢) السابق .

محايدة لبنية الفكر العقلاني. يمكن لكل الأفراد أن تكون أشخاصاً مستقلة وأن تعرف بشكل مستقل أن القانون الأخلاقي يجب أن يتطبق على الجميع. على هذا النحو فالليبرالية - ذلك الاتجاه الاقتصادي والسياسي الذي يتأسس على الاعتراف بالحقوق العامة التي تضمن الحرية والمساواة - ينطبق على الطبيعة البشرية، يمثل انتشارها الكوني مسار التاريخ.

ولكن هابرماس رأى أن على المفكرين إرشاد العامة إلى الفعل السياسي الذي تتطلبه الإرادة الجمعية التي يضعها المفكرون دون انتظار نهاية التاريخ الذي يتحقق فيه النظام الكوني الذي يحصل فيه كل فرد على حقه، كما رأى كانط. من هنا رأى هابرماس في نفسه المفكر الذي يدفع الأوروبيين إلى تحقيق الاستقلال.

في مواجهة الأزمات الاقتصادية رأى هابرماس أن على الدول الأوروبية أن تضع نفسها في ميزان الاقتصاد العالمي في مكانة تجعلها تتصوّف بحرية وهو الثقل الذي ليس لأوروبا. أما الإرادة الجمعية التي رأى أنها من الممكن أن تحقق لأوروبا الاستقلالية، فهي وفقاً له ليست الدين أو الدولة أو الطبقة، ولكنها هوية قادرة على أن تجعل أوروبا أعضاء لإنسانية مشتركة. هذا الأساس أساس عقلي صرف وهو احترام الكرامة الإنسانية.

بالنظر إلى مواقفه السياسية لا نجد أن هابرماس كان متسقاً مع ما دعا إليه. فكثيراً ما طلب من الأوروبيين - باللغة العاطفية التي يتقنها الزعماء السياسيون - أن يتمسكوا بإرادة جمعية تتأسس على قيم البطولة والتضحية التي عاش عليها الأباء. من الواضح أن هذا النداء اختلف مع تعاليمه السابقة بضرورة التجمع حول أساس عقلائي صرف. وفي مقال كتبه بمناسبة الذكرى السنوية الثانية للثورة الفرنسية، تحت عنوان «السيادة الشعبية من حيث كونها إجراء Popular Sovereignty as Procedure» ذهب إلى أن ما بدأ مع

سقوط الباستيل لم ينته، ولكنه مشروع يجب أن يستمر إلى الأمام وعياً بثورة دائمة. «يجب على مباديء ثورة ١٧٨٩ أن تكون الملهم لكل فعل حاضر. تناسى هابرماس أن أوروبا الحاضر ليست أوروبا ١٧٨٩. فقد هاجرت إليها قوميات متعددة قسمتها ولم يعد الأوروبيون يشعرون بأن لهم هوية واحدة تجمعهم.

وفي الوقت الذي أدان هابرماس فيه الغزو الأمريكي للعراق لمخالفته القانون الدولي، ونعى على أوروبا عدم قدرتها على إتخاذ موقف موحد قوي ضد الولايات المتحدة، دافع عن ضرب الناتو للصرب عام ١٩٩٩ وهي الحملة التي بدأتها الناتو دون إذن الأمم المتحدة. وجد هابرماس تبريره في الدفاع عن ضرب صربيا في إرتكاب سلوبودان ميلوسوفيتش، رئيس صربيا في ذلك الوقت لجرائم ضد الإنسانية. هذا القبول من هابرماس لضرب الناتو لصربيا أغضب مفكرين صينيين مثل زانج رولون Zhang Rulun الذي علق بالقول أن دفاع هابرماس عن ضرب صربيا كشف توجه الليبراليين الغربيين الذين لا يحترمون القانون الدولي مثل عدم احترامهم للدول التي يقصفونها بالقنابل، هذا بالرغم من مزاعمهم الخاصة بالديموقراطية والحوار^(١).

على هذا النحو، ليس يورجن هابرماس - مثل غيره من المفكرين الذين ذكرناهم - سوى مفكر سليل حضارة لم تر سوى نفسها، فجاءت أحكامها بالضرورة جزئية، حضارة ألفت بالدين جانباً، فألقي بها في تيه احتاجت من يخرجها منه ويعيد الحضارة إلى مجراها الصحيح وهو ما لم يحدث حتى الآن. فهل يكون هذا على يد العرب المسلمين؟ هذا ما ستبينه الأيام القليلة القادمة.

(1) Smith, B. 7 Feb. 2021. Why Jurgen Habermas disappeared. Foreign Policy. <https://foreignpolicy.com/2021/02/07/why-jurgen-habermas-disappeared/>

مبررات التناقضات

السؤال الآن: ما الذي دعا هؤلاء الفلاسفة للوقوف هذه المواقف غير المتسقة مع أفكارهم ومبادئهم؟

الرأي لدينا أنه إذا كانت الفلسفة الغربية قد أحدثت قطيعة مع الدين منذ بدء عصر النهضة وأدى بها الثقة في العقل البشري إلى عده المقولة الأساسية وأنه ما يمكن به الوصول إلى الحقيقة بالعقلية العلمية الاستقرائية والفلسفية الاستنباطية، وأن هذه الحقيقة ستقود دائماً إلى التقدم والكمال وبالتالي يحقق بها الإنسان الرفاهية، وكان هذا العقل الذي يقود الحضارة بدءاً من هذه الفترة هو العقل الغربي، فمن الطبيعي أن يشعر فلاسفة الغرب بدءاً من العصر الحديث بهذا السمو المعرفي للعقلية الغربية وأن يرون أنفسهم في مرتبة أعلى من غيرهم من بني البشر على اختلاف الصور التي عبروا بها عن هذا التميز والاختلاف. من نافلة القول أن نكرر ما يعرفه كل متخصص ومتابع للفكر الغربي بدءاً من عصر النهضة وهو أن الحداثة الغربية التي وعدت البشرية بتحقيق الرفاهية والسعادة والنجاح في تقديم تفسير للكون بطواهره الطبيعية والإنسانية لم تنجح في تحقيق ما وعدت به. لقد اعترف فلاسفة الغرب قبل غيرهم بهذا الفشل: فشل مشروع الحداثة بمقولات الفردية والعقلانية والتقدم وغيرها.

كان من الطبيعي مع ظهور المجتمع الاستهلاكي، أو مجتمع المعلومات، أو مجتمع التكنولوجيا المتطورة في النصف الثاني من القرن العشرين أن تتغير صور العلاقات الاجتماعية وتظهر تحولات اقتصادية وثقافية تجعل من المرحلة التي يمكن القول أنها بدأت في ستينات القرن الماضي مرحلة مختلفة تماماً عن مرحلة الحداثة أطلق عليها مرحلة ما بعد الحداثة. تفتت الذات إلى علاقات اجتماعية متعددة واختفت المشاعر المميزة للذات المتفردة وأضحت المشاعر متوزعة وطافية واختفى الأسلوب المميز والمعنى الواحد ليحل محله

التأويلات وبالتالي اختفت اللغة الواحدة والمرجعيات. دخلنا مرحلة تاريخية يمكن وصفها بمرحلة التعددية. اندمج العالم الواقعي في العالم الافتراضي بحيث يصعب التمييز بينهما كما رأى.

على هذا النحو، فإذا كانت مرحلة ما بعد الحداثة - بغض النظر إن كانت مرحلة مكتملة لمسيرة الحداثة أو مرحلة جديدة - دخلت بنا إلى عالم التشظي والتشكيك والغموض والتفكيك دون تفسير واضح لطبيعة هذه المرحلة خلاف هذه المقولات التي تميزها، أو دون الانطلاق منها لتقديم رؤية لماهية هذا التحول ومساره، فليس من الغريب - إذاً - والحال كذلك - أن يفشل فلاسفة الغرب - على المستوى الفردي - في تقييم أنفسهم وتقييم غيرهم من الشعوب وتحديد موقع الحق والباطل. فالرؤية المتعالية لأنفسهم التي جاءت نتيجة الثقة المبالغ فيها في العقل البشري الغربي والاعتقاد في تميزه عن العقول الأخرى وعدم حاجته لأي معين خارجي مفارق أعمتهم عن رؤية حقيقة كثير من الأمور. لقد تاه بهم العقل في بحثهم عن الحقيقة فتاهت معه حقائق أمور كثيرة.

أدت سيطرة قيم الرأسمالية وهيمنتها على العالم إلى تغليب قيم المصلحة والكسب المادي والنظر لكل الأمور والبشر على أنها سلع تقاس بالمكسب والخسارة، فكان من الطبيعي أن يجنح مفكرو العصر الحالي مع إسرائيل حيث قوة المال اليهودي تحكم العالم وحيث سطوة الإعلام الصهيوني تؤدي دورها في تضليل العالم وعدم إظهار الحقائق.

خلق الإعلام الغربي الظاهرة التي أصبحت تعرف بالإسلاموفوبيا التي أدت إلى إذكاء روح كراهية العالم لكل ما هو إسلامي نتيجة إظهار الإعلام للمسلمين بأنهم قوم من الهمج متعطشون للدماء إرهابيون وقتلة. وإذا كان هذا الإعلام لن يتمكن من التأثير بسهولة على مفكرين وفلاسفة بقدر

الفلاسفة الذين ذكرنا أسماؤهم، فعلى الأقل سيساعد الناس العاديين على الاقتناع بهذه التناقضات التي يرتكبها الفلاسفة بين وقت وآخر.

لا يبرر الإنتاج العلمي والتكنولوجي للعقلية الغربية بدءاً من العصر الحديث لفلاسفة الغرب الاعتقاد في أي سمو للعقلية الغربية. كل ما هنالك أن العلم الغربي حلقة من تاريخ العلم البشري، أكمل فيها علماء الغرب ما سبقهم فيه العلماء العرب الذين بدورهم استندوا إلى ترجماتهم للإنتاج الغربي اليوناني والهندي والفارسي. فالإنتاج الغربي حلقة من سلسلة تمثل العلم البشري، فهي نتاج عقلية وضعت العلم في مكانه الصحيح وهو فصله وإبعاده عن التفسيرات اللاهوتية مثلما فعل سابقوهم. فلكل من العلم والتفسيرات اللاهوتية ميدانه ومنهجه. إلى هذا الحد كان سير العلم الغربي سيراً في مساره الصحيح. أما تحييد الغرب للفكر تماماً عن الدين أو الدين عن العلم فهو ما أدى إلى عدم تحقيق شق أساسي مما وعدت به الحداثة الغربية وهو تحقيق السعادة للإنسان. لم تستطع العقلية البشرية وحدها - كما وعد فلاسفة وعلماء الغرب - إيجاد هذا السبيل بعيداً عن مبادئ الرحمة والتسامح والعدل والإنصاف. نعم نادى فلاسفة الحداثة بهذه المبادئ ولكنهم جعلوها مبادئ إنسانية من إنتاج بشري، وبالتالي صاحبها الاعتقاد أنه بإمكان البشر اتباعها أو لا. أما إذا أضفنا لمبادئ الرحمة والتسامح والعدل والإنصاف - أو بالأحرى تأسست على - رؤية أنطولوجية بوجود إله يقف على قمة الوجود ويُعَلِّم البشرية أن هناك عالماً آخر هو المنتهى وأن هذه الحياة حياة دنيا، وبالتالي فإعمار الدنيا لا يكون إلا من خلال مراعاة الآخر وليس من خلال استغلاله لأنه هكذا يجب أن يرى البشر بعضهم البعض وأن الهدف الأقصى هو الحياة الأخرى، فلربما كانت هذه المبادئ ستوضع في مكانها الصحيح بمعناها الصحيح.

طوفان الأقصى: صراع الإرادات والعقول^(١) تأملات فكرية وحقوقية^(٢)

عبد الحسين شعبان^(٣)

تمهيد

لم تكن عملية «طوفان الأقصى» حدثًا عابرًا في المواجهة المستمرة منذ ثلاثة أرباع القرن، بين المقاومة الفلسطينية والاحتلال «الإسرائيلي»، بل تعتبر حدثًا مفصليًا في تاريخ الصراع، فما بعد ٧ تشرين الأول / أكتوبر ٢٠٢٣ سوف لا يشبه ما قبله.

واجهت غزة التي تبلغ مساحتها ٣٦٥ كم^(٢)، لا تعادل سوى ٢٪ من

(١) أنظر: بحثنا الذي نشر في مجلة الهدف (الفلسطينية)، العدد الخاص، رقم ٥٥ / ١٥٢٩، يناير / كانون الثاني ٢٠٢٤.

(٢) أنظر: محاضرتنا في مؤتمر اتحاد الحقوقيين العرب، بغداد، ٢٠ نيسان / أبريل ٢٠٢٤.

(٣) أكاديمي ومفكر عراقي، الأمين العام السابق للجنة العربية لمناهضة الصهيونية والعنصرية (اللجنة العربية لدعم قرار الأمم المتحدة ٣٣٧٩ الخاص بمساواة الصهيونية بالعنصرية).

مساحة فلسطين البالغة ٢٧ ألف كم^٢، حرباً عالمية بكلّ معنى الكلمة، وتعرّضت إلى إبادة شاملة في ظلّ دعم غربي لا محدود، تبريراً وتسويقاً للعدوان في الأمم المتحدة وخارجها، تحت حجة «حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها». فكيف يمكن فهم ما حصل؟

زمام المبادرة

بدأت عملية طوفان الأقصى بمباغطة فائقة البراعة، ليلة عيد الفرقان «الإسرائيلي»، حين اقتحمت قوات المقاومة «حماس»، المواقع «الإسرائيلية» في غلاف غزّة، بسرعة مذهلة ودقيقة في الساعة الثالثة صباحاً، في ٢٢ موقعاً عسكرياً، وخلال ثلاث ساعات تمكّنت من اغتيال بضع مئات من الضباط والجنود «الإسرائيليين»، واقتادت ما يزيد عن ١٠٠ «إسرائيلي»، بمن فيهم اثنين من العسكريين من جهاز «الشين بيت - شاباك» (المختصّ بالأمن الداخلي، والذي يتبع لرئيس الوزراء مباشرة)، وعدد من الأجانب، لاحتجازهم كأسرى، أطلقت سراح بعضهم (من المدنيين وحملة جنسيات أخرى)، في عملية تبادل للأسرى، واحتفظت ببعضهم الآخر، ولاسيّما العسكريين، ضمن خطة للضغط على «إسرائيل» لتحرير الأسرى الفلسطينيين من السجون «الإسرائيلية».

وتكمن أهمية عملية طوفان الأقصى في امتلاك زمام المبادرة أولاً، وثانياً، ما حققته من اختراق نظرية الأمن «الإسرائيلي»، التي ظلّت مهيمنة لعقود من الزمن، وكيف أخذ «الإسرائيليون» على حين غرّة؟ ويعود ذلك، في جزء كبير منه، إلى دقة التخطيط والتنفيذ والمعلومات الاستخبارية، حيث

تم تحديد المعركة والمبادأة في اختيار لحظة الهجوم، وتكاد تكون هذه العملية الجريئة الكبرى والأولى، التي تدار فلسطينياً بعد حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣ التحررية، التي حاولت فيها القوات المصرية والسورية مواجهة نظرية الأمن «الإسرائيلي»، حين اختارت هي تحديد لحظة المواجهة، وبدء المعركة، في حين كانت «إسرائيل» في المعارك الأخرى، هي التي تفرض المعركة بشنها العدوان.

أركان نظرية الأمن «الإسرائيلي»

ساهمت عملية طوفان الأقصى في خلخلة الأركان التي تقوم عليها نظرية الأمن «الإسرائيلي»؛ وأهمها:

أولها - حرب المعلومات: التفوق الاستخباري، ففي جميع حروب «إسرائيل» ابتداءً من حرب العام ١٩٤٨ أو في العدوان الثلاثي العام ١٩٥٦ (الإنكلو - فرنسي «الإسرائيلي») أو في عدوان ٥ حزيران / يونيو المعروف بـ «الأيام الستة» العام ١٩٦٧ أو في الحروب على لبنان وغزة وغيرها، كانت الاستخبارات «الإسرائيلية» الموساد، (جهاز الاستخبارات الخارجي، الذي يرتبط برئيس الوزراء مباشرة)، تمتلك معلومات أكثر مما يمتلكه الجانب العربي والجانب الفلسطيني بكثير، بل إن المعلومات الاستخبارية العربية والفلسطينية، كانت شحيحة جداً، لكن عملية طوفان الأقصى أظهرت هشاشة التفوق الاستخباري والأمني «الإسرائيلي»، حين هاجمت قوات فلسطينية فدائية، لا تزيد عن بضعة مئات، أكثر من عشرين ألف عسكري «إسرائيلي»، وعرضتها للانكشاف، والفضل يعود، في جزء كبير منه إلى

الدقة الاستخبارية الفلسطينية والحصافة الأمنية، وخطط التمويه والإيهام، التي قامت بها بسرية كاملة، ناهيك عن الشجاعة في اتخاذ القرار والتنفيذ، على الرغم من امتلاك الاستخبارات «الإسرائيلية» آخر اختراعات العلم وابتكارات التكنولوجيا.

لقد تمكّنت استخبارات المقاومة، على بساطتها وقلة إمكانياتها، من الحفاظ على سرّية عملها وتحديد ساعة المواجهة، وإنزال ضربة مفاجئة وغير محسوبة بالمنظومة الاستخباراتية والأمنية «الإسرائيلية»، التي لم تكتشف خطة المقاومة، سواء في اتخاذ القرار، أو في التنفيذ والإداء بإعداد محكم ورصين لهذه العملية، التي استغرقت نحو عام من التحضير المضني.

وثانيها - حرب العلوم: التفوّق العلمي والتكنولوجي، وهذه هي الأخرى تمّ التغلّب عليها، حين اختارت المقاومة لحظة الهجوم، وهكذا كانت الإرادة والحق في مواجهة التكنولوجيا والباطل، فلم ينفع ادّعاء «إسرائيل» بامتلاكها أسرار الذكاء الاصطناعي، وتفوقها على الفلسطينيين والعرب، وتصنيف نفسها كدولة متقدمة، فقد تمكّنت المقاومة بأدوات وأسلحة بسيطة، وخطة محكمة، أن تحقق نتائج مذهلة، وأنزلت ضربة غير متوقعة بالقوات «الإسرائيلية»، علماً بأنها تمتلك أسلحة متطورة ومعدّات واستعدادات وتميّهة، ومنظومات دفاع مدعومة غربياً، وخصوصاً من جانب الولايات المتحدة، كما حافظت المقاومة، طيلة الفترة المنصرمة، على سرّية بناء الأنفاق، وجهازها بأسباب الحياة دون أن تعرف «إسرائيل» وعملائها، فضلاً عن أنها، حتى بعد اجتياح غزة، لم تتمكن من الوصول إليها.

لقد أظهرت، عملية طوفان الأقصى، «إسرائيل» عارية على الملأ، لدرجة

أخذت تستنجد بحلفائها لدعمها، وقامت بعد ذلك بعملية انتقامية في حرب إبادة مفتوحة مثلت فضيحة للضمير العالمي، وكشفت بما لا يدع مجالاً للشك عن زيف إدّعاءات بعض دعاة حقوق الإنسان وقيم العدالة والحرية على المستوى العالمي.

وتمكّنت المقاومة خلال هجومها من الحصول على أسرار ومعلومات خطيرة، لا تتعلق بالجوانب الأمنية والاستخباراتية فحسب، بل على بعض أسرار المنظومة الدفاعية «الإسرائيلية»، وذلك بوضع يدها على كومبيوترات ومعلومات مخزونة وأرشيف كبير، سواء عنها أو عن بعض «المتعاونين» مع «إسرائيل» أو عن المنظومة «الأمنية الإسرائيلية».

وثالثها - حرب الإرادة، وهذه مرتبطة بالسياسة من جهة وبالعقيدة العسكرية من جهة أخرى، فقد كانت «إسرائيل» تدرك أن النجاح في الحرب يعتمد على قرار سياسي أولاً وخطة عسكرية ثانياً، وسيكون تحديد نتائجها للأقوى، ولذلك كانت دائماً ما تبدأ بتحديد مكان وزمان المعركة، وتضع الخطط المسبقة لذلك، ولكن المقاومة، هذه المرة، كانت هي المبادرة، وهي التي حددت مكان المعركة وزمانها، فألهبت حماسة فلسطين بكاملها، بما فيها داخل الأراضي المحتلة وعرب الـ ٤٨، كما يقال، ناهيك عن الضفة والقدس، وعموم مناصري العدالة والحق على المستوى الكوني.

وسعت المؤسسة السياسية والعسكرية «الإسرائيلية»، طيلة ثلاثة أرباع القرن، الإبقاء على تفوقها من جهة، والعمل على تفكيك وإفشال أية محاولة لإعادة بناء القدرات الفلسطينية، عن طريق استراتيجية ما يسمى «قصّ الثيل» أو «جزّ العشب»، وخلال العقدين المنصرمين عمدت «إسرائيل» إلى

شنّ ٤ حروب كبرى على غزّة بعد حصارها منذ العام ٢٠٠٧، وقبل عملية طوفان الأقصى، وهذه الحروب العدوانية هي:

الأولى في ٢٧ كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٨ أسمتها «إسرائيل»
«الرصاص المصبوب»، أما حماس فأطلقت عليها اسم «حرب الفرقان»،
واستمرّت إلى يوم ١٨ كانون الثاني / يناير ٢٠٠٩.

والثانية في ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٢، وأسمتها «إسرائيل»
«عامود السحاب»، ودعتها حماس «حجارة السجّيل» واستمرّت ٨ أيام.

أما الثالثة في ٧ تموز / يوليو ٢٠١٤ وأطلقت عليها «إسرائيل» اسم
«الجرف الصامد» أما حماس فأطلقت عليها «العصف المأكول» واستمرّت
٥١ يوماً، حيث توقّفت في ٢٦ آب / أغسطس ٢٠١٤.

والرابعة، في أعقاب «أحداث حي الجراح» في القدس والتي شهدت
مواجهات بين سكانها والسلطات «الإسرائيلية»، فانفضت غزّة وكل
فلسطين ما بعد الخط الأخضر تضامناً مع سكان حي الجراح في القدس،
وشنّت «إسرائيل» عملية عدوانية كبرى أسمتها «عملية حارس الأسوار»،
في حين أطلقت عليها حماس «معركة سيف القدس ٢٠٢١»، حيث بدأ
العدوان في ٦ أيار / مايو ٢٠٢١، وتوقّف إطلاق النار بوساطة دولية قادتها
مصر في ٢١ أيار / مايو ٢٠٢١.

وهكذا كانت «إسرائيل» في حالة «استرخاء» لاعتقادها أن المقاومة لا
يمكنها شنّ حرب عليها بسبب الحصار والتجويع ومحاولات التفكيك
المستمرة. ولعلّ ما يعزّز مثل هذا الاعتقاد هو بناء الجدار العازل اللّاشرعي
واللّاقانوني واللّإنساني. وبسببه كانت «إسرائيل» تشعر أنها أكثر «أمنًا»،

خصوصًا وأن أية محاولة لاجتيازه تستهلك طاقة الفلسطينيين، حيث يبلغ طوله ٧٧٠ كلم، وتم بناء ٤٠٦ كلم منه، أي ٥٢,٧٪، ويتراوح عرضه من ٦٠ - ١٥٠ مترًا في بعض المواقع، وبارتفاع يصل إلى ٨ أمتار، وخندق يصل عمقه إلى أربعة أمتار لمنع مرور المركبات والمشاة، علمًا بأن محكمة العدل الدولية أصدرت قرارًا استشاريًا في ٩ تموز / يوليو ٢٠٠٤ بعدم شرعية الجدار.

ورابعها - وحدة القرار والتنفيذ (الإرادة والعمل): المقصود بذلك التفوق بوحدة القرار السياسي والعسكري والإعلامي، وهو ما عرفته جميع الحروب «الإسرائيلية»، باستثناء ما بعد عملية طوفان الأقصى، فكان الانشقاق واضحًا، فبنيامين نتانيا هو يلوم المؤسسة العسكرية والأمنية بسبب عدم معرفتها بخطة طوفان الأقصى، سواء في مرحلة التخطيط أو الإعداد أو حين التنفيذ، وهذا يعني فشل المنظومتين الأمنية والعسكرية، في حين أنهما يلقيان اللوم على نتانيا هو لتوريطهما في حرب مفتوحة والخسائر التي منيت بها «إسرائيل»، وكلاهما يترصد للآخر، فتتانيا هو يريد زجّ الجيش بمعارك لا حدود لها، حتى لو سقط المئات من الجنود والضباط في هذه المعركة، بما في ذلك لو تم التضحية بالأسرى «الإسرائيليين»، طالما تؤدي إلى استمرار الحرب، لأنه يريد أن يظهر بمظهر «البطل»، كي يحمي نفسه بعد انتهاء المعارك من المثل أمام العدالة بتهم الفساد والتزوير، وبالمقابل، تترصد له المؤسسة العسكرية والأمنية، التي تريد إنهاء المعارك حقنًا لدماء الجنود واستعجالًا بمحاكمته.

ولعلّ ما أوقع «إسرائيل» في هذا الصراع، هو ازدياد حالات التذمر الشعبي، خصوصًا ضغوط عوائل الأسرى، والخسائر التي تعرّضت لها

خلال عملية اجتياح غزّة، وذلك بعد تجريف الأجزاء الشمالية منها ودفع سكانها للهجرة إلى رفح باتجاه الحدود المصرية، فبعد أن كانت جميع الحروب «الإسرائيلية» تحظى باتفاق عام من الجيش والمستوطنين وسكان «إسرائيل»، فإن هذه الحرب أظهرت الانقسام الحاد بين حكم معزول ورئيس وزراء متهم وجيش متدمر، ومؤسسة أمنية مرتبكة، والأكثر من ذلك فإن الانقسام الشعبي والاصطفافات ضدّ حكومة نتانياهو التي سبقت الحرب ازدادت عمقاً، وآخرها امتناع وزراء من حضور اجتماعات مجلس الوزراء، وإعلان قادة عسكريين سابقين عن موقف مناقض لمواقف نتانياهو، وقرار جديد من المحكمة العليا بالتحقيق فيما حصل بطوفان الأقصى، حتى قبل انتهاء المعارك، وتلك مسألة تحدث لأول مرّة.

الحرب النفسية

لم تخلخل عملية طوفان الأقصى نظرية الأمن «الإسرائيلي» فحسب، بل عملت على تبهيت صورة الجيش «الإسرائيلي»، الذي لا يقهر وأسطورته، والذي يُقال عنه أقوى رابع جيش في العالم من حيث القدرات القتالية، والجيش الثامن عشر دولياً، وهكذا انهارت صورة الردع «الإسرائيلي»، فالمحاصرون والمجوعون انتصروا في لحظة تاريخية فارقة أذهلت العالم، الأمر الذي أدّى إلى استنفار حلفاء «إسرائيل»، الذين تسابقوا إلى تقديم النجدة العاجلة لها، والحج إلى تل أبيب حيث وصلها الرئيس الأمريكي جو بايدن ووزير خارجية الولايات المتحدة بلنكن ووزير دفاعها أوستن والرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون ورئيس وزراء بريطانيا ريشي سوناك والرئيس الألماني فرانك شتاينهاير ورئيس إيطاليا سيرجيو ماتاريلا، وهو ما وفر لها

غطاءً معنوياً لشن الحرب المفتوحة على المدنيين، ورفض أي مطالبة بوقف العدوان، ترافقاً مع الفيتو الأمريكي في مجلس الأمن، بحجة:

- ١ - استعادة الرهائن.
- ٢ - القضاء على قادة حماس وتفكيك بنيتها التحتية وإخماد أي صوت للمقاومة.
- ٣ - فرض سلطة أمنية جديدة على غزة، صديقة «لإسرائيل».
- ٤ - تشطير غزة ببناء حاجز يفصل بين شأها وجنوبها.
- ٥ - تغيير نمط تفكير من يتبقى في فلسطين بتسفيه فكرة المقاومة، وإظهار عدم جدواها لقبول الأمر الواقع.

ودارت دورة الحرب النفسية الناعمة أيضاً في محاولة استبدال الوعي بالنصر لتحويله إلى موت ودموع ومأسي، وذلك بعد فشل «إسرائيل» في تحقيق أهدافها المعلنة، فضلاً عن فشلها في تسويق روايتها بخصوص قطع رؤوس الأطفال واغتصاب النساء، وكأن همّ المقاومة ذلك، ناهيك عن أن العملية كلّها استغرقت ٣ ساعات، فكيف يمكن أن يحدث ما هدفت «إسرائيل» إلى تسويقه؟ وللأسف فإن رئيس أكبر دولة في العالم، جو بايدن، ردّد ذلك، وعاد واعتذر عند قصف «مستشفى المعمداني»، باتهام جهات موالية لإيران، ثم ثبت أن الصاروخ أمريكي وهو مستخدم لدى جيش الدفاع «الإسرائيلي».

ومثل هذا الأمر ينبغي وضعه ضمن خطط المقاومة، لاسيّما استخدام كلّ ما يتعلّق بوسائل الحرب الناعمة، ووفقاً للذكاء الاصطناعي واقتصادات المعرفة.

المحطة الثالثة للمشروع الصهيوني

إن هدف رسالة الردع «الإسرائيلية» هو الإرهاب، ولذلك انفلتت عمليات التهديد لدرجة أن الأمر وصل إلى بيروت، التي هُددت بمصير غزّة، وبدأت مع ذلك المحطة الثالثة للمشروع الصهيوني، فقد كانت المحطة الأولى هي إقامة «إسرائيل» العام ١٩٤٨ بعد قرار التقسيم من الأمم المتحدة (١٩٤٧).

ثم المحطة الثانية وهي احتلال كامل فلسطين، بما فيها القدس العام ١٩٦٧، وضمها بقرار من الكنيست إلى «إسرائيل» (١٩٨٠)، واعتبارها «عاصمة أبدية موحدة لها».

أما المحطة الثالثة، فهي التي بدأت مع طوفان الأقصى في العام ٢٠٢٣، بشن حرب إبادة ومجازر مروعة، باعتبار أن الفلسطينيين «حيوانات» يمكن تسويتهم بالأرض بهدف التهجير (ترانسفير)، والسيطرة على الأرض مجدداً (إعادة الاحتلال)، وتلك صفحة جديدة من صفحة القرن، التي يمكن شموها لدول عربية أخرى، مثل الأردن (حسب ليرمان) وسوريا ولبنان ومصر والسعودية والعراق واليمن، وإن كانت على مراحل.

وإذا كانت المحطتان، الأولى والثانية، قد مرّتا، وحقت «إسرائيل» جزءاً من أحلامها التوسعية، فإنه بعد عملية طوفان الأقصى، بدى الأمر مختلفاً، على الصعيد الفلسطيني أولاً، وهو ما سيترك تأثيره عربياً لاحقاً، وسيكون الأمر مؤثراً كذلك على المستوى العالمي، فبعد أن خفت الحديث عن حلّ الدولتين، وطويت المبادرة العربية (بيروت ٢٠٠٢)، «الأرض مقابل السلام»، التي تعاملت معها «إسرائيل» باستخفاف كبير، ومعها حليفها واشنطن، والتي كانت تريد من العرب «التسليم بالأمر الواقع» وركوب قطار التطبيع

بلا عودة، وإذا بحديث الدولتين يعود بقوة على المستوى العالمي، ويتصاعد الكلام في الأمم المتحدة وخارجها عن حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم، طبقاً للقرارات الدولية.

سيناريوهان

شكل الارهاب جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الصهيونية، منذ ولادتها في نهاية القرن التاسع عشر، ونظر لها عرابوها من هيرتزل إلى جابوتينسكي، وتقوم الفلسفة الصهيونية على الإرهاب كنظرية عمل ونظرية حياة انطلاقاً من اعتبار «اليهود شعب الله المختار»، والشرط الجوهرى لبلوغ ذلك، ليس سوى الإرهاب والعنف لمواجهة الوحوش الضارية، حسب هيرتزل، ووفقاً لجابوتينسكي تحطيم كل من يقاوم الصهيونية.

لا أحد يستطيع أن يقدّر متى ستنتهي الحرب وكيف ستنتهي؟

سيناريوهان يتصدّران المشهد، في الممكن وغير الممكن على المدى المنظور، أحدهما «إسرائيلي»، والآخر «فلسطيني»، الأول عاد بقوة بعد عدم إمكانية تحقيق نصر عسكري على الأرض، إلى ممارسة الاغتيالات، والتي هي جزء من الفلسفة الصهيونية، فقد لجأت «إسرائيل»، خلال حرب الإبادة، إلى اغتيالات خارج دائرة العمليات الحربية فأقدمت على اغتيال رضا موسوي في دمشق وصالح العاروري (القيادي في حماس) في بيروت وقيادي من حزب الله في الجنوب اللبناني، وتزامناً مع ذلك، اغتالت القوات الأمريكية مشتاق طالب السعيد في بغداد من (الحشد الشعبي)، في إطار عمليات الانتقام من طوفان الأقصى.

السيناريو «الإسرائيلي» يريد استثمار التهجير القسري لإحداث تغيير ديموغرافي كي ما يؤدي إلى تغيير جيوسياسي، وذلك في الوعي والثقافة في الحاضر والمستقبل لإسدال الستار على القضية الفلسطينية لتصبح «ذكرى» أو «تاريخ»، والتمهيد لذلك يتم عبر تقطيع أوصال غزه، وتهجير سكانها وإيجاد من يقبل التعامل مع «إسرائيل»، وصولاً إلى إنهاء القضية الفلسطينية، فعلى الرغم من مرور أشهر على شروع «إسرائيل» بحرب إبادة، فقد اضطرت إلى سحب ٥ فرق جديدة خارج غزّة، بعد فشلها من تحقيق أهدافها، كما سحبت لواء نخبة النخبة من الجولان، في محاولة لإعادة الانتشار، خصوصاً في ظلّ الضغوط التي تعرّض لها رئيس الوزراء «الإسرائيلي» بنيامين نتنياهو، والصراع بين القرار السياسي والقرار العسكري، بالرغم من الحرب المفتوحة، التي شنتها «إسرائيل» على شعب أعزل،

أمّا السيناريو الثاني (الفلسطيني)، فإنه يقوم على إرغام «إسرائيل» على الحدّ من الاعتداءات على المسجد الأقصى، التي تكرّرت خلال السنوات الأخيرة، منذ محاولة حرقه في العام ١٩٦٩ على يد مايكل دينيس روهان، وهو متطرّف من أصل أسترالي، إلى اليوم، علماً أن المسجد الأقصى ليس رمزاً إسلامياً فحسب، بل هو رمز تاريخي كوني، وهو ما أظهرته اليونيسكو يوم ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠١٦ خلال اجتماع في العاصمة الفرنسية باريس بقرارها رقم ٢٠٠، الذي ينفي وجود ارتباط ديني لليهود بالمسجد الأقصى وحائط البراق، ويعتبرهما تراثاً إسلامياً خالصاً، بالصدّ من ادّعاءات «إسرائيل» وحفرياتهما لإثبات عكس ذلك بزعم «وجود الهيكل».

ومن نتائج طوفان الأقصى، وقف قطار التطبيع، التي سارعت إلى ركوبه

بعض الدول العربية، ظناً منها أنه يمكن أن يساهم في عملية السلام في المنطقة، فضلاً عن الوقوف ضدّ مخطط تصفية القضية الفلسطينية، الذي كان يُراد له، في إطار صفقة القرن أن يدخل مرحلة التنفيذ لإنهاء فكرة قيام دولة، والقبول بالأمر الواقع ليصبح واقعاً، ومن النتائج الأخرى المحتملة، ضمن السيناريو الفلسطيني، إنهاء الحصار المفروض على غزة والذي يستمر منذ نحو ١٧ عاماً، فلم يعد ذلك مقبولاً، ولا بدّ من التفكير في مسارات أخرى، خصوصاً بعد أن ساهمت عملية طوفان الأقصى في كسر نظرية الردع «الإسرائيلي»، فضلاً عن التحوّل الكبير في الرأي العام العالمي لصالحها، حتى أن جنوب أفريقيا قدّمت طلباً إلى محكمة العدل الدولية بشأن فتوى استشارية بخصوص ارتكابات «إسرائيل» في غزة.

فأي السيناريوهين سيكون قريباً من الواقع؟

لعل دروس تاريخ المقاومة تعلّم أن القوّة العسكرية والجيش النظامية مهما أوتيت من جبروت وقوّة وامكانات علمية وتكنولوجية واستخباراتية، فإنه ليس بإمكاننا تحقيق النصر على الشعوب الحرّة المكافحة من أجل استقلالها وحرّيتها وحقها في تقرير مصيرها، ومثالنا الحرب الأمريكية على فيتنام (١٩٦٢ - ١٩٧٥)، حيث اضطرت في نهاية المطاف إلى تجرّع طعم الهزيمة على الرغم مما ألحقته من خسائر بالفيتناميين.

صحيح ان الحرب غير متكافئة، حيث لا يمكن قياس التفوق العسكري «الإسرائيلي» بإمكانات المقاومة الفلسطينية عسكرياً، لكنها فشلت في القضاء على حماس، بل أن الأخيرة أعادت طرح القضية الفلسطينية كمحور للصراع

في المنطقة، بل قضية عربية مركزية، ويعكس الاهتمام الإقليمي والدولي بها شعوبًا وحكومات، ناهيك عن الرأي العام العالمي، بأنه لا بدّ من حلّ عادل ومقبول، يؤدي إلى إنهاء الاحتلال إن آجلًا أم عاجلاً.

ويعود الفضل في كشف الوجه العنصري «لإسرائيل»، بكل سفور ودون براقع أو تزيين، إلى المقاومة، لدرجة أن نفورًا حصل في الرأي العام اليهودي داخل الولايات المتحدة، والذي كان باستمرار مؤيدًا «لإسرائيل»، وإذا بأعداد كبيرة من الشباب، أخذت تطالب بوقف الحرب، وتحمل إستمرارها «لإسرائيل»، وتلك من الظواهر الجديدة التي أفرزها العدوان على غزّة، والبشاعة التي استخدمت فيها.

إن عملية طوفان الأقصى، وردّ الفعل «الإسرائيلي»، إنما هي صفحة جديدة ومهمة في صراع الإرادات والعقول، حيث تكون المطاولة فيها متنوّعة ثقافيًا وقانونيًا وديبلوماسيًا وسياسيًا وإعلاميًا واقتصاديًا وعسكريًا ونفسيًا، حيث لا تنتهي المعركة بجولة واحدة، لأنها طويلة الأمد، ولكن النتيجة لن تكون إلّا لصالح الشعوب مهما طال أمد الصراع.

ما يحدث في غزة ليس «تطهيرًا عرقيًا» عن شكيزوفرينيا الغرب

د. حسن أوريد^(١)

أفرزت الحرب على غزة والمواقف حيالها في الغرب، حالةً فريدة، خاصة من لدن أصحاب القرار. يُعلن قادة الغرب عن شجبهم للحرب، من حيث الخطاب، ولا يضيرهم أن يروا آلة الحرب تحصد الضحايا، وتُشرّد الأسر، وتُعرضهم للجوع والبرد والضياع كل يوم. تُهدم البيوت على رؤوس أصحابها، وتُستهدف أماكن العبادة والمستشفيات، من دون أن يفعل قادة الغرب شيئًا عمليًا لوقف آلة الدمار.

يُعبرون عن أساهم، وقلقهم، وانشغالهم، كما لو أن الحرب غضب الطبيعة، لا يستطيعون حيالها أمرًا، ثم ينتقلون لشيء آخر. أولهم أولويات لا يريدون أن يسفروا عنها. ما تعلنه الإدارة الأميركية ليس ما تضره. تُعبر عن

(١) مُفكّر وباحث، أستاذ العلوم السياسية بجامعة محمد الخامس بالرباط.

شيء وتأتي بما يناقضه، وهو الأمر الذي يُنعت بالانفصام، أو بالشيزوفرينية. بقدر ما تتحرك الآلة الدبلوماسية الغربية، أخذ الإعلام الغربي في الخفوت، في نوع من حالة استثناس بما «يجري في غزة»، والوقوع في اللامبالاة. لم تعد الحرب في غزة تتصدر الأخبار في الشاشات الغربية، واستعادت الحرب الروسية - الأوكرانية صدارتها. تتم تغطية محدودة للحرب على غزة، ليست في صدارة العناوين، مع توجيه مقصود لتبني السردية الإسرائيلية.

يمكن للناطق الرسمي للجيش الإسرائيلي أن يتحدث لكل الوسائل المرئية في فرنسا، وكل اعتراض عليه، يُعرض صاحبه لإجراءات تأديبية، صحفياً كان أو ضيفاً، ولذلك يتم اختيار الضيوف بعناية، ويتحاشى من لا يتبنى السردية الإسرائيلية من الظهور.

في بعض القنوات، كما «سي إن إن»، لا يجوز استعمال مصطلحي «إبادة جماعية»، ولا «جرائم حرب»، حتى لو كان الواقع يشي بإبادة، وينطق عن جرائم حرب. لا يكفي أن يصرح مسؤولون إسرائيليون بالتعامل مع الفلسطينيين بصفتهم حيوانات، وتهديد آخر باستعمال القنبلة النووية على غزة، واستعمال كل أعمال القتل والدمار والتجويع، واستهداف الأطفال والنساء من المدنيين، وقصف المستشفيات والمدارس ودور العبادة، وتسوية غزة بالأرض.

كل ذلك ليس إبادة، ولا يرقى لأن يكون جرائم حرب، كما صرح بليكن في مؤتمره الصحفي بإسرائيل. الفرق بين الكيل بمكيالين هو تمييز واعٍ ومقصود، أما الشيزوفرينيا، فهي أن تؤمن حقاً بأن ما يجري في غزة لا يرقى أن يكون إبادة، ولو جافى ذلك الواقع.

من العسير أن تحكم على من دأب أن يحكم على الآخرين، فهذا لن يتم قبوله منك بطبيعة الحال ولكن لا تستطيع أن تغض الطرف عن شيزوفرنية الغرب.

الغرب الحامل لقيم الإنسان، ينسى أن هناك أناسًا تجري في عروقهم الدماء نفسها التي تجري في عروق الغربيين، كما في تعبير شكسبير في تاجر البندقية، ويحق لهم أن يُعاملوا بالمعايير نفسها التي يُعامل بها أي إنسان. الغرب الحامل لحرية التعبير، يتصدى لحرية التعبير، ببذاءة، وصفافقة، وافتراء، كما فعلت الصحيفة البريطانية التي شوشت على الناشط الحقوقي مصطفى البرغوثي، في حكم قيمي.

الغرب الذي يؤمن بالشك المنهجي، ويُعلّم «البرابرة» أفضاله، لا يتورع عن تلقف سرديّة إسرائيل عن البطون المبقورة، والأجساد المحروقة والرؤوس التي حُزّت، من دون تشكيك ولا تحرّج. ولا يفعل شيئًا من تقديم اعتذار بعد ما تبين زيف ما تم ترويجه حدّ الغثيان.

الغرب العقلاني جدًّا، ينسى عقلانيته، باسم انتساء، وهوية المتحضرين ضد «البرابرة». يَعدّ ألا يتكرر ما وقع في ٧ أكتوبر، كما أعلن بليكن، ولا يتساءل عمّا جرى قبل هذا التاريخ، من تقتيل بطيء لأهل غزة، وعمليات تجريد لأهل الضفة من أراضيهم، وانتهاكات مستمرة للمسجد الأقصى.

الغرب الديمقراطي، حامل سيادة الشعب، لا يقيم اعتبارًا لرأيه العام. الغرب حامل حرية التفكير، يتعقب من لا يفكرون من داخل قنوات الأرثوذكسية: (حرفيًا، التفكير القويم، واصطلاحًا الاتجاه العام)، ويقوم بنوع من الماكارثية، في تعقب من يناصرون الشعب الفلسطيني، أو مجرد أن

ينادوا بوقف الحرب، حتى بداخل الحرم الجامعي.

الغرب الغيور على الحرية، حتى على الحرية الجنسية، ينسى أول حق للإنسان، وهو الحق في الحياة. يتجدد من أجل حرية متحول جنسي، ولا يُحرك فيه ساكنًا أطفالًا يُقتلون، أو حق جريح في التعبير عن آنته، أو موتور في الصدع بالظلم الذي حاق به.

الغرب الداعي للتسامح منذ لوك وفولتير، يتعقب المسلمين في الغرب، في لباسهم ومأكلاتهم ومعتقداتهم وأفكارهم.

الغرب الذي حمل منذ اجتياح صدام للكوييت بروفة نظام عالمي جديد، ينسى (أو يتناسى) أن هناك واقع احتلال في فلسطين. لا يفتر عن تجنيد قاذفاته الخطابية في «حل الدولتين»، مع التستر على مسلسل المستوطنات، وتقديم القروض لإقامتها ومنح المساعدات.

الغرب أو الولايات المتحدة للدقة -إذ أن عنوان الغرب كما يقول الفيلسوف الفرنسي ريجيس دوبري هو «البيت الأبيض»- من رسم خطاطة حل قائم على الأرض مقابل السلام، والوسيط النزيه، نسي تمامًا ما وضعه هو نفسه، ولا يفتأ يُقدّم الدعم الدبلوماسي والمالي لإسرائيل، ويضع كلمات للسلطة الفلسطينية، وقام في سلسلة من عمليات متواترة بما ينافي ما يقتضيه دور الوسيط النزيه.

الولايات المتحدة -مثلما ذكرنا بوش في خطابه الشهير «أيامًا معدودة» عقب ضربات ١١ سبتمبر- هي منارة الحرية والتعدد والديمقراطية، وهو ما يُنفسه المتطرفون الحاقدون، على الولايات المتحدة ويكرهونها من أجل ذلك. لا نريد أن نكره أحدًا. ومن حقنا فقط التذكير بالقيم التي يدفع بها

الغرب، وحالة عدم الاتساق، بين ما يقول به، وما يقوم به فقط. أو النقص في الاتساق فقط.

الغرب الذي يؤمن بالإنسان من حيث هو إنسان، من يتستر على واقع الأبارتايد في الضفة الغربية وفي إسرائيل.

الولايات المتحدة التي جرّمت رئيسًا كما حدث مع الرئيس نيكسون - لأنه كذب وتستر على حقيقة - لم تتورع عن الكذب حول امتلاك العراق أسلحة الدمار الشامل وضلوعه مع «القاعدة»، أو عن ترديد سرديّة بقر بطون النساء، وتحريق الأطفال، وتفجير مستشفى المعمداني من قبل الفلسطينيين أنفسهم.. يبادر الرئيس الأميركي بايدن أول ما تطأ قدماه إسرائيل، إلى أن يخبرنا «النبأ اليقين»، بأن الفلسطينيين هم من فجر مستشفى المعمداني.

الولايات المتحدة من هبّت لتحرير العراق من طاغية، هي من أعطته «دروسًا تطبيقية» حول احترام حقوق الإنسان في سجن أبي غريب!. وهي اليوم من تلتزم الصمت عن مدينين تُمتّهن كرامتهم، في غرة، ويُجرّدون من لباسهم، في البرد، وحين تُقتحم بيوت الله، بالأحذية، وتُنتهك حرمتها.

الولايات المتحدة حاملة مشعل السلام، أو السلام الأميركي، هي التي تبعث خبراءها العسكريين إلى إسرائيل، وتقدم خبرتها الميدانية، واستخباراتها، فضلًا عن السلاح.

الولايات المتحدة التي ترى الخراب، ولا تفعل شيئًا لإيقافه، تستنفر «الأشقاء» من أجل إعادة البناء، وتجري أسفارًا مكوكية، لتطمئن أن «الحلفاء» على «العهد»، من أجل استكمال المشوار، مشوار اتفاقية أبراهام، هو المهم. أما أن يموت عشرات الآلاف من الأطفال والمدنيين، ويُهجّروا،

وتُدمّر بيوتهم على رؤوسهم، فأحداث جانبية، وتفصيل، أو عدد غير كافٍ، كما قال مسؤول أميركي سابق، يستقوي على «غلبان» مصري يبيع الهوت دوغ.

كلمة أخيرة في حق بلد الأنوار وإعلان حقوق الإنسان والمواطن والعلمانية. الأنوار لا تسطع إلا لفائدة فئة محدودة، والمساواة هندسة متغيرة، والعلمانية لا تضع الأديان في مرتبة واحدة، باسم العلمانية الإيجابية. حلل وناقش. مع دعم «عرب الخدمة»، كما في العهد «الجليل» للاستعمار.

لسنا في وضعية أن نفكر بروية، ونتأمل بهدوء، لأننا في معمعان الحرب، ولكن هناك حالة باثولوجية، أو غير سوية في القول بشيء، وإتيان ما يناقضه.. للأمر ثمن، طبعاً، هو ضعف القدرة على الإقناع، أو كما يقول غوته في رائعته فوست: «نحن أحرار إذ نأتي الفعل الأول، ونُضحّي أسرى للفعل الثاني».

لا يمكن لأيّ أن يقول، لم نعرف، أو لم نكن نعرف، أو يتذرع بـ «الواجب الأخلاقي»، كما دفع هابرماس، حيال أشياء من الماضي، والسكوت عما يتم اقترافه اليوم جهاراً. كل شيء أمام ناظرينا: القنابل إذ تهوي على المستشفيات والمدارس، والرصاص وهو يخرق صدور الماشين وهم يحملون الأعلام البيضاء، وارتجاف الأطفال وهو يُخرجون من الأنقاض.. نعرف، والعالم يعرف، ولا يمكن لأحد أن يتذرع بالجهل.

الأمر أكثر من الكيل بمكيالين، ولكن سكيذوفرينيا، لا يُخفف منها تنديد بعض أحرار الغرب. العبرة بالواقع. والواقع، هو التقتيل والتدمير ومشاريع التهجير. هل يعني ذلك الغرب من مسؤوليته؟ وهل يستطيع أن يُقدم الدروس بعد اليوم؟ حتى إن فعل، فلن يستمع له أحد

اللاهوت الإسرائيلي بما هو جوهر الأطروحة الأميركية

النشأة والغاية هي نفسها

د. محمود حيدر^(١)

مدخل

لا يكاد ينصرم الجدل حول منطقة الجاذبية الحاكمة على العلاقة الأميركية الإسرائيلية، حتى يعود إلى سيرته الأصلية. وسنرى في ما يظهره منعطف المواجهة الكبرى بين دولة الاحتلال الإسرائيلي والشعب الفلسطيني في غزة والضفة الغربية، ما يضيفي على هذا الجدل المتماذي أسئلة غير مسبقة. ولتأصيل هذه العلاقة لا بد من تعميق النقاش حول تلك الدائرة الغامضة التي تنتظم الصلة التكوينية بين التلمود المؤسس لدولة إسرائيل واللاهوت الإنجيلي المؤسس للأطروحة الأميركية. وفي هذا البحث سوف نمضي إلى

(١) مفكر وباحث في الفلسفة - لبنان.

بيان المشترك اللاهوتي بين الأطروحتين، وذلك قصد جلاء الكثير مما تراكم من غموض والتباس حيال ما يربط بينهما. وفي هذا المورد نشير بدايةً إلى أن المشترك التأسيسي بين أميركا وإسرائيل يقوم على معنيين مركزيين يُظهران وحدة النشأة والسلوك والممارسة:

المعنى الأول: السمة الاستيطانية لكل من الولادتين الأميركية والإسرائيلية. وذلك على القاعدة التي تقول بوجود إحلال شعب لا أرض له، في أرض لا ينبغي لمن عليها أن يكون له أرض.

والمعنى الثاني: السمة اللاهوتية التوراتية، التي تُبرز على الدوام البعد الميتافيزيقي للظاهرتين الأميركية والإسرائيلية، بهدف إضفاء طابع استثنائي ورسالي على كل منهما. وبالتالي جعل كل سلوك وممارسة، ينطلقان من «حقّانية» مزعومة للشعب المختار. وبأن ما يفعله هذا «الشعب» هو حق يستمد مصادره المتسامية من الحق الإلهي.

ولسوف يظهر لنا من المعاينة الإجمالية لسيرّة النشاطين، كيف ستتحكم كلا منهما إلى حضورية الاعتقاد الديني التوراتي، وإلى أن تستأثر الايديولوجيا السياسية واللاهوت بنظام الدولة، والمؤسسات، والمجتمع، والسلطة. في التجربة التاريخية الإسرائيلية المعاصرة كما في التجربة التاريخية الأميركية المتمادية في الزمن، ثمة حشد هائل من المفردات، والسّير، والروايات الدينية، والأسطورية، ما يرسّخ السمة اللاهوتية العميقة بين التجربتين.

ماهية المشترك اللاهوتي

ليست النزعة المركبة من الفردة، والاستعلاء، والاصطفاء التي تُبنى الثقافة السياسية الإسرائيلية عليها، إلا الوجه الحقيقي للترتب من الآخر. إذ كل «غير» أو «آخر» في اللاهوت الإسرائيلي يعود إلى عالم «الأغيار». إلى أولئك الذين سخرهم إله التلمود لخدمة «شعب الله المختار». وليس من باب المصادفة أن ينبري بنيامين نتنياهو ليختم كتابه المعروف «مكان تحت الشمس» بقصة ذات دلالة صارخة على البارانويا اليهودية المعاصرة: تقول القصة أنه عندما طلب فريدريك الأكبر من طبيبه أن يأتيه ببرهان على وجود الله، اكتفى هذا بالقول: إن وجود اليهود هو الدليل على وجود الله.^(١)

لم تنأَ حضورية الدين في الأطروحة الثقافية الأميركية عما نجده في المثال المعاصر للدولة اليهودية في فلسطين. بل يجوز القول إنها جاءت من نفس واحدة. لا سيما إن نحن رأينا إلى الهندسة الاعتقادية والمعرفية على النحو الذي يظهر في الفلسفة العملية لللاهوت السياسي الأمريكي.

ثمة حادثة يستعيدها بعض الباحثين ويتعاملون معها كوثيقة تاريخية للدلالة على توظيف الكتاب المقدس في الاستراتيجيات العليا لأميركا.

صباح الثلاثاء، ٤/١/٢٠٠٥، نقلت المحطة التلفزيونية العامة C-SPAN صلاة مجلس النواب التاسع بعد المئة مباشرة من كنيسة في مقر الكونغرس؛ حيث ذكّر بعض الأعضاء «بالأسس المسيحية لحكومتنا»،

(١) بنيامين نتنياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة دار الجليل، الأردن، عمان ١٩٩٥، ص ٣٥٩.

وتحدّث آخرون عن المأساة الآسيوية الرهيبة جراء كارثة تسونامي
الأندونيسية. وفيما كان نواب يعربون عن تعاطفهم مع أُسرٍ ما يزيد على
١٥٠ ألف ضحية، توجّه الزعيم التكتاسي للأغلبية الجمهورية في المجلس،
توم دولاي Delay، إلى منبر الوعظ وقرأ من الإنجيل؛ ثم تلا - قبل أن
يعود إلى مكانه من دون أيّ تعليق - آيات تنتهي بقول يسوع:

... «وكل من يصغي إلى أقوالي هذه ولا يعمل بها، سيكون أشبه بمغفل
بنى بيته على الرَّمْل. ثم هطلت الأمطار وجاءت الفيضانات وهبّت الرياح،
وضربت البيت؛ فانهار، ودُمّر كلياً».

ثمة من المتخصصين من ذهب إلى تبين المساحة التي تحتلها الاعتقادات
الغيبية في دائرة القرار السياسي، فرأى استناداً إلى استقرار الخطبة المشار إليها،
إن هذا الموقف المستهجن من ذلك المشرّع البالغ النّفوذ يُعبّر عن سبعة أمور:
أولاً: العنصرية: لأن الأغلبية العظمى من ضحايا الكارثة هم ممن
يسمّيهم أمثال دولاي «السُّمر الصُّغار».

ثانياً: التديّن المتعصّب: لأن معظم الضحايا ليسوا مسيحيين؛
وحتى إن كان بينهم مسيحيون، فهؤلاء ليسوا «مولودين من جديد
born again».

ثالثاً: الاستعلاء والتجبر: لأن البلدان المتأدّية ليست، مثل الولايات
المتحدة، «مدينة مضيئة على جبل... باركها الله... وكانت منيعة فخورة».

رابعاً: الاطمئنان إلى المساندة: لأن هناك أعداداً كبيرة ونافذة تُشاركه هذه
الآراء والمشاعر، وتدعمه في مثل هذه المواقف.

خامساً: جهل الآخرين أو تجاهلهم: لأن التيار الرئيس متواطئ، أو لا يعلم، أو يكثرث؛ أو، ربما، لأن لا حول له ولا قوة.

سادساً: السعادة لحدوث الكوارث: لأن عشرات الملايين من الأميركيين يؤمنون بكونها أدلة تورائية على قرب انتهاء العالم وعودة المخلص.

سابعاً: التزاوج بين الايديولوجيا واللاهوت: لأن هذا التزاوج الحاصل للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة، يستأثر بالحكم ويحتكر السيطرة على البلاد.

وفي نقطة هامشية ربما يراها البعض قريبة من « نظرية المؤامرة »، وقد تكون مجرد مصادفة؛ هي أن النص الذي اختاره دولاي يتألف من ... سبع آيات، موجودة في الإصحاح السابع^(١).

اليهودية السارية في الزمن

لو رأينا إلى القواعد السبع المذكورة من باب المقاربة، لوجدناها تكمن كجوهر يث الروح في مجمل التأسيسات التلمودية للظاهرة الإسرائيلية. إذ مع صعود هذه الظاهرة، وتجسّدها ككيان جيو- سياسي ديني في فلسطين في نهاية النصف الأول من القرن العشرين، لم تعد اليهودية مجرد دين خارج الزمان العالمي. فلقد أُخِذَت في الزمن الدنيوي حتى يكاد لا يرى إليها كديانة. فالذي بدا في الواقع هو أن « حكماء » الحركة الصهيونية أفلحوا في تحويل

(١) غسان غصن، الخطر الأميركي الأشد، تسييس الدين أم تدين السياسة، مجلة «شؤون الأوسط، بيروت العدد.

الإيمان إلى إيديولوجية سياسية. لكن فريدة وخصوصية مثل هذا التحويل أنه ينطوي على مفارقة لم يفصل فيها الديني عن الأرضي، ولا المتعالي عن الوضعاني. إلى أن بات الأمران أمراً واحداً لا يقبل الفصل والتمايز. ربما كانت اليهودية في ذلك أكثر الديانات استعداداً إلى التسيؤ. فقد حُمِّل الديني وزر الدنيوي. حتى لقد بدا سبُّ بابل، ورحلات التيه واضطهادات الحداثة، كما لو كانت حاصل ذاك الوصال الذي لا ينفكُّ أبداً.

هل يعني هذا أن التراجيديا اليهودية كانت حتمية، بسبب من الزمن الذي أخذها، او الذي أخذت فيه؟

بالطبع، ليست الصورة على هذا النحو. ثمة في المشهد الإجمالي ما هو مركّب، ومعقّد، وضبابي. تماماً مثلما جرى في صورة الولادة الأميركية. لكن ينبغي هنا أن نعثر على الفاصل الطفيف بين الحقيقة والتوظيف. وهو الشيء الذي استغرقت الحداثة الغربية في ظلماته، بدل أن تكتشفه وتؤسس عليه رؤاها لمقاصد الحركة الصهيونية. فلو رأينا إلى ما تقصد، لعثرنا عليه في الكيفيات التي سُلِّت فيها اليهودية في الزمن السياسي الحديث. ثم لنجد كيف تحولت المنافع إلى عقائد، والسياسة إلى دين، والمال إلى وثن للعبادة. لكأن الأمر بالنسبة إلى «حكّاء» اليهودية الجارية في الزمن جاء مقلوباً. حيث رُفِع الدنيوي إلى مقام الديني، وتسامى الوضعي على الغيبي، حتى صار كل ما في «اللوّح المحفوظ» عرضة للاستباحة.

غير أن من نقاد الحداثة من ذهب إلى إجراء مقاربات أضاءت على منطقة الغموض المعرفي في جدلية الحضور اليهودي في التاريخ الحديث. لقد كان لكارل ماركس مطالعات جادة في هذا الحقل. فحين رأى إلى إله اليهودية

بوصفه إلهاً علمانياً، وإلى حضارتها حضارة سوق، فإنما كان يرمي إلى أماطة اللثام عن التزييف الذي أجراه التلمود السياسي في الإيمان اليهودي الأول. كذلك كان الأمر قبلئذٍ عند إيمانويل كانط، الذي أنكر على اليهودي روحانيته، وخلع عليه مادية تاريخية صافية، ونظر إلى ديانتته كعقيدة سياسية قومية، ووصف المسيحانية المزوجة فيها، بأنها طموح إلى حياة أفضل لشعب يعيش الشتات والنفي^(١).

ربما كانت هذه التوصيفات نفسها هي التي ستحمل مفكراً يهودياً كإسحق دويتشر إلى البحث عن توصيف أكثر التصاقاً بواقع الكيان السياسي اليهودي في فلسطين؛ عندما اعتبر أنه في إسرائيل قام أقدم شعب في العالم بتشكيل أحدث دولة قومية. وإلى ذلك، يضيف، فإن هذا الشعب مندفع نحو التعويض على ما فاتته من وقت. لا سيما وأن المثل الأعلى لجميع اليهود هنا، إنما يتجلى في إنشاء هيكل قومي وقائي ومتين، مما يقتضي ضمناً التخلص من حياة المنفى. إن إسرائيل هي دولة الشخص المشرّد، ولهذا يكثر الحديث عندهم حول «الجدور الضاربة»^(٢).

وإذا كان للنص التوراتي قابلية لتسويق ما يسمونه «الجدور الضاربة»، فإن اليهودية السياسية التي أنشأها الغرب على صورته ستطيح بمصدرها الإلهي، لتوظّفه في حروب الزمان والمكان. لقد بدأت عمليات التوظيف في الأزمنة المتأخرة للحدثة، عندما ارتكبت فظائعها بحق اليهود. الأمر الذي

(١) محمود حيدر، يهودية الحقيقة والتوظيف، مجلة «مدارات غربية» العدد الخامس، كانون الثاني/فبراير ٢٠٠٥.

(٢) إسحق دويتشر، اليهودي اللاإيهودي، ترجمة ماهر كيالي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧١، ص ٦٥.

منح الحركة الصهيونية النقاط الفرصة العظمى لتحويل تلك الفظاعات إلى طقس ديني عالي الوتيرة. إذ مع انبساط جغرافية الاستيطان على أرض فلسطين، صار بالإمكان أكثر من أي يوم مضى أن تصبح «الهولوكوست» ديناً يُدان به، و عقيدة تدين العالم بأسره، ثم لتُشعره بذنب لا شأن له به.

لكن ماذا عن وجه الاشتراك بين القيامتين الإسرائيلية والأميركية؟

على ما يفضي إليه لاهوت التأسيس، لا شيء يشير إلى تناقض أو مبانة جوهرية في واحدة نشوء كل من إسرائيل وأميركا. وتبين الدراسات التاريخية ان الثوار الإنكليز من البيوريتان (Puritans) الطهرانيين الذين استوطنوا أميركا الشمالية، وأورثوها ابرز خصائصها وملاحمها لم يستوطنوا لأسباب تجارية خالصة، ولم يهاجروا إليها طلباً لحرية العبادة وحسب، وإنما كانت تجسد لهم أيضاً فكرة مستمدة من أدبياتهم العبرية ونظرياتهم عن «نهاية الزمان». ففي أقل من خمسين سنة مضت على تأسيس جو سميث (John Smith) للمستعمرة الانكليزية الدائمة الأولى في جيمستاون (Jamestown) عام ١٩٠٧ وصل إلى العالم الجديد ٨٠ ألف مستوطن انكليزي أسسوا فيه ١٨ جماعة مستقلة مختلفة. وتمتعت كل واحدة منها باستقلالها وسيادتها الكاملة، ومُنحت وسام العبرية ولقب «الشعب المختار»؛ ثم أنها قدّست اللغة العبرية، وطالبت بتطبيق شريعة موسى، وسُمّت مجالها الحيوي (Lebenstaum) من الأراضي المغتصبة باسم «أرض كنعان»، أو «إسرائيل الجديدة»، أو «صهيون»، أو «أرض الميعاد»، أو غير ذلك من التسميات التي أطلقها العبرانيون على فلسطين. كذلك كانت كلها تلتدُّ بإبادة شعوب أميركا بسادية واحدة، ومبررات أخلاقية وأسطورية واحدة أسقطت على نفسها، وعلى

ضحايها معظم الروايات العبرانية عن ارض كنعان وأهلها^(١).

كذلك سنجد ما يوطّد صلة المعنى بين أميركا وإسرائيل لدى الشطر الأعظم من مؤرّخي وكتّاب الأطروحة الأميركية. وفي هذا المجال يبيّن الباحث الأميركي لي فريدمان في كتابه «حجاج في العالم الجديد» أنّه من اليوم الأول لوصول المستعمرين الإنكليز إلى العالم الجديد، وهم «يريدون أن ينشئوا في أميركا دولة ثيوقراطية تعيد سيرة اليهود التاريخيين. فالخطباء والوعّاظ استمدّوا نصوص خطبهم من العهد القديم، أما الآباء فقد استعاروا منه أسماء أولادهم. لم تكن العبرية لغة ثانوية بل كانت عمود ثقافة المثقفين والمتعلّمين المتدينين وغير المتدينين. وكان تاريخ اليهود في العهد القديم قراءتهم اليومية، بل لربّما كانوا يعرفونه أكثر ممّا يعرفون تاريخ أي شعب»^(٢).

ليس من شك في أنّ بعض هذه المحاولات آل إلى الإضاءة على ما يمكن وصفه بالبعد الميتافيزيقي للثقافة المؤسّسة لأميركا. وضمن هذا السياق تُلقِي دراسة الباحث في الشؤون الأميركية د. منير العكش الضوء على المعنى الإسرائيلي للنشوء الأميركي. في هذه الدراسة جلاء لقضية منهجية قوامها، أنّ أميركا ليست إلّا الفهم البريطاني التطبيقي لفكرة إسرائيل التاريخية. وأنّ كل تفصيل من تفاصيل تاريخ الاستعمار البريطاني لشمال أميركا، حاول أن يجد جذوره في أدبيات تلك «الإسرائيل»، وسعى بالتالي إلى تمثّل

(١) منير العكش، تلمود العم سام، الاساطير العبرية التي تأسست عليها أميركا، دار رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٤، ص ٣٠.

(٢) منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية، رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٣، ص ١٢٣ - ١٢٤. و ص ١٣٠.

وقائعها، وأبطالها، وأبعادها الدينية، والاجتماعية والسياسية، وتبني عقائدها في «الاختيار الإلهي»، وعبادة الذات، وتملُّك أرض الآخرين وحياتهم. لقد ظنوا أنفسهم، بل سمّوا أنفسهم «إسرائيليين» و«عبرانيين» و«يهودا»، وأطلقوا على العالم الجديد اسم «أرض كنعان»، أو «إسرائيل الجديدة»، واستعاروا كل المبررات الأخلاقية لإبادة الهنود الكنعانيين، واجتياح بلادهم من مخيّلات العبرانيين التاريخية. ليست «العلاقة بالمعنى» بين إسرائيل وأميركا مجرد تركيب ذهني أخذ المشتغلون بظواهره وألوانه، وبأعراض التشابه في النشأتين. وإنّما هي علاقة تأسّست على اعتقادات المهاجرين بأنّهم بلغوا أرض الميعاد والخلاص. تماماً كالإعتقاد اليهودي بفلسطين. تذهب الدراسة، إلى أنّ فكرة أميركا هي «استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة» عبر الاجتياح المسلّح وبمبررات «غير طبيعية» وهذه محور فكرة إسرائيل التاريخية. ذلك أنّ عملية الإبادة التي تقتضيها مثل هذه الفكرة مقتبسة بالضرورة بشخصيات (أبطالها) الإسرائيليين، الشعب المختار، العرق المتفوّق) وضحاياها (الكنعانيون، الملعونون، المتوحشون، البرابرة) ومسرحها (أرض كنعان، إسرائيل) ومبرراتها (الحق السماوي أو الحضاري) وأهدافها (الإستيلاء على أرض الآخرين واقتلاعهم جسدياً وثقافياً). من فكرة إسرائيل التاريخية^(١).

لعل الاعتقاد بأنّ هناك قدراً خاصاً بأميركا، وأنّ الأميركيين هم الإسرائيليون الجدد و«الشعب المختار» الجديد يضرب جذوراً عميقة في الذاكرة الأميركية، وما يزال صدها يتردّد في اللغة العلمانية الحديثة، أو ما صار

(١) منير العكش - المصدر نفسه - ص ١٢٤.

يعرف بالدين المدني، إنه اعتقاد يتجلى في معظم المناسبات الوطنية والدينية، وفي كل خطابات التدشين التي يلقيها الرؤساء الأميركيون، ومفاده أن «إرادة الله، والقدر، وحتمية التاريخ... الخ» اختارت الأمة الأميركية (الأنكلوسكسونية المتفوقة) وأعطتها دور المخلص (الذي يعني حق تقرير الحياة والموت والسعادة والشقاء لسكان المجهل⁽¹⁾).

عقيدة «الاختيار»!

الأمر الأشد إثارة للمفارقة هي أن فكرة «الاختيار الإلهي» طالما كانت محرّكاً لولياً في التاريخ الأميركي. بل هي الأساس الميتافيزيقي لمعظم الممارسات العنصرية في التاريخ القديم والحديث. ولشد ما أشعلت النيران في الحماسات والمشاعر والبواريد، وفي القرى والمدن، ونشرت ركام الموتى في أكثر من أربعين دولة اجتاحتها أو قصفتها الولايات المتحدة، وعززت القناعة بأنّ لأمر كادراً أعلى من كل أمم الأرض، وأنّه مهما حلّ بإسرائيل فوق أرض فلسطين، فإنّ إسرائيل الأميركية تبقى القلعة المحصّنة لإعادة بناء قيمها ومبادئها وأخلاقيها. إنّ يهود الروح الذين يمثلهم الأنكلوسكسون هم الذين يحملون رسالة «إسرائيل» التي تحلّى عنها اليوم يهود اللحم والدم، وهم الذين أعطاهم الله العهد والوعد، وهم الذين ورثوا كل ما أعطاه الله تاريخياً ليهود اللحم والدم ومعظمهم من الدّ أعداء السامية. لقد اختار الله يهود اللحم والدم مؤقّتا، وبشروط أخلفوها، ولكنّه اختار الأمة الأميركية

(1) Patrick Buchanan the American conservative March 24, 2003.

(الأنكلوسكسون) مؤبداً، لأنّها تستأهل الاختيار، ولأنّه وهبها كل ما يلزمها من قوة وثروة لأن تكون «شعب الله» و«فوق كل الشعوب»، إلى الأبد.

وتلاحظ القراءات المعاصرة أنّه منذ الفترة الإستعمارية الأولى كان أطفال القديسين يتعلمون أنّ مسيرة التاريخ التي ترعاها يد الله البريطاني ونعمته أعطتهم دوراً خلاصياً. وكانت هذه الافتراضات تقترن بإيمان قياسي مزدوج الهدف: تجميع يهود العالم في فلسطين للتعجيل بمجيء المسيح، وتدمير قوى الشيطان التي كانت تتمثل يومئذٍ بالعثمانيين، والكاثوليك، والهنود الكنعانيين. وبالطبع فقد وجد بعض السياسيين الإنكليز في استعمار العالم الجديد فرصة لتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه في وطنهم. وبذلك تأكد لهم أنّ خروجهم من جزيرتهم يضاهي الخروج الأسطوري للebraانيين من أرض مصر، ولم يساورهم الشك في أخلاقية استعمارهم وحقهم في إبادة الهنود ومقارنة ذلك كلّه باجتياح العبرانيين لأرض كنعان وتأييد السماء لإبادة أهلها. بالإضافة إلى ذلك فإنّ أدب المستعمرين الأوائل كلّه يؤكّد هذه القدرية التاريخية التي نالت ذروة إبداعها في سيرة وموعظة جون ونشروب، أول حاكم لمستعمرة ماساشوستس. أمّا السيرة فوضع لها مؤلفها كوتون ماذر عنوان: «نحميا الأميركي» تأسيساً بنحميا الأسطوري الذي قاد الإسرائيليين في «عودتهم» من سبي بابل إلى أرضهم الموعودة، ونظّم الكثير من موجات الهجرة من بابل إلى يهودا، ثم أشرف على انتشار أورشليم من أنقاضها وأعاد بناءها «مدينة على جبل». وكانت الأجيال اللاحقة قد صنّفت هذا الحاكم مع يعقوب وموسى وداود، غير أنّ اختيار نحميا، بطل إحياء إسرائيل، هو الذي طغى في النهاية. والواقع أنّ كل سيرة نحميا الأميركي هي مثال

على إصرار المستعمرين الإنكليز على التهاهي بين تجربتهم في العالم الجديد وما يرويه العهد القديم. عن تجربة العبرانيين في العالم القديم، أو بتعبير صموئيل فيشر في «شهادة الحقيقة»: «لتكن إسرائيل... المرأة التي نرى وجوهنا فيها». وأما الموعظة فهي تلك التي ألقاها ونثروب في الحجاج على متن السفينة الأسطورية أربيل، وأكد فيها على العهد الجديد بين الإسرائيليين الجدد وبين يهوه، وعلى الرسالة التي يحملونها إلى مجاهل أرض كنعان الجديدة: «إننا سنجد رب إسرائيل بيننا عندما سيتمكن العشرة منا من منازل ألف من أعدائنا، وعندما سيعطينا مجده وأبنته، وعندما يتوجّب علينا أن نجعل «نيو إنغلاند» مدينة على جبل». وهذا التعبير هو رمز لأورشليم ولصهيون أيضاً، ولا يزال يستخدم إلى الآن للدلالة على المعنى الإسرائيلي لأميركا. وقد درج آخر أربعة رؤساء على استخدام هذا الرمز في مناسبات مختلفة، وهم رونالد ريغان، وجورج بوش الأب، وبيل كلينتون، وجورج بوش الابن». ولم يكن الآباء المؤسسون للدولة الأميركية مثل جيفرسون، وآدامس، وفرانكلين، وباين - أصحاب الاتجاه العقلاني والمذهب الطبيعي - بأقل حماسة للمعنى الإسرائيلي للأمة الأميركية من الحجاج والقديسين و صموئيل لانغدون. ومعروف أنّ فرانكلين وجفرسون كليهما أصرّ على صورة «الخروج الإسرائيلي: من مصر إلى كنعان كمثل أعلى للنضال الأميركي من أجل الحرية»^(١).

هذه الأخلاق التي ضربت جذورها في عقيدة الاختيار وكرامية الكنعانيين، ورافقت بناء أميركا لحظة لحظة، ووجهة بعد جبهة، هي التي

(١) منير العكش أميركا والإبادات الجماعية، المصدر السابق ص ١٢٦.

جعلت «الأميركيين يعتقدون اليوم، كما كان أجدادهم المستعمرون الأوائل يعتقدون قبلهم، بأنّ لهم الحق المطلق في أن يقتحموا أي «غرب» في أي مكان من الأرض. إنّ ميثافيزياء «اقتحام الغرب» التي نسفت نظام البوصلة، وأعدّت العصر الذهبي لنظرية البريطاني مالتوس جعلت الغرب الأميركي في كلّ الجهات، وفي كلّ الأرحام. إنّ «الغرب» اللانهائي، بل إنه اللامكان، كل مكان. لكن الأهم من هذا إنّ هؤلاء «الآباء» لم يكتفوا بحمل العقيدة التوراتية على محمل التبشير وحسب. ذلك على أهمية هذا الجانب في توفير المناخ السايكوسوسيولوجي والروحي للمهاجرين. فلقد انبرت النخب المؤسّسة إلى بث الروح التوراتية في الدستور الأميركي. واللافت للإهتمام هنا أنّ وضع الدستور قد شجّع على توثيق وتثبيت المعنى الإسرائيلي لأمركا. كما كتب رئيس جامعة هارفرد صموئيل لانغدون (Samuel Langdon) في ملحمة الشهيرة «جمهورية الإسرائيليين: نبراس للولايات المتحدة. هذه الملحمة» التي هي في الأصل خطبة ألقاها في المحكمة العليا. سوف لن يجد قارئها لحظة شك في أنّه يقرأ مقاطع من سفر الخروج أو التثنية. بل إنّ لانغدون فعلاً يفتح كلامه عن ولادة الدستور بهذا المقطع من سفر التثنية: «لقد علمتكم فرائض وأحكاماً كما أمرني الربّ إلهي لكي تعملوا بها في الأرض التي أنتم داخلون إليها لتتملكوها. فاحفظوا واعملوا، فتلك هي حكمتكم وفطنتكم في عيون الشعوب الذين سيسمعون عن هذه الفرائض ويقولون: ما أعظم هذا الشعب وما أحكمه وأفطنه...!». الواقع - كما يلاحظ صاحب كتاب «أميركا والإبادات الجماعية» إنّ كل هذه الملحمة الرائعة إنّما هي كناية شرح وتعليق وقياسات تمثيلية بين شريعة موسى والدستور الأميركي، وبين الإسرائيليين والأمة الإسرائيلية. فالدستور مناسبة للتأكيد على وجه الشبه بين ما نزل على موسى من «ألواح» وبين ما نزل على قلب

واضعي الدستور. وهي مناسبة للتذكير بأن إسرائيل القديمة والجديدة أمة مختارة، باركها الله قديماً بشريعة ليس لها مثيل، وجعلها «فوق كل الشعوب» نبراساً للعالم، ثم أكرمها حديثاً بدستور ليس له مثيل وجعلها «فوق كل الشعوب» مثلاً يُتخذى عبر كل العصور. فإذا تعلّم الناس منهم طريقتهم في الحضارة رفعوا من شأنهم، وإذا استكبروا وأبوا جرّوا على أنفسهم الدمار والخراب (والأضرار الهامشية (...)) كذلك (...) سوف يمضي لانغدون في المقايسة إلى الحد الذي يرى فيه أنّ تأسيس مجلس الشيوخ ليس إلّا استمراراً لما فعله موسى عندما اشتكى إلى يهوه أنّه لا يطبق الحكم وحيداً، فأمره باختيار سبعين من الحكماء والرتباء. ثم لم يجد لانغدون حرجاً من القول إن حكومة موسى كانت «جمهورية» وقائمة على المبادئ الجمهورية، وإنّ قبائل إسرائيل كانت تحكمها حكومات محلية لامركزية ولا تختلف عن الحكومة المحلية للولايات المتحدة^(١).

الفيزيائية المقدسة عند المحافظين الجدد

وفقاً للايديولوجيا المؤسّسة للسلوك الأميركي، لن يكون أمراً مفارقاً، أن يُرى إلى إسرائيل اليوم، كفيزياء أميركية مقدّسة. ولئن كان المعنى الإسرائيلي لأمر كا داخلاً في التاريخ السياسي الممتد منذ المهاجرين الأوائل، فهو يرقى إلى مراتبه القصوى لدى المحافظين الجدد في مستهل القرن الحادي والعشرين.

سوف يعلن أميركيون كثرون، ومن بينهم المحرر السابق في صحيفة «وول ستريت جورنال» «ماكس بوت» أنّ العلاقة الحميمة مع إسرائيل تبقى

(١) المصدر نفسه.

العقيدة الأساسية للمحافظين الجدد، معتبراً أنّ استراتيجية الأمن القومي لدى الرئيس جورج دبليو بوش تبدو وكأنها جاءت مباشرة من صفحات الـ (Commentary) توراة المحافظين الجدد. لكن ستانلي هوفمان الأستاذ في جامعة هارفرد والكاتب في «نيوريابليك» يمضي إلى الكلام على أربعة مراكز قوة كلها تدعو إلى الحرب واستعمال القوة ضد من لا يوافق العقيدة السياسية والأمنية للولايات المتحدة. ويشير إلى أنّ هؤلاء وخصوصاً أولئك الذين تحلّقوا حول الرئيس، وأبرزهم ريتشارد بيرل وبول ولفوويتز وكونداليزا رايس، ودونالد رامسفيلد، وديك تشيني، وسواهم، ينظرون إلى السياسة الخارجية عبر عدسة مهيمنة واحدة: هل الأمر مناسب لإسرائيل أم لا؟ ومنذ نشأة إسرائيل في العام ١٩٤٨ لم يكن لأصحاب هذا التفكير أن يشكّلوا غالبية طاغية في الخارجية، ولكنهم اليوم في أفضل الأوضاع في البتاغون عبر اشخاص مثل ولفوويتز و بيرل و دوغلاس فايت .

من هم هؤلاء «المحافظون الجدد» الذين بلغوا السلطة العليا في الولايات المتحدة ليبدأوا بإنجاز تلك المطابقة النادرة والاستثنائية بين أميركا وإسرائيل بوصفها معنى واحداً وجوهرأً واحداً؟

بيّن الكاتب الأميركي باتريك بوكانان أنّ الجيل الأول منهم ضمّ الليبراليين السابقين، بالإضافة إلى الاشتراكيين والتروتسكيين، وكذلك المجموعات الآتية من ثورة ماكغوفرن عبر نهاية مرحلة المحافظين، وانتقلت بعد مسار طويل إلى السلطة مع مجيء رونالد ريغان إلى البيت الأبيض في العام ١٩٨٠. وفي هذا الموضوع يضيف بوكانان أنه سبق لكيفن فيلبس أن عرّف بـ «المحافظ الجديد» آنذاك وبأنّه «محرر في مجلة أكثر مما هو عامل بناء». أما اليوم

فيمكن التعريف به بأنه من الأعضاء المقيمين في مؤسسات السياسة العامة مثل «مؤسسة المشاريع الأميركية» (AE) أو إحدى توابعها مثل «مركز سياسة الأمن»، أو «المؤسسة اليهودية لشؤون الأمن القومي» (JINSA). إنَّه باختصار من الأشخاص الذين يعملون عن كثب مع مجموعات وضع الأفكار والخطط.

لم يأت أحد، تقريباً، من هؤلاء من عالم الأعمال أو القوات المسلحة، وبعضهم القليل من أعضاء حملة «غولدوتر». وهم يستشهدون عادة بأبطال من أمثال ودرو ولسون و هاري ترومان ومارتن لوثر كينغ، فضلاً عن الشيوخ الديمقراطيين مثل هنري سكوب جاكسون و بات موينيهان وغيرهما. وهم جميعاً من أنصار سياسة التدخل في شؤون الدول الأخرى، وينظرون إلى عامل دعم إسرائيل على أنه عنصر بالغ الأهمية. ومن نجومهم في هذا المجال جين كيركباتريك، بيل بينيت، و مايكل نوفاك و جايمس ك. ولسون. أما منشورات المحافظين الجدد فتشمل الـ «ويكلي ستاندرد»، و«الأنف ذكرها» «كومتاري»، و«نيويورك ريبابليك»، و«ناشونال ريفيو»، وكذلك صفحة المحرر في «وول ستريت جورنال». وهي على قلة عددها تبقى واسعة النفوذ عبر سيطرتها على مؤسسات المحافظين ومجلاتهم. فضلاً عن قوة الارتباط بالنقابات الصحافية ومراكز القوى^(١).

المهم في الأمر لدى هؤلاء هو أنهم يجاهرون بفلسفتهم التوراتية وبضرورة صون «المقدس الإسرائيلي» أيّاً تكن تبعات التمرين على هذه الفلسفة.

(١) باتريك بوك نان، برنامج المحافظين الجدد، «المستقبل» البيروتية، الجمعة ١١ نيسان/ابريل ٢٠٠٣.

ولسوف يمضي عدد من رموز التيار الجديد والمحافظين إلى وضع إسرائيل في مقام يتجاوز كونها « فيزياء سياسية أمنية ينبغي صون حياضها المقدس . بل إنّ بعض رؤى هذه الرموز يبلغ درجة لافتة في شغفه بالكينونة الإسرائيلية إلى حد جعل الحروب مفتوحة وممتدة على العالمين العربي والإسلامي ، وخصوصاً على البلاد المحيطة بها . ولو شئنا أن نعطي توصيفاً لهذا الشغف قلنا إنّ أصحاب هذه الرؤية المؤثرة والحاسمة في السياسات الأميركية العليا، أرادوا لإسرائيل أن تؤلّف نقطة جيو - استراتيجية شديدة الحساسية في الدائرة الكبرى للأمن القومي الأمريكي . وثمة الكثير من الأمثلة الدالة على هذه الرؤية . ومن الشواهد المتأخرة أنه في العاشر من تموز/ يوليو ٢٠٠٢ بادر ريتشارد بيرل الذي استقال من منصبه المهم في وزارة الدفاع في خلال الحرب على العراق، إلى دعوة أحد دعاة المعنى الإسرائيلي لأميركا المدعو لوران مورافيك لإلقاء محاضرة أمام «مجلس سياسة الدفاع» أثارت يومها روع هنري كيسينجر (تصوّروا) .. حين عمد المحاضر إلى نعت السعودية بأنها جوهر الشر والمحرك الأول له، وأكثر الأعداء خطراً .. واعتبر مورافيك أنّ على واشنطن توجيه إنذار للسعودية بموجب «محاكمة الضالعين في الإرهاب أو عزلهم، بمن فيهم رجال المخابرات السعوديين»، مع إنهاء كل الحملات ضد إسرائيل، وإلاّ فإننا سنغزو بلادكم ونصادر حقول نفطكم ونحتلّ مكّة . وفي ختام محاضرته قدّم مورافيك تصوّره لـ «الاستراتيجية الكبرى في الشرق الأوسط» . وجاءت حصيلته مطالعته العصماء بهذه المعادلة: العراق محور تكتيكي، والسعودية محور استراتيجي، ومصر هي الجائزة . ولكن التسريبات عن هذا التقرير لم تشر إلى أنّ أيّاً من الحاضرين طرح السؤال عن ردّة فعل المسلمين إذا دخلت الجيوش الأميركية إلى

الأراضي المقدسة. ولعل ماتريده النزعة الاسرائيلية لدى المحافظين الجدد - على ما يلاحظ باتريك بوكانان في كثير من المرات - هو تجنيد الدم الأمريكي لجعل العالم أكثر أماناً بالنسبة لإسرائيل. إنهم يريدون فرض سلام السيف على المسلمين، وأن يموت الجنود الأميركيون في أثناء ذلك إذا لزم الأمر^(١).

حمية مملكة يهودا

في العام ١٩٩٦ سيخطو التيار المتصهين في الفكر السياسي الأمريكي خطوة استثنائية. فقد أعدت مؤسسة الدراسات الاستراتيجية والسياسية المتقدمة الأميركية تقريراً بعنوان: «استراتيجية جديدة لإسرائيل في العام ٢٠٠٠» وتنبق الأفكار الأساسية للتقرير من نقاش شارك فيه صانعو رأي بارزون، بمن فيهم ريتشارد بيرل، و جايمس كولبرت، و تشارلز فيربانكس، و دوغلاس فايت، و روبرت لويينبرغ، ديفيد ورهسر وغيرهم. المهم أن المهندس الأساسي للتقرير هو ريتشارد بيرل، مساعد السيناتور سكوب جونسون في ذلك الوقت، علماً أن هذا الأخير كان في العام ١٩٧٠ خضع لاستجواب حول تسريب أشرطة تحمل معلومات سرية إلى السفارة الإسرائيلية في واشنطن. وفي العام ١٩٧٤ كتب ستيفن د. اسحق في «السياسات اليهودية والأميركية» أن «بيرل و موريس زميتاي يقودان جيشاً صغيراً من أنصار السامية في كابتول هيل، ومهمتهم توظيف القوى اليهودية وتوجيهها لتحقيق المصالح اليهودية. وفي العام ١٩٨٣ شاع في الصحف والأوساط الإعلامية الأميركية أن بيرل نال مبلغاً كبيراً من مصنع سلاح إسرائيلي.

(١) باتريك بوكانان - المصدر نفسه.

وتحت عنوان «انطلاقة نظيفة: استراتيجية جديدة لتأمين المملكة» قُدِّم التقرير المشار إليه إلى رئيس الوزراء الإسرائيلي آنذاك بنيامين نتنياهو . وفيما يحثّ هؤلاء «نتنياهو» على دفن اتفاقيات أوصلو التي كان أنجزها زعيم «العمل» الراحل اسحق رابين ، بهدف اعتماد استراتيجية جديدة أكثر شراسة: «تستطيع إسرائيل تشكيل محيطها الاستراتيجي، بالتعاون مع تركيا والأردن، عبر إضعاف سوريا واحتوائها، أو حتى دحرها. ويمكن تركيز الجهد على إطاحة صدام حسين في العراق. وهو هدف استراتيجي بالنسبة لإسرائيل وذلك من أجل إحباط الطموح السوري في المنطقة. وفي كل الأحوال تبقى سوريا في استراتيجية بيرل ورفاقه هي العدو بالنسبة لإسرائيل، ولكن طريق دمشق تمر في بغداد. وإذا كانت الخطة تشجع إسرائيل على اعتماد «مبدأ الاستباق»، فإنَّ المبدأ عينه بات الآن مفروضاً على الولايات المتحدة بواسطة المجموعة عينها. وفي العام ١٩٩٧ قال بيرل في ورقة وضعها تحت عنوان «استراتيجية من أجل إسرائيل» إنَّ على تل أبيب إعادة احتلال «المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية.. حتى لو جاء الثمن بالدم مرتفعاً». من جانبه وضع ورمسر خطط حرب مشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة «لتوجيه ضربة حاسمة إلى مراكز الأصولية في الشرق الأوسط. ويجب على إسرائيل والولايات المتحدة التوسُّع في الضربة بما يتجاوز مجرد نزع السلاح إلى القضاء الكلي على مراكز الأصولية في أنظمة دمشق وبغداد وطرابلس وطهران وغزة. وسيكون من شأن ذلك تكوين قناعة شاملة بأنَّ محاربة الولايات المتحدة أو إسرائيل هو انتحار». وهو دعا البلدين إلى الانتباه للأزمات معتبراً أنَّها «قد تكون فرصاً». وقد نشر ورمسر خطته المذكورة في أول كانون الثاني/يناير من العام ٢٠٠١، أي قبل تسعة أشهر من الـ ١١ من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ولقد كان للكاتب مايكل ليند أن يتحدث عن عصبة بيرل، فايت، ورمسر بقوله: «إنَّ اليمين الصهيوني الذي ينتمي إليه بيرل وفايت وعلى الرغم من قلَّته العددية، فإنَّه يتمتع بنفوذ كبير في دوائر صنع القرار مع الجمهوريين. إنها ظاهرة تعود إلى السبعينات والثمانينات حين عمد عدد من المفكرين اليهود الديمقراطيين إلى الالتحاق بتحالف ريغان. وإذا كان العديد من هؤلاء الصقور يتحدثون علناً عن حملات صليبية من أجل الديمقراطية، فإنَّ المهمَّ الأساسي لدى عدد من المحافظين الجدد هو السلطة وسمعة إسرائيل»^(١).

لاهوت التماهي بـ «الهولوكوست»

هنالك زاوية في الأصل المشترك الأمريكي - الإسرائيلي على جانب وازن من الأهمية، وهي تتصل بتماهي أميركا بالمحركة. في هذا الصدد يمضي الباحث الفرنسي اليهودي جان مارك درايفوس في ما يشبه الاستطلاع السوسيو-ثقافي لأثر الهولوكوست في الشعور الأمريكي، وتداعيات هذا الشعور في السلوك الإجمالي للنخب الحاكمة. وهو يرى وجوب إعطاء موقع متقدم للهوس الأمريكي بالخير والشر حيث يتم النظر من خلال هذه الثنائية إلى حركة التاريخ نفسه. وحيث تحل هذه الرؤية أحياناً محل دراسة الماضي بشكل منهجي إلى درجة تتعارض فيها مع المقاربة التاريخية. فالمحركة تمثل الشر المطلق، وعلى ذلك يصبح التثقيف بذكرها، البديل الزمني لرؤية دينية يمكن أخذ عناصرها من مجمل مكوّنات المجتمع الأمريكي، وليس فقط من

قبل عنصره البروتستانتي التقليدي. يضيف درايفوس:

«وإذا ما دفعنا خطوة أخرى إلى الأمام بفكرة أولوية ثنائية الخير والشر، يصبح بإمكاننا طرح فرضية جديدة، قوامها أن ذكرى المحرقة من شأنها أن تكون استبدالاً بسيطاً يغذيه شعور مكبوت بالذنب إزاء إبادة الهنود الحمر. فيما أن أميركا لم تتوصل إلى تحمل التبعات المباشرة لتاريخها الخاص ولخطيئتها الأصلية الخاصة، فإنها تفعل ذلك بواسطة إبادة أخرى لم تجر على أرضها. وبالمناسبة فإن بناء متحف للأميركيين الأصليين أيضاً، أي الهنود، فوق ساحة «مول»، سيعرض ثقافة سكان البلاد الأصليين لا كيفية إبادتهم، للإضاءة على هذا الجانب من السيكلوجيا الجمعية التي يمثلها الافتتان بالشر المتجسد بالفعل، أي بالكارثة وتطبيقه لـ «مصلحة» «المحرقة». ويشير درايفوس إلى الخطاب الديني التنبؤي الذي يكتسب موقعاً متزايد الأهمية منذ السبعينيات. وهو الخطاب الذي يظهر بقوة في أجهزة التلفزة حول أخبار الأعاصير، والكوارث الطبيعية المحدقة، والتي تصوّر أميركا وكأنها تمكث كل لحظة من عمرها على شفاهاوية مدمّرة»^(١).

ويبدو أن نشاط السينما الأميركية يتركز بشكل متزايد الإيقاع منذ حوالي ثلاثين عاماً حول موضوع الكارثة النهائية. أما نجاح الأفلام الكارثية التي تظهر كل شهر، ولا تختلف فيما بينها إلا من حيث درجة التقانة في المؤثرات الخاصة وتنوعات أشكال الدمار، فهو من الأمور التي يمكن دحضها. وكذلك الأمر بالنسبة للنتائج: مدينة تختفي من الوجود وينعدم فيها كل

(١) جان مارك درايفوس، كيف تمأهت أميركا بالمحرقة، ترجمة د. عقيل الشيخ حسين، مجلة «مدارات غربية» العدد الخامس، كانون الثاني/يناير-شباط/فبراير ٢٠٠٥.

حضور بشري. كوارث الشاشة صارت عملة رائجة، وهذا السيناريو عن الدمار يعج بعناصر النوع الكارثي. أما أفلام الخيال العلمي والأفلام البوليسية والأفلام الحربية فتعرض أيضاً كاسحاً من أشكال العنف وحروب المدن على خلفية من الأبنية المدمرة والصروح المهشمة. ويكاد فيلم «يوم الاستقلال» (١٩٩٦) يكون إعادة لهذا الاتجاه، حيث يمكن للمشاهد أن يرى بفرح سادي كل صروح الديمقراطية الأميركية وهي تنفجر الواحد بعد الآخر بفعل أسلحة الدمار الشامل المنطلقة من أحد الصحون الطائرة. وحده النصب التذكاري الخاص بالمرحلة هو ما أبقى عليه كاتب السيناريو والقادمون من الكواكب البعيدة. ومنذ فيلم «أسنان البحر» (١٩٧٥) - هنالك مسلسل ضخيم جيد الإخراج من الفئة «ب» لستيفن سبيلرغ، تحول منذ ظهوره إلى فيلم معبود يُعاد عرضه باستمرار على شاشات التلفزة؛ وتمكن قراءته ليس فقط كحرب بين الخير والشر، بل أيضاً كقصة حول سفينة يتم تدميرها بكل عناية (...) هنالك إذن، في الوعي الأميركي المعاصر هوس حول الدمار الشامل الذي قد يجعل أميركا أمة تسبح في أجواء الكارثة. ولا يقتصر الأمر على الخوف من الحرب، أو من الإرهاب، أو من العنف المدني، أو انهيار المجتمع، بل يتعدى ذلك إلى تصور يقضي بأن النهاية أمر ممكن في أية لحظة. فأمركا، البلد البروتستانتية منذ حقبة طويلة، أدمنت قراءة «سفر الرؤيا»، على خلاف البلدان الكاثوليكية. وهي تواصل الاستماع إلى المتنبيين، والوعاظ الكثر. وهم يشّرون بنزول الروح على جماهير المؤمنين المحتشدين في غمرة الانجذاب داخل الملاعب الرياضية. وكثيرة هي شاشات التلفزة المتخصصة بالوعظ المتواصل، وهي تقوم بتأبيد تراث الوعاظ الأوائل. حتى القنوات الكاثوليكية راحت تتعد عن الخطاب الأوروبي، وتعطي الأولوية

لمسألة الخير والشر والعقاب الذي ينتظر الخاطئين. وربما يكون انتحاريو «القاعدة» قد فهموا الأمر عندما قاموا بتدمير برج التجارة العالمي. وخلافاً لما كان قد قيل وكتب في أوروبا، فإن الأميركيين لم يروا اللامفكر فيه ماثلاً أمام أعينهم، بل رأوا تحقق ما كانوا يخشونه أكثر من غيره. وعلى هذا النحو من التوصيف الدرامي للثقافة الأميركية المعاصرة، تُستعاد المحرقة ضمن التصورات الموغلة في القدم. وتقدم واقعاً تاريخياً ينسجم انسجاماً كاملاً مع هذه الترسمة. ويشكل تدمير يهود أوروبا دليلاً ظاهراً على المخاوف الأميركية حيث أنه العنصر الواقعي الذي يغذي رؤية الخطر غير المعقول والمطلق والموشك على التحقيق. على ذلك، تدخل الحكايات عن المحرقة، وعمليات إحياء ذكراها في علاقة مع تصورات لا علاقة لها بها. يمكننا أن نتساءل عن السبب في كون هذا التدمير بالذات هو الذي حاز على كل هذه الأهمية في حياة الولايات المتحدة بدلاً، على سبيل المثال، من القنابل الذرية الأميركية التي أُلقيت على هيروشيما وناغازاكي، أو من عمليات الإبادة في كمبوديا؟ لقد كان المطلوب من أجل ذلك وجود عنصر إضافي هو تماهي الأميركيين باليهود. والواقع أن ذلك لم يكن البديهي والسبب هو، وجود تراث أميركي معاد للسامية ومتجذراً ومتجذراً جداً حتى فترة قريبة من الزمن. فمن هامشيين في المجتمع، تحول اليهود إلى أبرز الممثلين المرموقين لهذا المجتمع. والحقيقة إنهم يشكلون نموذجاً لا يعلى عليه في مجتمع يريد لنفسه أن يكون منفتحاً، ويعطي الأولوية للنجاحات الفردية عن طريق التجارة والصناعة والمال والتعليم. فالثروة المكتسبة والانتفاء التاريخي إلى السلالة والموارث لم تعد تشكل جزءاً من الوعي الأميركي (حتى وإن كانت لا تزال موجودة على نطاق واسع بالطبع). و اليهود الذين ينظر إليهم جميعاً

بوصفهم أناساً يصنعون أنفسهم بأنفسهم، ويصلون بأعداد كبيرة إلى كراسي الأستاذية في الجامعات، وإلى إدارات المصارف، ولوائح كبار الأغنياء في أميركا، باتوا يشكلون القدوة التي يجب أن تحتذى، الأمر الذي يعني انقلاباً غريباً بالفعل⁽¹⁾.

«أسطرة» البدايات الأولى

هنالك بالتأكيد تراث طويل من التماهي و التمثل الميتافيزيقي ، بين قصة بناء أميركا، وبين عبور الصحراء وتأسيس المملكة اليهودية . وهنا أيضاً لا ينبغي التقليل من أهمية حضور التوراة، خصوصاً وأن الولايات المتحدة قد عرفت، منذ ثلاثين عاماً، صحوة دينية مذهلة بالفعل، وهي في ذروة النزعة الدينية الزمنية التي تفوق بكثير مثلتها الأوروبية. وليس الرجوع إلى التوراة بالأمر الجديد في القصة التأسيسية لأميركا. فالمستعمرون الأوائل تمكنوا، وإن بعد الوهلة الأولى في الألب، من التماهي بالعبرانيين في الصحراء وبوصولهم إلى أرض الميعاد . وهنالك الكثير من التيارات الدينية المسيحية التي تقوم مجدداً بإعادة تمثيل المشاهد الأصلية بالتوازي مع الاضطهاد الذي تتعرض له البلاد. وقد قامت طائفتاً « المورمون » و « الآميش » مثلاً بكتابة قصص مماثلة تتحدث عن طريق الظلمة إلى النور. وتجدر الإضافة هنا، أن هذه التيارات من الأقليات التي اضطهدت في التاريخ الأميركي، ومن المهمشين قد أصبحت هي الأخرى، في الآونة الأخيرة، نماذج مرغوبة في صورة أميركا

(1) Jean - Marc Dreyfus- comment L'Amérique: S'est identifiée à la shoah, Le Débat, Mai-Aout 2004.

عن نفسها. ولعبت السينما أيضاً، كما ذكرنا، دور البطل في توصيل أصداء هذا التحول، حتى وإن كانت القصص الحالية عن «المورمون» و«الأميش» قد اختلفت عما كانت عليه في السابق لتصبح قصصاً تعيد تمثيل دور الجماعة العضوية الأصلية، البسيطة والريفية، والمتضامنة التي لا تطاولها شرور المدينة كالفقر والمخدرات والعنف. بل أكثر من كل ذلك، فثمة ظاهرة في أميركا تتمثل بتكريس عادة لكتابة قصة أسطورية تأسيسية للولايات المتحدة. وهي قصة الأقليات المضطهدة التي تحافظ على بقائها وتهرب من أرض العنف (أوروبا) وتصل إلى بر الأمان حيث تحظى بالإعتراف بها وتحقق الإزدهار لنفسها. إن ملحمة «مايفلاور» مثلاً وبالشكل الذي ما زالت تروى به، يمكن أن تُلاحظ في القصص السائدة حول المحرقة: أسرة يهودية مجتمعة، مثال للأسرة المزدهرة، ألمانية أو بولونية في أغلب الأحيان، تسقط عليها الكارثة النازية. بعض أفرادها يتمكنون من النجاة حيث يحررهم الجنود الأميركيون، ثم يهاجرون إلى أميركا. وهناك يندمجون وبعضهم يتمكن من تجميع ثروة كبيرة، ثم يتجذرون ويعيدون رواية تجربتهم القصوى. في قارة الشر، أي أوروبا التي تلعب دور الرحم السلبي نفسه الذي لعبته مصر في التراث اليهودي. أما الخطاب الرسمي الأميركي حول المحرقة فإنه لا يركز، خلافاً لما هي عليه المنظمات اليهودية، على تبرير وجود دولة إسرائيل. فمتحف المحرقة التذكاري في واشنطن ومتحف «يادفاشيم» في القدس يتم النظر إليهما كمؤسستين متنافستين. وعلى أية حال فإننا إذا ما تتبعنا خيط التماهي التوراتي، فإن القصة السائدة حول المحرقة في الحياة العامة الأميركية يكون حملها الناجون الذين تمكّنوا من الوصول إلى أرض الميعاد الأميركية. ولا يتطابق مصطلح الناجين، كما هو مفهوم اليوم في أميركا الشمالية، مع المصطلح المستخدم في أوروبا، وخصوصاً في فرنسا. فمصطلح الناجين من

المحرقة يستخدم في أوروبا للدلالة على الناجين من معسكرات الاعتقال. أما في الولايات المتحدة، فإن المفهوم يكتسب معنى أكثر اتساعاً وعمقاً، حيث يصبح الناجون هم جميع اليهود الذين كانوا يعيشون في أوروبا في العام ١٩٣٣ والذين لم يتعرضوا للقتل. وعلى ذلك، يشتمل المفهوم على اليهود الذين هاجروا، أو الذين عاشوا بعد ذلك في الخفاء ثم وجدوا أمكنة يلتجئون إليها. ومنها سويسرا، أو الذين نجوا من القتل، ومن أشكال سياسات التعامل مع الألمان كالعديد من اليهود الذين يحملون الجنسية الفرنسية. لذا فإن عددهم يكون أكبر بكثير من عدد أولئك الذين كان ينطبق عليهم المفهوم بمداولة الأوروبي لدرجة أن اليهود البريطانيين أمكنهم، خلال فترة من الزمن، أن يأخذوا لأنفسهم صفة الناجين: لو تمكن الألمان من كسب معركة بريطانيا واجتياز بحر المانش، لكان بإمكان اليهود البريطانيين أن يكونوا في عداد ضحايا المحرقة. واللافت على نحو جلي أنه من بين جميع العذابات، تحتل المحرقة مكان الصدارة لتصبح مرجعية إجبارية، ومقياساً عالمياً لأن الفرق بين الضحايا والضحايا الآخرين هو فرق في الدرجة لا في الطبيعة. ولذا فإن الاعتراف بقيمة العذاب الداخلي هو من الأمور البارزة في الحياة الأميركية كعنصر من عناصر الهوية. ويحصل هذا الاعتراف منذ اللحظة التي يظهر فيها العذاب وخصوصاً عندما يفضي إلى قضية نضالية أو مطلب. والشاهد على ذلك هو مئات الألوف من الدعاوى والمحاكمات التي تجري سنوياً حول موضوع الاعتداءات الجنسية حيث يسمح النظام القضائي الأميركي بطرح الموضوع بطريقة يتمكن معها الضحايا من تجاوز المشكلة. ولكن التركيز الكبير على المحرقة في أميركا والتكرار الآلي للذكرى في كل مناسبة بدأ يدفع بالمسألة نحو الابتذال.

عقدة الإحساس بالذنب

العنصر الأخير الذي يفسر الاهتمام الأميركي بالحرقة هو الشعور بالذنب، ليس فقط لأن الجيش الأميركي لم يستجب للدعوات اليهودية لقصف معتقل أوشفيتز، بل أيضاً لأن الأميركيين رفضوا إفساح المجال لهجرة الألمان إلى الولايات المتحدة في أواخر الثلاثينيات، وخصوصاً مع فشل مباحثات إفيان عام ١٩٣٨ حول هذا الموضوع. ومع هذا تظل الحرقة رافعة لإعادة تأسيس الهوية للقوة الأكبر في العالم. وقد لوحظ، في الوقت الذي تطرح فيه حالياً موضوعات الأبراطورية والتدخلات العسكرية الأميركية ضد الشر المطلق المتمثل أي ما يسمى بـ « الإرهاب الإسلامي »، أنه في ذكرى الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، تم اعتماد الطريقة المعتمدة من قبل المنظمات اليهودية في قراءة أسماء الضحايا. ولا بد من القول بأن المجتمع الأميركي يُسقطُ على الحرقة كثيراً من صراعاته الداخلية وتناقضاته. فالحديث عن الحرقة يعني أيضاً، بالنسبة إلى أميركا، الابتعاد عن أوروبا، والتحرر منها، مع خروج العالم من الحرب الباردة^(١).

وعلى الرغم من غلبة هذا التيار وسيادته على مركز القرار فإن من الخبراء الأميركيين من راح يطلق صرخته من سوء العاقبة المنتظرة بسبب من العمى الأيديولوجي الذي يسيطر على السياسات الأميركية في الشرق الأوسط والعالم. دعونا نقرأ أخيراً ما ختم به باتريك بوكانان مقالته المستفيضة حول الوقائع الدراماتيكية التي جعلت الإدارة الأميركية في عهد بوش الابن تؤول

(١) المصدر نفسه.

من آخرها إلى الزاوية اليهودية الحادة: إنَّ الرئيس بوش تحت الإنذار: فإذا مارس الضغط على إسرائيل لمبادلة الأرض بالسلام، وهي معادلة أو سلو التي وضعها أبوه واسحق رابين، فسوف يُتَّهم بمعاداة السامية، كما كانت حال أبيه، كما باتَّباع أسلوب ميونيخ، وذلك من قِبَل الإسرائيليين ومعهم المحافظون الجدد الذين يقيمون داخل خيمته». وإذا لم يتخلَّ بوش عن إسرائيل فلن يكون هناك سلام. ومن دون سلام في الشرق الأوسط لن نحصل على أمننا أبداً لأنَّ الإرهاب لن ينتهي. ويضيف: «إنَّ أي دبلوماسي أو صحفي يزور الشرق الأوسط سوف يربط فشل أميركا في تطبيق السياسة المعتدلة بفشلها في لجم شارون، وفشلنا في إدانة استخدام إسرائيل العنف المفرط، وتأمّرنا الخلقي مع إسرائيل في سلب أراضي الفلسطينيين وحرمانهم حقهم في تقرير المصير، الأمر الذي سيكون من شأنه تعزيز العداء للأميركيين في العالم الإسلامي الذي ينمو فيه الإرهاب والإرهابيون. ثم يخلص بوكانان إلى استنتاج مؤداه أن الإسرائيليين هم أصدقاء أميركا ولهم الحق في السلام والحدود الآمنة، وعلينا مساعدتهم في تحقيق ذلك. نحن كأمة لدينا التزام خلقي دَعَمُهُ أكثر من ستة رؤساء ويدعمه الأميركيون، وهو عدم ترك هذا الشعب، الذي طالما عانى الكثير، ويتعرض لرؤية بلاده تُدمَّر، وسوف نفى بالتزامنا. لكن المصالح الإسرائيلية والأميركية ليست شيئاً واحداً، فقد خدعت إسرائيل أميركا مرَّات عديدة على امتداد نصف قرن. أبرزها ما قام به عملاء الموساد في الخمسينات حين فجَّروا منشآت أميركية لجعل الأمر يبدو من فعل المصريين. ومنها في مرحلة متأخرة عندما كُلف جوناثان بولارد بسرقة أسرارنا النووية. ثم يصل بوكانان إلى أنَّه على الرغم من أننا كررنا مراراً تقدير الكثير مما حققه هذا الرئيس، فإنه لن يستحق إعادة انتخابه

إذا لم يتخلّص من عبء المحافظين الجدد، وبرنامجهم المتضمن لحروب لا تنتهي على العالم الإسلامي، وهو الأمر الذي لا يخدم إلاّ مصالح دولة هي غير الدولة التي كان انتُخب للحفاظ على مصالحها^(١).

ومهما يكن من أمر، لم يكن ابتعاث «العصب الإسرائيلي» لأميركا في زمن المحافظين الجدد، إلاّ لتأكيد الميافيزيقا التاريخية التي رست عليها المقولة الأميركية. وهذا «العصب» الذي يمنح لأميركا معناها الإسرائيلي، هو عصبٌ مربوط بحبل وثيق إلى سلسلة غير متناهية من المفاهيم التي تؤوّل على الإجمال إلى إعادة إنتاج عقيدة الفرادة، أو ما يرّسخ خرافة النوع الأميركي النادر.

شبهٌ تكويني تُظهرُهُ أيديولوجيا الإقصاء

ظلت العلاقات الأميركية. «الإسرائيلية» طيلة الأحقاب المنصرمة على شيء من الإبهام بالنسبة للعرب. وهذه سمة زامنت مراحل مختلفة من تاريخ الصراع العربي الصهيوني. وغالب الظن الا يأتي يومٌ تنقشع الرؤية فيه، ويزول الإبهام، أو تصوير واضحة القواعد التي يمكن بواسطتها فقه قواعد الثابت والمتحول في تلك العلاقات. ولقد بدا التفكير العربي في الأعم الأغلب مضطرباً في مقابل المشهد الذي تنتظم فيه العلاقة بين الولايات المتحدة الأميركية و «إسرائيل». أما مرد هذا الاضطراب فإلى أسباب كثيرة، بعضها تاريخي وبعضها راهن، ويتصل بأحوال وظروف الصراع العربي.

(١) باتريك بوكانان، مصدر سبقت الإشارة إليه.

«الإسرائيلي» وديناميات السلام السياسي التي تعيش إخفاقاتها المديدة منذ حرب العام ١٩٦٧.

في الأحوال جميعها، كانت الأسباب الكامنة وراء اضطراب الفهم العربي للعلاقة الأميركية - الإسرائيلية كثيرة. منها المقاربة الواهمة للقواعد التي حكمتها مع ما ترتّب عليها من صوغ خاطئ لاتجاهات العمل السياسي التكتيكي والاستراتيجي في العلاقات الدولية. ومنها أيضا غياب استراتيجية عربية موحّدة في مواجهة الحلف الأميركي - الإسرائيلي، مع ما حمله هذا الغياب من عوامل تفتيت وتصعد للتضامن العربي، وأثر ذلك في اختلال نسبة القوى بين العرب وإسرائيل.

هنالك بالطبع، طائفة من الأسباب الإضافية. وهي قد تبرز من حين لآخر، لتحايث التفاصيل اليومية للأحداث. إلا إنها في أي حال، تأتي لتؤكد فرادة العلاقة الأميركية - الإسرائيلية ورسوّها منذ البدء على خصوصية قد لا نجد ما يماثلها في العلاقات الدولية.

المسافة والوهم

لما كان فهم العلاقات الأميركية - الإسرائيلية على هذا النحو من الاضطراب، فإن جلاء بعض الحقائق التكوينية لتلك العلاقات أمرٌ في غاية الأهمية. انه من وجه يعيّن قواعد جديدة للفهم فيما يعبر العالم عقوده الأولى في رحاب الألف الثالث، ومن وجه آخر سيساعد جلاء تلك الحقائق في صوغ استراتيجيات العمل العربية على الصعيد السياسي والدبلوماسي،

ناهيك عن الأمن القومي، وموقع هذا الأمن في النظامين الإقليمي والدولي. لقد كان الرأي السائد لدى الخبراء هو أن العلاقات التي تربط الولايات المتحدة بإسرائيل هي أواصر يمكن وصفها بالخاصة والتميزة. إن كثافة المبادلات بين البلدين سواء على الصعيد الحكومي أو على الصعيد المجتمعي واتساع مدى التعاون وحميميته أو الدعم الأميركي لإسرائيل بمختلف أشكاله اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً ودبلوماسياً وكلامياً... إنها يُظهر وجود روابط خاصة وصلبة، بل روابط وصلات لا تتزعزع. والطريقة التي تدار بها الصعوبات والعقبات التي تنشأ بين الحين والآخر، والمزيج من المبالغة والإنكار للخلافات التي تحدث أحياناً، والقلق، الذي طالما جرى الإعراب عنه من تردّي العلاقات بين البلدين، يفضي إلى بيان الطابع الفريد الذي تتحلّى به الأواصر التي تربطهما. لكن إذا كان في الإمكان الإحاطة بتجليات هذه الأواصر وتوصيفها، وإن بصعوبة، فإن طبيعتها العميقة وديناميتها أي الأساس الذي تتأسس عليه، أمور تبقى أعصى على الإيضاح والإبانة.

بهذا التوصيف سعى الباحث العربي المتخصص في الشؤون الأميركية كميل منصور إلى أن يبيّن الجانب العسير في فهم الطابع التي تحكم العلاقة بين واشنطن وتل أبيب. فهو يبدو كما لو انه يقر بوجود مسافة بين دولتين. المسافة التي تفترضها طبيعة وخصوصية كل دولة وظروفها، وعلاقاتها، وشروط تكوينها، فضلاً عن الظروف الجيو-سياسية والاستراتيجية المحيطة بها... بينما يشير قي مقابل هذا إلى وجود وهم ناتج عن المسافة عينها. وهو وهم يتأتى من سوء تقدير للمسافة التي تفصل بين الدولتين. «فالإسرائيليون يرون إلى الطريقة التي تدرك أميركا بها هذه العلاقات، هي مسألة حاسمة بالنسبة إليهم، ذلك لأنها تتعلق برؤاهم وبمصيرهم. أما بالنسبة إلى الدول

والمجتمعات العربية، أو حتى بالنسبة إلى دائرة أوسع من الدول، فإن العلاقات الأميركية، الإسرائيلية تشكل عاملاً رئيساً في تحديد وضعها، وحجمها، وقوامها، ومستقبلها. مرجع الأمر هو، أن ثمة نزاعاً يُعاش كنزاع وجود، بين إسرائيل وجيرانها. يستثير هذا النزاع تدخل القوى الخارجية، بدرجات مختلفة، إلى جانب أحد الطرفين في منطقة مهمة استراتيجياً. لذا فإننا لو تدبرنا النزاع العربي-الإسرائيلي، أي لو نظرنا إليه في بعده التاريخي، أو العسكري، أو السياسي، أو الدبلوماسي، أو الاقتصادي، أو النفسي، أو حتى السكاني، فسوف يبدو وزن العلاقات الأميركية-الإسرائيلية المتميزة مهماً دائماً، إن لم نقل حاسماً. وتبدو الأواصر بين الطرفين الأمريكي والإسرائيلي متميزة إلى حد يجعل بالإمكان القول إن الولايات المتحدة هي نفسها طرف ضالع، وعلى أكثر من صعيد في النزاع العربي-الإسرائيلي. وصفة الطرف الضالع مباشرة في النزاع هذه، هي صفة لا يمكن أن تنسب بالقدر نفسه من الاطمئنان إلى القوى الخارجية المعتبرة معنية بهذا النزاع، مثل الاتحاد السوفياتي في حينه أو مثل بعض دول أوروبا الغربية^(١).

في المذهب الاستراتيجي الأمريكي

يستهل كميل منصور دراسته عن الولايات المتحدة الأميركية وإسرائيل^(٢) بتحديد منزلة إسرائيل في المذهب الاستراتيجي الأمريكي. غير أن المؤلف

(١) محمود حيدر، المسكوت عنه في علاقة أميركا بإسرائيل، مجلة الشاهد العدد ١٩١، ١٩٢، تموز/ يوليو- آب/ أغسطس ٢٠٠١.

(٢) كميل منصور، الولايات المتحدة وإسرائيل، (العروة الوثقى)، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، لندن ١٩٩٦، (المقدمة).

سيبيّن لنا الصعوبات المنهجية لما أراد ان يحدد هذا المذهب. وهو يمضي في هذا الإطار ليُعيّن ثلاث صعوبات:

أولاً: إذا كان مصطلح «مذهب» كما يعرفه الفيلسوف الغربي لالاند (Lalande) هو «جسم من الافكار وظيفته توجيه العمل، وهو كخطاب يهدف إلى التماسك المنطقي»، فإن هذا لا يتوافر في الولايات المتحدة. ليس هناك خطاب رسمي واحد بل جملة خطابات متحاذية، وذلك بالنظر إلى تعاقبهم وتناوبهم في الزمن، ناهيك عن مسألة تكيّف الخطاب وفق التغيرات الظرفية. فأية تصريحات اذن، هي الأدنى إعراباً عن المذهب موضوع الدرس؟ وما هي المعايير التي تسمح بانتقائها وتحديدّها؟

ثانياً: يمكن أن يكون ثمة هوة، يزيد عمقها أو ينقص، بين الخطاب الرسمي والسياسية الفعلية، وذلك إما لأن هذه الأخيرة سياسة يصعب شرعنتها من وجهة نظر القيم والقواعد المعترف بها، وإما لاعتبارات وأسباب تكتيكية. إذ غالباً ما يكون شاغل المقرّر، حين يدلي بتصريحاته، أن يعطي صورة مجمّلة أو مشوّهة عن ممارسته، وأن يوفق كلامياً بين شؤون يصعب التوفيق بينها في الواقع. ومن شأن هذا الأمر أن يفضي بالباحث، من بين أمور أخرى، إلى الشك في توصيف الخطاب موضوع التحليل: أهو تعبير عن مذهب يوجّه الفعل السياسي حقاً، أم إنه مجرد تلييس وتبرير عقلي، ووسيلة تسمح بتسويق هذا الفعل لاحقاً؟..

ثالثاً: إن كثرة المقررين «الأميركيين» وتناوبهم، والهوة التي يمكن ان تفصل خطابهم ومقالاتهم عن سياساتهم الفعلية، والتناقضات المحتملة في هذه الأخيرة ولجوءهم إلى السبل والذرائع التبريرية: كل ذلك يؤثر

حكماً وضرورة، وبصورة سلبية في تماسك ذلك الخطاب (...). توحى هذه الصعوبات التي يوردها الباحثون في مصطلح « المذهب »، بأنه لا يمكن العثور بصورة مسبقة على مذهب رسمي أميركي متكوّن وجاهز حيال اسرائيل. بالتالي فلن يكون بالإمكان جمع مجموعة متماسكة ومقنعة من التصريحات الأميركية المأذون لها يمكن تقديمها كمذهب استراتيجي ملهم للقرارات الأميركية المتعلقة « بإسرائيل ». لكن هل هذا يعني أن مثل هذا المذهب غير موجود؟ يسأل منصور ويجب على الفور بـ « لا ». وحجته في ذلك ان المذهب الاستراتيجي ينبغي استقراره من الممارسة الأميركية لا من التصريحات الرسمية. وعلى هذا، فإن على الباحث ان يستخرجه من الممارسة او ان يوضحه ويفسره. وهذا المذهب المستقراً هو الذي يفترض به انه يملئ السلوكات الإجمالية وفاقاً لفرضية العقلانية الادائية الذرائعية (Instrumental Rationality). واستناداً إلى مقومات هذا المذهب، يصبح واجباً معاناة هذه الوضعية بدقة، والنظر فيما إذا كان مذهباً كهذا يمكن له أن يحكم السياسة الأميركية إزاء « إسرائيل » وبالتالي يتفق او لا يتفق، بالكامل أو بصورة جزئية مع الخطاب الرسمي أو المقالات الرسمية العديدة. وهو أي هذا « المضمّر المذهبي » ليس جامداً بل هو يتطور بحسب الحقب أو يواكب تعرجات القرارات السياسية، وتحولاتها عبر الزمن وبحسب الظروف.

ماذا يقول هذا المذهب المضمّر، وما هي العناصر التي يجب توافرها لاستخراجه من الممارسة الأميركية العملية؟

في ما يتعلق بالعناصر فمن البديهي ان يكون على الباحث في سعيه

من اجل استخراج هذا المذهب ان يتابع تطورات العمل السياسي (...).
فالاستقراء لا يكون من الفراغ. وهو يتطلب توافر حد أدنى من المفاهيم.
وهذه العملية يمكن إيجادها في المذاهب الخاصة، لا في المذاهب العمومية
والرسمية، وفي «مرافعات» الكتاب والمؤلفين غير الهامشين، أي ذوي
الصفات التمثيلية التي يتوجهون بها إلى المقرر الأميركي للتأثير في قراراته
المتعلقة بالمنزلة الاستراتيجية التي ينبغي إسنادها إلى «إسرائيل».

أما ما يتعلق بفرضية العقلانية الادائية الذرائعية التي تؤلف غطاء المذهب
الاستراتيجي الأميركي المضمّر تجاه «إسرائيل»، فإنها تقوم على فكرة كون
«إسرائيل» رصيذاً استراتيجياً للولايات المتحدة الأميركية.

في، مقالة تحمل توقيع رونالد ريغان الذي كان يستعد لتقديم ترشيحه
لرئاسة الولايات المتحدة سوف نجد تكثيفاً لفكرة الرصيد الاستراتيجي على
الشكل التالي:

«أن مركزنا سيكون اضعف من دون الرصيدين السياسي والعسكري
اللذين توفرهما «إسرائيل».. فسقوط إيران زاد في قيمة «إسرائيل» بما
هي ربما الرصيد الاستراتيجي الوحيد الذي بقي في المنطقة، او الذي
تستطيع الولايات المتحدة الاعتماد عليه لاحقاً... «إسرائيل» تمثل
الإرادة الديمقراطية، والتماسك القومي، والقدرة التكنولوجية، والعصب
العسكري لتظل في الطليعة حليفاً يتمتع بثقة أميركا^(١).. لا شك ان ما يعبر
عنه ريغان، الذي أصبح فيما بعد رئيساً لأميركا على مدى ولايتين متعاقبتين،

(١) جريدة «واشنطن بوست»، ١٥ آب/ أغسطس ١٩٧٩.

يمس قطاعاً وازناً في سلطة القرار في الولايات المتحدة، إلا انه لا يعكس سلطة أصحاب القرار بأجمعهم. وذلك فإن عدداً من الكتاب والمؤلفين راحوا يطرحون ما يخالف فكرة ونظرية الرصيد الاستراتيجي، ويطرحون في المقابل فكرة العبء الاستراتيجي .

حتى ان عدداً آخر من الباحثين طرحوا أسئلة كثيرة حول علاقات التعاون أو التحالف بين دولتين متفاوتتي القدرة: لماذا تساعد قوة عظمى عالمية دولة اضعف منها أو دولة طرفية؟ هل ثمة ربح يعوض من تكلفة هذه المعونة؟ هل يشتمل دعم القوة العظمى للدولة الصغرى على مخاطر أمنية عالمية أو إقليمية؟ من هو المستفيد الأكبر من هذه العلاقة؟ وهل هذه العلاقة هي وسيلة تضبط القوة العظمى بها الدولة التابعة لها؟ وهل وجود هذه العلاقة يزيد أو ينقص من هامش مناورة أحدهما إزاء الأخرى، وكذلك إزاء الأطراف الثالثة؟ ان هذه الأسئلة ستشكل موضوع البحث الطويل الذي يقدمه لنا كميل منصور مستفيداً من عدد لا حصر له من الوثائق والتصريحات والمستندات والوقائع. سوى ان السؤال الذي يبقى مطلاً على ميدان البحث من أوله وحتى نهايته، هو الذي يثير علامات الاستفهام والريبة حول الحقيقة المستورة للعلاقة الأميركية-الإسرائيلية. ووصله ذلك بالسياسات العربية العليا وبالأمن القومي العربي في مداه الاستراتيجي.

تكافؤ عوامل الارتباط

ليس ثمة من العوامل ما يُرجّح على الآخر في ما يتصل بقواعد العلاقة بين «إسرائيل» وأميركا. هنالك على الأغلب ضرب من تكافؤ في عوامل الارتباط التي تبسط العلاقة وتقيمها على النحو الذي نراه على امتداد القيامة الاسرائيلية الاستيطانية في فلسطين. فلا العلاقة الأخلاقية القيمة وحدها تكفي لتحقيق العروة الوثقى بين الطرفين، ولا علاقة المنفعة والمصالح والأدوار الموكلة «لإسرائيل» في المنطقة وحدها أيضاً، ولا كذلك العلاقة الاستراتيجية الادائية القائمة على الفلسفة البراغمية للولايات المتحدة. إن هذه العلاقات جميعاً تتضافر كلها في ما بينها لتؤلف الصيغة الفريدة والمميزة في علاقة «إسرائيل» بأميركا.

وفي هذا المجال يمكن القول إن المرجعية الايديولوجية -الثقافية التي تتلاقى ضمن لاهوت الغلبة هي الرحم التي تتحدد الاستراتيجية فيها. وخصوصاً حين تكون المصلحة المرتبطة بها ارتباطاً عقلياً غير يقينية. ثم إن المصلحة لا تتقدم على المرجعية الايديولوجية الثقافية إلا في أقصى الحالات، أي، إلا إذا كانت عظمى وتقنية. كما يمكن القول انه ما عني السياسة الأميركية إزاء «إسرائيل» فإن المرجعية الايديولوجية و مرجعية المنفعة تسيران إجمالاً في الاتجاه نفسه. إلا أن كلاً منهما يفرض على الآخر حدوداً لا يستطيع تجاوزها. وفي الإمكان القول إنه بمقدار ما يظل التفوق الإقليمي «الإسرائيلي» قائماً، فإن الأداتية والتماهي الثقافي سيعزز كل منهما الآخر إجمالاً، وفقاً لأرجح الاحتمالات. ولهذا، فإن القراءة الأداتية والقراءة الايديولوجية الثقافية تظنان ممكنتين، الأمر الذي يجعل من العسير على

المراقب أن يحدد طبيعة العلاقة المميزة القائمة بين البلدين. وإذا كان كميل منصور قد ذهب على ما يصرح إلى أن المرجعية الثقافية هي الرحم التي تتحدد فيها السياسية الأميركية يفترض بالمقابل أن تنشأ اعتبارات تضطر أميركا معها إلى تولي المصلحة «الإسرائيلية» مباشرة ومن دون الرجوع إلى حساب الأمن «الإسرائيلي» الداخلى، الأمر الذي حصل في أثناء حرب الخليج الثانية حيث حجبت الولايات المتحدة عن «إسرائيل» فرصة القيام بالدفاع عن أمنها الذاتي لان الاستراتيجية الأميركية العليا آنذاك اقتضت مثل هذا الحجب^(١).

في رؤية العرب

من أبرز النقاط موضوع التساؤل في فضاء العلاقة الأميركية- الإسرائيلية هي رؤية العرب الاستراتيجية للمسافات الطفيفة ضمن حقل الأولويات الأميركية الكبرى. فإن كان الطابع المتميز للعلاقات بين أميركا وإسرائيل هو طابع الثبات والدوام، فمن العبث الاعتقاد ان في وسع العرب تحويل هذه العلاقات تحويلاً نوعياً في مستقبل منظور. فهم لا يستطيعون التأثير في وضع الولايات المتحدة كقوة عظمى، ولا في التهاهي الايديولوجي-الثقافي الأميركي- الإسرائيلي إلا بصورة هامشية جداً.

فالعرب في ما عني النقطة الأولى هم أنفسهم احد الموضوعات التي يمارس عليها، أو بالأحرى يمارس ضدها دور الولايات المتحدة العالمي

(١) كميل منصور - المصدر نفسه - انظر المقدمة (ص ١٦).

(...) أما في معنى النقطة الثانية، أي نقطة التهاوي الأميركي-الإسرائيلي فإن العرب لن يستطيعوا مهما فعلوا ان يغيروا كينونتهم « فيصبحوا «غربيين» ويحلّوا محل «إسرائيل» في المرجعية الثقافية - الايديولوجية، أو على الأقل احتلال المرتبة ذاتها التي تحتلها إسرائيل في هذه الحقبة. غير أن الكلام على الاستحالة في هاتين النقطتين لا يلغي احتمالات العمل العربي على استراتيجيات يستطيع في خلالها هذا العمل التدخل والتأثير في مناطق الفراغ التي تعتور العلاقة الأميركية-الإسرائيلية. ولعل ابرز مناطق الفراغ هذه هي تلك التي سنجدها على صعيد مرجعية المنفعة في الشرق الأوسط. غير انه ليس من شأن هذا التأثير أن يضع الطابع المميز لتلك العلاقة موضع تساؤل، بل انه يقتصر على زيادة أو نقصان تكلفة الإباحة الأميركية لمساحة المناورة الإقليمية الإسرائيلية.

يبدو عموماً أن هذا الحكم يظل صحيحاً ما دام التوصل إلى سلام عربي - إسرائيلي نهائي لم يتم. ومكتوب عليه بالتالي ان يمكث إلى اجل مفتوح في فضاء الاستحالة. وينبغي اعتبار عملية المفاوضات التي بدأت في مدريد في خريف سنة ١٩٩١، ما لم تفض إلى سلام شامل، احد أشكال النزاع الإسرائيلي العربي واحد مسارحه، اي المسرح الذي تجري على خشبته التجاذبات التقليدية بين العرب والأميركيين والإسرائيليين على خلفية دائمة من العلاقات المتميزة الأميركية-الإسرائيلية.

توراتية «الإنجيليين الجدد»

مع صعود البيئة المحافظة الجديدة، استهلت الولايات المتحدة طوراً جديداً في العلاقة بإسرائيل وهذه العلاقة تاريخ طويل. ذلك ان الصهيونية البروتستانتية الأميركية هي بالتأكيد أقدم من نموذج اليهودية الحديثة، وقد ضغط الإنجيليون منذ القرن التاسع عشر على المسؤولين الأميركيين لإقامة ملجأ في الأراضي المقدسة لإيواء المضطهدين اليهود من أوروبا والامبراطورية العثمانية.

وتنظر الإنجيلية الدينية في الولايات المتحدة بشكل مميز وفريد إلى دور الشعب اليهودي في العالم الحديث. فمن ناحية، يتبنى الإنجيليون النظرة المسيحية الواسعة الانتشار القائلة بأن المسيحيين هم الوارثون للوعود التي قطعها الله للعبرانيين القدامى. لكن على عكس العديد من المسيحيين الآخرين فإن الإنجيليين يؤمنون بأنه ما زال للشعب اليهودي دور في خطة الله. وقد ظهرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، دراسات معمقة للنبوءات الواردة في الكتاب المقدس أقنعت المفكرين الإنجيليين كما المؤمنين، بأن اليهود سوف يعودون إلى الأراضي المقدسة قبل العودة المظفرة للمسيح. إضافة إلى ذلك، يعتقد الإنجيليون، بأن الفوضى القائمة قبل عودة المسيح سوف تدفع بالعديد من اليهود إلى اعتناق المسيحية، إلا انه حتى ذلك الوقت فإن معظم اليهود سوف يستمرون على رفضهم للمسيح. وعلى ما يلاحظ كثيرون من الباحثين فإن هذا الاعتقاد سوف يخفف بشكل ملموس من الاحتقان والتوتر المفترض بين اليهود والإنجيليين، لاسيما و أن الإنجيليين لا يتوقعون كما توقع مارتن لوتر، بأنه حين يتم عرض الإيمان

الحقيقي فإن اليهود سوف يتحولون بأعداد كبيرة. إن الغضب الذي أحس به مارتن لوتر عندما لم تتحقق توقعاته دفعه الى ان يكون أقرب إلى معاداة السامية من ناحيته، وهذا ما لن يحدث من جانب الإنجيليين. بالنسبة لهؤلاء، فإن حقيقة نجاة الشعب اليهودي واستمراره على مدى آلاف السنين، وعودتهم إلى أراضيهم القديمة المقدسة، هو برهان على حقيقة وجود الله. وان الإنجيل هو الملهم، وان الدين المسيحي هو الدين الحق. ويؤمن العديد من الإنجيليين بأن الوعود الواردة في سفر التكوين لا تزال قائمة، وان رب إبراهيم سيبارك الولايات المتحدة اذا ما باركت الولايات المتحدة اسرائيل، وهم يرون في ضعف وهزائم وفقر العالم العربي دليلاً واضحاً على اللعنة التي انزلها الله بأولئك الذين يلعنون اسرائيل. وهكذا تترسخ القناعات لدى اللاهوت السياسي الأميركي الجديد، إلى درجة أن انتقاد إسرائيل، وانتقاد الولايات المتحدة لدعمها إسرائيل لا يحرك ساكناً لدى الإنجيليين، بل يعزز من قناعتهم، التي ترى ان العالم الذي يكره إسرائيل، إنما مثله كمثل الرجل المنحل الأخلاق المنحط الذي يكره الله وشعبه المختار. ويشعر الإنجيليون أنهم بوقوفهم الى جانب إسرائيل إنما يقفون إلى جانب الله، وهو أمر هم على استعداد للقيام به ولو واجهوا العالم كله. لذا كتب (جون هاغي) راعي الأبرشية الإنجيلية في سان انطونيو، بولاية تكساس، قائلاً: إذا تحركت إيران لضرب دولة إسرائيل، فإن على الأميركيين أن يكونوا على استعداد لوقف مسار هذا العدو الشيطاني ملاحظاً أن سياسة الله تجاه الشعب اليهودي نجدها في سفر التكوين ١٢:٣. ثم إن عودة اليهود إلى الأراضي المقدسة، والانتصارات المهمة على الجيوش العربية التي تفوقهم عدداً، إضافة إلى ازدياد موجة الحقد والتهديد ضد اليهود في إسرائيل وسائر أنحاء العالم، لم

يقوّ التزام الإنجيليين نحو إسرائيل فحسب، بل ساهم أيضاً بتقوية موقف التيار الإنجيلي ودوره في الحياة الأميركية. ومع تركيز سياسة الولايات المتحدة حالياً على موضوع التصدي للهجمات الإرهابية، ومع تلويح أعداء المسيحية باستخدام أسلحة الدمار الشامل مدفوعين بعدائهم لإسرائيل، فقد تعززت ادعاءات الإنجيليين الدينية^(١).

أما عن المسيحيين الليبراليين في الولايات المتحدة فإنهم مثل العلمانيين الليبراليين، اذ طالما كانوا تقليدياً من الداعمين للصهيونية، ولكن من وجهة نظر مختلفة. بالنسبة للمسيحيين الليبراليين، اليهود هم شعب كأى شعب آخر، لذا فقد دعم الليبراليون الصهيونية بنفس الطريقة والتوجه التي دعموا فيها حركات التحرر الوطنية الأخرى. وفي العقود الأخيرة، وعلى القاعدة والتوجه إياهما، ازداد تعاطف المسيحيين الليبراليين مع الحركة الوطنية الفلسطينية. في عام ٢٠٠٤، قامت الكنيسة المشيخية، بتمرير قرار يدعو الى الحد من التعامل وبشكل محدود مع الشركات التي تتعامل مع إسرائيل، وقد ألغى هذا القرار عام ٢٠٠٦ بعد مواجهة مريرة. وتبين إحدى الدراسات ان ٣٧٪ من المواقف التي أصدرها التيار الرئيسي للكنائس البروتستانتية حول انتهاكات حقوق الإنسان بين عامي ٢٠٠٠ - ٢٠٠٤ ركزت بشكل خاص على إسرائيل، بحيث لم تتعرض أية دولة أخرى لهذا الكم من الانتقادات.

(١) كميل منصور - المصدر نفسه، (ص ٢٠).

وحدة النشأة والمآل

مهما كانت بعض المواقف والاجتهادات والتيارات الأميركية الدينية وغير الدينية ذات طابع انتقادي حيال إسرائيل، فذلك لن يؤثر في الواقع، على جوهرية النشأة الإسرائيلية التوراتية للأطروحة الأميركية.

لقد تلبست «فكرة إسرائيل» جوهر «فكرة أميركا» وصاغت شكلها. ولقد باتت من المسلمات أن الأمة الأميركية هي أقرب إلى الإسرائيليين الأوائل من أي شعب آخر على وجه الأرض.

وبما أنه ليس هناك من شعب يعطي بلاده وحرته للغزاة الغرباء تطوعاً، فقد كان لا بد لفكرة إسرائيل وفكرة أميركا من تقديس طقس العنف الذي استلهم أخلاقه من منبع واحد. إن كل بلاغة العنف الأميركية كانت ولا تزال تستمد استعاراتها من أدبيات «فكرة إسرائيل» وقصصها المقدسة وأنماط سلوك أبطالها^(١). فحين ألقى كوتون ماذر (وهو من أبرز أنبياء أميركا الإسرائيلية) خطبة الحرب أمام الكتيبة المتوجهة لغزو الهنود عام ١٦٨٩، كانت استعاراته تنفخ الحياة في أساطير العبرانيين وتلح على المعنى الإسرائيلي لأميركا. فالجنود المتوجهون لغزو الهنود هم (على الحقيقة ولا لزوم لأدوات التشبيه) «بنو إسرائيل في مواجهة العماليق» (...)، «وما على بني إسرائيل الجدد إلا أن ينقضوا على أعدائهم بالطريقة التي انقض بها العبرانيون على أعدائهم العماليق: فليُسحقوا كغبار تذروه الريح، وليُكنسوا مثل الوسخ

(١) وولتر راسل ميد، أميركا دولة الله، فورين أفيرز، أيلول/سبتمبر-تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، العنوان الأصلي U.S God's Country.

في الشوارع إلى أن يبادوا فلا يبقى منهم أثراً». لقد تبنت «فكرة أميركا» في حرب إبادة الهنود أخلاق العنف التي تخلت بها «فكرة إسرائيل» التاريخية تلميحاً وتصريحاً. إن البعد المقدس في هذا العنف هو الذي جعله مثلاً يحتذى لقتل الهنود وإخضاعهم وسلبهم أرض آبائهم وأجدادهم. فالهنود، كما يروي رولاند بينتون Roland H. Bainton يستحقون القتل والإبادة، تارة لأنهم عماليق، أو عمونيون، أو كنعانيون أو صت السماء بقتلهم، أو تشيت شملهم حتى يتم أمر الله بتأسيس إسرائيل الجديدة، وتارة لأن إبادة الرجال والنساء والأطفال وقتل المواشي، وتدمير المدن، وتقويض المعالم الثقافية، لازم للحفاظ على نقاء شعب الله. ثم إن بينتون، وهو أحد أبرز مؤرخي الأديان المعاصرين، يرى أن الصليبيين في القرون الوسطى لفقوا مثل هذه الأعذار لتجميع صفوفهم وتعبئة حملاتهم، وأن الإنكليز قبل كوتون ماذر وبعده برّروا بها حروبهم واستعذبوها لأنها تسامت بجرائم قتل الهنود ونهبهم، وإبادتهم إلى مرتبة العبادة، بل لربما - كما يقول بيتر كريجي (Peter Craigie) جعلت من إبادة الشعوب وتدمير المدن نذراً مقدسة.

وهكذا فإن فكرة إسرائيل قدمت للشعب الإنكليزي المختار كل المنظومة الأخلاقية التي يحتاج إليها لاجتياح «مجاهل» الشمال الأمريكي وإفراغها من أهلها (...) «حق الحرب» (Right of war) مثلاً، الذي سنّه المستعمرون في العام ١٦١٠، وسوّغوا لأنفسهم اجتياح مجاهل «العالم الجديد»، يتماهى إلى حد بعيد مع عقيدة الحرب الاستباقية التي أخذت بها إدارة المحافظين مع بداية الألف الثالث الميلادي^(١).

(١) منير العكش - تلمود العم سام - مصدر سبقت الإشارة إليه (ص ٢١١).

ثمة إذًا، امتداد ميتافيزيقي عبر الزمن بين الفكرتين الأميركية والإسرائيلية. ولكن يمكن القول أن كلتا الفكرتين تنطلقان من لاهوت الاختيار الإلهي لكل منهما، ومن حتمية المصير الانتصاري الذي ينتظرهما في نهاية التاريخ أو نهاية الزمان .

المفكرون والقضية الفلسطينية

أ.د. أحلام بيضون^(١)

سيبقى تاريخ ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، الذي شهد عملية «طوفان الأقصى»، من أهم الأحداث إلى عرفتتها منطقتنا، وربما العالم، حيث خلط الأوراق، وطرح مجموعة من القضايا على طاولة النقاش، خاصة حين استغلت قوات الاحتلال الصهيوني العملية، لكي تشن حرب إبادة جماعية ضد الشعب الفلسطيني، ستبقى مشاهدتها تؤرق الضمير الإنساني.

ولعل أكثر المشاهد إثارة، يتمثل في المواقف التي اتخذت من مختلف الجهات، حيث سارعت حكومات، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وألمانيا، إلى إعلان دعمها لإسرائيل، وإطلاق يدها ضد الشعب الفلسطيني، تحت عنوان الحق في الدفاع عن النفس. وإذا كانت مواقف الدول تبرّر باتجاهات سياسية، وإيديولوجيات تخدم مصالحها، ما يقودها إلى مجانبة الحق والوقوف مع الباطل، فإن ما لا يفهم، هي المواقف

(١) بروفيسور في القانون الدولي/ الجامعة اللبنانية.

التي يتخذها بعض المفكرين العالمين ، وخاصة منهم منظرون للسلام وحقوق الشعوب والإنسان.

سيستحوذ هذا الموضوع الأخير، أي مواقف المفكرين الأشهر في العالم، من قضية ما يحصل ضد الشعب الفلسطيني، وخاصة في قطاع غزة، على ما سيرد في هذه المقالة، لكن قبل أن نبدأ في البحث في مواقف المفكرين من القضايا العالمية، وتحديدا، من القضية الفلسطينية ، لا بد أولا من معرفة طبيعة القضية، وهذا يتعلق بمعرفة طبيعة الدولة الصهيونية وأساسها، التي سببت مأساة الشعب الفلسطيني، كي يبنى على الشيء مقتضاه، ونتمكن من الكلام ضمن إطار القوانين الدولية المرعية الإجراء، والأعراف الدولية المعتمدة بشكل موضوعي.

وعليه، فإن الأركان المادية لقيام دولة حسب التعريف القانوني، هي: الشعب والأرض وهيئة ممثلة لذلك الشعب، فهل هذه الأركان متوفرة في دولة إسرائيل؟

أولا: الطبيعة القانونية للدولة الإسرائيلية

لكي نستطيع التفكير قانونيا حول الواقع الذي يحيط بالقضية الفلسطينية، أو لنقل قضية ما سمي دولة إسرائيل في فلسطين، لا بد من معرفة طبيعة تلك الدولة القانونية، من خلال قيامها، وأيضا من خلال تصرفها.

١ - هل تتوفر في إسرائيل الأركان القانونية لقيام الدولة؟

يعيدنا هذا السؤال إلى ظروف قيام دولة الاحتلال على الأرض الفلسطينية، وسنفهم ذلك من خلال استعراض الأركان الواجب توفرها في الدولة، وهي:

أ- الركن الأول: الشعب

يجب أن يشكل أفراد منظومة محددة بتاريخ مشترك، وأمال مشتركة، يعيشون نفس الظروف البيئية، ويشاركون بنفس القيم المجتمعية، حتى لو اختلفت معتقداتهم، يقيمون على الأرض منذ زمن، ويتنمون إليها وتنتمي إليهم، ويدافعون عنها حتى الاستماتة، وهذا ما يتجلى واضحا لدى الشعب الفلسطيني.

بالنسبة إلى إسرائيل، فإننا سنجد شعبا مكونا من عناصر أجنبية، تمّ تجميعها واستدراجها من بلدانها الأصلية، وهي لا تزال تحمل جنسية تلك البلدان. وقد تمّ الإتيان بتلك الجماعات إلى الأرض الفلسطينية، وتم إدخالها بصور مختلفة، بإغراءات اقتصادية ومالية، وقد كان عند بعضها الاستعداد للهجرة، وعلى وجه الخصوص ذوي الأصول الأوروبية لكثرة ما عانوه من تمييز. لقد كان الشعب الفلسطيني قبل ذلك يتألف من فلسطينيين ينتمون إلى ديانات مختلفة بما فيهم اليهود، ولم يكن هؤلاء يشكلون سوى ٦٪ من مجموع السكان.

ب- الركن الثاني: الأرض

طبعاً، هي أرض فلسطين التاريخية، وهي باختصار تلك البقعة التي تمتد من حدود لبنان شمالاً إلى حدود مصر جنوباً، ومن نهر الأردن شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً. أي المساحة الرابطة بين قارتي آسيا وإفريقيا، والمرتبطة مع القارة الأوروبية عبر البحر المتوسط.

في العام ١٩٤٧ قسمت أرض فلسطين جوراً وعدواناً، بموجب قرار

أممي يفتقد للشرعية، كونه يخالف أحد أهم مبادئ الميثاق، أي حق تقرير المصير، وقد فرض ذلك من قبل الجهات المتمسكة بالهيمنة على المناطق الغنية والاستراتيجية في العالم، بين سكانها الفلسطينيين، والمجموعات اليهودية التي تمّ استقدامها من الخارج. وقد بدأ العمل على استقدامهم منذ أواخر القرن التاسع عشر، وكانت الأغلبية منهم أوروبية. رفض الشعب الفلسطيني ذلك، وبدل أن يستجاب لحقه في تقرير المصير على أرضه، ترك بدون دولة وكأنه هو الشعب الغريب المستجلب، وأقيمت دولة لليهود فقط، ثم راح الصهاينة ينفذون مخططهم الرامي للهيمنة على كل فلسطين، والتمدد خارجها لإقامة دولة قومية يهودية، تمتد من النهر إلى البحر، وكان يتم ذلك من خلال ارتكاب جرائم، وحروب واعتداءات طالت ليس فقط الفلسطينيين، بل امتدت إلى دول الجوار، وقد نال الحصّة الكبرى لبنان بفعل استضافته لمنظمة التحرير الفلسطينية على أرضه. كما تمّ احتلال الجولان السوري، وسيناء المصرية، ثم أعقب ذلك حرب ١٩٧٣، وتحرير قسم من الأرض العربية. ثم حاولت أنظمة عربية أن تنتهج سبلا معتدلة، فاعترفت بإسرائيل، مقابل أن تنسحب من الأجزاء المحتلة، وتقام دولة للفلسطينيين على الجزء المخصص لذلك من أرض فلسطين التاريخية، وفقا للقرار ١٨١، غير أن الكيان الصهيوني، مدعوما دوما من الدول التي أوجدته، وعلى رأسها الولايات المتحدة، استمر في مخططاته المرسّمة في خرائط أصبحت في الفترات الأخيرة معلنة وصریحة، ولم تنفع كل اتفاقيات السلام، ولا التنازلات التي أقدمت عليها السلطة الفلسطينية، ولا هندسات التطبيع التي أجرتها بعض أنظمة الخليج.

ولعل أهم ما يلفت الانتباه فيما يتعلق بعنصر الأرض، هو الشعار الذي

قام عليه الكيان الصهيوني وهو: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». هذا الشعار الذي أريد به تزوير الحقيقة، والذي فهم خطأ على أنه يعني أن الأرض الفلسطينية خالية من السكان، وبالتالي، هي مؤهلة لاستقبال شعب لا تتوفر له أرض يقيم عليها دولته. غير أن المقصود من هذا الشعار، والأكثر منطقية، هو النية المبيتة والرامية إلى إفراغ فلسطين من سكانها، لصالح الجماعات اليهودية المستجلبة إليها. لذلك، عمد الصهاينة إلى اقتراف الجرائم لإجبار المواطنين الفلسطينيين إلى ترك أرضهم، ليحل محلهم المستوطنون الجدد.

وإذا أمعنا النظر في ذلك الشعار، فسنجد أنه لا يصب فعلياً لمصلحة إسرائيل، حيث إن مؤسسيها يعترفون أنها شعب بلا أرض، وبالتالي يجب البحث عن أصحاب الأرض، لنجد الفلسطينيين أمامنا، الشعب الذي كان يجب أن يخلي وطنه كي يحل مكانه شعب آخر تجري صناعته من مستقدين من كل أطراف المعمورة. وهذا ما تمّ العمل عليه، حيث سعى مؤسسو الكيان الصهيوني منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى التسلل إلى أرض فلسطين، حيث اعتمدوا للاستحواذ على الأرض على وسيلتين: الأولى محاولة شراء الأراضي بتقديم إغراءات مادية كبيرة، استجاب لها من ليسوا فلسطينيين، أو محاولة انتزاعها والاستيلاء عليها بالتهجير القسري، أو ارتكاب الجرائم، أو التقتيل الممنهج، أو المضايقات بارتكاب جرائم ضد القيم الإنسانية. وهذه السياسة التي سلكتها العصابات المتسللة، أو القادمون تحت عناوين مختلفة، لا زالت قائمة منذ أجيال، وهي تنفذ اليوم في أبشع صورها في قطاع غزة والضفة الغربية، حيث لا يتم التخلص من البشر بشكل فردي وإبادة جماعية، بل يتم مسح كل المعالم التاريخية والتراثية، والمؤسسات التي تساعد على العيش، وتحويل المدن إلى مساحات غير قابلة لاستقبال الأحياء، ليكون كل ذلك

شاهدا واقعيًا وحيا على حقيقة ما تعرض له الشعب الفلسطيني من جرائم غير مسبوقة في التاريخ.

ج- بالنسبة للركن الثالث، أي الجهة أو الجماعة التي تمثل الشعب، فهي عادة تنبثق من ذلك الشعب، الذي يرضى بأن تتصرف باسمه لتحقيق تطلعاته. الغريب أن هذا الركن بالنسبة لإسرائيل قد كانت له الأسبقية على تكوين الشعب اليهودي في فلسطين، فقد ظهر منظرو الدولة الصهيونية ذات القومية اليهودية خارج فلسطين، وقاموا بتجميع اليهود من شتى أصقاع الأرض، وراحوا يرسلونهم إلى فلسطين بمعاونة قوى الاستعمار العالمي، وخاصة فرنسا وبريطانيا، ثم تبنت ذلك الولايات المتحدة فيما بعد، كي يصنعوا شعبا يهوديا في فلسطين.

وهكذا نرى أن الأركان السياسية الثلاثة اللازمة لإقامة دولة في نظر القانون، ليست متوفرة بالشكل المطلوب بالنسبة للكيان الصهيوني، فالشعب فيما سمي دولة إسرائيل هو تجميع لعناصر أجنبية، تنتمي إلى أوطان مختلفة، ولم تعرف أرض فلسطين من قبل، ولا تنتمي إليها، ولا تمتلكها، لذلك كان شعار أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، والذي هدف إلى إفراغ الأرض من سكانها والاستيلاء عليها، وملئها بالمستوطنات، كل ذلك دُبر في الخارج من قبل عصابة أو عصابة، كُوّنت لتمثل شعب لم يكن موجودا، فتّم العمل على إيجاده، واستجلابه بالسفن والطائرات، إلى أرض أسموها أرض الميعاد.

بعد صناعة الأركان المادية لما سمي دولة إسرائيل، لم يكن صعبا توفير الأركان القانونية، خاصة في ظل مؤامرة حيكت خيوطها في الخارج على أعلى

المستويات، من قبل قوى مهيمنة على القرار الدولي، حيث أقدمت الأمم المتحدة على تبني القرار ١٨١ القاضي بتقسيم فلسطين بين الفلسطينيين (الشعب الأصلي) وبين اليهود القادمين من الخارج، رغم رفض الشعب الفلسطيني لذلك، والذي تمّ تجاهل حقه في تقرير المصير، وقُبِلت إسرائيل كدولة عضو في الأمم المتحدة، تحت شرط الالتزام بقواعد القانون الدولي بشكل عام، وعلى رأسها الامتناع عن العدوان، والالتزام بالقرارات الدولية بشكل خاص، وعلى رأس ذلك القرار ٩٤ القاضي بعودة الفلسطينيين المهجّرين قسراً، إلى ديارهم. ورغم أن الدولة الصهيونية لم تلتزم لا بالقواعد القانونية العامة ولا الخاصة، فلم تعاقب، ولم يتم طردها من الأمم المتحدة كما كان ينبغي، وكما اشترط قرار قبول عضويتها في المنظمة الدولية.

٢- كيف تصرفت الدولة الصهيونية بعد قيامها؟

أعطى الاعتراف الدولي للكيان المحتل وضعية الدولة كاملة السيادة على الأرض الفلسطينية، بينما لم تولد الدولة الفلسطينية، حيث رفض الفلسطينيون من جهة، تقاسم بلادهم مع محتلين أجنب، ومن جهة ثانية، وقفت إسرائيل عائقاً في وجه قيام دولة لهم وفقاً لقرار التقسيم، بفعل استمرارها بالعدوان، بهدف التوسع وصولاً إلى المخطط الأساسي، القاضي بإقامة دولة صهيونية يهودية بين النهر والبحر، تحت شعار العودة إلى أرض الميعاد، مع ما يحمل هذا الشعار من كلام ليس له علاقة بالقانون. لقد بنوا قوميتهم على أساس ديني عنصري، ما يقودهم إلى رفض أي عنصر لا يتوفر فيه شرط الدين، لذلك تسعى إسرائيل اليوم للتخلص، ليس فقط من الفلسطينيين الباقين

على قسم ضئيل من أرضهم التاريخية، بل أيضا من الفلسطينيين العرب الذين هم اليوم مواطنون إسرائيليون. ورغم ذلك، ورغم اعتراف ١٦٣ دولة من أصل ١٩٣ من أعضاء الأمم المتحدة، فإن ما سمي دولة إسرائيل كانت متيقنة من عدم شرعيتها، لذلك استندت إلى الدين من جهة والاضطهاد من جهة ثانية، كي تبرر سرقته للتاريخ والجغرافية اللتان تعودان إلى الشعب الفلسطيني؛ كذلك لم تشعر بالأمن، وفي ذلك معها حق، فكل المحيط العربي والإسلامي وأحرار العالم معادي لقيامها، لذلك قابل شرط الانسحاب من الأراضي التي تمّ احتلالها من قبل العدو في العام ١٩٦٧، مطلب الحدود المستقرة والأمنة. كان ذلك يتطلب اعترافا بالدولة الصهيونية من قبل الدول العربية، وخاصة الفلسطينيين، وهذا ما حصل مع بعض الأنظمة ابتداء من العام ١٩٧٩، مع اتفاقية كامب دافيد مع مصر أكبر الدول العربية سكانا، واعتراف الأردن، ثم اعتراف السلطة الفلسطينية نفسها، فإن ذلك لم يطمئن إسرائيل إلى مصيرها، وهذا سببه قيامها على أساس غير شرعي، وقادتها ومواطنوها يعرفون ذلك، فأصبح وضعها النفسي كوضع اللص.

كانت موجة التطبيع التي حصل عليها الكيان الإسرائيلي من قبل أنظمة عربية، في العام ٢٠٢٠م، واعتراف الإدارة الأميركية بالقدس عاصمة نهائية للدولة اليهودية، مبعث اطمئنان أكثر من أي وقت مضى، ما جعلها ترى أن حدودها المنتظرة من البحر إلى النهر أصبحت قاب قوسين أو أدنى، ولم يعد يتهدها سوى المقاومة على الحدود الشمالية، وقد سعت للتطبيع مع لبنان من خلال اتفاقية الحدود البحرية، في حين كانت مطمئنة لوضع غزة، وتفرغ للصفقة والقدس، وظلت وخارطة فلسطين الخالية من الفلسطينيين حاضرة على طاولة النقاش، بانتظار الفرصة، حتى أتاه «طوفان الأقصى»

الذي قلب الموازين كلها، ولكنه أعطى في الوقت ذاته الفرصة المنتظرة للسلطة الصهيونية قد تنفذ خططها الرامية إلى التخلص من كل احتمال لقيام دولة فلسطينية في أي جزء على الأرض الفلسطينية، وبدأت أكبر المجازر التي عرفها التاريخ ضد الشعب الفلسطيني في غزة، دون أن يتوقف القتل الممنهج في الضفة الغربية في الوقت ذاته.

أردنا إيراد هذه المقدمة، كي نوضح طبيعة الدولة الصهيونية في فلسطين، وهي وفقا للتوصيف القانوني دولة احتلال استيطاني إحلالي عنصري، لا تشبه الدولة الطبيعية^(١)، وأن نوصف طبيعة نظامها الإجرامي العنصري، العدواني، قبل الغوص في مواقف المفكرين، مما يرتكب اليوم من جرائم على أرض غزة، وأرض فلسطين بشكل عام، ولنبين عدم صحة الأساس الذي تقوم عليه دولة الاحتلال، وبالتالي، انعدام حقها في الدفاع عن نفسها بفعل واقعها، وهو التبرير الذي يستند إليه من يساندها، كما ترفعه دولة الاحتلال في وجه كل من ينتقد الجرائم التي ترتكبها ضد شعب فلسطين الأصلي والحقيقي.

ثانيا: المفكرون الغربيون والقضية الفلسطينية

بناء عليه، سنحاول تناول مواقف المفكرين الغربيين من قضية الشعب الفلسطيني المحقة والمأساوية، وذلك من خلال الإجابة على الأسئلة التالية:

أ- ما الذي يؤثر في صناعة الرأي والمواقف بشكل عام؟

(١) فيما يتعلق بوضعية الدولة القانونية، نحيلكم إلى أحلام بيضون في «إشكالية السيادة والدولة»، الجزء الأول، والفصل التمهيدي، مطابع بيضون، 2008م، كذلك فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، في الجزء الثاني، الفصل الأول.

ب- كيف استغلت الصهيونية الهولوكوست في سبيل اتهام أي منتقد لجرائمها باللاسامية؟

ج- ما الذي يجعل مفكرا يقف إلى جانب دولة معينة، وهو يعلم أنها معتدية وتنتهك حقوق الإنسان؟

د- كيف يمكن لمفكر أن يبرر مواقفه مع الباطل، في حين ملأ صفحاته بالتنظير للعلاقات الإنسانية؟

هـ- كيف يمكن التصدي لمواقف أولئك المفكرين، المؤثرين في صناعة الرأي العام؟

و- كيف تترأى لنا نهاية الاستعمار الاستيطاني الإحلالي الصهيوني العنصري في منطقة الشرق الأوسط؟

سنحاول جمع هذه الأسئلة، ونجيب عليها تحت عنوانين، الأول يتضمن كيف عمل الصهاينة على بناء رأي عام مساند لهم؛ والثاني يتطرق إلى كيفية التصدي لذلك.

١ - كيف عمل الصهاينة على بناء رأي عام مساند لهم

ستوضح لنا الإجابة على الأسئلة المطروحة، كيف تمكنت الدولة الصهيونية المصطنعة، أن تبني رأياً مسانداً لها، رغم عدم شرعيتها كدولة، كما بيّنا سابقاً، وسنرى كم ركّز العدو على الإعلام، وعلى آلة الاستخبارات، وكيف تحكم من خلال شبكاته الخارجية والمالية من تمرير دعايته التضليلية^(١).

(١) حول موضوع الإعلام والتطور الذي حصل، انظر أحلام بيضون: «التطور التكنولوجي وتأثير ذلك في وسائل الإعلام»، موقع الجامعة اللبنانية، (droit2).

- ما الذي يؤثر في صناعة الرأي والمواقف بشكل عام؟

يسيطر على كبرى وكالات الأنباء العالمية شخصيات أو مجموعات مساندة للكيان الصهيوني، حيث تقلب الوقائع، وتصور الكيان على أنه كيان صاحب حق، محاط بأعداء يريدون القضاء عليه، وهو يعيش في أرض خصه الله بها، فتمكن بعد قرون من العودة إليها، بعد أن تعرض للتمييز والاضطهاد، ولمحاولات إبادة على يد النازية، وذهب الآلاف من اليهود في محارق الهولوكوست، وتمكن الناجون من العودة إلى أرض الميعاد أي فلسطين.

في المقابل، كان الإعلام الذي يمتلكه العرب ضعيفا، ولا يصل باللغات التي تمكن الشعوب الغربية خاصة، من الاطلاع على حقيقة الأمور. غير أن وصول الأجيال العربية، وخاصة الفلسطينيين، إلى مراتب متقدمة من العلم، ونتيجة لإقامتهم في البلدان الغربية والتواصل مع تلك المجتمعات، فقد تمكنوا من إيصال صوتهم. وتبقى النقلة النوعية التي حصلت بسبب التطور العلمي الهائل لوسائل الإعلام ووسائل التواصل الاجتماعي، هي المساعد الأساسي لنشر الوعي حول قضية الشعب الفلسطيني لدى الشعوب الغربية، فقد أتاح البث الحي، وصحافة الموبيل بنقل الوقائع مباشرة، ولعبت الترجمة دورا هاما في ذلك.

غير أن تغير الرأي العام لدى الشعوب، رغم أهميته، لم يتمكن بعد من التأثير المطلوب على مراكز القرار التي لا زالت تحدم الكيان الصهيوني، ليس حبا به، بل لأنها ترى في وجوده في قلب عالم غني بالثروات، وفي منطقة استراتيجية هامة، ما يخدم مصالحها هي بالذات، ويمكنها بالاستمرار بالهيمنة واستغلال ثروات الشعوب^(١).

- كيف استغلت الصهيونية الهولوكوست في سبيل اتهام أي منتقد لجرائمها باللاسامية؟

يؤثر المفكرون الغربيون الكلام عن العُقد، فهناك عقدة أوديب، ومتلازمة ستوكهولم، وغيرها، ولكن الأهم منها جميعا هي عقدة الهولوكوست، ومرادفتها معاداة السامية، والتي استغلتها الصهيونية أيا استغلال.

لقد تشكلت بروباغاندا كبرى حول جرائم النازية، والتي نتجت ورافقت انتصار أعداء الهتليرية، عقدة ذنب عند البعض، وقد تجاوزت ذلك لتصبح عقدة خوف، بعد أن ارتبطت بالعنصرية أو اللاسامية، وتحولت إلى فوبيا اللاسامية، نتيجة للتهديد الذي يتعرض له كل من يقارب أي موضوع يتعلق بالصهيونية أو يعبر عن رأيه في أمر يتعلق بالكيان الصهيوني، أو ممارساته العدوانية والإجرامية، وصولا إلى ملاحقة المنتقدين وهدر دمائهم.

- ما الذي يجعل مفكرا يقف مع دولة معينة وهو يعلم أنها معتدية وتنتهك حقوق الإنسان؟

إذا كان تأثر الرأي العام الشعبي بما ينقل إليه أمرا عاديا، فإن ما هو غير عادي أن نرى مفكرا مطلعاً على حقيقة الأمور، يتخذ موقفا يتناقض مع مبادئ الحق والعدالة، فما الذي يجعل مفكرا يتخذ مثل ذلك الموقف؟

يرتبط خطاب النخب بعدة عوامل منها:

- المصالح الخاصة، حيث أنها تدفع البعض إلى التخلي عن القيم أو عن البحث عن الحقيقة، والقبول أو الدفاع عن مواقف، وهو يعلم أنها

غير أخلاقية، أو غير قانونية، أو غير إنسانية، فإنما تفعل النخب ذلك للحصول على مكاسب شخصية، ربما تكون مالية أو مراكز مرموقة، أو جوائز عالمية.

- ترسُّخ روايات تضليلية في ذهن بعض النخب، بفعل النشأة، وعدم بذل جهد لمعرفة الحقيقة، التي هي بعيدة عن الرواية التي يتم تناقلها.
 - عدم الاهتمام بمعرفة بقية العالم خارج حدود البلد الأم، المتمتع بالرفاه والتطور، والاعتقاد بفوقية الغرب، وهو ينسب ذلك إلى العرق، مدفوعاً بميول عنصرية، وعدم الاعتراف بأن ما يحصل عليه الغرب كان بما جناه من موارد الشعوب الأخرى، وما ارتكز عليه من مصادر حضارتهم.
- وهذا الوضع هو الذي يجعله يتخذ موقفاً إلى جانب كيان يعرف أنه معتدي، لاعتقاده بأنه يشبهه، أو أنه سينفعه، ولا يمكن أن يكون بذلك إلى جانب الحق إلا إذا كان موضوعياً متجرداً من الأنانية والمصالح الشخصية والفئوية، غير متحيز لجنسه أو لونه أو عرقه، ما يجعله يدافع عن من يشبهه.
- كيف يمكن لمفكر أن يبرر مواقفه مع الباطل، في حين ملأ صفحاته بالتنظير للعلاقات الإنسانية؟

نحن بصدد حالتين: إما مفكر واضح التفكير والمواقف، وهو يقف الموقف الخطأ ويدافع عنه بشراسة، أو مفكر قد بنى كتاباته على أفكار مثالية، ثم فجأة انقلب عليها، أو انقلب على نفسه، مما يثير دهشة العارفين، وهي حالة هابرماس بموقفه الأخير مما تركبه آلة الحرب الصهيونية من إجرام ضد الشعب الفلسطيني. وهنا، لا تفسير لموقفه، إلا انحيازه دون تفكير هذه المرة إلى الجانب الخطأ مدفوعاً بعواطف تربطه بالجهة التي يساندها.

غير أن المفكر ليس كالإنسان العادي، وهو مضطر للإجابة عن مواقفه لقرائه وللرأي العام. قد يجد المفكر مبررات لمواقفه، ولكنه قد يفقد ثقة المقتنعين به حين يقع في تناقض بين ما نظّر له سنين طويلة، وبين ما ساندته وراح يبحث له عن مبررات. الأفضل في مثل هذه الحالات للمفكر أن يعتذر عما صدر منه من مواقف غير منتظرة أو أن يعتذر عن نظرياته السابقة التي ظن نفسه مقتنعا بها، ثم وجد أنه لا زال يعيش داخل نطاق الاعتبارات الفئوية والنفسية، ما يشكل حالات مرضية غير سوية.

٢ - مسؤولية المفكر ومسؤوليتنا في التصدي لآلة الكذب الإسرائيلية؟

بقي العرب زمنا طويلا مؤمنين بأن حلا عادلا بشأن القضية الفلسطينية، ممكن أن تحمله لهم الأمم المتحدة والقوى الكبرى، خاصة الولايات المتحدة، واستسلمت الأنظمة لهيمنتها، متنازلة عن قضايا شعوبها، مؤثرة لنفسها البقاء في السلطة، التي لا يمكنها البقاء فيها دون الحماية الأجنبية، حسب تقديرها، ففضلت ذلك مسألة إرضاء شعوبها، لعدم استعدادها لتطبيق العدالة والحرية.

أهملت الشعوب العربية من جهتها، العمل على التأثير في الرأي العام العالمي، وذلك لعدم إدراكها لأهمية الإعلام، وضرورة إيصال صوتها إلى خارج نطاق حدودها، أو لعدم قدرتها، حيث بقيت المسائل محصورة ضمن المجتمعات العربية، المحاصرة من قبل الدول الكبرى التي ترعى مصالح دولة الاحتلال. بينما كان لا بد من العمل الدؤوب للوقوف في وجه آلة الإعلام الصهيوني المضلل. ولكن إذا كان الإعلام هو الوسيلة الأساسية

للتأثير بالرأي العام العالمي، فهل ذلك يؤتي أكله بالنسبة للمفكرين، الذين لا يمكن أن تحفى عنهم الحقيقة؟ لذلك نحتاج إلى نطاق محاجة أوسع بالنسبة لهؤلاء، يتعلق بتباين موقفهم مع المبادئ القانونية والإنسانية العامة. وفي المحصلة، لا بد من اللجوء إلى كل الوسائل الممكنة في سبيل التخلص من جريمة الاستيطان الإحلالي العنصري في منطقتنا.

- القواعد الإنسانية وتحديد مسؤولية المفكر

إن أول سؤال سنطرحه هنا، هو حول موضوع الحرية، أي هل أن من حق شخص أن يتضرع بحرية الرأي فيما يتعلق بموقفه ضد قضية عادلة، كقضية الشعب الفلسطيني؟ أو هل إن الموقف ضد قضية عادلة يجب أن يعتبر من ضمن حرية الرأي؟ الجواب أن مسألة العدالة لا تخضع للمزاج وحرية الرأي، بل أن ميزانها يعتمد على الوقائع ومدى تطابق تلك الوقائع مع مبادئ القانون والمبادئ الإنسانية العليا.

فالاختيار بين القاتل والضحية، ليس مسألة رأي بل مسألة عدالة، كذلك الاختيار بين المعتدي والمعتدى عليه، ليست مسألة رأي بل مسألة عدالة. وكلا المسألتين، أي الفردية (مستوى الفرد) والجماعية (مستوى الشعب أو الدول)، توجد لها قواعد توصفها وتحميها، ويجب الاستناد إلى تلك القواعد، ومحاربة انتهاكها.

فإذا تسنى لشخص أن يتعرف على قضية، ويتبين حقيقتها، فلا يجوز له أن يزور الوقائع كي يتخذ موقفا مع الباطل ضد الحق، تحت مسمى حرية الرأي؟ كذلك ليس مسموحاً لشخص أو لجهة معينة أن تقف مع كيان معتدي، وقد تبين له أو لها تصرفه الإجرامي ضد قضية محقة، وشعب معرض جهازاً لكل

أنواع الجرائم. وإذا كان الشخص مدركا لحقيقة الأساس الذي بنى عليه موقفه، كيف تكون مسؤوليته القانونية، أو على الأقل الأخلاقية؟

ستكون مجموعة الأسئلة والإيضاحات التي وردت هنا بساطا للبحث في مدى المغالطات التي يمكن أن يقع فيها المفكر، متجاوزا كل الطروحات التي تتكلم عن العدالة وحقوق الإنسان وحق الشعوب في تقرير المصير، وصولا إلى الخلط بين العدوان والدفاع عن النفس، أو بين العمل المقاوم والعمل الإرهابي، وسنرى كيف أن كل المثاليات التي بنى عليها ميثاق الأمم المتحدة، الذي كان يؤمل أن يكون أساسا لحفظ الأمن والسلم الدوليين، كانت تذهب أدراج الرياح في كل مرة، حاذت المسائل عتبة المصالح العليا الذاتية للدولة المهيمنة، وكيف أن قانون القوة مسخ قانون العدالة وجعله هباء منثورا.

أثار موقف هابرماس من العدوان الذي أعقب عملية ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، ضد غزة بشكل رئيسي، وضد الشعب الفلسطيني بشكل عام، حفيظة المراقبين والمحللين الكبار، وذلك لما عرف عن تلك الشخصية من فكر ملتزم بالقضايا الإنسانية، فكان مدهشا أن ينقلب بعد عمره المديد على نظريته ومبادئه الديمقراطية، ويقف مع عدوان يتمثل بأبشع صوره من جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وجرائم إبادة جماعية، على رأس ضحاياها الأطفال والنساء، حيث تقوم قوى الاحتلال بتدمير ممنهج لكل ما يساعد على الحياة في القطاع، ولا تخفي ذلك، فقد أعلن المسؤولون الإسرائيليون نواياهم على الملاء، فهم يريدون ليس فقط القضاء على حماس، بل أيضا يريدون طرد أهل غزة إلى خارج الحدود، بأي كيفية كانت، المهم استكمال خطة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض.

وقبل أن نكمل هذا الموضوع، لا بد من لفت الانتباه إلى أن حالة هابرماس وغيره من المفكرين الغربيين الذين يساندون دولة الاحتلال، ذات النظام العنصري، لا يجوز أن تجرنا إلى التعميم، فهناك كبار المفكرين الذين وقفوا دون تحفظ، يدافعون عن حقوق الشعب الفلسطيني. فقد وقف إلى جانب حق الشعب الفلسطيني في أرضه، وفي الحرية وتقرير المصير، كثير بما فيهم يهود منهم: سارتر، بنيامين فريدمان، شلومو سندن، ألان بابيه، إسرائيل شاحاك، مكسيم شافتشينكو، جورج غالاوي، روجيه جارودي، بالإضافة إلى العشرات غيرهم، منهم حاخامات يهود، كذلك هناك فقهاء ورجال قانون غربيون من أكبر المدافعين عن حقوق الشعوب، وبالأخص حقوق الشعب الفلسطيني، ويطلق عليهم تسمية مفكري العالم الثالث. ممكن أن نذكر منهم ميشال فيرالي وجون سلمون وأريك دافيد وموريس فلوري وبيرسون ماتي وغيرهم كثير. لكن في المقابل، هناك من يدعم الكيان الصهيوني، والمواقف تختلف باختلاف الانتماء السياسي، حيث يدافع عن إسرائيل، تحت حجة حقها في الوجود، عدة مفكرين، متأثرين بالبروباغندا الصهيونية. أغلب هؤلاء هم منظرون سياسيون أكثر منهم مفكرون. لذلك لاقى موقف هابرماس، وهو فيلسوف شهير، الاستغراب كونه من كبار المنظرين للعلاقات الإنسانية، حيث ينتمي إلى مدرسة فرنكفورت الاجتماعية، وصاحب نظرية العمل التواصلي، والذي يعتبر أن الحداثة مشروعاً لم يكتمل، فقط يجب تقويمها وعقلنتها من خلال تأسيس معايير أخلاقية، تضبط عمليات العقلنة تلك، وتأسس تلك المعايير على اعتبارات التواصل والاعتراف بالآخر.

وإذا وضعنا المفكر جانبا، وتناولنا المؤثرين بمصير الشعوب، نقصد المسؤولين، أي من ييدهم القرار

سواء كان السياسي أو المالي، أو الاقتصادي أو الإعلامي، بشكل أساسي، باختصار، من يمتلك القوة

لفرض أجندته على الآخرين، فإن السؤال يطرح كيف أن قادة العالم المسمى متحضر، قد وضعوا مبادئ عالمية لفرض الأمن والسلام على مستوى العالم، ثم انقلبوا عليها! كيف كرّسوا في ميثاقهم الذي أسموه ميثاق الأمم المتحدة حق الشعوب بتقرير المصير، وضرورة حماية حقوق الإنسان، وحرّموا الحروب، وفرضوا معاقبة المعتدي بتكريس مبدأ الدفاع الشرعي المشترك عن النفس، وكيف راحوا يطبقون تلك المبادئ بشكل استنسابي، ولا ينجحون من مواقفهم تلك، خاصة حين يقلبون الحقائق، ويصفون المقاومة بالإرهاب، والدفاع عن النفس بالعدوان، والعدوان دفاعاً عن النفس، وكيف يحمون الجرائم حتى أفضعها، ويقفون متفرجين على ارتكابها، ويصل بهم الأمر إلى مساندة مرتكبيها، ومدّهم بجميع الوسائل بما فيها الأسلحة والمال للاستمرار بإجرامهم! وكيف أنهم يجرمون النظام العنصري في النصوص الدولية، ويتغاضون عنه في التطبيق! وكيف يؤسسون الهيئات السياسية أو القضائية الدولية ويعطلونها بمنعها من ممارسة عملها! وكيف يستخفون بالقرارات الدولية حين تعالج الأوضاع بموضوعة، ويهملونها إذا لم تتطابق مع مصالحهم ووجهات نظرهم! وكيف يرفعون أيديهم بالفتو دون حياء، ضد قرارات تدعو لوقف العدوان، رغم أن ذلك يشكل تهديدا للأمن والسلم الدوليين، ورغم أنه يتمثل بارتكاب أبشع أنواع الإجرام!

رغم كل النظريات التي وضعها المفكرون كي تحكم العلاقات الدولية، وتضع حدا للتعسف بين الدول، وتخلق مجتمعا دوليا مسالما متطورا ومزدهرا،

وتبناها القادة والسياسيون في ميثاق الأمم المتحدة، وادعوا أنهم سيعملون على تطبيقها، فإن نظرية القوة هي التي غلبت في التطبيق في نهاية المطاف.

لقد استغل الغرب نص المواثيق الدولية التي وضعت لمنع الحروب ونشر السلام الدولي، خاصة صك عصبة الأمم، بعد الحرب العالمية الأولى، وميثاق الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، كحل لتجاوز مرحلتين من أبشع ما عرفه التاريخ، حيث اتصفتا بالهمجية وجرائم الحرب وجرائم ضد الإنسانية، وجرائم الإبادة والتهجير بالقوة للسكان (ترانسفير) والمجاعة، والاستيلاء على الأوطان، بشكل بشع، متجاوزين روح النصوص، وحتى حرفيتها، بسبب سعي كل قوة إلى الاستحواذ على موارد العالم، عن طريق الاستيلاء على المناطق الاستراتيجية والغنية فيه، والهيمنة على القرار الدولي في سبيل ذلك.

لقد مثل موقف الغرب المخزي في تعطيل الآليات الدولية لاتخاذ قرار بوقف إطلاق النار لوقف العدوان الهمجي على الشعب الفلسطيني في غزة المحاصرة في العام ٢٠٢٣، أبشع أنواع العدوان، كون الإدارة الأميركية أصبحت شريكة فيه، متتهكة بذلك روح الميثاق، وأهم قواعده، تلك التي تمنع العدوان، وتشكل قاعدة آمرة لا يجوز انتهاكها، (جوس كوجينس).

لقد جعلت الدول الكبرى المهيمنة على العالم من القانون الدولي رغم سموه، كائناً تمسكه بعنقه، حين تريد تعتقه، وحين تريد تلجمه، تحت عناوين مختلفة بعيدة عن المنطق، ومتماشية مع ما تعتبره تلك الدول مصالحها العليا، في لعبة تنافسية همجية، وغير أخلاقية للهيمنة على العالم، والاستيلاء على مقدراته. وقد تجلّى ذلك بأبشع صورته حين يتعلق الأمر بإسرائيل، حيث تقلب المعادلات، وتحرف القواعد، فيصبح شرعياً أن تُرتكب كل أنواع

الجرائم الدولية، ضمن إطار عدوان همجي مستمر، يخرج عن أي توصيف للحرب، كونه لا يتعلق بقوات عسكرية ومعارك متماثلة القدرات أو متناسبة، بل هو عدوان بأبشع صوره ضد سكان مدنيين، أغلب ضحاياه من الأطفال والنساء، مع تدمير ممنهج لكل بنى الخدمات العامة والمؤسسات المدنية، على رأسها المستشفيات والمدارس وأماكن العبادة، والمعالم الأثرية. وكأن العدو، يريد أن يبيد الشعب، ويمحو كل معالم الحضارة التي تدل عليه.

إن المواقف الغربية الداعمة للعدوان الصهيوني، تشكل في الحقيقة دعماً للذات، فالدولة الغربية المساندة للعدوان، إنما هي تدعم نفسها. أليست تلك الدول هي ذاتها من ساعدت على قيام الاحتلال الصهيوني في فلسطين لأسباب كثيرة تخدم مصالحها؟

- كيف يمكن التصدي لمواقف المفكرين، المؤثرين إلى حد كبير في صناعة الرأي العام، وكذلك لإصحاب القرار؟

أمام كل ما تقدم سابقاً، أي تزوير الحقائق، البروباغندا، وانتهاك القانون الدولي، وحالات الإفلات من العقاب تحت تسميات مختلفة، وفوبيا الخوف من الاتهام باللاسامية، وبالتالي بفقدان الوظيفة والملاحقة وصولاً إلى الاغتيال، وأمام هيمنة عصابات المال والاقتصاد العالمية، وتغلغلها في مراكز اتخاذ القرار، واستفادة الكيان الاستعماري الاستيطاني الإحلالي في فلسطين الذي أسموه إسرائيل، كيف يمكن للشعب الفلسطيني، بشكل خاص، وللشعوب العربية بشكل عام، التخلص من العدوان الذي حلّ بهم وبمنطقتهم منذ انحلال الإمبراطورية العثمانية؟

قبل شرح الوسائل، لا بد من الإقرار بأن ما بني على باطل فهو باطل، فليس من المنطقي القول أن يكون التخلص من النظام العنصري الصهيوني هو أمر غير واقعي، أو غير ممكن، ذلك أن للشعب الفلسطيني الحق الكامل في

استرجاع حقوقه على أرض وطنه الذي اغتصب منه عنوة وظلماً. ويكون ذلك بإقامة دولة طبيعية ذات نظام ديمقراطي فعلي عادل، يعيش فيه كل أبنائه على قدم المساواة، دون أي تمييز بين أبنائه مهما كان، ويكون الأساس في كل ذلك استفتاء الشعب الفلسطيني الأصلي، وليس العناصر الأجنبية التي أتت تستعمره. ومع ذلك، فإن عودة المستعمرين إلى بلادهم الأصلية تبقى خياراً. على ضوء ذلك، تتضح الوسائل التي يجب اعتمادها، أو التي يجب أن تساعد في إحقاق الحق، وإعادة الوطن إلى أهله، والتعويض على ما حلّ بهم. في الدفاع عن القضايا المحقة، خاصة قضايا الشعوب، وتحديد قضية الشعب الفلسطيني العادلة، يجب سلوك كل الوسائل المتاحة. فإلى جانب المقاومة المسلحة، والتي هي حق مصان للشعوب الواقعة تحت الاحتلال، وهي التي تُوصف دفاعاً عن النفس، يجب عدم إغفال السبل الباقية، والتي من شأنها أن تساعد في تحقيق الغاية المرجوة، فيما أن قضية الشعب الفلسطيني لا تخضع لإرادته بالذات، وإلا لما كان تعرض للاستعمار، فلا بد من التصدي للقوى الخارجية التي تهيمن على القرار الدولي. وبما أنه لا يمكن التصدي لتلك القوى بالقوة، فلا بد من اعتماد السبل الناعمة والفاعلة، وتختصر بالسبل الإعلامية والقانونية.

- استخدام وسائل التثقيف والإعلام:

إن سيطرة الآلة الصهيونية على وسائل الإعلام على مستوى العالم، وترويج الأكاذيب لإعطاء الشرعية لكيان، يعرف أصحابه أنه غير قانوني وغير شرعي، لا يجب أن تشيننا عن مواجهتها بنفس الأساليب، خاصة بعد أن خفت قوة الوسائل التقليدية، وساعد التطور في التكنولوجيا ووسائل الإعلام في إيجاد السبل المباشرة، للتواصل بين الأشخاص، واتخذت تلك الوسائل صفة الفردية، وتحررت إلى درجة كبيرة من الهيمنة الرأسالية، فلم

يعد بالإمكان شراء الذمم ووكالات الأنباء كما كان في السابق. لقد أصبح بمقدور أي كان أن ينقل الخبر، وبمقدور أي كان أن يطلع عليه. ورغم أنه يجب الحذر في الاعتماد على هذه الوسائل أيضا، خوفا من دس الأخبار الملفقة، فإن الكثرة العددية ستفعل فعلها هنا، بالإضافة إلى كون المسألة

التي يتم الدفاع عنها هي مسألة محقّة، ويسهل الإقناع بها.

ان اعتماد اللغات الأجنبية لمخاطبة الشعوب بلغتها هو ضروري، لذلك أصبحنا نلمس الفرق، حين كثر عندنا الأشخاص الذين يتقنون اللغات الأجنبية، خاصة الإنكليزية، اللغة التي فرضت على العالم بفعل القوة الاقتصادية وأسلوب الهيمنة على الشعوب من قبل أصحابها.

غير أن نقل الخبر والحقائق، والمشاهد، إن كان يكفي للتأثير بالرأي العام لدى الشعوب، فهو لا يكفي للتأثير على رأي المفكر، الذي يفترض أنه يعرف الحقيقة، ومع ذلك يقف مناصرا لإسرائيل، وفي ذهنه ما تعرض له اليهود من اضطهاد أو محاولة إبادة. بالنسبة للمفكر لا بد من بذل جهد أكبر، والتوجه إليه بمنطق الأمور، وبالوثائق والإقناع. ورغم أن المفكرين الداعمين للكيان الصهيوني ليسوا بالكثرة التي نتخيلها، لحسن الحظ، خاصة في الفترة الأخيرة، فإن بذل الجهد في سبيل تغيير رأي مفكر واحد له أهميته، نظرا لموقعه، ولقوة تأثير الرأي العام بما يقوله، حيث له جمهور يتابعه ويتأثر به، كما أن بإمكانه أن يأتي بالحجج والمبررات التي تدعم موقفه، حتى لو كان على باطل. لذلك لا بد من أجل التصدي لأفكار المفكر المضللة، من التزوّد بالثقافة اللازمة التي تمكن من دحض مواقفه، وتحملته المسؤولية. وكما أن إقناع المفكر هو غاية في الأهمية، فإن الإقناع الذي يأتي من مفكر هو غاية في الأهمية أيضا، خاصة إذا كان المفكر ينتمي إلى الخصم من حيث اللغة أو الدين أو الأصل. فلما يصدر عن مفكر يهودي، أو رجل دين

يهودي، أو رجل سياسة إسرائيلي يقنع أكثر مما يصدر عن مفكر عربي. ولقد كثر أصحاب الضمير، أو من تحرروا من عقدة الخوف على هذا المستوى، وانتشرت أقوالهم وكتاباتهم التي تفضح حقيقة ما دبر للشعب الفلسطيني، وحقيقة قيام الكيان الصهيوني، وتزييف التاريخ والوقائع والحقوق، وأصبحوا يعبرون عن رأيهم بكل شجاعة، رغم أنهم يعرفون ما يهددهم^(١). إن أهمية الوسيلة الإعلامية لا تقل عن غيرها من وسائل النضال، خاصة وأن الرأي العام يؤثر في مراكز القرار في البلدان التي تدعي الديمقراطية، والتي يخشى حكامها من خسارة أصوات المنتخبين، أو من المحاسبة والمقاضاة. لقد مضت سنوات ونحن نؤكد على تلك الوسائل، وأهمية شرح حقيقة القضية الفلسطينية لمراكز القرار وللشعوب الغربية بلغاتها، والتميز بين ما يجب أن تعلمه الشعوب العربية، وبين ما يجب أن ينقل إلى شعوب العالم. لقد وفر طوفان غزة أو «طوفان الأقصى» الكثير على هذا الصعيد، فقد تمكنت الشعوب من معرفة حقيقة ما يتعرض له الشعب الفلسطيني،

(١) ولنا أمثلة في ذلك، انظر مثلاً :

بخصوص المفكرين والفقهاء المذكورة أسماؤهم أعلاه، نكتفي على سبيل المثال، بذكر: أيلان بابيه، «أكبر سجن على الأرض»، ترجمة أدونيس سالم، مؤسسة نوفل، تاريخ 2020، هاشيت أنطوان، لبنان، 2020، النسخة الإنكليزية 2017؛

Mico Peled -(Rumble.com/v42lewt-Israel is finished.html

غارودي، «الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية»، ١٩٩٦. شلومو ساند، «اختراع الشعب اليهودي»، (٤١٨ ص)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٧، ط. ٢٠١١.

جون سلومون، Jean Salomon، أستاذ القانون الدولي ورئيس مركز القانون الدولي في جامعة بروكسل الحرة، (١٩٣٢-٢٠٢٢)، إريك دافيد، Eric David، أستاذ القانون الدولي في جامعي بروكسل الحرة، (١٩٤٣-٢٠٢٣). دافع بمهنية كبيرة عن حقوق الشعب الفلسطيني.

وطبيعة الكيان الصهيوني، وأدركت أن كل ما كان يتم إيصاله لها من معلومات هو كذب. وقد كان الثمن الذي دفعه الشعب الفلسطيني باهظا لسوء الحظ. لقد كانت وسائل التواصل الاجتماعي، هي الوسائل الأساسية في نقل الصور الحقيقية عن مظلومية الشعب الفلسطيني، وعن طغيان وإجرام وعنصرية الكيان الصهيوني.

لقد حركت الجرائم المرتكبة ضد الشعب الفلسطيني، في غزة بشكل خاص وفي الضفة الغربية والقدس، بشكل عام، الضمير العالمي، وغيرت الرأي العالم خاصة لدى الشعوب، حيث تدافعت معبرة عن ذلك بمظاهرات تشكلت من ألوف مؤلفة. إن ردة فعل الشعوب على ما يحصل في غزة، ذات أهمية كبيرة، خاصة في تلك البلدان التي تدعي الديموقراطية، حيث يخاف قادتها من خسران السلطة عن طريق خسران الانتخابات.

أثرت المجازر في غزة أيضا في مواقف قادة الدول، فبدأت الكثير من الدول التي كانت سابقا تتسم مواقفها بمسايرة الصهاينة، أو أقله بالحياد، تتخذ مواقف تدين الجرائم، وترفع الصوت عاليا بالمطالبة بحق الشعب الفلسطيني بتقرير المصير على أرضه.

- الوسائل القانونية

كما يجب اللجوء إلى الوسائل القانونية والقضائية لمواجهة الجرائم التي يرتكبها العدو، فإنه بالإمكان بل من الواجب، اللجوء إلى الوسائل القانونية والقضائية لمداعاة أي مفكر يدافع عن جرائم الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني، لأنه في ذلك يساعد العدو من خلال الدعم المعنوي، ويصبح محرّضا ومشاركا في ارتكاب جرائمه، ومشجعا له في ممارسته لها، كما ينسب إليه ممارسة التضليل، أي تضليل الرأي العام، وتضليل العدالة. ويمكن مداعاة المفكرين أمام محاكم بلادهم.

إن اعتماد الوسائل القانونية يتطلب عملاً دؤوباً يشمل التوثيق والاختصاص، والمثابرة على اللجوء إلى كل الجهات القانونية والقضائية المعنية وذات الصلاحية، سواء الوطنية أو الدولية، بدعوى تشرح الطبيعة العدوانية للكيان والنظام القائم في فلسطين التاريخية المحتلة، وإثبات حقوق الشعب الفلسطيني العامة والخاصة، بالاعتماد على الجغرافية والتاريخ، وتفنيد حقيقة ذلك الكيان الأجنبي الاستعماري الإحلالي الذي اغتصب الأرض تحت ادعاء أرض الميعاد، حيث تم إدخال الله من قبل عصابة غير مؤمنة، للاستيلاء على تلك المنطقة الاستراتيجية.

لقد شهد هذا العام تحركاً قانونياً وقضائياً غير مسبوق، لهول ما حدث في غزة من جرائم إبادة وجرائم ضد الإنسانية، وهذا ما يعطي كبير أمل في التوصل إلى أحكام تنزل أشد العقاب بمجرمي الحرب الصهاينة وداعميهم.

خلاصة:

أمام هول ما يتعرض له الشعب الفلسطيني من جرائم غير مسبوقة في التاريخ الحديث، لا بد من اعتماد الواقعية والاستناد إلى القانون، والاستفادة من الواقع النفسي للعدو.

فالواقعية تتمثل في إرادة التخلص من ذلك العدوان، ونعني بذلك التخلص من طبيعة الكيان الاستعماري العنصري، ويكون ذلك بالاعتماد على الوسائل القانونية والإعلامية قبل كل شيء، والمقاومة المسلحة حين يقتضي الأمر ذلك. أما المقصد بالواقع النفسي للعدو فيعني، أن العدو يعي هشاشة الأساس القانوني الذي قام عليه كيانه، ويعرف أن الشعب الفلسطيني كان ضحية مؤامرة حيكت في ليل حالك، لذلك هو يوغل في إجرامه، مسبقاً الزمن للقضاء على كل ما يذكر العالم بالشعب الفلسطيني،

ويبذل كل جهد في الترويج لروايته الباطلة حول حقوق لليهود في فلسطين، أو ما يطلق عليه أرض الميعاد، مستندا إلى روايات كاذبة، ولا أساس قانوني لها، فلو كان ما قبل التاريخ هو حجة كافية للاستيلاء على الأرض، لكان اللبنانيون أحق البشر بسواحل المتوسط، حيث كان البحر المتوسط يعتبر بحرا فينيقيا، وحيث كان الفينيقيون يقيمون مستعمراتهم على سواحله.

إن ما نشهده من حركة الشعوب الحرة المناصرة لحقوق الشعب الفلسطيني، والتي تصرخ الحرية لفلسطين، والتي يعلن أفرادها، وتحديدًا مفكروها وناشطوها، بأنهم عرفوا الحقيقة، وعرفوا أن كل ما كان يروج له على يد الحركة الصهيونية وداعميها، ما هو إلا تضليل وكذب، وأنهم لن يخشوا بعد اليوم أن يقفوا مع الحق مهما كان التهديد والتأجيل، يشكل الأمل الباقي للشعب الفلسطيني كي يسترجع وطنه، إلى جانب المقاومة المسلحة، بطبيعة الحال، والملاحقة القضائية لمجرمي الحرب، فلا فائدة من التعويل على الأنظمة، خاصة تلك المتخاذلة، أو تلك التي تسمح بارتكاب أفظع الجرائم، وتكرر ذلك دون عقاب، مشتركة فيها من خلال تعطيل آلية اتخاذ القرار في مجلس الأمن وتطبيقه، والقاضي بوضع حد للعدوان، بالتكافل والتضامن من قبل أعضاء الأمم المتحدة، والتطبيق الفعلي لذلك، وعدم إبقاء القرارات، إذا اتخذت حبرا على ورق.

قضية فلسطين : بين الرومانسية الغربية والعاطفة الانتقائيّة

د. ياسر عبد الحسين^(١)

يقول الفيلسوف الكندي آلان دونو Alain Deneault في كتابه (نظام التفاهة): «إن التافهين قد حسموا المعركة لصالحهم في هذه الأيام، لقد تغير الزمن زمن الحق والقيم، ذلك أن التافهين أمسكوا بكل شيء، بكل تفاهتهم وفسادهم، فعند غياب القيم والمبادئ الراقية، يطفو الفساد المبرمج ذوقاً وأخلاقاً وقيماً، إنه زمن الصعاليك الهابط»، فكيف يمكن أن نبحث عن مشاعرنا السياسية وميولنا الانسانية في قضايا النزاعات وسط هذا الواقع، وفي قمة صيرورة الحداثة الغربية التي تورمت، وتضخم فيها النزعة المادية والاستهلاكية، ناهيك عن سيولة المبادئ الانسانية وتسليعها؟.

من المستحيل الهروب من الانطباع بأن الناس يستخدمون عادة معايير خاطئة للقياس، تقلل من قيمة الحياة الحقيقية، كما يقول سيغموند فرويد Sigmund Freud في حديثه عن الحضارة، فالأفعال والعواطف الجاحمة

(١) أكاديمي ودبلوماسي عراقي.

لا يمكن أن تقتصر على مساحة محددة، بل هي تتجاوز الحدود الأيديولوجية أو الزمكانية، وتظهر المخاوف والقلق والأحكام المسبقة والآمال التي تحرك مواقف وأفعال الدولة نفسها، سواء من كانوا في موقع الحكم أو المعارضة، فعادة ما يوصف أولئك الذين هم خارج الأنظمة السياسية القائمة بأنهم غير عقلانيين أو غاضبين، فإن ما لاحظته العالم فرويد بعد الحرب العالمية الأولى يظل قائماً: (يبدو أن الدول لا تزال تطيع عواطفها بسهولة أكبر بكثير من مصالحها).

إن تعتمد صياغة ما يسمى بصناعة ظروف (الذعر الأخلاقي) التي تطغى على كل الأنظمة العقلانية وغير العقلانية عندما يتم تعريف حادثة أو شخص أو مجموعة على أنها تهديد لقيم أو مصالح اجتماعية معينة، فهي تستحضر خوفاً غير عقلائي أو ظاهرة خارجة عن السيطرة، وبالتالي فإن سياسة العاطفة تهدف إلى تعبئة التأثير لتحقيق أهداف سياسية على المستويات الجماعية والهيكليّة عبر نظام معايير مختلف^(١)، واعتقد أن هذا هو مرض العصر الحالي، لصناعة عدو حقيقي أو وهمي.

تلك المعايير التي بات من الضروري أن لا تقاس بالأبيض والأسود، بل بالألوان الرمادية، كما يرى إدوارد سعيد، على الأقل في القضايا الحاسمة، إذ يقول: (إذا أردت إعلاء شأن العدالة الإنسانية الأساسية فلا بد أن تطبّق ذلك على الجميع، لا أن تقتصر على اختيار أولئك الذين يسمح لك بهم الطرف الذي تنتمي إليه، وتسمح بهم لك ثقافتك أو أمّتك^(٢)).

(1) Diana Taylor, The Politics of Passion, New York University, at: <https://hemisphericinstitute.org/en/emisferica-102/10-2-essays/the-politics-of-passion.html>

(٢) إدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة محمد عناني، مؤسسة الهنداوي، لندن، ٢٠٢٢، ص ٩٥.

لكن هذه المقاييس تشكّل تحدياً كبيراً مع فورة قيم الشعبوية، واختلالات الاشتباك القيمي، ومتلازمة الاضطرابات الهوياتية وعصر الخداع المؤكد، وزمن الإحباطات السائلة.

أصبح الحديث عن الأخلاق ومنظومة القيم جدلاً قابلاً للتنمّر السياسي، مع الدخول إلى عالم متناقض يفقد لروح النقد، الغرابة أنه حتى في العصور التي عاش فيها العالم غياهب الظلم ومعارك التنوير وسباق الجهل وتعطيل العقول، لم يخف الحد الأدنى من الأخلاق السياسية التي أقصد بها في هذا السياق إظهار الاحترام أو الحد الأدنى على الأقل من الاحترام للبشر وقيمه الإنسانية أياً كانت مصادر هويته الداخلية والخارجية، لنكون أمام اختلال ميزان التعاطف العالمي والسياسي مع القضايا العالمية والإقليمية، كما يحصل اليوم في مقارنة الرأي العام العالمي تجاه القضية الفلسطينية، وخصوصاً في حالة عملية طوفان الأقصى ٢٠٢٣ مثلاً، مقارنة بقضية أوكرانيا على سبيل المثال، أو كما حصل في الأزمة السورية وغيرها من القضايا الأخرى مثل العراق وسوريا وأفغانستان وليبيا.

الرومانسية السياسية

الحب والكرهية في السياسة موضوع شائك تتداخل فيه عدة عوامل، قد يقول البعض ان السياسة لا تعترف بالعواطف، وهي تقوم على مدار المصالح حيثما وجدت، لكن بالنتيجة فان السياسة عمل بشري، والبشر هو كيان عاطفي.

كتب مؤسس الواقعية في العلاقات الدولية، العالم هانز مورغنتاو Hans

Morgenthau، في مقال له تحت عنوان Love and Power (الحب والسلطة) يقول: إن الحب والسلطة يتفقان في دافع مشترك هو الهروب من الوحدة، حيث إنّ الحب يسعى إلى عملية لمّ الشمل، من خلال التبادل الاجتماعي التلقائي، بينما تسعى السلطة إلى صناعة الاتحاد، عن طريق أحادي الجانب وليس ثنائياً، كما يحصل في الحب. لكن السلطة غير مرضية تماماً لجانب الرومانسية أو الحميمية التي لا تمنحها إلّا من خلال الوهم أو الخيال، على الإنسان ليس نتيجة حتمية للطبيعة البشرية، بل مجرد ظاهرة سريعة الزوال، نتاج تكوين تاريخي خاص، لا بد أن يختفي مع اختفاء الإنسان، وهذا التكوين وفقاً لماركس، فإن شهوة السلطة ومظاهرها السياسية هي مجرد نتيجة ثانوية للتقسيم الطبقي للمجتمع، في المجتمع اللاتبقي، سيتم استبدال سيطرة الإنسان على الإنسان بإدارة الأشياء. في الفكر الليبرالي، يُنظر إلى سياسات القوة باعتبارها نوعاً من الرجعية، وهي بقايا من عصر الحكم الاستبدادي الأقل استنارة وتحضراً، والذي من المقدر له أن تحل محله مؤسسات وممارسات الديمقراطية الليبرالية، وبينما ينكر العقل الحديث العلاقة الجوهرية بين شهوة السلطة والطبيعة الإنسانية، متجاوزاً كل التشكيلات التاريخية، كما كانت، بل وحتى محدداً لها، فإنه لا يفهم طبيعة الحب على الإطلاق.⁽¹⁾

ولا محيص بأن العقل الغربي عاش وما يزال يعيش أزمة عميقة، لأنه لم يستطع التخلص من تناقضاته ونزعت الكولونيالية الاستشراقية المتعالية،

(1) Hans J. Morgenthau, Love and Power, March 1962, at: <https://www.commentary.org/articles/hans-morgenthau/love-and-power/>

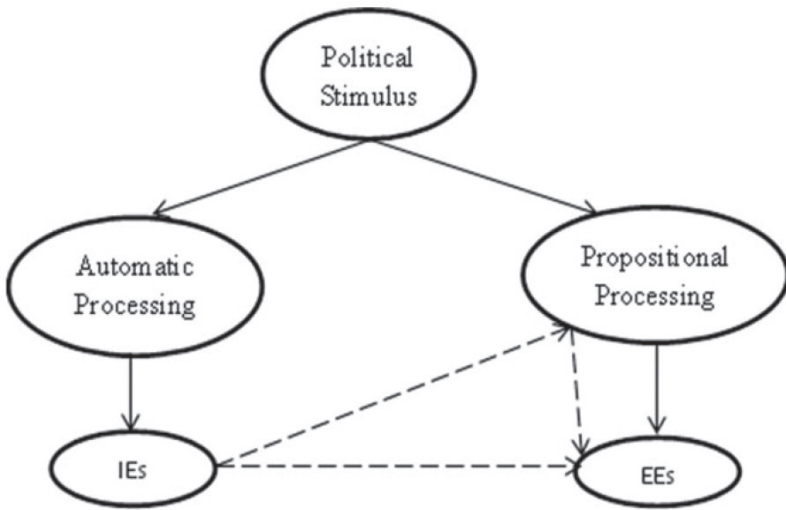
وبات العقل الغربي يعتقل في سجنه الفكري معايير تقييم القيم الاخلاقية ونظام المفارقات الانسانية، فهل هذا ما رسمه منهجه التاريخي الذي عبر عنه سابقا فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama والذي حاول ان يرسم براديجمات سياسية عدائية إقصائية، لنبوغ العقل الغربي الليبرالي، وسبقه ليو سترافوس Leo Strauss لصناعة عقوبات من يخرج عن بوتقة الافكار النبوغية للمركزية الغربية لفكرة الانسان الاخير Last Man الذي سوف يعيش في جنة الديمقراطية الليبرالية.

مع أن الحرب وفلسفتها هما ذاتهما في أي مكان، وكأن هناك معايير فلسفية خاصة قديمة تتجدد في عصر علوية الإنسان الغربي ومجتمعات الشمال على مجتمعات الجنوب، ودول الغرب الأطلسي على غيرها، انعكست عبر ازدواجية المعايير وانتقائية التعاطف والميول السياسية، بل احداث عملية تعطيل لمنظومة القيم الفكرية والانسانية وتوجيهها في بوصلة خاصة بنظام المصالح الخاصة.

في عالم المشاعر السياسية، فإن المؤشرات الشبيهة بالانعكاسات ليست سوى وجه واحد للعملة وليست بلورات حلقات عاطفية، فالقاعدة هي ازدواجية العواطف، ويعتقد أن المعالجة العاطفية تتم على مستويين متسلسلين، وهما الواعي واللاواعي، إن فهم هذه الازدواجية في معالجة المشاعر السياسية يتطلب إطاراً مفاهيمياً يتوقع استنباط الاستجابات العاطفية ويدعم الاختلافات بين كل عملية عاطفية ومظاهرها.⁽¹⁾

(1) Asaad H. Almomhammad, Toward a Theory of Political Emotion Causation, p7. At: <https://journals.sagepub.com/doi/10.1177/2158244016662106>

وبالتالي فإن العاطفة هي وظيفة معرفية، وبالتالي تساوي معالجة المعلومات مع الإدراك، وضع الباحث إطارًا مفاهيميًا من خلال تقديم مراجعة متكاملة للأدلة المتاحة، فيما يتعلق بمعالجة المعلومات الواعية وغير الواعية، في دراسة كل من السياسات السياسية الضمنية والصريحة على وجه الخصوص وكما موضحة في الشكل التالي:



فعندما نصف سلوك شخص ما بأنه أخلاقي، فإننا نحاول عمومًا أن ننقل فكرة أنه يتصرف وفقًا لنوع من المبادئ الأخلاقية، وهناك العديد من النظريات الاجتماعية، وبصورة أوضح الماركسية، تنكر وجود المبدأ الأخلاقي والسلوك الأخلاقي كليًا، حيث يعد استخدام مثل هذه المصطلحات نفاقًا أو نتاجًا لوعي زائف، على الرغم من أنه من الممكن تحديد مجموعات من المواقف التي يمكن تسميتها على سبيل المثال الأخلاق البرجوازية، لكن هذه

ليست أكثر من مجموعة من التبريرات، وبالتالي فإن وصف سلوك شخص ما بأنه أخلاقي سيكون إما بلا معنى أو مقصوداً بشكل ساخر، فلا توجد طريقة لإظهار أن هذا الرأي خاطئ بشكل قاطع، حيث يتم نشر الحجاج الأخلاقية أحياناً بشكل تكتيكي وبقصد الخداع، لكن حيث المبدأ على الأقل، هناك قدرة على التمييز عندما يكون الأمر كذلك، وثانياً أن الأفراد في بعض الأحيان يتصرفون وفقاً لمبدأ أخلاقي، والمشكلة الثانية الأصعب، وهي هل من الممكن حقاً افتراض أن شخص الدولة قادر على التصرف بشكل أخلاقي، أي وفقاً لمبدأ أخلاقي، وبعبارة أخرى أن يكون شخصاً بالمعنى المستخدم في الأول جملة هذه، فمن الجدير بالملاحظة والمفارقة أن بعض أولئك الذين يجادلون بشدة من أجل سياسة خارجية أخلاقية يجادلون أيضاً ضد وجهات النظر التي تتمحور حول الدولة حول العالم.⁽¹⁾

والاخلاق ترتبط ايضاً بالعقلانية، رغم ان مفهومها في السياسة الدولية غير واضح، قد تكون تمثل كل شيء يتعلق بفهم العالم، أي اكتشاف كيفية عمله وفهمه من أجل تحديد كيفية تحقيق أهداف معينة، في كل من البعد الفردي والجماعي، حيث إن صناع السياسات العقلانيين تحركهم النظرية، ولديهم نظريات موثوقة ومنطقية مبنية على افتراضات واقعية ومدعومة بحجج جوهرية من الأدلة حول طريقة عمل النظام الدولي، وهم يستخدمونها هذه لفهم وضعهم وتحديد أفضل السبل للتعامل معه، وبالتالي تقوم الدول العقلانية بتجميع وجهات نظر صانعي السياسات الرئيسيين

(1) Chris Brown, Ethics, interests and foreign policy, at: At Karen E. Smith and Margot Light, Ethics and Foreign Policy, Cambridge University Press, New York, 2014, p 19.

من خلال عملية تداولية، تتميز بمناقشة قوية وغير مقيدة، حيث تعتمد القرارات العقلانية في السياسة الدولية على نظريات ذات مصداقية كيف يعمل العالم ويخرج من عملية صنع القرار التداولية، وقد يفسر هذا ان قرار روسيا بدخول أوكرانيا كان عقلانيا، حيث أن القادة الروس اعتمدوا على نظرية ذات مصداقية، حيث أن الرئيس الروسي بوتين كان عازما على دخول أوكرانيا ودول أخرى في أوروبا الشرقية لصناعة روسيا الكبرى كما يقول المنظر جون ميرشايمر John J. Mearsheimer⁽¹⁾.

لهذا فإن المشاعر والعاطفة هما مدفأة أمام ثلج السياسة، هكذا دائماً قيل، ولهذا يجب على كل صانع قرار أن يحذر من تلك البضاعة في أن تسيطر على متجره، لأنها ستؤدي دائماً إلى سوء الفهم في منتجاته وقصر النظر السياسي، لكن بالنتيجة لسنا روبوتات ننتظر غيرنا ليبرمجنا، أو ننتظر مهندساً لكي يقوم بوضع خوارزميات حياتنا.

الاخلاق في السياسة الدولية

يبقى السؤال هل هناك سلطة أخلاقية في عالم السياسة؟، سواء السياسة التي يراها ابن رشد بأنها صناعة الخير العام، أو تلك التي يراها ماكبريد بأنها فن جمع القاذورات، أو كما يقول أنيس منصور بأنها فن السفالة الأنيق. وعبر هذا الجدل التاريخي، ما زالت هناك سياسات تأخذ، أو تدّعي على الأقل، بأنها أقرب إلى الاعتبارات الأخلاقية، وأنها ضمن معاييرها الأساسية

(1) John J. Mearsheimer, How States Think: The Rationality of Foreign Policy, Yale University Press, 2023, p9.

لسياستها العامة، تحت عناوين متعددة، منها ما يتعلق بحقوق الإنسان، أو الأخلاق الكانطية، أو الأخلاق الإسلامية، أو الاعتبارات المسيحية، وغيرها. النقاش مفصل في الفكر السياسي لبحث موضوع النفعية أو الشرائع الأخلاقية بقيود فرضت قديماً على أصحاب السلطة التي تجبرهم أحياناً على التحلي ببعض صفات هذه الوصفات دون أن تترك مساحة لحرية الاختيار عبر تقاليد وموروثات دأب عليها السلوك السياسي أياً كان مصدره، المعبد أو المؤسسة الدينية أو الصيرورة الاجتماعية.

فيما يؤكد عالم الأعصاب جان ديسيتي Jean Decety وعالم النفس جيسون إم كويل Jason M. Cowell بأن التعاطف يتكون من ثلاثة مكونات متميزة ولكنها مرتبطة ببعضها البعض:⁽¹⁾

١. المشاركة العاطفية التي تعكس القدرة الطبيعية على الإثارة العاطفية لمشاعر الآخرين. يحدث ذلك عندما تشعر بما يشعر به شخص آخر (أو ما تتخيل أن يشعر به شخص آخر).

٢. الاهتمام التعاطفي، والذي يتوافق مع الدافع لرعاية رفاهية الآخر.

٣. أخذ المنظور وهو القدرة على وضع نفسك بوعي في ذهن شخص آخر وتخيل ما يفكر فيه هذا الشخص أو يشعر به.

مثلاً اليسار، ومعلمه ماركس، يريان أن الأخلاق هي صناعة الأقوياء لاستعباد الضعفاء والمعدمين، وأن القيم الأخلاقية من إنتاج الأقوياء

(1) Stephen G. Morris, Empathy and the Liberal-Conservative Political Divide in the U.S., Journal of Social and Political Psychology, 2020, Vol. 8(1), 08-24, <https://doi.org/10.5964/jssp.v8i1.1102>

اقتصادياً في المجتمع، وكما ذهب نيتشه إلى أن الرحمة والإحسان والصبر هي حيل ابتكرها الضعفاء ليضحكوا بها على الأقوياء. أو في إطار النظرية الليبرالية في العلوم السياسية، والتي طرحها فرانسيس فوكوياما في كتابه الصادر (الليبرالية وسخطها) (Liberalism and Its Discontents) الذي عدّ الخلاف عنصراً أساسياً في أي ديمقراطية ليبرالية لكن هناك مجموعة أساسية من القواعد التي لطالما اعتُبرت غير قابلة للتفاوض، مثل حرية التعبير، لكنّ هذا الإجماع لم يعد من الممكن اعتباره أمراً مفروغاً منه كما كان سابقاً، بسبب موجات الشعبوية القائمة على الكراهية وظهور جماعات تضع حقوق مجموعات أقليات معيّنة فوق حقوق الأفراد بدرجة متفاوتة، وأن تلك الليبرالية النقية غير المغشوشة لم تتح لها أبداً فرصة للتألق، وكان لليبرالية أوجه قصور، أفرزت بعضها ظروف خارجية وكان بعضها متأصلاً في العقيدة ذاتها، ومعظم العقائد أو الايدولوجيات تبدأ بتبصر صحيح أو حتى وحي رؤيوي كاشف، لكنها تخطئ حين يدفع بذلك التبصر إلى حدود قصوى متطرفة حين تصبح العقيدة عقائدية متشددة ان جاز التعبير كما يقول فوكوياما.^(١)

ومع كل هذه المساحة النظرية، يبقى العامل الأخلاقي يحارب من أجل إيجاد موطئ في عالم يعيش إطار الشك وانعدام اليقين، حيث تستحيل رؤية اللعبة كاملة، كما يصعب تحقيق رأي عام منظم قادر على التغيير، مثل الحراك السياسي الاحتجاجي المنظم، حيث سرعان ما يتفكك كما يذهب

(١) للمزيد أنظر: فرانسيس فوكوياما، الليبرالية ونقادها الساخطون، ترجمة معين الامام ومجابه الامام، منتدى العلاقات العربية والدولية، بيروت، 2022، ص 31.

عالم الاجتماع الشهير زيغمونت باومان Zygmunt Bauman في كتابه (الأخلاق في عصر الحداثة السائلة).

العاطفة والعلاقات الدولية

يقول إيمانويل كانط Immanuel Kant: (وحدها السياسة التي تعيش في الظلام وتضطنع الدهاء تحاول عبثاً الانفكاك من سلطة الأخلاق، لكن سرعان ما يفتضح أمرها متى أُلقت الفلسفة ضوءاً على مبادئها) ولهذا، يعيد هذا الجدل حديث الفلسفة المتكرر عن العاطفة والعلاقات الدولية، وعن مواجهات العقلانية مع سياق السلطة، إذ إن بضاعة العواطف، بما تحمل من تقلبات وجوامح، تعيق التفكير الرشيد في أكثر الأحيان، لكن في النتيجة السياسة والعلاقات الدولية هما نتاج بشري، والبشر لا يمكن فصلهم عن العواطف والمشاعر في الحياة الاجتماعية أو السياسية، ولهذا لا يمكن الفصل بينهم وهم في المحصلة داخل بوتقة واحدة، وحتى إن العاطفة في الأخير لا يمكن فصلها عن قاطرة العقلانية حتى إن هربت قليلاً في بعض المحطات، كما يعود سؤال العاطفة إلى الواجهة مع سؤال الهوية، والسؤال الأخير مع فقدان الثقة المتزايد في عالم اليوم، حتى كادت العاطفة أن ترسم ملامح خاصة لجيوبولوتيك العواطف، بحثاً عن الأمل والخوف وحالة عدم اليقين المتزايدة في خارطة العالم المملوءة بالصراعات والحروب والعنف والدمار.

كما يذكر الأكاديمي البحريني نادر كاظم في كتابه (لماذا نكره؟)، الهوية قائمة على الكراهية، وإن تكنولوجيا التواصل أصبحت أداة تعمل على نقل الكراهيات بشكل سريع وأكثر تأثيراً، وإن انتعاش الكراهيات بين البشر أنها يستمد قوته من العزلة الجغرافية، ومن التفوق والانكفاء القديمين بين

الجماعات، حيث ان العزلة كانت تؤمن الاجواء المناسبة لانتعاش الكراهيات داخل الجماعات.^(١)

أمام صراع الجبابرة في العلاقات الدولية لن تبقى مساحة للمشاعر أو الاعتقادات العاطفية، حتى في لغة الاستعارات ما بين توصيف (رقعة الشطرنج) و(ألعاب الملاكمة) وبقية الرياضات، لا يمكن وصف هذا العالم بعلاقة الحب أو مشاعر رجل مع خليلته. وبالتالي فإن السياسة الواقعية هي دراسة للتعقيدات والتداخلات وليست بالأمني والأحلام والرومانسية والغضب.

لكن الذي يحفز هوية العاطفة للتضامن، أو الجفاء، أو الشعور المتراكم بالخيبات، أو الغضب الذي قد يؤدي إلى تزايد الكراهيات بين الدول والجماعات والأمم، ويصبح أشبه بالتدفق الحر للعواطف مثل سمفونية العولمة التي تعزف في كل مكان وحيثما تشاء، هو حرب الهوية، والتحويلات الموازية لها، وكما سمّيتها في كتابي (الجيل الثاني للدبلوماسية: تدافع الهويات في السياسة الخارجية)^(٢)، بأن الحرب القادمة هي حرب الهوية وستكون قبلها براكين العاطفة السياسية التي تسبق التحضير لتلك الحروب، أقول هذا بالرغم ربما من عدم صمود العاطفة أمام نظريات الواقعية العقلانية أو البنيوية.

تفاقم الأزمات والصراعات الجيوسياسية، أمام تيارات الكراهية الكوكبية والاعتداءات النيوليبرالية على الجوانب الأساسية للديموقراطية،

(١) د. نادر كاظم، لماذا نكره أو كراهيات منفصلة مرة اخرى، دار سؤال، بيروت، ٢٠١٨، ص ١٧.

(٢) د. ياسر عبد الحسين، الجيل الثاني للدبلوماسية: تدافع الهويات في السياسة الخارجية، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٢٠٢، بيروت.

ولا سيما أن رجال السياسة الجدد الذين يعتلون منابر أعوادها قائمة على العاطفة واستمالة الجمهور الغاضب أصلاً على كل ما هو موجود ليولد تيارات التعاطف، وبناء علاقات عاطفية وسياسية معادية ضد (هم)، وتهديم أي جسر تواصلي بين (نحن) و(هم)، يسهم في صناعة بيئة راديكالية في نطاق الحكم والسلطة. ويضيف إليها رجال السلطة تضخيم قوى التعاطف العدائي من خلال رسائل متباعدة، حيث إن بريق الكلمات البسيطة الشعبوية الملامسة لحاجات وأحلام الجماهير، غير العقلانية أحياناً، وضجة التصفيق المتلاحق في المسرح السياسي، كل ذلك يجعل الآذان صماء وفاقدة لذائقة سماع أي فكرة عقلانية.

وبالتالي قديماً كانت مدرسة شيكاغو وفيلسوفها ميلتون فريدمان Milton Friedman الذي قدم فكرة الغابة الرأسمالية المتوحشة أو الداروينية الاجتماعية كما يسميها وصنف العالم إلى قسم شيطاني وملائكي، مثل وجود جماعة متحضرة متمدنة في الغرب الرأسمالي، وجماعات متوحشة في مناطق الجنوب والشرق، والآخرى تحتاج إلى القوة لتغيير سلوكها، وبالتالي فإن أي تدخل من قبل الدولة في المجال الاقتصادي أو في أتون السياسات الاجتماعية مخالفاً لمسار التوحش الطبيعي لمجتمع الغابة الرأسمالي.

هذه الموجات تتلقاها البذرة الأولى للكراهية، المخبوءة في كوامن البشر. باتت العنصرية تختفي من سجل الجرائم المجتمعية، وكما يقول الشاعر المكسيكي ماريو بوخوركيس تكريماً للشاعر الإسباني لوركا Federico García :
:

(كلنا نملك ذرة من كراهية ... وقلوبنا التي خلقت لتؤوي الحب ...

تقتل اليوم عضلاتها وتضخّ عصارات الغضب اليائسة).

نعم أتفق مع ما يقوله مكيافيلي Machiavelli بأن أخلاق الفرد غير أخلاق الدولة، وسلوك الدولة يختلف عن سلوك الأفراد، ونسبية المفهوم الأخلاقي في الموسوعة الفلسفية وفي إطار الفكر السياسي، لكن ثمة مساحات حمراء لم يسبق للعالم تخطيها احتراماً لمساحة الأخلاق الدبلوماسية التي تقتضي الحفاظ على مساحة احترام إنساني، ولو من باب إسقاط الفرض، قد ينظر إلى العواطف في العلاقات الدولية على أنها مساحة لمحاولة فهم وتشكيل لوحة نوايا وتصورات ودوافع الفاعلين في الساحة الدولية، تعزز عملية صنع القرار في عالم السياسة الخارجية.

إن البحث الإيكولوجي الأوسع للتعاطف أو عدمه يجعلنا نؤمن بأن مصطلح الرأي العام العالمي لا وجود له ومجرد مشاعر تتحكم فيها شركات العولمة الكبرى التي تسجل فيها ما يحلو وتغضّ النظر عن ما تريد، وسط صراعات شديدة، لتساهم في بناء تيارات التعاطف^(١).

في علم النفس السياسي، تحتوي الصراعات السياسية على التعاطف والكراهية والغضب والسعادة والإذلال، وهي ممتلكات بشرية تتصدّر ساحات العلاقات الدولية، في حين أن المبادئ الأخلاقية، المعلنة على الأقل، تستدعي ردة فعل بشرية أو عالمية تجاه انتهاك ما يمسّ الكرامة الإنسانية، وهو ما يُعرف لاحقاً بالرأي العام العالمي، الذي بات مصطلحاً يحتاج إلى مراجعة بل إلى نفي لا يقل عن تهم انعدام ما يُعرف بالقانون الدولي.

(١) ياسر عبد الحسين، الأخلاق السياسيّة في عصر العاطفة الانتقائيّة، صحيفة الاخبار، السبت ٢٧ آب ٢٠٢٢.

الازدواجية في الرأي العام

عندما تناقش المجتمعات الحرب في الشرق الأوسط، فإن السؤال الأول الذي يطرح: إلى أي جانب تقف؟ ليس المهم أن تقف مع القيمة الأعلى في الوجود وهو الانسان.

ووفقا لاستطلاع أجرته مؤسسة غالوب وافق نصف الأمريكيين على العمل العسكري (الإسرائيلي) في قطاع غزة، بينما يعارضه ٤٥٪، حيث إن ميل الرأي العام الطفيف لصالح تصرفات (إسرائيل) يخفي وجهات نظر متباينة عبر المجموعات الفرعية الأمريكية، حيث إن أغلبية كبيرة من الجمهوريين (٧١٪)، والرجال (٥٩٪)، والبالغين ٥٥ عامًا فما فوق (٦٣٪)، والبالغين البيض (٦١٪) يوافقون على العمليات العسكرية (الإسرائيلية) في غزة، على العكس من ذلك، فإن أكثر من ستة من كل ١٠ ديمقراطيين (٦٣٪)، والبالغين الذين تقل أعمارهم عن ٣٥ عامًا (٦٧٪)، والأشخاص الملونين (٦٤٪) لا يوافقون على ذلك، كما تفعل أغلبية طفيفة من النساء (٥٢٪).

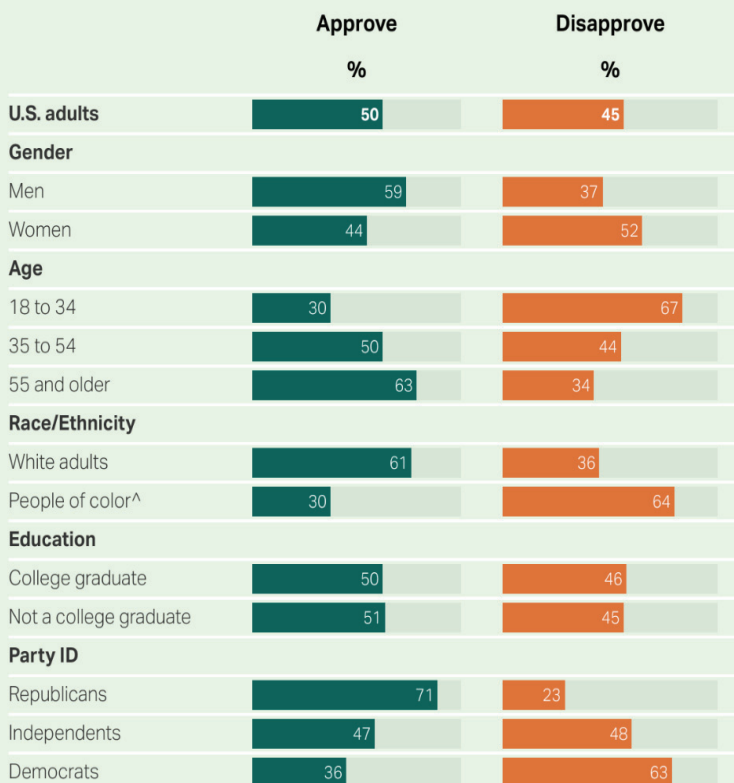
فيما تقول الشريحة الأكبر من الأمريكيين ٤٢٪، أن الولايات المتحدة تقدم القدر المناسب من المساعدات العسكرية للكيان ويقول ٢٥٪ آخرون إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تفعل ما يكفي، وبلغ إجماليهم ٦٧٪ يؤيدون على الأقل المستوى الحالي من المساعدات العسكرية^(١).

(1) Lydia Saad, Americans Back Israel's Military Action in Gaza by 50% to 45%, NOVEMBER 30, 2023, at: <https://news.gallup.com/poll/545045/americans-back-israel-military-action-gaza.aspx>

وكما موضح في الجدول التالي:

Americans' Views of Israel's Military Action in Gaza, by Subgroup

Do you approve or disapprove of the military action Israel has taken in Gaza?



[^]People of color includes Black, Hispanic, Asian, Pacific Islander and Native American adults

Nov. 1-21, 2023

GALLUP

ووفق استطلاع أجرته مؤسسة (NPR and PBS) عن الجانب الذي يتعاطفون معه أكثر، اختار منهم ٦١٪ (الإسرائيليين) و ٣٠٪ اختاروا الفلسطينيين، وعندما طرحت مؤسسة (YouGov in a poll for The Economist) (في استطلاع للرأي أجرته مجلة الإيكونوميست) سؤالاً مماثلاً مع خيار ثالث اختيار الطرفين كانت النتائج أيضاً لصالح (الإسرائيليين) أيضاً: ^(١)

Sympathies with Israelis or Palestinians

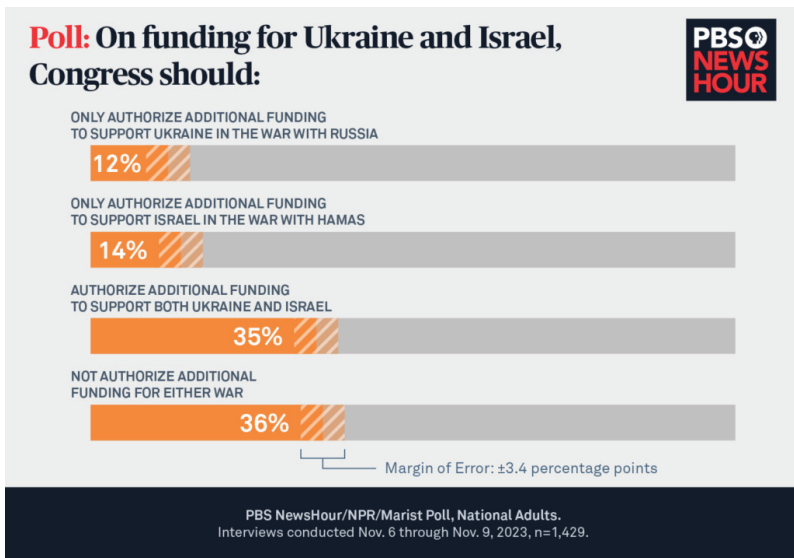


Source: The Economist/YouGov poll from Nov. 25-27

وفي استطلاع للرأي أجرته جامعة كوينيبياك (Quinnipiac poll) سأل الأميركيين من هو «المسؤول الأكبر عن اندلاع أعمال الحرب»، اختار ٦٩ في المائة حماس، واختار ١٥ في المائة (إسرائيلي) ويعتقد معظم الأميركيين أيضاً أن (إسرائيل) هي حليف مهم للولايات المتحدة الأمريكية، وقد سأل استطلاع كوينيبياك الناس عما إذا كان دعم (إسرائيل) يصب في المصلحة الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية، فأجاب ٧٠٪ منهم بذلك. ^(٢)

- (1) The Looming Government Shutdown NPR/PBS NewsHour/Marist National Poll, November 15, 2023, at: <https://maristpoll.marist.edu/polls/the-looming-government-shutdown/>
- (2) Sympathy Grows For Palestinians But Majority Still Sympathize More With Israelis, Quinnipiac University National Poll Finds; Generational Divide Widens On View Of Israel Share, November 16, 2023, at: <https://poll.qu.edu/poll-release?releaseid=3884>

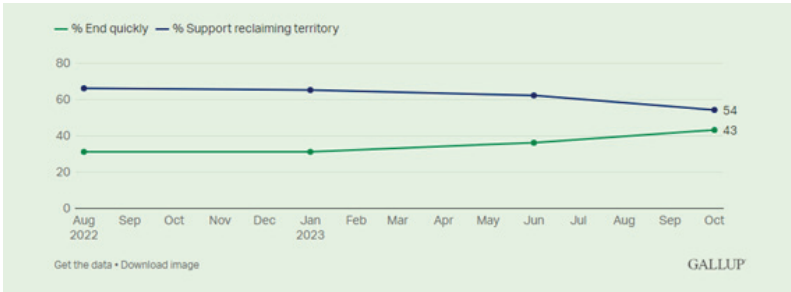
فالأمركيون منقسمون حول ما إذا كان ينبغي للولايات المتحدة الأمريكية أن تلعب دوراً رئيسياً في الأحداث العالمية، بما في ذلك حرب روسيا المستمرة في أوكرانيا واندلاع الحرب الأخيرة بين (إسرائيل) وحماس، ويمتد هذا الانقسام إلى ما إذا كان ينبغي للكونغرس أن يأذن بتمويل عسكري إضافي لأوكرانيا و(إسرائيل)، وفقاً لهذا الاستطلاع:⁽¹⁾



بالمقابل مثلاً في ملف اوكرانيا، نجد الرأي العام الأمريكي، حيث اعتقدت أغلبية (٦٦٪) من الأمريكيين أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تدعم أوكرانيا في استعادة أراضيها السابقة، حتى لو أدى ذلك إلى صراع

- (1) Laura Santhanam, Poll: Majority of Americans sympathize with Israel but growing number say military response in Gaza 'too much', Nov 15, 2023, at: <https://www.pbs.org/newshour/world/poll-majority-of-americans-sympathize-with-israel-but-growing-number-say-military-response-in-gaza-too-much>

طويل الأمد، وقد تضاعفت هذه النظرة ولكنها لم تتغير تماماً، حيث أن ٥٤٪ من الأميركيين يحتفظون بهذا الرأي، ويفضل ٤٣٪ الآن أن تحاول الولايات المتحدة المساعدة في إنهاء الحرب بسرعة، حتى لو كان ذلك يعني تنازل أوكرانيا عن أراضيها لروسيا، وكما هو موضح في الشكل التالي:^(١)



تحليل العاطفة الانتقائية في قضية فلسطين

من خلال الاطلاع على الاستطلاعات الواردة اعلاه، نلاحظ الفارق في التعاطف الغربي بين قضية الحرب على غزة والحرب في اوكرانيا، لكن هل هذا التناقض في السياسات والمواقف سمة جديدة ام قديمة؟.

مثلا كانت الازدواجية والتعامل المزدوج من السمات المميزة للسياسة البريطانية تجاه فلسطين منذ البداية، ففي عام ١٩١٥، وعدت بريطانيا الحسين، شريف مكة، سراً، بدعم مملكة عربية مستقلة بعد الحرب إذا قام بثورة عربية ضد الإمبراطورية العثمانية، وقد احتفظ شريف بجانبه من الصفقة، لكن بريطانيا لم تفعل ذلك، وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧، أصدرت

(1) Mohamed Younis, American Views on the Ukraine War in 6 Charts, NOVEMBER 2, 2023, at: <https://news.gallup.com/poll/513680/american-views-ukraine-war-charts.aspx>

بريطانيا وعد بلفور، وتعهدت فيه بدعم إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وفي عام ١٩١٧، كان اليهود يشكلون ١٠٪ والعرب ٩٠٪ من سكان فلسطين، ولم يكن لبريطانيا أي حق قانوني أو أخلاقي في منح الحقوق الوطنية للأقلية اليهودية الصغيرة وحرمان الأغلبية العربية منها/ لكنها كانت حقبة استعمارية وكان وعد بلفور وثيقة استعمارية كلاسيكية، وتتحمل بريطانيا مسؤولية تاريخية ثقيلة عن خسارة الفلسطينيين لتراثهم كما يقول المؤرخ Avi Shlaim.^(١)

يقول المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي Noam Chomsky بان من المهم جدا أن نصف ما حدث للفلسطينيين في ١٩٤٨ على أنه جريمة وليس بوصفه مأساة أو كارثة فحسب، إذا كنا ننوي تصحيح ما جرى جراء هذا الشر، حيث يميز نموذج التطهير العرقي هذا بين الضحية والمعتدي، والأهم من ذلك أنه يشير إلى آلية للصالح، فيما يوضح ذلك الارتباط بين الأيديولوجيا الصهيونية وسياسة الحراك في الماضي والسياسات (الإسرائيلية) في الحاضر، حيث يهدف كلاهما لإنشاء دولة يهودية من خلال الاستيلاء على أكبر قدر من أراضي فلسطين التاريخية، وترك أقل قدر ممكن منها للفلسطينيين، وبالتالي تكمن الرغبة في تحويل فلسطين من مكان متعدد الأعراق إلى مكان صافي العرق، وهذا أدى إلى تهجير ٧٥٠٠٠٠ شخص (أكثر من نصف سكان المنطقة)، وتدمير أكثر من ٥٠٠ قرية، وهدم أكثر من ١٢ قرية.^(٢)

(1) Avi Shlaim , Perfidious Albion and Israel-Palestine, 19 Jan 2017, at: <https://www.aljazeera.com/opinions/2017/1/19/perfidious-albion-and-israel-palestine>.

(٢) للمزيد أنظر: نعوم تشومسكي وإيلان بابيه، دراسة عن فلسطين، ترجمة سالم عادل الشهاب، منشورات جدل، الكويت، ٢٠٢٣، ص ٦٣-٦٤.

ووفق تشومسكي فإن الصهيونية كانت تعني أمراً مختلفاً في حقبة ما قبل الدولة عن حقبة ما بعد الدولة، وبدءاً من عام ١٩٤٨ صارت الصهيونية تعني أيديولوجية الدولة، أي دين الدولة، مثل الأمريكية، أو فرنسا العظيمة، والحقيقة أن التعريف تغير حتى في هذه الحقبة، يقول تشومسكي ما نصه (أتذكر مثلاً عام ١٩٦٤ عندما كنت أقضي بعض الوقت في (إسرائيل) ضمن مجموعة من المثقفين أن الصهيونية كانت نكتة أو شيئاً يستخدم بروباجاندا للأطفال. بعد مضي ثلاث سنوات، أصبح الكثير من هؤلاء الأشخاص يهذون بالقومية. تغير ذلك في عام ١٩٦٧، ويعد تغيراً كبيراً على الطريقة التي ينظر بها (الإسرائيليون) إلى أنفسهم وإلى الدولة التي يعيشون فيها).^(١) فيما لم تهتز المصادقية الغربية أكثر وضوحاً في أي مكان آخر من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ولم يحدث في أي مكان أن تسببت المعايير المزدوجة الغربية في إلحاق الضرر بما يسمى النظام الدولي الليبرالي ونظام الأمم المتحدة الأوسع كما حدث في سياق القضية الفلسطينية، فإن انحياز أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية هو انحياز طويل الأمد تجاه (إسرائيل) منذ زمن الانتداب وحتى الفيتو الثلاثي الذي استخدمته إدارة بايدن في مجلس الأمن لحماية الكيان من الدعوات لوقف إطلاق النار من جانب واحد في أيار ٢٠٢١ إظهار كيف استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية الرائدة الهيئات المتعددة الأطراف، ومنعت اتخاذ أي إجراء عندما يعتبر ذلك متعارضاً مع المصالح الجيو استراتيجية المفترضة للقوى الغربية الرائدة، بل حماية الكيان من الانتقادات داخل مجلس الأمن حيث استخدمت

(١) المصدر نفسه، ص 64.

الولايات المتحدة الأمريكية حق النقض (الفيتو) ٥٣ مرة على الأقل منذ عام ١٩٧٢ هو أوضح مثال على انحياز واشنطن، ولعل وهذا يساعد على تفسير سبب فشل الأمم المتحدة في وقف الانتهاكات (الإسرائيلية) للقانون الدولي.^(١)

واستمرت هذه السياسة، فبعد عملية طوفان الأقصى في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣، كتب مستشار الأمن القومي جيك ساليفان Jake Sullivan مقالة تحت عنوان *The Sources of American Power: A Foreign Policy for a Changed World* نشرت في يوم ٤ أكتوبر في مجلة *Foreign Affairs* أي قبل ثلاثة أيام من عملية طوفان الأقصى، ورد في المقالة أن إدارة بايدن اتبعت استراتيجية تقلل من مخاطر نزاعات شرق أوسطية جديدة، بل أكد (إننا سنعمل مع أي دولة مستعدة للدفاع عن مبادئ ميثاق الأمم المتحدة، بينما ندعم الحوكمة الشفافة التي تنصاع لشعوبها، كما ندعم الإصلاحين الديمقراطيين والمدافعين عن حقوق الإنسان) ثم تعديل المقالة لاحقاً الكترونياً دون النسخة الورقية، وخصوصاً في العبارة التي وردت كما كتبها ساليفان (لقد قللنا من شدة الأزمات في غزة، حيث قامت الإدارة الأمريكية بتهدئة الأزمات في غزة، واستعادت الدبلوماسية المباشرة بين الطرفين بعد سنوات من غيابها).^(٢) فأين النظرية من التطبيق في السياسة

(1) Andrea Dessì, Israeli Apartheid and the West's Dwindling Moral Credibility, 5/02/2022, at: <https://www.iai.it/en/pubblicazioni/israeli-apartheid-and-wests-dwindling-moral-credibility>

(2) Jake Sullivan, «The Sources of American Power: A Foreign Policy for a Changed World», *Foreign Affairs*, Volume 102, Number 6, November/December 2023, pp. 8 – 29.

الخارجية الامريكية تجاه احداث فلسطين؟.

- أن العبارة الأكثر استخداماً لوصف احداث اوكرانيا بانها (انتهاك لحقوق الإنسان) بينما كان الوصف الأكثر استخداماً لوصف الهجوم (الإسرائيلي) ضد قطاع غزة هو أنه (دفاع عن النفس)، وكأن العنصر البشري اصبح مثل بياق في معركة أيديولوجية.
- اغفل العقل السياسي الغربي سياسة الكيان الاسرائيلي بالعقاب الجماعي من خلال عملية أسمتها السيوف الحديدية وقصفها المستمر على القطاع ومحاصرته وقطع إمدادات الماء والدواء والكهرباء والوقود.
- في الحرب الاوكرانية تحدث الغرب في خطابه السياسي عن تجميد أصول البنك المركزي الروسي، للحد من الوصول إلى ٦٣٠ مليار دولار من احتياطات موسكو، لكن في حالة فلسطين لم يتم التحدث ابدا عن اساليب الردع وفق القانون الدولي.
- تم وصف اعمال الفلسطينيين بـ «العمل الإرهابي» وتعميم هذه السردية عبر وسائل الاعلام دون الحديث عن دور الكيان في ارتكاب مجازر الإبادة الجماعية وخرق القانون الدولي الإنساني.
- بالمقابل أن حرب قطاع غزة رفعت معدلات الاستياء والفوارق في قارات إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية من ازدواجية المعايير الغربية.
- عززت الحرب على قطاع غزة الفارق الهوياتي بين عالم الجنوب والشمال العالمي، وبالتالي اتساع الهوة بين الديمقراطيات الغربية وبقية الدول، إذ أدت الاتهامات المتبادلة بالمعايير المزدوجة إلى تأجيج

المشاعر المتعلقة بحرب الهويات والقوميات.

- في حرب طوفان الاقصى ثمة مفارقات في السياسة الدولية من كان يتخيل أن اليابان التي تعرضت للإبادة بالقنابل النووية ترفض وقف إطلاق النار في غزة، وان الهند بلد غاندي بلد اللاعنف ستقف بقوة مع السياسات العنصرية، ومن كان يتخيل أن سويسرا التي تصف نفسها بأنها صاحبة الحياد تمتنع عن التصويت لإدخال المساعدات الإنسانية لقطاع غزة المنكوب.

قد تكون لتلك السياسة اسبابها مثل:

أسباب عرقية: حين يقول مراسل غربي إن اللاجئ الأوكراني هو أبيض مثلنا، ويقول آخر إن اللاجئ ليسوا من المسلمين أو من سورية أو أفغانستان، وإننا مسيحيون أوروبيون مثلنا معبراً عن احتقار للمعاناة البشرية، ويعني أن التعاطف مشروط بجينات عرقية.

علوية الانسان الغربي: باعتقادهم من لم ينتمي إلى الحضارة الغربية لا يمكن له تقدير الرقي والمدنية والحضارة متناسين ان موطن الحضارة كان في الشرق، وبالتالي وفق وجهة نظرهم لا يستحق العرب او اهل الشرق الديمقراطية كما يقول برنارد لويس Bernard Lewis: (ثمة امور يتعذر عليك فرضها عليك بالقوة، كالحرية مثلاً، أو الديمقراطية ... الديمقراطية عقار شديد المفعول.. يتوجب اعطاءه للمريض، بجرعات صغيرة بالتدريج، والأفقد تغامر بقتله، وفي العموم على المسلمين ان يفعلوا ذلك بانفسهم).^(١)

(١) عن كتاب: برنارد لويس، أزمة الحرب الأهلية والرهاب المقدس مدنس، رؤية أنصار اليمين الأمريكي للإسلام المعاصر، عن دار عدنان للطباعة والنشر، بغداد، ٢٠١٣، ص ٢٥.

حرب الابدولوجيات: الكثير من الفئات التي تطلق الاحكام على الموضوع المتعلق بالقضية الفلسطينية بالضد او التعارض ناجما عن اسبابا سياسية تتعلق بالموقف الرسمي الغربي المعلن، مثلا كتب الرئيس الامريكي جون نيكسون قائلا: (شعرت أن خلفية هنري كيسنجر Kissinger اليهودية ستضعه في وضع غير مواتٍ خلال المفاوضات الأولية الدقيقة لإعادة فتح العلاقات الدبلوماسية مع الدول العربية)، فيما ذكر كيسنجر في مذكراته أن نيكسون كانت لديه شكوك حول ما إذا كان إيماني اليهودي قد يؤثر على آرائي أو يشوهها، وهو ما أشار له كيسنجر بقوله إن نيكسون استبعده من الانخراط في سياسة الشرق الأوسط حتى أواخر عام ١٩٧١ لهذا السبب، ولكن كان من الصعب عليه للغاية أن يشكك الرئيس الجديد في آرائه حول الشرق الأوسط، فضلا عن ولائه للولايات المتحدة الأمريكية بسبب هويته العرقية، حيث كان كيسنجر مصمما على لكيسنجر، تجاوز مخاوف نيكسون تجاهه، فحين أراد نيكسون استبعاد كيسنجر من التعامل مع قضايا الشرق الأوسط لأنه كان يعتقد أن إيمانه اليهودي سوف يؤثر على آرائه أو يشوهها، ولكن كان كيسنجر مصمما على تجاوز مخاوف نيكسون تجاهه؛ إذ تمكن هذا اللاجئ اليهودي الألماني والسياسي القادم من بلدة صغيرة في الساحل الغربي من وضع أسس شراكة فعالة مع نيكسون: حيث قال: (بينما لم يكن يمكنني فعل أي شيء بدوني).^(١)

وبالتالي وجود اللوبي الصهيوني الذي يسيطر على مفاصل مهمة في صنع القرار الغربي، كما أن هناك كثيرًا من أعضاء الكونغرس الأمريكي يخشون

(١) مارتن انديك، سيد اللعبة هنري كيسنجر وفن دبلوماسية الشرق الأوسط، ترجمة ياسر محمد صديق، دار نهضة مصر القاهرة، 2022، ص 51.

فقدان التمويل أو الدعم إذا قدّموا وجهة نظر مغايرة.

الهوية الدينية: تتغلغل المعتقدات الدينية اليهودية في مختلف وحدات الجيش الإسرائيلي المشاركة في عمليات التوغل البري بغزة، وتشير الأناشيد الكاهانية التي تتغنى بها هذه القوات إلى أن فكر القومية المسيحانية منتشر بينها، ولا سيما وهي ترفع على الدبابات المتوغلة شعارات عودة الاستيطان إلى «غوش قطيف».

وتبقى حادثة طوفان الاقصى وسياسة الغرب تجاهها معادل وفارق نوعي كبير في حرب الهويات القادمة بين منبر التمييز الكبير بن الانسان الغربي والانسان الشرقي وعلوية المجتمع الابيض في نظام الهيمنة الغربية والذي سيحدد شكل النظام العالمي القائم.

على الرغم من ضرورة تثبيت نقطتين هما :

- ضرورة الفصل بين الرأي العام للشارع الغربي ورأي القادة وصناع القرار، فالرأي العام الغربي في دول مهمة اظهر تعاطفا واضحا مع القضية الفلسطينية.

- ان دول مهمة وخصوصا في أمريكا اللاتينية وافريقيا وبعض دول اوربا مثل اسبانيا لها مواقف مشرفة وانسانية.

- أن الإعلام الغربي أصبح جزءاً من الصراع وشريكاً فيه، بينما نلاحظ بقوة ضعف الاعلام العربي.

لكن، في النهاية، سلطة الأخلاق ستفرض نفسها، وإن كانت المعركة مع التعاطف الانتقائي حرباً ليست هينة، في زمن البرمجة الإنسانية، ولكن كما تقول الروائية الراحلة رضوى عاشور: (طوبى لمن يبقى على سلامة عقله وروحه في زمن الريح الصفراء وانتشار الطاعون).

دومينيك دو فيلبان شاهدا ومشهودا^(١)

«عن مآزق الخطاب السياسي -الإعلامي الفرنسي
بشأن المسألة الفلسطينية»

د. فؤاد بلحسن^(٢)

مزيدا من التفكير المتغربين^(٣) .. مزيدا من الأسوار ..

الغرب، ذلك المرادف لحضارة العصر وللقوة، للتقدم وللوحشية، يتقاسم معنا ثقافته، تقنيته، هامش حواريته، لكنه لا ينسى، بين الفينة والأخرى، أن يُسلط علينا فائض أسلحته، بل وأن يُجربها فينا إذا لزم الأمر. هذان الوجهان

(١) Dominique De Villepin هو موظف سام بوزارة الخارجية الفرنسية، كاتب وسياسي يميني ليبرالي. شغل منصب الكاتب العام للقصر الرئاسي، ثم عُيّن وزيرا لمرتين في ولاية الرئيس الفرنسي جاك شيراك (وزير الخارجية [2002-2004] فوزير للداخلية والأمن الداخلي والحريات المحلية [2004-2005])، قبل أن يُعيّنه شيراك وزيرا أولا خلال الفترة ماي 2005 -ماي 2007. أحدث حزباً سياسياً جديداً، تحضيرا للانتخابات الرئاسية لسنة 2012، لكنه أخفق في مسعاه، فتنحى عن العمل السياسي المباشر وعن أي طموح لنيل منصب عمومي، ليتفرغ للمهام تقديم الاستشارة لرؤساء الدول والحكومات والشركات كخبير في الشؤون الدولية. عن موقع الحكومة الفرنسية (www.gouvernement.fr) وموسوعة ويكيبيديا الرقمية ومصادر أخرى ستأتي تباعا في الهوامش أسفله.

(٢) كاتب وباحث في العلوم السياسية وناشط في المجتمع المدني/ جامعة محمد الخامس بالرباط.

(٣) التفكير المتمركز حول الذات الغربية (Occidocentrisme).

يُلازمه. وقد صدّق محمود درويش حين كتب: «... قد يكون التقدّم جسر الرجوع إلى البربرية...» (قصيدة «طباقي»).

يعرض العروي توصيفا دقيقا ومُعبرا بهذا الشأن، بقوله في «الأيديولوجيا العربية المعاصرة»: «يُقدم لنا الغرب وجهين، وجهٌ حقيقته الواقعية (غربٌ ظاهر) ووجه آماله وأهدافه (غربٌ الحُلُم)^(١). الأول، غربُ القوة والتعالّي على الغير، والثاني غرب القيم العليا واليوتوبيات والتفكير في المشترك الإنساني، وهو الغرب الذي «لا يقلُّ عُربة ونُفيا منا وهو في أحضان الأول^(٢)». يعكس هذا التباين ثنويته، لكنها ثنوية مُكرّسة لحقيقة مُرة: الأول يملك السلطة ويتخذ القرار فيؤثّر على حياتنا في الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع، في السلم والحرب، والثاني يُنتج الخطابات والرسائل فلا يتعدى تأثيره مُقاسمتنا للأحلام.

لم يتوقف الغرب عن رؤيتنا كـ «هُم» - وهذا، أيضا، موقفنا نحن بإزائه، عربا ومسلمين. التاريخ والدين والجغرافية والصراعات والمصالح، جميعها، ساهمت، وما تزال، في خلق المسافات ورفع الأسوار بين المجموعات الحضارية الكبرى من جهة، وفي الوقت نفسه، تشييد جسور التواصل الثقافي فيما بينها من جهة ثانية. كلاهما جارٍ في تفاعل مستمر: تنافس وتبادل؛ عداوات وتواصل؛ إلغاء واعتراف. فتلك «الهُم»، تتضمن تحديدًا وبنية لـ «النحن»، والعكس صحيح.

تتأثر النظرة إلى الغير، مهما فعلنا، بنظرتنا للعالم في كل مستوياته العقائدية

(١) عبد الله العروي، الأيديولوجيا العربية المعاصرة، ط. ١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٥، ص. ٨٣.

(٢) نفسه، ص. ٨٤.

والثقافية والسياسية والاقتصادية والتاريخية. فعبر تقاطعات هذه المستويات، تشكل تطلعاتنا ومخاوفنا وهواجسنا وصرعاتنا. يصدق هذا الأمر علينا، كما يصدق على الغرب. ويصدق على الغرب الشعبي، كما الغرب الرسمي. بل حتى الغرب العالم الذي يُفترض فيه أن يؤسس لعلاقة مبنية على الفهم والتفهم والتواصل، تجده مُرتهنا بهذه الأطر. فها هو هشام جعيط في تحليله لسيكولوجية الاستشراق يرى أنه تميز دائما بالخوف (الخوف المرضي) من الشرق. «ففي البداية خوف من الإسلام وتعاطف مع العروبة. وفيما بعد، خاصة مع بروز حركات التحرر، خوف من العروبة وعودة إلى الإسلام. وهذا ما يسميه جعيط بـ«ديالكتيك الكره»»^(١).

وفي خط هذه العلاقة المركبة فيما بيننا، تنتصب المسألة الفلسطينية مساحة لصراع أيديولوجي حاد، يستثمر كل أساليب السلطة لبسط المواقف والشروط وتحريك موازين القوة... وفي نفس الوقت، تنتصب كعقدة ذنب مُربكة وغير معلن عنها للطرفين.

وعقب عملية طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر ٢٠٢٤، وما تلاها من أعمال عسكرية تجاوزت فيها إسرائيل كل المحرمات، يقف الغرب، بمسؤوليه ونخه، بعد ٥ أشهر من الحرب، في مفترق مواقف صعب: هو لا يستطيع أن ينعت ما يجري بمجزرة القرن، ولا يستطيع أن يوقف الحرب دون ضوء أخضر أمريكي، ولا يستطيع الإقرار بمُعجزة المقاتل الفلسطيني في الصمود، كما لا يستطيع أن يُخفي لا مصالحه ولا مفارقاته وسط ما يجري. وأمريكا، دينامو الغرب، تجد نفسها، هي الأخرى، في وضع لا يقل صعوبة

(١) ورد هذا الاقتباس في: علي حرب، مداخلات، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥، ص. ١٩٧ (الهامش رقم ١١).

بعدما دخلت مرحلة التحضير وجمع التبرعات للانتخابات الرئاسية، ما جعل رئيسها جو بايدن (Joe Biden) يروح تحت مطالب وغايات متناقضة: فهو يُفضل لعب ورقة دعم ونُصرة إسرائيل على حماية المدنيين الفلسطينيين حتى يكسب الدعم المالي والإعلامي والسياسي للوبي اليهودي العالمي من جانب^(١)، ومن جانب آخر لا يُريد أن يظهر بمظهر الداعم للإبادة الجماعية للمدنيين فيخسر بذلك أصوات الشباب وجزء من الناخبين الأمريكيين، أكانوا بيضا أو ملونين أو مسلمين، ممن يُصوتون لصالح الحزب الديمقراطي. لكن الأخطر في التطورات التي جرت ما بعد السابع من أكتوبر يتمثل في زيادة هشاشة الوضع الجيوسراتيجي الذي تَورط فيه العالم أكثر منذ الغزو الروسي لأوكرانيا. فهذه التطورات تُهدد بجر المنطقة العربية إلى توترات كبيرة بين محور المقاومة بزعماء إيران والغرب بزعماء أمريكا. ثم إن كل هذا يترافق مع ملل العالم غير الغربي من أستاذية الغرب.. تلك الأستاذية المغشوشة المُفعمة بالمفارقات والجرائم، والتي جعلت بعض مثقفي ومؤرخي الداخل الغربي يُصرح أن الغرب ما عاد يملك شيئا ليقدمه للآخرين^(٢). وهذا ما شأنه أن يزيد الظرفية توترا.

(١) في أحدها جمع التبرعات، قال بايدن: «لن نفعل أي شيء سوى حماية إسرائيل، ولا شيء». مقتبس من مقال رأي لإدوارد لوس، تحت عنوان: «الفلسطينيون غير المرئيين»، نشرته صحيفة «فايننشال تايمز». أنظر ملخص عنه على الرابط (٧٢، ٢، 4202): [at69zm/ yg.br /:/sptth](https://www.nytimes.com/2022/04/22/opinion/joe-biden-israel.html)

(٢) مثلاً، أصدر المؤرخ الفرنسي إيمانويل تود ddoTleunammE كتاباً جديداً أحدث ردود فعل كبيرة، حمل عنوان «اندحار الغرب» (ed etiafédaL) (tnedicco1)، دار نشر dramillaG، ٢٠٢٢. وهو كتاب ينتهي، من بين خلاصاته، إلى هذه الخلاصة.

ولم تكن فرنسا، سياسيا وإعلاميا، بمنأى عن ضغوط الحدث وتطوراته وتحدياته. في البدء، حاولت فرنسا الرسمية إعادة استثمار اللازمة السياسية التقليدية المتعلقة بـ «حق إسرائيل في الدفاع عن النفس» و«إدانة الإرهاب»، ثم انتظار أن يُنهى الجيش الإسرائيلي مهمته. وهو الخط الذي تبعته معظم النخب السياسية ووسائل الإعلام الكبرى. لكن رد فعل الشارع وفئات هامة من النخبة السياسية والحقوقية والإعلامية كَشَفَ زَيْفَ اللازمة باستعادته لسردية الحقوق الفلسطينية وكشفه لهماجية الاحتلال الاسرائيلي، كما أن جسارة محور المقاومة وصمود الشعب الفلسطيني أفسدا على الرئيس الفرنسي والنخب الفرنسية النصيرة لإسرائيل احتكار تأويل الحدث وتطوراته.

المشهد الفرنسي.. خصوصيات وتحولات

ضمن تكوين ثقافي خاص، ذي ثقافة أوروبية، مسيحية-يهودية وحدائية، تُغذيها جغرافية جعلت من البحر المتوسط حاجزا طبيعيا ومساحة للتواصل وللصراع في آن، تبلورت رؤية فرنسا والفرنسيين لقضايا الشرق الأوسط والإسلام والمسلمين؛ حيث تعود التصورات والتبادلات، في السلم والحرب، إلى موجات طويلة من الأحداث الممتدة على قرون عدة (التبادلات التجارية في العهد الوسيط؛ التماس الجغرافي-الثقافي مع الحضارة الإسلامية عبر الأندلس؛ الحروب الصليبية؛ دخول نابوليون مصر وما بعده؛ فرض الحماية على أجزاء من شمال أفريقيا والشام؛ الحربان العالميتان؛ معارك التحرير الوطني؛ حرب السويس؛...).

وفيما يتعلق بالمسألة الفلسطينية، بين إنشاء دولة إسرائيل (١٩٤٨)

وعملية ٧ أكتوبر (٢٠٢٣)، تأرجح الأداء الفرنسي بين عدة محطات، أدى فيها الموقف السياسي الرسمي دور الموجه الرئيس للمواقف والسياسات، فيما أدى الإعلام وظيفة التغطية الأيديولوجية لإضفاء الشرعية على القرارات والسلوكيات من جانب، وحجب واقع ممارسات الاحتلال على الأرض من جانب آخر. بينما ظلت أصوات المثقفين الذين يجرؤون على الخروج عن الأطر المحددة كنغمة نشار.

فقبل رئيس الجمهورية الجنرال شارل دوغول (Charles de Gaulle)، كان الموقف الداعم والنصير لإسرائيل مُهيمنًا، سياسيًا وإعلاميًا؛ بحيث لا يكاد يُسمع أي تشويش على هذا التوجه أو يُسجّل أي تأثير في الاتجاه المعاكس. لكن مع دوغول ومواقفه الرافضة لحرب ١٩٦٧ ونتائجها الاحتلالية لمزيد من الأراضي الفلسطينية والعربية، تغيّر الوضع، فتعددت وتباينت الأصوات السياسية في الإعلام. ومنذ الرئيس دوغول حتى الرئيس جاك شيراك (Jaques Chirac)، تعاملت الدولة الفرنسية مع المسألة الفلسطينية بجدية وحماس أكبر؛ فكانت السياسة المتبعة وراء عديد من المبادرات التي تدفع في اتجاه حل الدولتين والتبادل المحدود مع إسرائيل ما دامت دولةً محتلة [مثلاً فتح الرئيس فاليري جيسكار ديستان (Valéry Giscard d'Estaing) مكتب تواصل لمنظمة التحرير الفلسطينية في باريس، ودفع الاتحاد الأوروبي إلى إصدار «إعلان البندقية» لسنة ١٩٨٠ الذي اعترف بحق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم وفتح باب المفاوضات مع منظمة التحرير كممثل للشعب الفلسطيني^(١)]. لكن منذ ولاية الرئيس

(١) علّق رئيس الوزراء الإسرائيلي ماناحيم بيغن على هذا الإعلان بالقول أن «الأوروبيين يطلبون مني التفاوض مع هتلر الفلسطيني» (يقصد ياسر عرفات). هذا مع العلم أن بيغن هذا كان إرهابيًا مجرمًا من الدرجة الأولى!

نيكولا ساركوزي (Nicolas Sarkozy) وحتى الرئيس إيمانويل ماكرون (Emmanuel Macron) مروراً بالرئيس فرانسوا هولاند (François Hollande)، حدث انقلاب في هذا التوجه السياسي؛ فأصبح الأمر يتعلق بمجرد الإدانة اللفظية لإسرائيل والتغطية السياسية على تجاوزاتها تحت عنوان «حق الدفاع عن النفس» من جهة، وعقد شراكات استراتيجية معها في المجالات الاقتصادية والعسكرية والأمنية من جهة أخرى^(١). مع هؤلاء الثلاثة، كُفّت القضية أن تكون قضية مُحتل - مُحتَلين، لتُسمي، مع كل عمل فلسطيني مسلح، قضية إرهاب وإرهابيين. وهذا ما أثر على الإعلام خلال هذه الفترة، وبدرجة أكثر منذ هجمات ١١ سبتمبر على أمريكا وما تلاها من دعاية وأحلاف وأعمال وقوانين ضد العرب والمسلمين، في بلدانهم وفي مهاجرهم. وفي هذه الأجواء التي تشهد تواطئاً بين السياسات والإعلام ومجموعات الضغط المناصرة لإسرائيل، سكر الرأي العام بالقصص السياسي الزائف الذي يُولي ظهره لِدَوي الحقوق، السكان الأصليين. وليس سوى الشبكات الاجتماعية والصحافة البديلة من بدأت تفكيك هذا التحالف السياسي - الإعلامي الصلب الذي جُهد في مسعى حجب الحقائق عن أذهان العموم وإقصاء الأفواه النقدية للمثقفين الأحرار.

وتأتي أحداث ٧ أكتوبر لتجد فرنسا في وضع لا يُحسد عليه: سياسياً،

(١) أنظر هذه التطورات التاريخية في الحوار الذي أجرته القناة الإخبارية الرقمية LE Media مع آلان غريش، بتاريخ 6 نوفمبر 2023، حيث حمل هذا الحوار عنوان: «Si le Hamas est une organisation terroriste, alors Israël »

« est une Etat terroriste » على الرابط: <https://rb.gy/youonha>
كذلك محاضراته الملقاة بتاريخ 25 يناير 2024 تحت عنوان: « Israël - Pale - tine - quelles voies pour la paix »
« Le Monde » ومن تنظيم جريدة
Diplomatique على الرابط: <https://rb.gy/8rbl1v>

وصلت البنية السوسيو-سياسية الداخلية إلى مرحلة تشنج كبير (انقسام سياسي حاد، ارتفاع مؤشرات الفقر؛ استقطاب النقاش العمومي حول قضايا الهوية والأقليات، انحسار جيو سياسي في أفريقيا...)، وإعلاميا، أمسى النموذج التقليدي يترنح. وفي التالي، نعرض تفاصيل بعض خصوصيات المشهد:

- تُسجل فرنسا، اليوم، وجود انقسام سياسي واستقطاب حاد، أولا، وسط الطبقة السياسية وثانيا، بين الطبقة السياسية الحاكمة وفئات محددة داخل المجتمع (عرقية (عرب، زنوج)، دينية (مسلمون)، مهنية (فلاحون، أجراء)، اجتماعية (الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة الدنيا)...). حول عديد من القضايا (الهجرة، المظاهر الدينية، حقوق الأقليات، التقاعد، الفقر...)، وهو انقسام يتعدى أن يكون انقساما بسيطا بالنظر لحجم التوترات التي تصاحبه. ولهذا يتحدث بعض المثقفين الفرنسيين عن وجود شرخ داخل المجتمع، وهناك من يتحدث عن وجود حرب أهلية خفيضة الصوت.
- وبالموازاة مع هذا الانقسام، يحضر تشخيص سياسي متباين بين الأحزاب السياسية لأسباب هذا الانقسام. ترى الفئة الحاكمة (يمين-وسط) في اليسار المعارض مصدرا للتوترات في المجتمع، وتنتظر بتوجس شديد لليمين باعتباره منافسا سياسيا قويا على السلطة، لكنها، في الوقت نفسه، تستفيد من جمهوره وبرلمانيه عند الحاجة إلى تمرير قرارات وقوانين متشددة بشأن الهجرة والمسلمين والأمن. يرى اليسار في الفئة الحاكمة يدا للرأسمالية،

غايتهما خصخصة ما تبقى من المرافق العمومية للجمهورية؛ وبالتالي زيادة الأرباح الخاصة والتفاوت الاجتماعي على حساب الفئات الأضعف؛ كما ينظر إلى اليمين كتيار رجعي حيناً وخائناً لقيم الجمهورية والعلمانية حيناً آخر. بينما يرى اليمين واليمين المتطرف الفئة الحاكمة كحليف موضوعي يمكن استشاره والضغط عليه لتمرير قوانين خاصة بالأقليات والملفات الشائكة (الهجرة؛ الجريمة؛ الهوية؛ الإسلام؛...)، بينما يعتبران اليسار حليفاً للأقليات (ظهر، مؤخراً، في الأوساط اليمينية مصطلح ناظم على معارضة اليسار للضغوطات التي يتعرض لها المسلمون، وهو مصطلح «L'Islamogauchisme»، أي التوجه اليساري الذي يتبنى أو يدافع عن بعض القيم الخاصة بالمسلمين أو يتماها مع مواقف المهاجرين ويدافع عن مصالحهم والذي، بالمقابل، يحظى بجزء من دعم هؤلاء سياسياً وانتخابياً^(١)). هذا إلى جانب تيار سياسي مناهض للليبرالية بدأ في التوسع، يسعى إلى تأكيد استقلالية فرنسا في الساحة الأوروبية من خلال تقوية قرارها الداخلي، بالإضافة تركيزها على قضايا عدة كـ «العرقية الفرنسية»؛ الحق في الأمن؛ نقد الليبرالية... (التيار السيادي^(٢))، الذي تمكن من إحداث تأثير

(١) يُطلق اليمينيون على الشخص بـ L'Islamogauchiste. وذهب ميشيل أونفري بعيداً، في شطحة أخرى من شطحاته، حين اعتبر هذا التوجه حالة من الفاشية.

(٢) يجتمع أنصار هذا التيار حول مجلة «Front populaire» (تأسست في أبريل 2020) وموقع www.frontpopulaire.fr، وهما تحت إشراف المفكر ميشيل أونفري (Michel Onfray) والصحفي ستيفان سيمون (Stéphane Simon).

هام في الرأي العام والنقاش السياسي، وتوجيه نقد قوي للقوى السياسية والاقتصادية في المجتمع، حتى قبل أن يتبلور في إطار حزبي جديد ومحدّد. ومساهمتها في رفق الخطاب السياسي بمزيد من التوتر لا تخفى؛ خاصة بعد جعله من النقد الجذري للرئيس ماكرون محورا أساس لخطابه السياسي.

- حضور قوي لأنصار وأصدقاء إسرائيل في قطاعات مجتمعية هامة، كالسياسة والإعلام والإنتاج الثقافي. حيث يتنوعون من المواطن العادي^(١) إلى الوزراء الأوّل^(٢)، مروراً بالبرلمانيين^(٣) ونخبة القلم (مثقفون وكُتاب وصحفيون ومحامون^(٤)) وغيرهم. إلى درجة أن بعض النشطاء الفرنسي عبروا صراحة عن اندهاشهم لحجم تغلغل القوى الداعمة لإسرائيل في النسيج السياسي-الإعلامي.
- أطل الموقف الرسمي الفرنسي على مواطنيه والعالم في صورة مفارقة لا يُحسد عليها. فهو لا يريد أن يدين بوضوح ويعاقب إسرائيل على

(١) أعطت القنوات الفرنسية الرسمية وغير الرسمية مساحة مهمة للتعبير لفائدة المواطنين الفرنسيين اليهود والمواطنين الحاملين لجنسية مزدوجة إسرائيلية-فرنسية.

(٢) كان الوزير الأول السابق مانويل فالس Manuel Valls في مقدمة الوزراء الأوّل السابقين الذي دعموا بلا مؤاربة عمليات الرد الإسرائيلي في مجملها، حيث أطل في أكثر من حوار على CNews وعلى Europe 1 ليؤكد دعمه للرد الإسرائيلي. حيث اعتبر الحرب شرعية لأنها تتعلق بوجود إسرائيل وبالتالي يتعين تفهمها. ورأى أن إسرائيل - التي يعتبرها دولة ديمقراطية - والغرب واليهود والمسيحيين والديمقراطية والقيم الكونية التي يتبنونها مجتمعين يواجهون نفس العدو الذي يود تدميرهم، وهو: الإسلاميون! أنظر، على سبيل المثال، حوار على قناة Europe 1، بتاريخ 8 فبراير 2024، على الرابط: <https://rb.gy/gquu11>

(٣) في اليمين واليمين المتطرف والوسط واليسار.

(٤) هم عديدون جداً، يستحيل حصر عددهم. وسيلي ذكر أساء وأدوار بعضهم.

جرائمها ويستمر في دعمها سياسيا وعسكريا، وفي الوقت نفسه يريد أن يظهر بمظهر الملتزم بحقوق الإنسان والقانون الدولي. انكشف هذا الموقف المفارق، على استحياء، خلال ولاية الوزيرة الأولى السابقة، إيليزابيث بورن (Élisabeth Borne)، ثم أصبح مكشوفاً مع حكومة الوزير الأول الجديد غابرييل أثال (Gabriel Attal). ولم تكتفِ هذه الحكومة الجديدة بالاستعراض المكشوف لهذه المفارقة، بل شرعت، تحت قبة مجلس النواب الفرنسي، تُدين وتُزايد على من يُشير لهذا الموقف المفارق! كأن ليس من حق أحد أن يُشكك في الطهرانية الفرنسية سلبية أنوارية القرن ١٨، ورومانسية الـ ١٩! وهذا قبل أن يجري، لاحقاً، وبالموازاة مع انطلاق محاكمة إسرائيل أمام محكمة العدل الدولية، تبني خطاب يدعو إلى وقف إطلاق النار وإطلاق عملية السلام ثم استقبال، بباريس، مفاوضات الأطراف العاملة من أجل التوصل إلى اتفاق هدنة جديد بين المقاومة الفلسطينية وإسرائيل.

• في بداية الحرب، سعت السلطات الفرنسية إلى منع التظاهرات المناصرة للفلسطينيين^(١)، واعتُبر البعض - من بينهم أصدقاء لإسرائيل - أن تضامن الفرنسيين هذا، أكانوا من أصول فرنسية أو من أصول مُهاجرة، هو بمثابة استدعاء لمشكل خارجي من شأنه

(١) في 12 أكتوبر، وجّه وزير الداخلية، جيرالد دارمانان (Gérald Darmanin)، تعليمات إلى السلطات المحلية بحظر المظاهرات المؤيدة للفلسطينيين في جميع البلاد، وذلك عبر بيان نُشر على الموقع الإلكتروني لوزارة الداخلية. مع ذلك، خرجت المظاهرات في نفس اليوم وفي الأيام التي تلت ذلك. وفي حالات، استعملت قوات الأمن الغاز المسيل للدموع ومدافع المياه لتفريق المتظاهرين.

زرع الانقسام الداخلي. مغالطة مفضوحة غايتها التعقيم على صوت فلسطين، وبالتالي ضمان إفراغ الشارع مقابل الاستمرار «الهادئ» للمجازر. بل أمكن القول أن هذا الادعاء هو عكس المطلوب، بمعنى أنه لن يكون صحيحاً إلا إذا تم منع المظاهرات بالفعل. فأصحاب هذا الرأي لم يقدموا جواباً عما إذا كان منع المظاهرات سيمنع تفاقم الانقسام أم سيزيده. فعلى عكس معظم دول العالم، يتجه هذا الادعاء إلى جعل الحظر استثناء فرنسياً. ولهذا رأى فيه بعض المثقفين الفرنسيين وصمةً عار في جبين فرنسا^(١).

• وكم هي كثيرة مواقع التوتر والخلل في فرنسا. في الأسبوع الثاني من نونبر ٢٠٢٣، تسربت إلى الإعلام -وربما بشكل مقصود- الخطوط العامة من مذكرة ديبلوماسيّة فرنسيّة موقعة من ١٠ سفراء فرنسيين في الشرق الأوسط والمغرب العربيّ موجهة لرئيس ولوزارة الخارجية (وهو أسلوب غير مألوف في الأعراف الديبلوماسية، وقيل أنه غير مسبوق في التاريخ الحديث للبلاد)، يُعبّرون فيها عن ملاحظاتهم وقلقهم بشأن طريقة التدبير الديبلوماسي غير المتوازن والمنحاز لإسرائيل في الحرب الجارية. وفي تعليق له حول الموضوع، اعتبر السفير السابق في العراق وتونس إيف أوبان دولاً مسوزير

(١) لاحقاً، انضم الوزير الأول البريطاني، ريشي سوناك (Rishi Sunak) إلى هذا الرأي، بعد أن طوqته المجموعة «المنشقة» عن حزب العمال المعارض، التي تقود احتجاجات الشارع من أجل وقف الحرب، بسيل من الضغوطات. وقد كان فوز السياسيّ النصير لفلسطين جورج غالواي (George Galloway) بمقعد في البرلمان البريطاني عن مدينة روتشديل بتاريخ 1 مارس 2024، من الأخبار السيئة لسوناك، والتي دفعته إلى رفع صوته أكثر ضد الاحتجاجات.

أن المذكورة تأتي «نتيجة للمواقف المتتالية لماكرون حول النزاع الإسرائيلي الفلسطيني غير المفهومة» بالنسبة لبعض السفراء. مضيفاً أن «هناك انطباع أن الأمر يتعلق بمبادرات واقتراحات غير مفكر فيها أو مرتجلة تماماً، مثل دعوته إلى توسيع مهام التحالف الدولي ضد (تنظيم) الدولة الإسلامية لتشمل قتال حركة حماس». وهو ما اعتبره «لا فائدة ولا طائل منه» ما دام لن يحظ بموافقة مجموعة من الدول العربية. هذا إلى جانب نقمة بعض الدبلوماسيين عن المنهجية التي يجري بها تدبير الأمور، خاصة وأن الرئيس أحدث خلية دبلوماسية مرتبطة به مباشرة لمتابعة ملف الحرب الجارية، يرى ملاحظون أنها أخذت حجماً مفرطاً، على حساب آراء خبراء وزارة الخارجية^(١).

لقد كانت هذه الرسالة قرصة أذن غير بسيطة لماكرون، دفعت بالناطقة الرسمية باسم وزارة الخارجية إلى التقليل من أهميتها مع تجنب الخوض في تفاصيلها. لكن ماكرون، الحريص على وحدة صورة وأداء حكومته ما كان ليتغاضى عن الأمر. خاصة بعد أن تضافرت عوامل عدة أجبرته على الحد من انحيازه المندفع لإسرائيل (الشارع الفرنسي؛ الرأي العام الدولي، المخاطر الأمنية في الداخل الفرنسي؛ مصداقية فرنسا في الشرق الأوسط،...). حيث

(١) لمزيد من التفاصيل بشأن هذا الخبر، أنظر المقال الإخباري على موقع أورو نيوز «سياسة باريس إزاء الحرب في غزة تثير استياء دبلوماسيين فرنسيين وماكرون يدافع عن موقفه...» بتاريخ ١٥ نوفمبر ٢٠٢٣، على الرابط: <https://rb.gy/>

بدأ الرجل في انتقاد السلوك العسكري الإسرائيلي وصوّت على قرارات لصالح وقف إطلاق النار في الجمعية العامة للأمم المتحدة وفي مجلس الأمن بصورة مخالفة للتصويت الأمريكي والإنجليزي والإسرائيلي. وهو ما عُدّ إيذاناً لتحول هام في منحى التعاطي الرسمي مع الملف، خاصة خلال شهر فبراير ٢٠٢٤.

تطور أداء الإعلام ومواقف النخب

في البدء، عكّس الإعلام الفرنسي ميزان القوة السياسية والتوجه الرسمي وميلاً واضحاً للسردية الإسرائيلية^(١)، وعكّس خطاب المثقفين مدى استيعابهم للمسألة الفلسطينية. ثم تطوّر، تدريجياً، نمط تعاطي كليهما مع الحرب بالموازاة مع اشتداد الأعمال العسكرية المتبادلة وتفاقم الأزمة الإنسانية، إلى أن طرأ تغير نسبي، كمي ونوعي، في التقييمات والتوجّهات والخطابات. وعموماً، يمكن الحديث عن مراحل ثلاث: المرحلة ١: إعلان الضحية إسرائيلي حصاراً؛ المرحلة ٢: رد الاعتبار للسردية الفلسطينية؛

(١) أذكر هنا أن ماكرون دعم إسرائيل بقوة خلال الأسابيع الأولى للحدث، وقام بزيارة تضامنية لإسرائيل في بداية الحرب بتاريخ ٢٤ أكتوبر ٢٠٢٤، والذي دعا فيه إلى مقترح بتوسيع نطاق التحالف الدولي المحارب لتنظيم داعش ليضم محاربة، إلى جانب الجيش الإسرائيلي، حركة حماس. كما قال أنه جاء إلى إسرائيل لكي يُذكر الجميع بحقها في الدفاع عن نفسها في وجه الدمار. يومها بلغ عدد الضحايا في الصفوف الفلسطينية

حصابة الشهداء إلى نحو ٥٨٠٠، منهم ٢٣٦٠ طفلاً و١٢٩٢ سيدة و٢٩٥ مسناً، إضافة إلى إصابة ١٦ ألفاً و٢٩٧ بجروح مختلفة. وزار أيضاً رئيس السلطة الفلسطينية، محمود عباس، في رام الله.

المرحلة ٣: استذكار السلام المُغيب.

في المرحلة الأولى، اخترلت القضية الفلسطينية في هجوم ٧ أكتوبر. «هاجمت حماس الإرهابية دولة إسرائيل الديمقراطية وقتلت ما يزيد عن ألف مدني بطريقة بربرية». ردد أغلب الإعلام والمثقفين هذه اللازمة بلا كلل أو ملل، ومن شذ عن هذا الخط، يُواجه بالسؤال العتيد: «هل تُدين حماس؟»^(١). وانخرط مفكرون بارزون في هذه الحملة المكثفة التي تفتقد الحس النقدي والجرأة الفكرية، ومنهم جاك أتالي (Jaques Atali)^(٢) وميشيل أونفري (Michel Onfray)^(٣). وفي هذه المرحلة أيضا، قدم أنصار الصهيونية على أهم البلاتوهات، وفي مقدمتهم المفكر برنارد هنري ليفي (Bernard Henri Lévy)^(٤)، بالإضافة إلى برلمانيين ونشطاء مدنيين من أنصار إسرائيل وفكرة الصهيونية (في مقدمتهم البرلماني مايير حبيب (Meyer Habib)^(٥)، الذي يقدم نفسه ويقدمه الإعلام كممثل لليهود الفرنسيين الذين يعيشون في إسرائيل!^(٦)). وفتح الباب لمثل هؤلاء لإطلاق سيل من الأخبار الزائفة

- (١) أصبح هذا السؤال نكتة تناقلها الشباب على مواقع التواصل الاجتماعي.
- (٢) أتالي هو أحد أهم مفكري فرنسا، يحظى باحترام واسع في الوسط الثقافي عموما. من أصول يهودية.
- (٣) كان أونفري أحد أدوات هذه المرحلة؛ حيث أطلق لسانه الثرثار للتحليلات السطحية، ولم يُتعب نفسه بمجهود البحث في تاريخ القضية وفي بحث مسائل الحقوق والمظلومية. ستم العودة إليه بتفصيل في فقرة خاصة.
- (٤) فيلسوف وسيناريست ورجل أعمال. مقرب من أعلى مراكز القرار الإسرائيلي. قام بوظائف استخباراتية ودعائية لصالح جماعات مسلحة ومتطرفة في فترة الربيع العربي، خاصة في ليبيا وسوريا. من أصول يهودية.
- (٥) سياسي ونائب برلماني. ذو جنسية مزدوجة فرنسية-إسرائيلية. صديق لبنيامين ناتنياهو. من أصول يهودية.
- (٦) قانونيا، لا يتمتع هذا البرلماني بهذه الصفة. وقد سبق للجنرال نيكولا ريشو (Nicolas Richoux) أن نعت به «الناطق باسم نتنياهو بوتيرة يومية».

والإشاعات المُغرِضة والتحليلات المُبتَسرة (رَدَدَت ساندرا إفراح (Sandra Ifrah)^(١) بعضها. ولاحقاً، بتاريخ ٨ فبراير ٢٠٢٤، اعترفت، على حسابها بموقع X، بكونها بثَّت بعض الإشاعات غير الصحيحة، وأنها كانت مخطئة).

وسمحت عديد من المؤسسات الإعلامية بترويج الأكاذيب على لسان مقربين من إسرائيل وفرنسيين من حاملي الجنسية الإسرائيلية (ككذبة ذبح ٤٠ طفلاً على قناة BFMTV، أو أخبار حرق الأطفال واغتصاب النساء التي راجت حينها دون تقديم دلائل عليها). وقد كانت قناة CNews، على لسان خبراء، من أكثر القنوات نُصرة للسردية الإسرائيلية وأكثرها توجيهاً للنقاش صوب مصلحتها، إلى درجة أنها لم تكن تأبه لتقديم نشرات أو تقارير بشأن الأوضاع في غزة، وكأن لا شيء يقع هنالك!

بينما دُفع بالصوت الآخر المتضامن مع الفلسطينيين وبالمطلعين على تفاصيل القضية الفلسطينية إلى خارج استوديوهات الحوار السياسي الكبرى على القنوات الإعلامية الرسمية [مثلاً، المتخصص في الصراع العربي-الإسرائيلي آلان غريش (Alain Gresh)^(٢)، الكاتب والصحفي المخضرم إدوي بلينيل (Edwy Plenel)^(٣)، أو غيرهما ممن خُبر المأساة الفلسطينية على الأرض (صحفيون محققون؛ نشطاء في مجال العمل الإنساني؛ إلخ)؛ ولم يجد هؤلاء سوى منابر الصحافة الرقمية البديلة للتعبير عن آرائهم ومواقفهم [قنوات يوتيوب؛ مواقع إلكترونية؛ شبكات اجتماعية]. وكان، بين الفينة

(١) ناشطة بارزة على المشهد الإعلامي الفرنسي. نصيرة لإسرائيل. من أصول يهودية.

(٢) ستم العودة إليه بتفصيل في فقرة خاصة.

(٣) مدير تحرير سابق لجريدة Le Monde ومدير حالي لجريدة Mediapart وكاتب.

والأخرى، يخرج صوت نشاز من داخل الاستوديوهات المذكورة فيفسد عليهم تلك الوحدة المصطنعة. وكذلك فعَل دومينيك دوفيلبان ومناضلون بارزون، يساريون وغير يساريين، ك: ماتيلد بانو (Mathilde Panot)^(١) وجون لوك ميلونشون (Jean-Luc Mélenchon)^(٢) ومانويل بومبار (Manuel Bompard)^(٣) وكريم زيريبي (Karim Zéribi)^(٤)، وإلياس صنبر (Elyas Sanbar)^(٥).

وبدفع من الشارع المناهض للحرب والمتضامن مع الفلسطينيين، وخاصة بعد افتضاح النبة الجرمية الإسرائيلية، وعقب قصف مستشفى المعمداني، تقوى الصوت الآخر وزاد الضغط على القنوات الرسمية والاستوديوهات السياسية الكبرى بعد أن أثمرت بالانحياز للسرديّة الإسرائيلية (بما فيها قنوات غير فرنسية كبرى، كـ BBC و CNN). وهنا دخلنا المرحلة الثانية التي وجدت فيها الحقوق الفلسطينية مجالا للتعبير عن نفسها؛ حيث ظهر، في أبرز الاستوديوهات، محللون متخصصون وخبراء عسكريون وسفراء سابقون في الشرق الأوسط، من المطلعين جيدا على الملف وعلى القانون الدولي، وقضايا مثل التطهير العرقي لسنة ١٩٤٨، والقرارات الأممية ذات

(١) برلمانية وسياسية بارزة. رئيسة الكتلة البرلمانية لحزب فرنسا الأبية.

(٢) مرشح اليسار الأبرز للانتخابات الرئاسية في استحقاقين انتخابيين. خطيب مفوه وكاتب. يتابع حسابه على شبكة فايسبوك مليون ونصف متابع.

(٣) برلماني. سجل حضورا بارزا في النقاشات السياسية حول المسألة الفلسطينية.

(٤) كاتب مقالات سياسية، نقابي، سياسي، برلماني أوروبي سابق (عن مجموعة الخضر - الرابطة الأوروبية الحرة) ومستشار جماعي بمجلس مدينة مارسيليا. من أصول جزائرية.

(٥) مؤرخ وكاتب. رئيس تحرير مجلة «دراسات فلسطينية» التي تصدر في باريس. عُين مندوبا لفلسطين لدى هيئة اليونسكو (2005). تقلد مناصل ومهام لفائدة السلطة الفلسطينية. دُرّس القانون الدولي بجامعة باريس ٧. من أصول فلسطينية.

العلاقة، والمعنى القانوني والسياسي لحدود ٦٧، ومشكلة الاستيطان في القدس والضفة الغربية، ومعاونة اللاجئين. وكان هذا إيذانا بتراجع نسبي للسردية الإسرائيلية حول الصراع. وبالموازاة مع هذا، بدأ استهداف هؤلاء على وسائل الإعلام؛ من خلال إخراج ورقة «معاداة السامية» والاتهام بـ «الوقوف مع حماس الإرهابية»، بل والتشكيك في نزاهة بعض الشخصيات وتشويه سمعتها، بقصد اغتيالها معنويا وحرّف الرأي العام عن مواقفها.

وفي هذه المرحلة أيضا، ارتفعت أكثر مساهمة الصحافة البديلة في النقاش حول الملف (جريدة «Mediapart»^(١) وقناة «Le Media»^(٢))، وموقع «www.pascalboniface.com»^(٣)، على سبيل المثال) وتمددت رقعة تأثيرها لما استقطبت عقولا كبيرة وحصلت على دعم الجالية المسلمة المقيمة في فرنسا واليسار والمتعاطفين مع القضية الفلسطينية. كما جرى إسناد عملها بمجهود إعلامي هام من وسائل إعلامية بلجيكية ناطقة بالفرنسية (أخص بالذكر هنا: موقع Invest'action تحت إشراف المتخصص في شؤون الشرق الأوسط ميشيل كولون (Michel Collon)). وحققت عديد من الحوارات السياسية على استوديوهات هذه الصحافة عدد مشاهدات كبير (بلغ في حالات مئات آلاف المشاهدات). وفي هذه المرحلة أيضا، خطّ

(١) جريدة إخبارية رقمية تأسست في 2008. يشرف عليها الصحفي المخضرم إدوي بلنيل. تقدم الأخبار والتحقيقات والتحليلات السياسية.

(٢) قناة إعلامية تُعرف نفسها بقناة اليسار. تأسست في 2017. واسعة الانتشار. ما يزيد عن مليون منخرط في قناتها على يوتيوب.

(٣) تحت إشراف مدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية والخبير الاستراتيجي القدير پاسكال بونيفاس. وهو موقع يقدم تحليلات سياسية واستراتيجية وينشر كتباً في السياسة والعلاقات الدولية والتحليل الاستراتيجي. يُعطي للملفات الشرق الأوسط حيزاً هاماً.

الديبلوماسيون في الشرق الأوسط والمغرب العربي الرسالة النقدية للسياسة الخارجية لحكومة ماكرون تجاه الحرب - التي تحدثنا عنها آنفا. وكذلك توسع حجم وأشكال الاحتجاجات ضد الأداء العسكري الإسرائيلي.

في المرحلة الثالثة، أصبح الدفاع عن إسرائيل صعبا إلى حد ما. كيف لك أن تُدافع عن مجرم ما زال يحمل السكين المُدْمَى في يده بينما يُنكر اقترافه للجريمة وهي تجري على مرأى من العالم؟! هنا، تحول الخطابان الرسمي والإعلامي الفرنسيان معا. تذكّرت فرنسا «نقاءها» الإنساني، فاستلت، من النسيان، خطاب السلام ووقف إطلاق النار والتأكيد على تبني خيار الدولتين والدعوة إلى عقد مؤتمرات للحل النهائي وإيصال المساعدات إلى غزّة. وعمليا، بدأت في التصويت لصالح وقف إطلاق النار في مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة. ففي هذه المرحلة ارتفع أكثر صوت البرلمانيين اليساريين المناصرين للحقوق الفلسطينية بعدما راكم حججا قوية عن إدانته لإسرائيل وللموقف الرسمي الفرنسي وعن ضرورة وقف إطلاق النار، فصار الأمر أكثر إحراجا للحكومة. ومع اشتداد الأزمة السياسية والاجتماعية الداخلية، ولأسباب عديدة أخرى، من بينها النقاش الحاد على خلفية مواقف الدولة من أحداث الحرب، حُلَّت الحكومة الفرنسية التي قادتها إيليزابيث بورن، وشُكِلت أخرى بقيادة غابرييل أتل^(١). ومنذ الوهلة الأولى، حملت هذه الحكومة بشراسة على اليساريين المناصرين للقضية

(١) 34 سنة. ماكروني (نسبة إلى أفكار ماكرون وحركته السياسية التي تنحو إلى الطريق الثالث). تقلد سابقا مناصب كاتب الدولة لدى وزير التربية الوطنية والشباب [2018-2020]، الناطق الرسمي باسم الحكومة (2020-2022)، وزير متدب مكلف بالحسابات العمومية (2022-2023)، وزير التربية الوطنية والشباب (2023-2024).

الفلسطينية، بينما نحا موقفها الديبلوماسي الرسمي نحو خطاب السلام، ثم استضافت في باريس، فبراير ٢٠٢٤، لقاءات للوصول إلى اتفاق لوقف الحرب؛ انتهى بصياغة ورقة-إطار من لدن المشاركين [مصر؛ قطر؛ أمريكا؛ إسرائيل]. كما اتخذت مواقف تدين أعمال المستوطنين في الضفة الغربية^(١).

وفي الواقع، خلال المرحلة الثالثة هذه انقلب المشهد الإعلامي رأساً على عقب. وقد اعتُرت التحليلات الإسرائيلية بنفسها أن الأغلبية العظمى من المنشورات في العالم، على مستويي الصحافة والشبكات الاجتماعية، جاءت ضد السردية الإسرائيلية للأحداث. وأصبح بعض الصحفيين المسؤولين عن أهم البرامج السياسية، بالنظر إلى تحيزهم، من المستقبّحين -أو المُدّنين في الحد الأدنى- على نطاق واسع لدى الرأي العام (الصحفي دافيد پوجادا (David Pujadas) من قناة LCI على سبيل المثال)، وبعضهم نال نصيبه من التفرّيع على الهواء مباشرة بسبب الكيل بمكيالين والتوجيه المغرض للنقاش (الصحفية أبولين دوماليرب (Apolline De Malherbe)، التي تقدم برنامج Face à face لفائدة قناتي RCM و BFMTV ذائعتي الصيت^(٢)). وندد بعض الصحفيين بعدم تمكينهم من تراخيص العمل داخل غزة كما جرت العادة مع

(١) قدم السفير الفرنسي السابق في إسرائيل جيرار أرنو (Gérard Arnaud) مداخلات هامة في هذا الشأن داخل لجنة برلمانية أقيمت للتداول واستقبال شهادات بهذا الخصوص. عرّض فيها إحصاءات ووصفا لأعمال التنسيق الجاري على الأرض بين المستوطنين المتطرفين والجيش بهدف تهجير السكان من أراضيهم في الضفة الغربية من فلسطين، وفنّد ادعاءات بعض البرلمانيين الذين يُنكرون هذه الأعمال، وعلى رأسهم البرلماني الفرنسي، النصير لإسرائيل، مايير حبيب.

(٢) استقبلت برلمانيا يساريا من حزب «فرنسا الأبية»، فسَلط الضوء على أساليب خداعها عند صياغة الأسئلة وتوجيه النقاش بما يُكرس الكيل بمكيالين. حَشَرها في الزاوية فعَرَضها لإحراج كبير. أصبحت في موقع المتهم في برنامج هي التي تُديره! موقف لا يُحسد عليه!

أغلب الحروب واستنكروا هذا الاستثناء (مثلاً، قدمت المحققة الصحفية العاملة بقناة TF1 ليزرون بودول (Liseron Boudoul) مرافعة استنكارية هامة بهذا الشأن). وبدأ العديد من المثقفين والسياسيين يتنبّهون ويُسألون مفارقات العقلين السياسي الفرنسي والغربي وإنسانيتهما المُدعاة: «كيف نُحرك أساطيل بحرية عسكرية ونُقيم تحالفا بهذه السرعة لحماية التجارة الدولية عبر البحر الأحمر، ولا نفعل الشيء نفسه لوقف قتل المدنيين بعشرات الآلاف ولتلبية حاجات إنسانية عاجلة وحيوية كالماء والطعام والدواء والوقود؟!». تردد هذا السؤال الاستنكاري في أكثر من مناسبة^(١).

الهوى الإسرائيلي في الإعلام الفرنسي

منذ الساعات والأيام الأولى للحرب، انكشف انزلاق الإعلام الفرنسي بقوة في اتجاه تبني المواقف الإسرائيلية^(٢)، وظهر أيضاً، بجلاء، أثر تداخل هذا الإعلام بالمصالح الإسرائيلية على تحيز النقاشات وطبيعة الضيوف.

- (١) في أواخر هذه الفترة، بدأ دخول صحفيين غربيين قلة إلى غزة بعد حصولهم على تصريح من السلطات الإسرائيلية، وبدأوا يكتبون بعض التقارير (مثلاً، الصحفية كلاريسا وارد (Clarissa WARD)). وحينها، على قناة LCI الفرنسية، صرّح بحسرة المحقق الصحفي والمتخصص في الشؤون الدولية غالاغير فينيوك (Ga-lagher Fenwick): «من المحزن أن أقول ما أقول.. أن نكون في حاجة إلى دخول شخص بشرة بيضاء وشعر أشقر إلى غزة ليحكي لنا ما كان يحكيه، على امتداد أسابيع مضت، زملائنا وزميلاتنا الصحفيين والصحفيات الفلسطينين بتفاصيل وموهبة وشجاعة أكبر مما فعلته كلاريسا. لكن بما أنها هي من فعلت، أي كلاريسا، فإن الضمير الغربي يتزلزل. إننا (كغربيين) نتأهى مع شخص اسمه كلاريسا أكثر مما نفعل مع شخص اسمه فاطمة أو محمد. وهذا أمر بالغ الحزن».
- (٢) انكشف أيضاً جانب من العداء للمسلمين. وسيجري عرض بعض مظاهر ذلك لاحقاً.

ليس خافيا أنه إلى جانب بعض العملاء لصالح إسرائيل -يهود وغير يهود- مَن يشتغلون داخل المؤسسات الإعلامية الكبرى أو مَن جرى دعمُهم إعلاميا ودفعُهم إلى واجهات الشاشات بكثافة^(١)، فإن بعض المؤسسات الإعلامية الكبرى هي أصلا في ملكية أنصار ومؤيدين للصهيونية أو مزدوجي الجنسية، فرنسيين-إسرائيليين، كباتريك دراخي (Patrick Drahi)، مزدوج الجنسية، الذي يمتلك قناة «BFMTV»^(٢) والقناة الفرنسية-الإسرائيلية «i24news»^(٣). هذا إلى جانب صحفيين غير مهنيين، ممن جعلوا شغلهم الشاغل إدانة حماس وحجب معاناة الفلسطينيين وإظهار إسرائيل بصورة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط التي تدافع عن نفسها ضد البربرية [منهم: پوجاداس آنف الذكر؛ داريوس روشبان (Darius Rochbin)؛ دوماليرب آنفة الذكر؛ پاسكال برو (Pascal Praud)]. كما تدرجت، في مسار التوجه المُناصر للموقف الإسرائيلي، برامج عريقة متخصصة في التحليل الاستراتيجي والجغرافية السياسية؛ لعل

(١) مثلا، أعضاء منظمة «الساينيم» (Les Sayanim) [المخبرون]، وأعضاء منظمة «بِنَايُتْ بَرِيثْ» (Le B'nite B'rith) (وهي الماسونية اليهودية التي تنشط في مجال الفلسفة والثقافة والإعلام)، وكلاهما تابعتان لجهاز المخابرات الإسرائيلي «الموساد». أحيل هنا إلى محاضرة يعقوب كوهين (Jacob Cohen) حول طريقة عمل هذه المنظمات [تم حذفها من موقع يوتيوب]. كما أذكر هنا من بين المنظمات القوية والمثلة ليهود فرنسا ومصالح إسرائيل في فرنسا «المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية الفرنسية» (Le CRIF). وهو نظير منظمة AIPAC في أمريكا).

(٢) من النكات الحقيقية التي حكاها المتخصص في نقد الخطاب الصحفي، دانيال شنيدرمات وتطال قناة BFMTV هي أنها كانت تستضيف على شاشتها، بشكل دوري، ناطقا رسميا سابقا باسم الجيش الإسرائيلي يدعى جوليان بهلول (Julien Bahloul) وتقدمه لمشاهديها بصفته «مواطن إسرائيلي مقيم في تل أبيب»!!!.

(٣) يعمل هذه القناة صحفيون مزدوجو الجنسية، فرنسية-إسرائيلية.

أبرزها برنامج «ما تحت الخرائط»^(١) على قناة «ARTE».

لا بل أكثر من هذا، بلغت صفاقة هذا الإعلام إلى درجة عرض تفاصيل عمليات القتل والأسرى الإسرائيليين وعمليات إطلاق بعضهم وقصصهم الخاصة وقصص عوائلهم، بينما تم تغييب، بطريقة كلية أو نسبية، العمليات والقصص الخاصة بالفلسطينيين. وهذا بمثابة إنكار، واعى في حالات أو لاواعى في حالات أخرى، للألم الفلسطيني، وهو ما يعني، ضمناً على الأقل، رفض الحق والوجود الفلسطيني. الأمر الذي يكشف تلك الخلفية الثقافية والنفسية الرابضة وراء ذهنية هذا الإعلام، ودورها في توجيه الرأي والمواقف والتحليلات.

ولعل من مفارقات المشهد الإعلامي-السياسي الفرنسي، أن ظهر صوت العسكريين أوضح وأشجع وأعلى وأكثر إنسانية والتزاماً بالقانون الدولي وإدانةً للمجازر، مقارنة بالمتقنين! أذكر من بينهم الجنرال جون لوك لوفير (Jean-Luc Lefebvre)، الجنرال ميشيل غويا (Michel Goya)، الجنرال ميشيل ياكوفليف (Michel yakovleff)، الرئيس الأسبق للواء المدرعات السابع نيكولا ريشو (Nicolas Richaux)، والضابط في سلاح البر والمحلل العسكري غيوم أنسيل (Guillaume Ancel) وآخرون. وذهب نفس هذا الاتجاه بعض المتخصصين في الشؤون العسكرية كجون-دومينيك ميرشي (Jean Dominique Merchet). ففي هذا المستوى،

(١) «le dessous des cartes»: برنامج شهير، يقدم باللغتين الفرنسية والألمانية. كان يُعدّه ويقدمه الإثنولوجي والخبير الاستراتيجي جون-كريستوف إيكاتور Jean-Christophe Victor. وبعد رحيله، باتت تُعده وتقدمه الصحفية إيميلي أوبغي (Émilie Aubry).

العسكري، أمكن استيعاب ومقارنة فظاعة ما يجري في مقابل فظاعات التاريخ العسكري الحديث والمعاصر.

دومينيك دوفيلبان كاشفا مأزق فرنسا والغرب بشأن الحقوق الفلسطينية منذ الأيام الأولى لعملية ٧ أكتوبر، برز دوفيلبان على واجهة أهم استوديوهات التحليل السياسي في فرنسا. مستندا على خبرته المهنية كديبلوماسي ورجل دولة واطلاعه على ملفات الشرق الأوسط والعالم ككاتب، اتخذ مواقف سياسية هامة استقطبت الرأي العام والنقاش العمومي الفرنسي حولها، بين مؤيد ومعارض، إلى درجة أن تم إعداد وثائقيات ونقاشات تتساءل حول السبب الذي يجعل آراءه مسموعة ومتابعة^(١).

لنلخص أهم ما ورد على لسان دوفيلبان من مواقف^(٢):

- أثارت هجمات حماس في ٧ أكتوبر شعورا بتهديد وجودي لكل إسرائيلي؛ إذ لأول مرة يتم الهجوم على إسرائيل داخل أراضيها. والحكومة الإسرائيلية تتحمل المسؤولية المباشرة لما جرى؛ بسبب

(١) مثلا، عرضت قناة Le Parisien الرقمية شريطا وثائقيًا بتاريخ 29 نونبر 2023، يحمل هذا العنوان:

Pourquoi Dominique de Villepin fait-il autant de vus dès qu'il parle ?

على الرابط: <https://rb.gy/c2qkrf>

(٢) سأستند إلى معظم البرامج الحوارية التي أطل منها على الرأي العام الفرنسي خلال الفترة أكتوبر 2023 - فبراير 2024 من خلال القنوات والإذاعات العمومية الخاصة التالية: FRA - CNews, TV 5-Monde, LCI, BFMTV, RMC, L'ORIENT-LEJOUR, FRANCEINFO, CEINTER... وأؤكد أنني هنا سأكتفي بالأفكار المتعلقة بعملية 7 أكتوبر وتبعاتها والقضية الفلسطينية ككل، دون الحديث عما ورد عنه من تصريحات بشأن منظومة العلاقات الدولية والتغيرات الاستراتيجية وموازن القوى الجديدة للقرن 21 برغم أهميتها وعمقها.

استمرار الاحتلال والاستيطان في الضفة الغربية. أما رد الفعل الإسرائيلي، فقد جاء غير متناسب وغير محدد الأهداف، ومرتكزا على منطق أمني يتبنى استراتيجية القوة. وبذلك، فما تقوم به حكومة نتياهو هو سياسة انتقامية. الأمر الذي يعكس غياب القدرة لدى إسرائيل على استيعاب دروس التاريخ.

- تمثل الهجمات على المدنيين في غزة قتلا لكل أمل هنالك. وكان المطلوب أن يكون رد فعل إسرائيل بطريقة محسوب ومتناسبة، يستهدف قيادات حماس بالموازاة مع أهداف سياسية. أما تصوّر المدنيين الفلسطينيين كأنهم غير موجودين أو وضع حماس والمدنيين في سلة واحدة فهو أمر غير صائب. فلا إسرائيل حق الدفاع عن نفسها، لا أن يتحول هذا الحق إلى ثأر بلا تمييز. إذ لا يستقيم تحميل الفلسطينيين المسؤولية الجماعية عما فعلته حماس.
- بسبب الهجوم البري الإسرائيلي المكثف على غزة، مع غياب أي أفق سياسي سوى حمام الدم، يجري دفعنا إلى هاوية جيوسراتيجية، تُهدد بتوسع رقعة النزاع.
- يزداد الأمر خطورة في ظل هذا الانقسام الذي يمكن استنتاجه على مستوى العالم بين الغرب وباقي العالم. هذا الانقسام الذي ظهر في أوكرانيا، يجري تكريسه الآن. فالغرب أصبح مُداناً في جميع أنحاء العالم بالكيل بمكيالين؛ إذ أنه ينظر إلى المدنيين الأوكران والفلسطينيين بطريقة مختلفة، كما أنه يُعاقب روسيا على غزوها لأوكرانيا وعدم احترامها للقانون الدولي بينما إسرائيل التي تحرق قرارات الأمم المتحدة منذ ما يزيد عن ٧٠ عاماً لا يقوم بأي رد فعل ضدها. إن الغرب الذي أدار العالم لمدة ٥٠٠ سنة يجب أن يتوقف عن الاعتقاد

أنه ما يزال بإمكانه الاستمرار على نفس النهج بدون مشاكل، خاصة وأنه لم يعد في موقع قوة، وما عاد بإمكان الغرب (أمريكا أو أوروبا) أن يتصرف كدَركي العالم. وإن امتشاق الطبقة السياسية الفرنسية، على سبيل المثال، لخطاب الحرب الحضارية في هذه السياقات سيزيد من تعميق عزلة الغرب في العالم. وهذا ليس هو الطريق الصحيح.

- إذا كان (الغربيون) قد أهملوا المسألة الفلسطينية إلى درجة أن أغلب شباب أوروبا لا علم لهم بها، فإن هذه المسألة بالنسبة للشعوب العربية ستبقى أم المعارك. فهي قضية ما تزال قادرة على تعبئة الجماهير بشكل قوي. ولهذا، يجب على إسرائيل، ذات ٩ مليون نسمة، أن تفهم أنه ليس بمقدورها أن تكون في عداء مع مليار و٥٠٠ مليون مسلم أو أكثر. فالغرب خُدع بصمت الدول العربية والإسلامية في السنوات الأخيرة [هنا، يحيل دوفيلبان إلى مسار اتفاقيات أبراهام]. لهذا، لابد من استراتيجية سياسية لحل القضية الفلسطينية. لأن هذه القضية لن تُشطب في غياب حل لها^(١).

- على القائد السياسي الفرنسي، وهو يتخذ مواقف رسمية، أن يأخذ بعين الاعتبار أثر المأساة الجارية على الداخل الفرنسي وعلى النقاش العمومي؛ وذلك لتفادي تعميق الانشقاق الداخلي القائم في المجتمع الفرنسي أصلاً على مستوى أكثر من موضوع.

- يُعتبر توجيه صك اتهام بارتكاب إبادة جماعية ضد إسرائيل أمام

(١) عبارة «القضية الفلسطينية»، هنا، ليست خطأ في الترجمة، بل يستعملها دوفيلبان بنفسه. وفي حالات أخرى، يستعمل عبارة «المسألة الفلسطينية». كما أنه يستعمل، في سياقات معينة، مصطلح «النكبة» بالعبارة التي يُترجم بها حرفياً إلى الفرنسية (La Nakba).

المحكمة الدولية بمثابة صدمة كبرى بالنسبة لهذه الدولة؛ إذ إنه لأمر مقلق أن يصير الشعب الذي تعرض للمحرقة مُتهماً بارتكاب جريمة إبادة جماعية. ويجب أن نُصدق تعليق تنياهو على الاتهام بقوله أن «العالم أمسى مقلوباً». ففعلاً - يؤكد دوفيلبان - نحن في عالم مقلوب. فقد تغير العالم وذاكرته أيضاً. فإذا كانت ذاكرة الأوروبيين تملأها فظاعة الجرائم النازية، فإن معظم الشعوب الأخرى معبئةٌ ذاكرتها بمآسي التجربة الاستعمارية. واليوم، يتم إنعاش هذه الذاكرة بالرمزية الفلسطينية، باعتبار أن فلسطين تُمثل بالنسبة لبعضهم استعماراً لم ينته بعد.

- كل الطرق تؤدي إلى روما، لكن ليس كل طرق الانتقاد تؤدي إلى اللاسامية^(١).

وبعدها، الاغتيال المعنوي الممنهج...

إن آراء دوفيلبان تلك، وهو المعروف بالاتزان والخطاب المنسجم والسعي لإقرار المرجعية القانونية الدولية في حل النزاعات، لم ترق لأنصار إسرائيل واللوبي الصهيوني في الداخل الفرنسي، فتَمّ توجيه هجوم مضاد ضده. حيث صيغت استراتيجية استهدافه حول مجموعة من المحاور، وجرى تنفيذها على يد سياسيين ومثقفين وإعلاميين ورجال قانون معروفين بتبعيتهم لإسرائيل أو الدعاية لها أو العمل لمصلحتها^(٢)، وذلك على الشكل التالي:

- (١) بهذه الجملة رد على المفكر الفرنسي جاك أتالي الذي اتهم بعض مواقفه بمعاداة السامية. سنعود للحادث لاحقاً.
- (٢) نسبة مهمة منهم كانت من فرنسيين يحملون جنسية مزدوجة (فرنسية-إسرائيلية)

١. اتهامه بمعاداة السامية: جرى تحريف موقفه المدافع عن حرية التعبير ضد هيمنة قوى المال على الفاعلين الفنيين (ممثلين وموسيقين وغيرهم) ودعوته إلى عدم رهن استمرار العقود الفنية مع هؤلاء الفاعلين بتقييد حرياتهم في الرأي والتعبير. فقد عدّ منتقدوه موقفه هذا صادما من نواح عدة. فمثلا اعتبره المفكر جاك أتالي Jaque Attali يستعيد الفكرة النمطية عن الهيمنة المالية لليهود على العالم ونعتَ موقفه بالمعادي للسامية. وذهب بعض الإعلاميين والمثقفين إلى حد التحريف الفعلي لكلامه وليس إلى تأويله -كما فعل أتالي- فحسب. فمثلا، جرى إبدال عبارة «هيمنة قوى المال...» التي وردت على لسانه بعبارة «هيمنة اليهود...» من قبل صحفي وضيفه على قناة BFMTV ذائعة الصيت^(١).

٢. محاولة حشره في الزاوية لإظهاره كشخص متحيز للإرهابيين: ساهم في هذا التكتيك ساسة وصحفيون ومثقفون. فمثلا، كان مانويل فالس (رئيس وزراء سابق) في مقدمة هؤلاء الساسة؛ حيث كتب مقالا هاجم فيه دوقيلبان بشراسة واتهمه بالتحيز للمُهاجرين^(٢). وعلى قناة CNews، تم مواجهته بأربع أنصار ومدافعين عن الموقف الإسرائيلي كمُحاورين (أحدهم جيل ويليام گولدنديل

أو من أصول يهودية.

(١) وذلك في برنامج «120 Minutes»، بتاريخ 26 نونبر 2023. وهذا التلفيق الواضح أودى بالقناة إلى تقديم اعتذار علني عنه إلى عموم مشاهديها.

(٢) نُشر المقال في جريدة Le Figaro، تحت عنوان «Cessons de faire d'Israël

un éternel coupable»، بتاريخ 13 نونبر 2023، على الرابط: <https://rb.gy/nfaphx>

rb.gy/nfaphx

«Gilles William Goldnadil»^(١). وأثناء الحوار، وجه له الصحفي المضيف والمسير للنقاش: «نتحدث منذ ٣٠ دقيقة. ومما قد يصدم فعلا هو كونك لم تنطق بكلمة واحدة حول الرهائن الإسرائيليين»؛ وهي محاولة منه ليُظهر للمشاهدين أن هناك ثقبا في فكر دوفيلبان المنتقد للحكومة الإسرائيلية في مقابل تغاضيه عما فعّلته حماس. ولمنعه من عرض أفكاره التي سعى من خلالها دوفيلبان إلى بيان العقلية العسكرية الإسرائيلية التي تعرقل حلا سياسيا للمسألة الفلسطينية، عمل الصحفي بإصرار على إرجاعه إلى هجوم ٧ أكتوبر، ليضعه بين خيارين لا ثالث لهما: إما إدانة حماس أو تثبيت تهمته التعاطف مع «الإرهابيين» ضده^(٢). أيضا، حين دافع دوفيلبان، في مقابلة أخرى معه، عن فكرة سابقة له بشأن وجود نظام تمويل عالمي يؤكد سلطاته في مجالات عدة كالمجال الفني، يسأله صحفيان يحاورانه دُفعة واحدة: «من يكون هؤلاء الذين في حوزتهم المال؟»، في محاولة منهما لينطق بعبارة «هؤلاء هم اليهود» فيثبتون بذلك تهمة «المعاداة لليهود/ للسامية» ضده^(٣). وقد تكرر

(١) كاتب ومحامي. نصير الكبير لإسرائيل والمدافع الشرس عن مصالحها. وهو ذو أصول يهودية. يحضر بكثرة في على استوديوهات الحوار السياسي.

(٢) أنظر برنامج «L'heure des pros 2»، على قناة CNews، بتاريخ 14 نوفمبر 2024. والصحفي المقصود هنا، والذي انكشف تحيزه لإسرائيل واضحا، هو باسكال پرو (Pascal praud).

(٣) مقابلة معه على إذاعة France Inter، Dominique de Villepin : «La légitime défense n'est pas un droit à une vengeance indiscriminée»، بتاريخ 12 أكتوبر 2023، على الرابط: <https://rb.gy/egl44x> وأشار هنا إلى أن القانون الفرنسي يُعاقب على هذه التهمة في حالة ثبوتها قضائيا.

هذا الأسلوب الكيدي في أكثر من حوار صحفي أجري معه.

٣. محاولة وصفه بأحد خدام قطر في فرنسا: من بين الادعاءات التي أثارها خصومه كان اتهمه «بكونه أحد المقربين من قطر»، كونه «سفير قطر في فرنسا»، لديه «مصالح مالية مع قطر»^(١). وذلك لنزع المصدقية عن آرائه وتقديمه كمدافع مأجور عن مصالح العرب.

ويبدو أن لا شيء من هذا نال من الرجل أو استطاع إيقافه^(٢). ولهذا، لجأوا إلى أساليب أخرى، أكثر صبيانية؛ ومنها اقتطاع بعض وسائل الإعلام التي استضافته، ومنها CNews، لأجزاء من الحوارات التي أجرتة معه بهدف حجب موافقه وآرائه، وكذا إنتاج أفلام وثائقية حول مساره السياسي تطعن في مصداقيته. ومع ذلك لا بد من تسليط الضوء أكثر على مواقف الرجل وآرائه من زاوية نقدية...

(١) نفسه. وقد ردّ دو فيليبان على هذه الادعاءات بحجج قوية، كما أن خصومه لم يستطيعوا إثبات ما ادّعوه. ورُدوده عليهم حول هذا الموضوع وُردت في حوار معه بتاريخ 26 نونبر 2024 على قناة LCI وحمل عنوان:

Guerre Israël-Hamas critiqué pour ses propos sur Israël, Dominique de Villepin répond sur LCI

على الرابط: <https://rb.gy/9vwp61>

(٢) من المهم أن نذكر هنا أن الرجل حصل على دعم مجموعة من السياسيين والمثقفين والصحفيين، الذين نفوا عنه مجموعة من الاتهامات، كمعاداة السامية مثلاً، ومنهم الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا هولاند (François Hollande). وأجرى مؤسس ومدير التحرير السابق لموقع «arretsurimages.net» المتخصص التحليل النقدي للخطاب الصحفي، دانيال شنيدرمان (Daniel Schneidmann) حواراً مع القناة الإعلامية الرقمية Le Media عرض فيه بعض الأفكار بخصوص أساليب الصحافة في استهداف دو فيليبان، وذلك بتاريخ 28 نونبر 2023 حمل عنوان: «Antisémitisme ? Dominique de Villepin على الرابط: <https://rb.gy/6wkrck>

خلال خرجاته الإعلامية الموقّعة في أغلب الأحيان، وعلى الرغم من جسارته وصموده أمام الضغوط وتكالب الخصوم، ظل دوفيلبان، الديبلوماسي المتمسك بمرجعية القانون الدولي، يؤدي ما يعتبره واجب النصح السياسي لبلده ويقول ما يعتبره صواباً بشأن أزمة دولية شائكة، لكن أدائه ظل محكوماً بسقف محدّد لا يتجاوزه. من حق دوفيلبان أن يقدم نفسه كشخص عمومي مستقل. لكن استقلاله محكوم بأطر لا واعية. فالخطوط الحمراء الضمنية التي يفرضها السياق والنسق كانت غائبة - حاضرة. غائبة في القول، حاضرة خلفه.

ساعات طوال من المرافعات والتحليلات والتقييمات، وفقرات طوال من إصااق أشع النعوت بأعمال حماس، لم ينطق خلالها دوفيلبان بكلمة «مقاومة» أو «حق الشعوب في المقاومة». ولا ندرى كيف يكون الرجوع إلى القانون الدولي مدخلاً أساساً لحل الأزمة، دون أن تتم الإحالة إلى ما يقره هذا القانون من حقوق للشعوب التي تترج تحت الاحتلال.

لا يتردد دوفيلبان في وصف عملية حماس في ٧ أكتوبر بـ «الإرهابية» و «البشعة» و «البربرية» و «الدينئة»، لكنه يكتفي باستعمال عبارات فضفاضة بشأن الأعمال العسكرية الإسرائيلية: كـ «الأعمال العيشية»، أو يكتفى بتوصيفها سياسياً كـ «عمليات بلا أفق سياسي»،... فهو، وعلى غرار معظم النخب الثقافية والسياسية الفرنسية، بما فيهم المؤيدون للحقوق الفلسطينية، لا يجرؤون على نطق عبارات من قبيل «أعمال الإرهاب اليهودي الإسرائيلي» أو «إرهاب الدولة» أو «الوحشية العسكرية الإسرائيلية» أو «آلة القتل الإسرائيلية» أو ما إلى ذلك. ويزيد دوفيلبان خطوات أخرى إلى الأمام،

فيعتبر حماس «الورث الحالي لتنظيم داعش في الشرق الأوسط»^(١). وهو لا يُقدم حججه بشأن أوجه الشبه بينهما، أكان في العمل العسكري أم السياسي أم في السياق! بل يكتف بإطلاق الحكم. ويمكن ملاحظة أن هذا التشبيه لم يظهر أثناء عرضه لمواقفه الأولى خلال الشهرين الأولين للحرب، بل تمّ بعد. وهو ما يمكن قراءته بكونه محاولة لاحقة منه لأخذ مسافة من حماس انتقاءً لضغط الإعلام الموجه ضده^(٢). فكأنه، هنا، يُرضي انتظارات أصدقاء إسرائيل من خلال التضحية بالحقيقة، حقيقة كون حماس حركة وطنية تحررية بموجب القانون الدولي نفسه. وهل يخفى عن دوفيلبان كون منظمة الأمم المتحدة لا تعترف بحماس كحركة إرهابية؟!.

وفي غياب نطقه بعبارة «المقاومة الفلسطينية» أو اعترافه بمشروعيتها، يبقى السؤال التالي مطروحاً: كيف لأحدهم أن يقر، استناداً إلى القانون الدولي، بوجود الاحتلال في الضفة الغربية والقدس الشرقية - في الحد الأدنى - دون أن تكون مقاومته مشروعة؟. إنها أحد مفارقات خطاب الرجل.

والخطير في خطاب دوفيلبان التضامني هو أنه يُلغي البعد الحقوقي للمسألة. بيد أن ما يجري على الأرض من مجازر وتجاوزات وانتهاكات لا يكفيهِ التضامن، بل يستوجب التأكيد على الحقوق. فهو يعترف بالنكبة كحدث مأسوي لا كحدث مؤسّس لحقوق مستندة على مظلومية أصحابها. كما أن عودته إلى التاريخ لا تتم لكشف حقائقه، وإنما ليختار منه نقطة يبنى عليها تحليلاته. ولهذا فهو لا يفتأ يُردد، بلا انقطاع، تاريخ ١٩٦٧ (وليس

(١) أنظر مثلاً حوار المذکور آنفا الذي حمّل عنوان: Guerre Israël-Hamas critiqué pour ses propos sur Israël Dominique de Villepin répond sur LCI.

(٢) فعلاً، ففي نفس هذا الحوار تشكى من ضغط الإعلام عليه لإجباره على الصمت.

(١٩٤٨). أما إحالاته على قرارات الأمم المتحدة فلا تتم بقصد التذكير بما تُقر من حقوق للفلسطينيين، كحق العودة مثلاً - الذي لا يأتي ألبتة على لسانه هو الآخر -، بل يُذكر بهذه القرارات ثم يدعو إلى حل سياسي ما (هكذا) من دون الاستناد إليها. فالمهم عنده أن يكون هناك حل سياسي حتى لو ثبتت موازين القوى عند نقطة ليست في صالح الفلسطينيين وحتى لو لم ينهض على الحقوق المثبتة في قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة. وفي حالات، تتجه إحالاته إلى الدعوة إلى فرض حلول ما على الأطراف. ولهذا تراه لا يتورع عن الحديث عن خلق (هكذا) ممثلين للشعب الفلسطيني ليكونوا بديلاً عن حماس!!! هكذا يتحدث الغربيون عن الديمقراطية حين لا يكونون في حاجة إلى استثمار المفهوم!

خطابات سياسية وجيو-ثقافية مقارنة

في الجهة المقابلة لخطاب الديبلوماسية الشجاع نسبياً، وبالموازاة معه، كانت هناك أصناف خطابات أخرى من أدلت بدلوها في النقاش. بعضها أساء لصفته ولنفسه. كان هناك المثقف الثرثار (ما أكثرهم في فرنسا!) والمحلل السياسي الجاهل (عديد منهم نصير للكيان أو ينعم بدعمة الإعلام أو المالي أو هما معاً في مجال تخصصه^(١))، والمسؤول السياسي الفظ (بعضهم برتبة رئيس جمهورية سابق^(٢)) والمتخصص الحذر وكذلك المتخصص الجسور.

(١) سينما؛ تشكيل؛ أدب؛ فكر؛ صحافة؛ غيرها.

(٢) أقصد بالتحديد فرنسوا هولاند (يسار اشتراكي)، الذي صرح، مجيباً عن سؤال لصحفية فرنسية، أنه لا يمكن أن نقيم نفس التكريم الذي أقيم للفرنسيين ضحايا هجوم حماس لفائدة أرواح الفرنسيين الذين قُضوا في غزة. وذلك لأن أولئك ضحايا

وعموماً، يمكن القول أن الأصناف تعددت بتعدد وتداخل عديد من المحددات كالتكوين الأكاديمي، الانتماء الأيديولوجي، المسار المهني، قوة الشخصية ومدى استقلالها، الموقع داخل أو خارج السلطة، الحرص على مصالح شخصية... ولناخذ المفكر ميشيل أونفري والصحفي آلان غريش على سبيل المثال، ثم نقارنهما مع دومينيك دوفيلبان.

دومينيك دوفيلبان في مرآة ميشيل أونفري^(١)

اكتسب ميشيل أونفري دُرّة كبيرة على الحديث في الاستوديوهات السياسية وأمام محاورين أكفاء. لكن هذا لم يُجنبه نقیصة التسرع في إصدار الأحكام. ورغم محاولاته التعرف على الشرق وقضاياها، بقيت معارفه محدودة، بل تحمل بعض المغالطات^(٢). ومن دون أن أنكر شجاعة أونفري

عمل إرهابي بينما هؤلاء ضحايا أعمال حربية وأضرار جانبية لها!!!. لكن نظيره، مانويل آلّس (يسار-وسط)، لم يكن أقل وقاحة منه، بل فاقه بأشواط. فالآلس هذا انتقل من نصير للحقوق الفلسطينية في الحزب الاشتراكي إلى متنكر لهذه الحقوق، شيئاً فشيئاً، انطلاقاً من 2010. اتهمه بعض اليساريين بأنه تخلى عن مبادئه بخصوص القضية الفلسطينية استعداداً للترشح للرئاسيات الفرنسية، واتهمه جون لوك ميلونشون بالتقرب من قيادات اليمين الإسرائيلي المتطرف. كذلك أقر وزير الخارجية الأسبق رولان دوما (Roland Duma) بخضوعه لتأثير إسرائيلي، وأنه كان لزوجته اليهودية تأثير عليه أيضاً.

(١) مفكر ومثقف فرنسي. غزير الكتابة (فكر، فلسفة، سياسة، تاريخ). يحظى بحضور واسع في وسائل الإعلام الفرنسية، وله تأثير كبير على الرأي العام (مبيعات كتبه على رأس القائمة). يُعرّف نفسه من أنصار المدافعين عن السيادة الفرنسية في مقابل أوربة فرنسا، وأحياناً يُقدم نفسه كدوگولي (أي كمدافع عن الخط السياسي للجنرال دوگول).

(٢) مثلاً، يعتقد أن الدين الإسلامي يمتلك نُسخين من القرآن: قرآن مكة وقرآن المدينة!

في الإعلان عن آرائه وشغفه بالمعرفة واستزادتها، تبقى جُرائته في الحديث، بثقة عالية، عن موضوعات يجهل تفاصيلها وتعقيداتها أمراً مُفزعا ومصدرا للتشكيك في مصداقية خطابه. والمثير هو أن بعض آرائه لما بعد عملية طوفان الأقصى جاءت غريبة، بل صادمة.

في حوار له مع «لوفيغارو»، أظهر أونفري تراجعاً عن بعض أفكاره النقدية السابقة التي تأخذ مسافة من عقيدة الصراع الأيديولوجي والحضاري الذي يقسم العالم إلى عالم الخير وعالم الشر والذي يدعونا إلى الاختيار بين الإسلام أو مسيحية جورج بوش. ففي هذا الحوار، أكد دخوله، هو الآخر، إلى الاصطفاف في هذا الصراع (أي إلى صف المسيحية-اليهودية الغربية ضد باقي العالم)^(١). وهذا ما يرفضه عُقلاء العالم، ومنهم دوقيلبان، لأنه يقودنا إلى مزيد من النزاعات والتوترات

(١) لم يكن الوحيد الذي طرح هذه المقاربة. كان هنالك أيضاً بعض سياسيي ومثقفي اليمين المحافظ الفرنسي الذين يستسهلون تفسير الأزمات الداخلية والدولية بالعامل الثقافي حصراً، وهو ما تلخصه العبارة التالية: «نموذجنا الثقافي ونمط عيشنا في خطر من قبل الآخر، المسلمين بخاصة» (مثلاً، السياسي ومرشح الرئاسة الأخيرة إيريك زومور Eric Zemmour). وهو أيضاً موقف بنيامين نتيناهو في بداية الحرب: نتذكر فكرته حول النور (إسرائيل وحلفاءها الغربيين) ضد الظلام (حماس ومن يُناصرها)!. ووجد رأي آخر - حتى لدى بعض المثقفين اليساريين - لا يقل اختزالية؛ فجاك أتالي (Jaque Attali)، وهو مفكر يساري بارز، اختزل الصراع الجاري في غزة ضمن تأويل سياسي يُقسم العالم إلى ديمقراطيات وديكتاتوريات ويفسر النزاعات بناء على ذلك، ولذا فالصراع في غزة الآن، في نظره، يتعلق «بديكتاتورية لا تقبل بوجود دولة ديمقراطية إلى جانبها»! (ما هذا الهذيان؟!). ولم يتردد أتالي في ترديد أكاذيب دعاية الجيش الإسرائيلي (ومنها، أن حماس هي من قصف مستشفى المعمداني). أنظر آراءه ومواقفه هذه في حوار على إذاعة Europe 1، بتاريخ 20 أكتوبر 2024، على الرابط: <https://rb.gy/eb3gj5>

والدماء بين المجموعات الثقافية داخل الأوطان أو عبر الحدود.

وفي هذا المناخ المشحون بين الغرب والشرق من جانب، وبين الغرب والعالم من جانب آخر، يُعلن أونفري أنه «ما عاد الوقت وقت بحث عن أخلاقيات بديلة (أخلاقيات إحادية مثلاً) أو وقت نقد المسيحية، بل هو وقت مقاومة إسلام يأخذ طابع الفاشية اليوم، ومقاومة لآسامية مسلمة باتت تُمثل إشكاليةً بالنسبة للحضارة الغربية، ومقاومة ثقافة كراهية المسيحيين^(١) القائمة اليوم»^(٢) (هكذا!!!)، وبعد أن يُعلن عن تخليه عن قناعاته السابقة في الموضوع، يصل إلى إعلان قناعاته الجديدة، فيقول: «أنا في جانب المسيحيين الذين يتم اضطهادهم اليوم، ومع الدفاع عن الحضارة (الغربية بشكل خاص)، فأنا أفضل الحضارات التي يُسمَح فيها للنساء بارتداء التنورات القصيرة وحيث نستطيع أن نُنظم الحفلات الجنونية ونأكل النقائق ونشرب الكحول إلخ»^(٣) (هكذا!!!). أتساءل: كيف يصل بعض متفلسفة الغرب إلى هذا الحال من التبسيط دون شعور بالخجل؟! صدّق هشام جعيط حين كتب: «لو مدّ أحد مفكري فرنسا يدا طيبة للمفكرين المسلمين، لأمكن الخروج بأسئلة أكثر عمقا وأكثر اتساعا من تلك التي نراها تتكاثر على طرق ثقافت ضيقة»^(٤).

وقد استثمر أونفري كل خرجاته الإعلامية ليعرض وجهة نظره

(1) Christianophobie La

(٢) حوار مع ميشيل أونفري، على برنامج «Club Le Figaro Idées»، على الصفحة الرسمية لـ «لوفيجارو» على فايسبوك، بتاريخ 24 فبراير 2024.

(٣) نفسه.

(٤) هشام جعيط، أوروبا والإسلام، ط. 1، دار الحقيقة، بيروت، 1980 ص. 50.

الاختزالية حول المسألة الفلسطينية ولتحدث بعلموية مَرَضِيَّة عما يجري. في حوار معه، يُصرح أن فلسطين أمست بالنسبة للعالم مجرد وسيلة لشرعنة معاداة السامية^(١) (!!!) وأن الحديث عن قوانين دولية للحرب مجرد سفسطة؛ لأن حدود ما هو مسموح به من قتل وما هو غير مسموح به غير محددة بوضوح. (هكذا).

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد. فأونفري، في حوار سياسي آخر معه، وصل به الأمر إلى درجة التبرير الكامل لفظاعات الرد الإسرائيلي بدعوى أن الحرب حربٌ وليست شيئاً آخر بكل ما تتضمنه من ضحايا، وأنه لا يمكن للمهاجمين أن يُجَدِّدوا للمدافعين طريقة ردهم، قبل أن يُردف قوله هذا باتهام الفلسطينيين في الضفة الغربية بأنهم دائمو التَّشكي من أوضاعهم البيئية تحت الاحتلال^(٢) (هكذا!!!) ... يا للوقاحة!

فلا تثرثرات أونفري ولا جُرأته النقدية ولا عمقه الفكري بلغت به حدود إقرار الحقوق التاريخية للفلسطينيين أو حقوقهم بموجب قرارات مجلس الأمن أو حقوقهم التي يقرها القانون الدولي الإنساني أو حتى الحقوق التي يُقر بها الضمير السليم. فهنا كانت تحليلات وخلاصات دومينيك دوفيلبان

(١) عن مقطع من حوار له مع راديو Europe 1 بتاريخ 26 أكتوبر 2023، يحمل عنوان: «C'est une guerre de civilisation : un bloc judéo-chrétien contre un bloc islamique» على الرابط:

<https://rb.gy/sxnsse>

(٢) برنامج «Le grand rendez-vous»، في بث مشترك بين CNews وEurope 1، بتاريخ 18 فبراير 2024. في هذا الحوار حاولت الصحفية المُحاورة أن تُذكره بأن شرعنة الرد الإسرائيلي على هجمات 7 أكتوبر لا يعني شرعنة حصيلة الخسائر التي وصل لها والنتائج المترتبة عليه، فردَّ أونفري «هذه هي الحرب» (!!!). على الرابط: <https://rb.gy/48sw8b>

أكثر جرأة ومتقدمة خطوات كبيرة، أخلاقيا وسياسيا وحقوقيا، بالمقارنة مع تلك التي أتى بها أونفري.

الديبلوماسي والمتخصص: دومينيك دوڤيلبان وألان غريش^(١)

وهو العارف بتفاصيل ملفات الشرق الأوسط والصراع العربي-الإسرائيلي برصيد متابعة يقارب الخمسين عاما، خطى غريش بعيدا في إقرار الحق الفلسطيني وإجراء قراءة أكثر التزاما بالقانون الدولي. وبينما جرى، بصورة متعمدة، تغييبُ صوته على شاشات القنوات الإعلامية الرسمية، وبالأحرى على القنوات الخاصة المناصرة لإسرائيل، استقبلته الصحافة الرقمية البديلة، وعبرها قدّم آراءه ومواقفه، بالإضافة إلى المقالات التي كتبتها على جريدة لوموند^(٢).

اعتبر غريش أن سؤال «هل تُعتبر حماس منظمة إرهابية؟»، الذي كان يتصدر أسئلة الصحفيين على الضيوف في استوديوهات النقاش السياسي،

(١) آلان غريش (Alain Gresh): صحفي فرنسي، مدير تحرير سابق لصحيفة Le Monde diplomatique، مؤسس الموقعين الإخباريين Orient21 و Afrique21. متخصص في الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، ونشر عديد الكتب في المجال، بعضها أمسى مرجعيا. يُتهم هو الآخر بمعاداة السامية. وهو ممن لا يتم استدعائه للتعبير عن آرائه في جميع وسائل الإعلام الفرنسية الكبرى.

(٢) عرض آراءه في الموضوع في مقالات نشرت على صحيفة Le diplomatique Monde، كان أحدها في عددها لنوڤمبر 2023 تحت عنوان: Barbares et civilisés. بينما كان الحوار الذي أجرته معه القناة الإخبارية الرقمية LE Media، إحدى أهم إطلالته التي قدم فيها تفاصيل بشأن تشخيصه للوضع ومواقفه من الصراع الفلسطيني-العربي، م. س. وقدم مداخلات أخرى بالتزامن مع تطورات الحرب.

يُمثِّل طريقةً لتوجيه النقاش إلى وجهة محددة سلفاً. هذا في وقت لم يطرح أحد سؤالاً: «ماذا نقصد بمنظمة إرهابية؟» أو «مَن يقرر هذا النعت؟». ويؤكد غريش أن حماس معتبرة إرهابية من لدن الاتحاد الأوروبي وأمريكا فحسب، بينما باقي العالم لا يعتبرها كذلك. وباقي العالم هذا ليس بلا شيء مقارنةً بالاتحاد الأوروبي وأمريكا (أكان من حيث عدد السكان أم من حيث عدد الدول). وفي هذا الشأن، يُفضل غريش قلب الطاولة برفض فكرة وجود «منظمة إرهابية» رأساً؛ على أساس أنه لا توجد منظمة تجعل أيديولوجيتها هي الإرهاب في حد ذاته أو أنها تضع الإرهاب في قلب مشروعها السياسي. ويرى أنه إذا تواضعنا على تعريف الإرهاب بكونه «قتل المدنيين»، وإذا اعتبرنا، تبعاً لذلك، أن حماس منظمة إرهابية، فإن إسرائيل تكون أيضاً منظمة إرهابية بعدما قتلت عشرات آلاف المدنيين في غزة. وإذا كان إدراج حركة حماس على قائمة الاتحاد الأوروبي للإرهاب منذ ٢٠٠١، وبالتالي أصبح من غير القانوني إجراء أي تواصل معها، فإن استمرار التواصل مع إسرائيل يكون أمراً لا معنى له في هذه الحالة. ليُخلَص إلى أن مفهوم الإرهاب مفهوم فارغ، وأننا، في الغالب، نُطلق صفة الإرهاب على المنظمة التي نرغب في إدانتها. وهذا ما فعلته بريطانيا وأمريكا مع المؤتمر الوطني الجنوب أفريقي بزعامة مانديلا، وفرنسا مع جبهة التحرير الجزائرية.

ويتساءل غريش، مستنكراً، عن السبب الذي يجعل الإعلام الفرنسي يتقاعس عن التوقف عند خطاب الحرب والكرهية ضد العرب والمسلمين على لسان مسؤولين إسرائيليين في السلطة، والذي كثيراً ما يستحضر نصوص تراثية يهودية تشرعن الإبادة الجماعية. بينما الأمر يستحق التوقف عنده.

وفي الوقت الذي يدين المتابعون للأحداث جريمة الإبادة الجماعية التي

ترتكبها إسرائيل في غزة، ويوافق هو على هذا الاتهام (يقول: هذه أول إبادة جماعية تتم، حرفياً، تحت أعيننا^(١))، يؤكد غريش على ضرورة التذكير بأنه، وقبل ذلك، تُعد إسرائيل منتهكة للقانون الدولي. فالأمر لا يتعلق فقط بالبعد الإنساني للمسألة بل هناك، في الأساس، البعد السياسي. إذ يعتبر أنه ما لم نَحُل، سياسياً، مسألة مستقبل الشعب الفلسطيني وحقه في تقرير مصيره والحصول على دولته، سيكون هناك عنف بالضرورة في المستقبل. لأن الاحتلال يُولد العنف.

أما بشأن وصف أعمال الفلسطينيين بالإرهابية في الإعلام الفرنسي وغيره، فيرى غريش أنها مجرد عملية لنزع المصادقية عن مناهضة الفلسطينيين للاحتلال. ويرى أن إعلان الحرب الدولية على الإرهاب على امتداد منتصف العشرية الأولى من القرن الـ ٢٠، حَلَق مناخاً ثقافياً في الغرب يقوم على فكرة «أننا نخوض حرباً عادلة ضد الإرهاب والإرهابيين الإسلاميين»^(٢). وما يُلاحظه غريش هو أنه بالرغم من فشل ما سُمي بالحرب على الإرهاب بطريقة مُفجعة، جرى استعادتها بعد هجمات ٧ أكتوبر. ولذا، يَسْخَر من الرئيس الفرنسي ماكرون، الذي يرغب في تجريب ما ثَبَّت خطأه لَهَا دعا من تل أبيب إلى تشكيل تحالف دولي ضد حماس^(٣)، كما لو أن حماس -يقول- هي نظيرٌ لتنظيم داعش أو تنظيم القاعدة، بينما حماس هي أحد المنظمات التمثيلية

-
- (١) يَذْكُر غريش ويُذَكِّر بأن مجموع عدد قتلى حصار ساراييفو الذي امتد لأربع سنوات كان أقل مما خَلَفه الرد الإسرائيلي في غزة من قتلى خلال الشهرين الأولين فقط.
- (٢) في هذا المناخ أيضاً، تصاعدت أصوات تدعو إلى تعلم أساليب الإسرائيليين (خاصة التكنولوجيا) في صَدِّ الإرهاب وحفظ الأمن. لكن غريش يرد على هذه الادعاءات بالقول أنه إذا كان هناك مكان غير آمن على وجه الأرض فهو إسرائيل.
- (٣) بل وصف غريش هذا المقترح بالموقف الغبي الناتج عن وجود مشكل في الجهاز الديبلوماسي الفرنسي.

للشعب الفلسطيني^(١). فهي تشارك في الانتخابات، وفازت في أحدها. وهي الانتخابات التي تنكر الغرب لتنتائجها، كما لو كان هذا الغرب - حسب غريش دائما- يقول لحماس «لا! أنتم غير معترف بكم»، وللפלستينيين «إنَّ لكم حق التصويت، لكن ليس لتختاروا أولئك الذين ترغبون في التصويت عليهم!». وإذا كانوا اليوم يصنفون حماس بالإرهابية، فهذا، في نظره، أسلوب لنزع المصدقية عنها وحرفاً للنقاش عن الأسباب الحقيقية للصراع.

وتعليقا على مدى صواب اختيار حماس للأعمال العسكرية التي نفذتها في ٧ أكتوبر، يعود غريش إلى مجمل القصة، قصة عقود الاحتلال الماضية - التي يُنسى فيها الشعب الفلسطيني حين يَسْتَكِين أمام عنف الاحتلال، ثم يُدان حين يتحرك لمقاومته. ويقول أنه حتى عندما لا يكون خيار الفلسطينيين هو اللجوء إلى استراتيجية العنف، فإن ردود إسرائيل تكون قوية، بما فيها أعمالها في الضفة الغربية التي لا تحضر فيها حماس إلا بنسبة قليلة. أما بشأن غزة، فيؤكد أنه لا يمكنك أن تحاصر أناسا في قفص وتحرمهم من الطعام وأشياء أخرى، وحين يقومون برد فعل ما، تتساءل: لماذا يقومون بهذا الرد؟.

يضيف غريش، المطلع جيدا على ما يجري على الأرض، أنه في الضفة الغربية يؤدي التظاهر السلمي إلى رميك بالرصاص. كما أنَّ تعرُّضك المستمر للاعتيالات والاعتقالات والمضايقات والضغوطات من قبل الجيش والمستوطنين قد لا يترك لك خيارات كثيرة، وبعدها يتساءل الإسرائيليون عن سبب رد الفلسطيني بالطريقة التي يرد بها. وهذا ما يتعجب له غريش. فالمشكل، في نظره، ليس هو الأعمال العسكرية للفلسطينيين، كما لن يكون

(١) فهذه حقيقة بالنسبة له، حتى وإن كان لا يُوافق حماس على نمط تدبيرها لبعض الملفات الداخلية في غزة باعتبارها سلطة حكم وإدارة.

الحل عبر الاغتيالات المستمرة لقيادات فتح (في السابق) أو حماس (اليوم)، ولا عبر المزيد من القوة بدعوى تحقيق الأمن... بل المشكلة هو الاضطهاد القائم على الأرض. ففي نظره أن الناس لم ينتخبوا حماس لأنها إسلامية، بل لأن اتفاقيات الحل السياسي مع إسرائيل لم يجر تطبيقها ولأن الأطراف المعنية - وهذا ينطبق على بعض الديبلوماسيين الفرنسيين أيضا - أمست على اعتقاد خاطئ مفاده أن القضية الفلسطينية انتهت. ولكل هذا، وقبل أن يرتفع عدد القتلى الفلسطينيين، دعا غريش، مبكرا، إلى وقف الحرب.

وهذا مدخلنا لمقارنة آرائه وباراء دوفيلبان. فالملاحظ أن هذا الأخير لم يهتم كثيرا بالدعوة إلى وقف الحرب، حتى وإن أبدى تضامنه مع الضحايا واعترفه بجزء من حقوق الفلسطينيين. فالذي أقلق دوفيلبان هو غياب رؤية سياسية لما بعد الحرب لدى حكومة نتنياهو من جهة، وعدم انتقائية الضربات من جهة ثانية. ولهذا، كثيرا ما تحدّث عن تفضيله لـ «الضربات الموجهة التي تُجيد إسرائيل تنفيذها» (يقصد سياسة الاغتيالات). فهو لا يناع في تنحية حماس، ولا يعترف بها كمنظمة تحررية، بل يهتم أكثر بتصفيتها وإيجاد بديل عنها، ضاربا بعرض الحائط تمثيلية حماس وباقي حركات المقاومة في الشارع الفلسطيني واختيارات الفلسطينيين أنفسهم لمن يمثلهم. وهنا تظهر تلك الزوايا القبيحة في تفكير الرجل. فتضامنه الإنساني مع الفلسطينيين، كعمل أخلاقي للقلب والضمير، لا يستتبعه الاعتراف بحقوقهم كاملة، ولا بحقوقهم في مقاومة الاحتلال بكل الوسائل المتاحة في ظل ظروفهم القاسية. وفي حالات، يبدو مجرد ديبلوماسي يبحث عن حل تبسيطي على المقاس لمشكل معقد قائم على مظلومية تاريخية كبرى.

فدوفيلبان، كجمهوري سابق، حتى وإن بدا متمسكا بإرث دوغول -هذا الذي لا يميل كل الميل ويُسمي الأشياء بمسمياتها، مع جسارة في اتخاذ الموقف- ظل في مستوى أقل بكثير مما أعلن غريش، أو مما تُعلن قيادات سياسية في حزب «فرنسا الأبية»^(١) على سبيل المثال. معزولاً ومع تحيد الخلفية التاريخية للصراع، سيظهر دوفيلبان فارساً مقداماً صادحاً بالحق، لكن عند وضعه في مقابل بعض المطلعين أكثر على الملف أو بعض المناضلين السياسيين الذين تخلصوا من خوفهم والخشية على مصالحهم، سيأخذ الرجل حجمه الحقيقي.

وإذا أخذنا ٣ قيادات من هذا الحزب المذكور، وهم جون لوك ميلونشون، ماتيلد بانو ومانويل بومبار، يمكن أن نلاحظ الزوبعة السياسية التي أحدثوها في المشهد السياسي ككل، سواء على صعيد البرلمان أو استوديوهات الإعلام أو شبكات التواصل الاجتماعي أو العمل الاحتجاجي الميداني، حيث كان دفاعهم عن الحقوق الفلسطينية -على غرار غريش- أقوى ودعوتهم إلى وقف الحرب أوضح، وإدانتهم وفضحهم للجرائم الإسرائيلية أبرز. بل ورفضوا، منذ البدء، نعت حماس بالحركة الإرهابية، ودعوا، بإصرار، إلى تطبيق القرارات الأممية كما هي وإلزام إسرائيل بأحكام القانون الدولي بدل استثنائها دون غيرها.

(١) حزب يساري. تأسس في 2016، وقدم القيادي السياسي البارز جون لوك ميلونشون مرشحاً عنه للرئاسة مرتين متتاليتين، فانهى هذا الأخير رابعاً في الأولى (2017)، وثالثاً في الثانية (2022). عقيدة الحزب عبارة عن مزيج من الأفكار الاشتراكية الديمقراطية والأفكار المدافعة عن البيئة والحلول الاقتصادية والاجتماعية البديلة. يُعد الحزب الآن أهم قوة سياسية يسارية، بـ 75 نائباً برلمانياً.

ملاحظات واستنتاجات على سبيل الختم

في أحد خطاباته ضمن فعالية ثقافية منظمة من قبل اليونسكو، صرّح روبير بادنتي (Robert Badinter)^(١) قائلاً: «...إن معاداة الصهيونية ليست في العمق شيئاً آخر سوى التعبير المعاصر عن معاداة السامية.. أي معاداة اليهود»^(٢). هذه هي الفكرة التي أربكت، وما تزال، المشهد الإعلامي والسياسي الفرنسي. فهذا الخلط المتعمّد بين الصهيونية واليهودية يسعى إلى تكميم الأفواه ومواجهة العقول النقدية بتهمة جاهزة في نصوص القانون الفرنسي. وهي نصوص جاءت، في الأصل، لحماية الأقلية اليهودية، لكن يُراد لها أن تتمدد لتغطي جرائم دولة محتلة تحترف القتل والاضطهاد.



أظهرت هذه الأزمة تراجع الدور الفرنسي والأوروبي في المسألة الفلسطينية وفي إقرار حقوق الفلسطينيين. حيث انحصر هذا الدور، أولاً، في التغطية السياسية على الرد العسكري الإسرائيلي، وثانياً، في تزويد إسرائيل بجزء من الأسلحة والذخيرة. لم ينتبه هؤلاء إلى أن هذا الدور السلبي سيخدم المصالح الإسرائيلية الآنية لكنه، على العكس، سيزيد علاقاتهم مع العرب والمسلمين

(١) سياسي يساري عن الحزب الاشتراكي وكتّاب. وزير العدل [1986-1981]؛ رئيس المجلس الدستوري [1995-1986]؛ برلماني في الغرفة الثانية [1995-2011]. معروف بمرافعاته وعمله من أجله إصلاح القوانين الجنائية وضد معاداة السامية. من أصول يهودية.

(٢) تمت إعادة نشر مقطع من كلمته هذه على موقع المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية الفرنسية (Le CRIF) على صفحته في فايسبوك، بتاريخ 14 فبراير 2024. وللإشارة، فإن هذا المجلس في فرنسا، يمثّل مجلس اللوبي اليهودي في أمريكا، المسمى AIPAC.

توترات جديدة، وأن هذا لن يكون في صالح فرنسا وباقي الدول الأوروبية ألبته، وهم الشركاء الأقرب للمشاركة والمغاربة والترك، عبر البحر الأبيض، والذين يتدخلون معهم في علاقات اقتصادية وثقافية وحتى بشرية هامة.

في حرب ١٩٦٧، قام دوغول بمنعرج كبير، حين اتجه نحو الإقرار بحقوق العرب الترابية وإدانة عدوانية إسرائيل، وذلك ضدا عن التوجه العام الفرنسي المناصر بعماء لإسرائيل حينها. بينما ماكرون، اليوم، يفعل العكس تماما، أي معاكسة إرادة رأي عام واسع، فرنسي وعالمي، يدعو لوقف النار والمجازر في حق المدنيين الفلسطينيين؛ حيث لا يتخذ قرارات عملية من شأنها تغيير ميزان العلاقات مع إسرائيل. ويصعب القول، وهو الذي على وشك إنهاء ولايته الرئاسية الثانية، أنه يفعل ذلك بحثا عن مصالحه السياسية التي يضمنها له الولاء للوبي اليهودي-الصهيوني العالمي وقواه المالية والسياسية في العالم. لكن خطابه السياسي بشأن إسرائيل وسلوكها العسكري، والخطوات التي أظهرها اتجاهها تُظهر حجم تواطئه مع الجرائم الاسرائيلية. وقد لخص حفل التأبين، الذي نظمه بتاريخ ١٤ فبراير ٢٠٢٤ تكريما لـ ٤٢ فرنسيا^(١) قُتلوا في عملية ٧ أكتوبر الكثير. ففيه وصف هذه العملية بـ «أكبر مذبحة مُعادية للسامية في هذا القرن»^(٢).

لقد جرى هذا الحفل بتوجيه من فكرتين رئيسيتين: ١. تكريس مقتل هؤلاء الفرنسيين في الذاكرة الجماعية مع النظر لماكرون كرجل دولة وفِيّ لذاكرة

(١) أغلبهم يهود يحملون الجنسية الإسرائيلية أيضا.

(٢) لم ينتبه ماكرون، في هذا الخطاب، إلى المذابح التي يتعرض لها الساميون الآخرون في غزة على المباشر. وعموما، يمكن الإشارة هنا إلى أن هذا الخطاب حمل شاعرية مبالغ فيها مقابل المحتوى السياسي المتواضع (حتى لا نقول الوضع).

يهود فرنسا وراعياءهم؛ ٢. استبعاد، ما أمكن ذلك، المأساة الفلسطينية (حتى الفلسطينيين ذوي الأصول الفرنسية ممن قُتلوا تحت الضربات الإسرائيلية تم إقصاؤهم من حق التأبين هذا!)، ولهذا، لم يأت ذكر اسم فلسطين أو الفلسطينيين أو حقوقهم أو ضحاياهم أو ظروفهم تحت الاحتلال على لسان ماكرون يومها.

*

يُعد نسيان الأحداث المؤسّسة لإسرائيل منذ مطلع القرن ٢٠ وإلى ١٩٤٨، عملية ذهنية يقوم بها العقل الغربي والفرنسي، الرسمي والنخبوي، لألا يرى في حدث قيام إسرائيل، كدولة محتلة، حدثاً تأسيسياً للمشكل، أي الحدث - الخطيئة. فما بالك بشأن التذكير بتفاصيل ما حدث فعلاً (المجازر والتشريد والسرقه والاضطهاد). ففي نسيان النكبة، يُحقق الغرب الفصل بين مأساة الفلسطينيين ومسؤوليته السياسية والأخلاقية عنها، أولاً، وغُفران جرائمه ضد اليهود الأوروبيين بعد أن مكّنهم من وطن بديل كتعويض ثانياً، وتجنّب إدانة دولة احتلال في مقابل إدانة «الإرهابيين الذين يهددون أمنها» ثالثاً. فهذا النسيان المركب، الثلاثي [نسيان الحدث المؤسس (التاريخ)، نسيان المسؤولية (القانون)، نسيان الضحية (الأخلاق)]، يعفيهم من طرح السؤال الأساس والجوهري في كل ما يجري: على حساب من قامت الدولة الإسرائيلية؟

ويظهر هذا القلق من هذا السؤال وتجنب طرحه - أكان ذلك بالعودة إلى التاريخ أو إلى القانون الدولي أو إلى موجبات الضمير الأخلاقي - في ما عايناه على الإعلام الفرنسي النصير لإسرائيل والساسة، أصدقاء إسرائيل، من رفضهم الحاسم للعودة إلى الماضي والرجعيات، ورغبتهم المسعورة من

الانطلاق من حدث ٧ أكتوبر كأساس للفهم والتحليل.

ثمة مرضٌ ذهني غربي، يمكن أن نُطلق عليه «متلازمة الحَقَّين»، أقصد «حق إسرائيل في الوجود» و«حق إسرائيل في الدفاع عن النفس». فقد ارتقى هذان الحقان في العقل الغربي إلى حالة من التعالي لا مثيل لها، فصارا جزءاً من ميثافيزيقاه للعلاقات الدولية.

فبالنسبة للغرب، لا تُحدد حقوق إسرائيل في الوجود أو في الدفاع عن النفس ضمن سياق تاريخي مترابط ومعقول أو بالاستناد إلى شرعية قانونية ما، بل بالارتكاز على مطلق الادعاء بكون الحق حقٌّ لإسرائيل. حيث يكفي هذه الأخيرة أو حلفاءها التلفظ بقول «إن هذا الحق حقي / حقها» ليجري تأسيس حق ما لإسرائيل، وذلك ضداً على الحقيقة التاريخية وذوي الحقوق الفعليين والقانون الدولي. وفي الميدان، تُعطي الآلة العسكرية الإسرائيلية شكلاً لهذا الحق المُدعى (يقف الحق في المكان الذي تصله الدبابة)! وبالمقابل، وبعد أن يُصادر الإسرائيلي الحق من الغير، يُردّ المنتظم الدولي بلفظية مماثلة تُدين باللسان ولا تُعاقب بالفعل. والأمثلة كثيرة: غزو لبنان واحتلال جنوبه؛ احتلال الأراضي العربية في ٦٧؛ الاستيطان في الضفة الغربية؛ اتخاذ القدس عاصمة لإسرائيل؛...

كما أن الحق في الدفاع عن النفس بالنسبة لإسرائيل، يقول عامر محسن، «يتمدد ويتحول في لغة السياسة الغربية ليُصبح حقاً يسجن ملايين الفلسطينيين وتدمير حياتهم، أو قصف وترهيب محيط الكيان وإقليمه، حتى تشعر إسرائيل بالأمان^(١)»!

(١) عامر محسن، السلاح والكلام، جريدة الأخبار (اللبنانية)، 5 دجنبر 2024، على الرابط: <https://rb.gy/ujpzvc>

نكتشف مع هذه الأزمة أننا لسنا بصدد خطاب رسمي غربي متمرکز حول ذاته يرى في غيره تشخصاً للشر فحسب. بل أمكننا أن نكتشف نموذجاً غريباً لنوع من الخطاب المنقسم حول نفسه إلى حد الفصام لدى بعض النخب، التي أمكنها تقديم خطاب تضامني وإنساني، لكنه، في الوقت نفسه، لا يعترف بالحقوق الكاملة لمن يتضامن معهم، ولا بالحقوق التي يمنحها لهم القانون الدولي. يا للمفارقة! وتترجم هذا الصنف من الخطاب عديد من الأقوال التي أمست موضوع تندرّ الشباب على وسائل التواصل الاجتماعي، من قبيل: «نعم، كل الأرواح متساوية، ولكن...»؛ أو من قبيل تجنب الحديث عن حق العودة للاجئين أو احتلال القدس أو حق مقاومة الاحتلال أو جرائم الحرب التي تأسست عليها الدولة الإسرائيلية منذ ١٩٤٨ وما يستتبع ذلك من ملاحقة وجبر الضرر وغيرها من الموضوعات. ويُعد هنا دومينيك دو فيلبان نموذجاً حياً لهذا النوع من الخطاب الفصامي. وواقع اللعبة الدولية وأخلاقيات العلاقات الدولية تُبين، أكثر من أي وقت مضى، أن القوة والمصلحة ملازمان لعالم يفتقر، يوماً بعد يوم، معالم الطريق. وأن الحق، حقك، سيكون كذلك ما استطعت حمايته.

لم تحمِ إيران نفسها من أمريكا والغرب سوى بامتلاك القوة الاستراتيجية، لم يردع حزب الله إسرائيل سوى بتطوير منظومة المقاومة العسكرية وشعبياً، لم تُخرج المقاومة العراقية معظم القوة العسكرية الأمريكية من العراق سوى بالأعمال المسلحة المُرفقة بالضغط السياسي والشعبي العالي، لم يُحافظ الحوثيون على استقلال مناطقهم من الغزو السعودي-الإماراتي المدعوم غربياً سوى بتطوير منظومة دفاع فعالة ومنظومة هجوم مركزة.

فالمشكلة في الخطاب البديل عن المقاومة المسلحة، بكل أصنافه، يقول

عامر محسن «هي أنه يركز على مفهوم شكلي (Formalist) للحقوق والقانون و«المجتمع الدولي» والنضال «المدني»، وما إلى ذلك من أدوات في جعبته»^(١). وهو ما يعني أنك لن تنعم بحقوقك فعليا، وليس فقط في قرارات ووثائق الأمم المتحدة، إلا إذا اقتحمت، بقوتك، تلك النقاط التي استُلبت منك وجعل منها عدوك قلاعا وتحصينات ومستوطنات ومنتجعات على مرمى من عينيك.

نعم، وبعد ٥ أشهر من هجمات ٧ أكتوبر، لا يمكننا أن نتغافل عن ما يزيد عن ٣٠ ألف قتيل و ٧٠ ألف جريح وعشرات آلاف البيوت والمرافق والبنى التحتية المهدمة جراء رد الفعل الإسرائيلي؛ فالحسائر كبيرة، بشرية ومادية ولا مادية. لكن هذا الأمر لا يمكن بأي حال أن يصل إلى التشكيك في مشروعية وجدوى المقاومة، خاصة وأن الإسرائيلي لا يحتاج لمبررات مشروعة أو كافية للقتل والتدمير^(٢). وهل كانت المجازر الأولى في حق الفلسطينيين (دير ياسين؛ الطنطورة؛ كفر قاسم؛ الحسينية؛ إلخ) لها ما يُبررها غير مُصادرة حقوق السكان الأصليين؟ إن البحث عن الأسباب الحقيقية لهذا الحجم من الضحايا والخسائر لما بعد ٧ أكتوبر يجب أن نبحت

(١) السلاح والكلام، م. س.

(٢) للتوسع بشأن النقاش حول جدوى عملية 7 أكتوبر والمقاومة عموما، أحيل القارئ إلى مداخلات عزمي بشارة التي عرض فيها أفكار هامة بهذا الخصوص. وخاصة مداخلته على قناة العربي 1، بتاريخ 25 فبراير 2024، والتي تحمل عنوان «احتمالات الصفقة قبل رمضان ونقاش جدوى المقاومة»، على الرابط: <https://rb.gy/h4vok7>، وكذا مداخلته الافتتاحية في المنتدى السنوي لفلسطين الدورة الثانية - 2024، بتاريخ 10 فبراير 2024، على الرابط: <https://rb.gy/y6aau9>

عنه في فكرة وطبيعة المشروع الصهيوني والعقلية الأمبريالية الغربية ذاتها. وفي هذا الشأن يقول عامر محسن بشي «من السخرية، أنه «يكفي أن نفهم، في العالم الحقيقي، ما هو «الفلسطيني» في نظر هذه القوى التي يُفترض أن نَسْتَمِيلها ونرتكز إليها في حرب ضد أشرس قوة استعمارية في العالم اليوم. أنا أتكلم هنا عن الخطاب الرسمي الأوروبي، لا الأمريكي، وعن البيانات الأكثر «تعاطفا» مع الفلسطينيين. في هذه السردية، الفلسطينيُّ يمتلك حقوقا، مثل الحق في الحياة (شكرا)، الحق في «الكرامة» (كلمة مبهمة، لا محتوى محدد لها)... هذه «الحقوق» كلها تنبع من فكرة «بشرية» الفلسطيني؛ أي إنه -بيولوجيا- إنسانٌ «مثلا» ينتمي إلى الفصيلة ذاتها. ولكنه بالقطع ليس كائنا سياسيا لديه وطنٌ وإرادة وملكية جماعية لإرث تاريخي. هذه «الحقوق» فوق ذلك، تنطبق حصرا على «المدنيين»، الأطفال ومَن هم في مقامهم، أي العزل المبعدين عن السياسة، أما أي فلسطيني يتَسَيَّس ويقوم بفعلٍ ما ضد الاحتلال فهو، حتى في عقل الاتحاد الأوروبي، يُصبح هدفا مشروعا للقتل. هنا مفهوم «الفلسطيني» يُصبح مُساويا تماما لمفهوم «الأهالي» الذي كان يستخدمه الاستعمار الفرنسي لتوصيف الشعب الجزائري، باعتبارهم مجرد «كائنات بشرية» موجودة في الخلفية، صُودف أنهم ينتشرون على هذه الأرض، ولكنهم ليسوا شعبا أو مواطنين أو أصحاب قرار^(١)».

وهذا إن دل على شيء، فإنه يدل على أن الغرب ما يزال غير قادر على الاستغناء عن اليد القذرة التي يبطش بها في الشرق الأوسط (إسرائيل). ما زال يحتفظ بها كخط عسكري متقدم.

وهي الحقيقة التي عبر عنها، في الجهة المقابلة من الأطلسي، روبير كينيدي جونيور (Robert Kennedy Junior) (وهو مرشح مستقل لرئاسيات أمريكا-٢٠٢٤) في جوابه، بتاريخ ٢ نونبر ٢٠٢٣، عن السؤال «ماذا لو اختفت إسرائيل؟». حيث أجاب «إذا اختفت إسرائيل من منطقة الشرق الأوسط سيحدث فراغ. وكما تعلمون، إسرائيل هي سفيرنا هنالك. إنها تمثل وجودنا هنالك، وهي رأس حربةتنا في الشرق الأوسط. هي سمعنا وبصرنا؛ فهي تمنحنا المعلومات الاستخباراتية والقدرة على التأثير في شؤون الشرق الأوسط. وإذا اختفت فإن روسيا والصين ستسيطران على الشرق الأوسط وعلى ٩٠٪ من إمدادات النفط في العالم، وسيكون ذلك كارثيا على الأمن القومي الأمريكي».

كل هذا يجعل من منطق المقاومة، وقُطب راحة «محور المقاومة» مشروعا جيوسياسيا للخروج من دوامة الاستتباع، أي تلك الاستراتيجية الغربية التي تجعل المنطقة تخضع لأولويات الاستكبار العالمي ضمن منطق رد الفعل المستمر (أو الاستدراج كما يُحب البعض تسميته^(١)).

نعم، إن الغرب ليس واحدا، أَقَارَنَّا بين سلوك دُوله أو بين مواقف سياسته أو بين آراء مثقفيه. لكن أثر مفاعيل أولئك مجتمعين تَتَمَخَضُ عن غرب مُؤَذِّ لغيره، ولنا بالتحديد كمسلمين^(٢). إذ يظل صوت العقل في الغرب على

(١) تناول عبد الله العروي أبعاد هذه الظاهرة الحضارية في خلاصة كتابه «الأيديولوجيا العربية المعاصرة»، م. س. ص. 253.

(٢) في ماي 2023، أصدر معهد واتسون (جامعة براون الأميركية) تقريره حول ضحايا الحروب التي قامت بها الولايات المتحدة، منذ هجمات 11 سبتمبر 2001، فقَدَّر أن إجمالي عدد القتلى في أفغانستان وباكستان والعراق وسوريا واليمن والصومال ما لا يقل عن 4.5 إلى 4.7 مليون شخص، بعضهم قضى في القتال،

هامش فعله. فعلى حد قول أحمد فرحان، «أظهر الغرب أنه غير قادر على التعامل مع بقية العالم بنفس الضمير الأخلاقي الذي يحكم علاقته بنفسه». واليوم، بعد المجازر والجرائم في فلسطين المحتلة، يمكن لغرب الحديد والنار أن يأخذ وقتاً فيُنظر إلى وجهه في مرآة الحدثِ علّه يعرف من يكون. أما باقي العالم، الذي يضم أغلب سكان الكوكب، فيعرفه إلى حد الفضيحة!

لكن العدد الأكبر، وخاصة من الأطفال، قتلوا بسبب الآثار غير المباشرة المصاحبة للحرب، حيث يقدر عددهم بنحو 3.6 إلى 3.8 مليون شخص. أنظر: محمود عبد الهادي، كيف تجعل 5 ملايين قتيلاً تساوي صفر؟، موقع الجزيرة الإخباري، 8 فبراير 2024، على الرابط: <https://rb.gy/cts6jb>

عندما تعض المدرسة النقدية ذيلها:

«مبادئ التضامن» والانعطاف الانتكاسية
أمام زخم مانيفاكثورات الثقافة

عبد العالي العبدوني^(١)

لم تكن الأحداث الدامية التي عرفها قطاع غزة لتمر مرور الكرام بين يدي وسائل الإعلام الغربية، بسعي حثيث لكي الوعي العمومي، على أن الدمار والخراب يقع تحت قسوة المفهوم القانوني المسمى بـ «حق الدفاع عن النفس»، وبأن الإشكالات الإنسانية المتعلقة بسقوط المدنيين من مختلف الأعمار، ناتجة عن ضيق مساحة «أرض العمليات» واختباء المقاتلين الحمساويين ومن معهم ضمن الوجود الإنساني المدني المكثف، هي ترنيمة تم تكرارها أمام كل كارثة إنسانية تحدث، لأن كي الوعي يحتاج إلى أقلمة الأوضاع مع الرؤية الأساسية.

دائماً ما كان الإعلام كذلك وبمختلف اتجاهاته ساعياً إلى كي وعي

(١) باحث في الشؤون السياسية والقانونية، محامي بهيئة الدار البيضاء.

الجمهور، وفق ما يسمى بـ « الخط التحريري » ودائما ما كانت اللعبة كذلك، ولهذا ليس من باب العجب أن نقف أمام هذا الكم الهائل من الترنح الأخلاقي في تدبير أزمات إنسانية خارقة.

بل ليس من باب العجب أن نجد المثقفين الغربيين بمختلف تياراتهم يحاولون امساك العصا من النصف، يدينون الأعمال الوحشية وإن كانوا يتفهمون سلوكها تحت مسمى « الحق في الدفاع عن النفس »، وهي قراءة غامضة تأصيلا وغامضة تفصيلا، لأنه وفق القانون الدولي إسرائيل تظل دولة محتلة لأراضي فلسطينية حتى ضمن السقف المتفق عليه في اتفاقية غزة - أريحا والبروتوكولات التنظيمية لها، نتيجة التوسع وقضم الأراضي الفلسطينية بنية بناء المستوطنات، فيكون « الحق في الدفاع عن النفس » متهاويا لأن دولة الاحتلال لا يمكنها أن تستفيد من هذا المقتضى القانوني للقيام بالعمليات الحربية، فالمحتل لا حق له من الأساس.

ومن هنا وجه الغموض التأصيلي، إذ أن الإعلام الغربي يحاول جاهدا تبيئة الاستيطان على أنه حالة حقوقية قائمة، ولهذا بالضبط نجده لا ينوه إلا إشارة إلى تصريحات الأمين العام للأمم المتحدة ولباقي التمثيليات المتفرعة من هذه المؤسسة - والتي وإن كان عليها مآخذ كثيرة لكنها تشكل الحد الأدنى القيمي والقانوني الموجود دوليا - بهذا الخصوص.

فأمام زحام الإعلام وأسلوب النكاية والمكايدة، نكتشف بأن الغرب لم يعد يطبق المكنة الاختلافية في تدبير النزاعات الكبرى، وصار حديا بل وصفري المواجهة مع الرأي المختلف وإن بحساب، فالإدانة يجب أن تهم طرفا واحدا ولا يمكن أن تمس الكيان الإسرائيلي بأي وجه، وبمجرد أن تبدي وجهة نظر متوازنة بهذا الخصوص، يتحول المثقف إلى « كبش أضحية »

حمالاً لخطايا الطرفين، إما معنا وإما علينا، لا منطقة وسطى تسمح بالمناورة. وحده المثقف المتحصن من تهمة « معاداة اليهود » لأنه يهودي يمكنه الكلام بحرية أكثر وإدانة الأعمال الإجرامية الصادرة عن الكيان الصهيوني، أو المثقف القانوني الدولي يمكنه إنهاء النقاشات التفصيلية وفضح محاولة إضفاء أصباغ فكرية هنا وهناك بغرض تخفيف وطأة الجريمة التأسيسية، على أساس أن القاعدة القانونية باردة وقاسية في نفس الآن.

وهنا بالضبط سوف نجد أن ثمة لعبة مفاهيمية قانونية يتم تصحيفها لأغراض سياسية وإعلامية، تساعد في التحكم في الجمهور وتخديره حتى أمام أكبر الانتكاسات الإنسانية.

لكن المبدأ الأساس هو أن الكيان الإسرائيلي لا يتحوز حق الدفاع الشرعي عن النفس بالطلق في الأراضي المستوطن لها، وبالنسبي في الأراضي المعترف بها من قبل الأمم المتحدة على أنها أراضي إسرائيلية، لأن هذا الحق على نسبيته لا يستعمل إلا بين دول، لا في مواجهة تنظيمات قتالية.

فبتأريخ ٨ دجنبر ٢٠٠٣ أصدرت الجمعية العمومية للأمم المتحدة قرارا تحت رقم 14 / ES-10 في دورتها العاشرة الاستثنائية الطارئة، تطلب فيه من محكمة العدل الدولية رأيا استشاريا بخصوص السؤال الآتي:

«ما هي الآثار القانونية لبناء سور لاسرائيل، بوصفها قوة محتلة، والتي تعمل على إنشائه داخل التراب الفلسطيني المحتل، شاملة للداخل ومحيط قدس الشرقية، وفقا لما تم بيانه في تقرير الأمين العام، أخذا بعين الاعتبار القواعد ومبادئ القانون الدولي، لا سيما الاتفاقية الرابعة لجنيف سنة ١٩٤٩، والقرارات المعتمدة بهذا الخصوص من مجلس الأمن والجمعية العمومية؟»

وبمجرد وضع الملف بين يدي محكمة العدل الدولية خرجت بخلاصات هامة تهم عدم شرعية بناء السور الواقعي، بل وسارت أبعد من ذلك مؤكدة تحقق الاحتلال للأراضي الفلسطينية، تاركة لمجلس الأمن اتخاذ ما يراه مناسباً من قرارات لإنهاء انعدام الشرعية الدولية لهاته، ومسقطه في نفس الآن «الحق في الدفاع الشرعي عن النفس» لأنه حق لا يقوم على خرق قانوني أساسي وهو الاحتلال والاستيطان.

وهو الأمر الذي تكرر في قرارات أممية كثيرة لا داعي لسردها ما دام الكيان الإسرائيلي نفسه يبدي تذمراً منها، ويعتبرها ماسة بحقه في الوجود. واقعاً ما نعيشه في هذه الفترة الزمنية القصيرة المدى، العميقة الأثر هو ذلك الصدام الخفي المسمى بالسردية القانونية والسردية السياسية المتمحكة في المصالح الدولية، مما أدى يقيناً إلى محاولة التهرب من السردية الأولى في ظل السعي للدفاع عن السلوك العسكري الإسرائيلي، لأن السلوك العسكري الإسرائيلي لم يجد ولن يجد عاصداً قانونياً واحداً لما يقوم به، فانكفاً نحو الخطاب اللاهوتي في أدنى مستوياته ساعياً لكسب شيء من الشرعية الدولية، الأمر الذي زاد من محتته.

لأن «الخطاب الصهيوني لا يمكن أن يدخل ضمن مفاهيمه مفهوم التاريخية المفتوحة، إنما هو يهتدي بلاهوت مذهبي، وبما أنه يظل سجين الوعي الشقي فهو لا يستطيع أن يعترف بالآخر»^(١) فالإعصال السردية لدى الكيان الإسرائيلي وخصوصاً في ظل حكم الليكود، أنه أنهى جسر

(١) عبد الكبير الخطيبي: النقد المزدوج، تر: أدونيس، وعبد السلام بنعبد العالي، وزبيدة بورحيل، ومحمد برادة، منشورات الجمل سنة ٢٠٠٩، الصفحة ٤٨.

السردية الدولية مطالبا العالم الوقوف معه ولو في « مرحلة إدارة التوحش » مستعيدا الرزنامة الخطائية لمرحلة « الجريمة التأسيسية »، الأمر الذي أخرج حتى أشد المدافعين عنه والذين حاولوا توسل الحجة لعلهم يخففون من « وحشية » ما يحدث.

وهنا بالضبط سوف ندخل إلى صلب الموضوع محاولين الجواب عن سؤال: كيف يتهاوى الفكر النقدي أمام مانيفاتكورات الثقافة والإعلام، ليتدحرج إلى السطحية العامة.

« مدرسة فرانكفورت العجوزة » و « مبادئ التضامن »

بتأريخ ١٣ نونبر ٢٠٢٣ أصدر كل يورغن هابرماس، ونيكول ديتلهوف، وراينر فورست، وكلاوس غونتر منشورا أسموه « مبادئ التضامن » لدى مركز أبحاث الأنظمة المعيارية Research Center Normative Orders^(١)، خالصين في تصريحهم إلى مسألة شديدة الخطورة من حيث المبدأ قائلين ما يلي « إن المذبحة التي ارتكبتها حماس مع النية المعلنة للقضاء على الحياة اليهودية بشكل عام دفعت إسرائيل إلى الرد. أما كيفية تنفيذ هذا الانتقام، المبرر من حيث المبدأ، فهي موضوع نقاش مثير للجدل؛ ويجب أن تكون مبادئ التناسب، ومنع وقوع إصابات في صفوف المدنيين، وشن حرب مع احتمال إحلال السلام في المستقبل، هي المبادئ التوجيهية، ولكن على الرغم من كل القلق بشأن مصير السكان الفلسطينيين، فإن معايير الحكم

(١) يمكن مراجعة نص المنشور باللغة الألمانية والإنجليزية بالموقع الرسمي لمركز الأبحاث على الرابط الآتي:

<https://www.normativeorders.net/2023/grundsatz-der-solidaritat/>

تتدهور تماما عندما تنسب نوايا الإبادة الجماعية إلى تصرفات إسرائيل، على وجه الخصوص، فإن تصرفات إسرائيل لا تبرر بأي حال من الأحوال ردود الفعل المعادية للسامية».

إذ سوف يعاين القارئ على أن العملية القتالية التي قامت بها حماس سميت « مذبحه مع نية معلنة للقضاء على الحياة اليهودية » لكن تنفيذ » الانتقام المبرر من حيث المبدأ » على الرغم من كل القلق بشأن مصير السكان الفلسطينيين فإن معايير الحكم تتدهور تماما عندما تنسب نوايا الإبادة الجماعية إلى تصرفات إسرائيل.

إذ أن العمليات العسكرية التدميرية والموسعة للكيان الإسرائيلي رغم تبعاتها من الخسائر البشرية لا يمكن أن « تنسب نوايا الإبادة الجماعية إلى تصرفاتها »، وهذا الكلام واقعا هو عين « قمة الحرج » الذي تحدثنا عليه آنفا، إذ أن أهم « مرتكز تم تغييبه في هذا التصريح للمبادئ هو القانون الدولي » مترنحا في نوع من الهرطقة الخطابية التي يمجها الخطاب القانوني بطبيعته والذي يظل وحده الساعي إلى كبح جماح العواطف الساخنة وإعادة توضيحها ضمن سقف عقلافي بارد، الأمر الذي ترفضه السياسة والفكر السياسي على العموم إذ أن تيمة المصلحة تظل هي المتحكمة، وخصوصا بعد أن تسربت الواقعية الرأسمالية إلى نسق كلياني يتم التفكير وإدارة الجدل تحت سقفه، ولو كنت ابن المدرسة النقدية.

فالعمليات العسكرية المتحركة بعاطفة الانتقام وإن أدت إلى سقوط قتلى كثر من المدنيين لا يمكن توصيفها على أنها قائمة على « نية الإبادة الجماعية » عند الجليل العجوز من مدرسة فرانكفورت، ما دامت محكومة بقاعدة أساسية « حرب مع احتمال إحلال السلام في المستقبل ».

دعونا نتحرك جيغيكيا على هذا المستوى، فكلام هابرماس على الخصوص - لأنه أراد لنفسه أن يكون فيلسوف التواصل بخلاف فورست المتمحك في الفكر السياسي يفكر به وفيه - يفيد بأنه لا يرى سلاما في المستقبل إلا بالمعنى المسيحي « لا سلام إلا في الموت » .. أو ليس هذا ما يكتب على شواهد قبورهم REST IN PEACE ، فالسلام البعدي منظور إليه على أنه كسر إرادة كلية للفلسطينيين، حتى ننتهي من هذه القضية التي تقف كـ « النذبة » في الجبين الليبرالي العالمي.

فلا يكون السلام المتحدث عنه إلا استسلام كلي منزوع الكرامة ومنزوع مكنتها في المستقبل، متواطئ في قراءته للحق مع البنية الفكرية الجرمانية - والتي واجهتها مدرسة فرانكفورت - والتي لا ترى الحق في وجهه المادي إلا مجرد آلية ضرورية وحاسمة يقع وجودها خارج الحق، إذ « يمكن تلخيص منظور هيغل - الذي مثل طريقة تفكير أمة بأكملها - للموضوع بما يأتي » الأفعال الصحيحة هي الأفعال التي تعمل متناغمة مع طاقة الأمة، أما الأفعال الظالمة فهي الأفعال التي تمضي في اتجاه معاكس لها. فالأولى تنجح والثانية تخفق، والنجاح هو التحقق المادي الضروري لفكرة الحق. « وما يقوله دوهرنغ » هدف الحق هو السلام، والأدوات المستخدمة للوصول إلى ذلك الهدف هو الصراع والحرب والجبروت. إن الصراع ملازم للتاريخ البشري. ومن ثم فهو غير غريب عن الحق، بل على العكس مرتبط بجوهر الحق ارتباطا لا انفصام فيه. « وأن نيتشه لم يشذ عن هذه القاعدة فك » ابن أصيل لأمة في أقصى حيوية لها، طرح أفكاره التي ملأت الجو المحيط به، معلنا الحق بتضافر لا ينفصم مع الجبروت »

بل «أن الحق يتدفق من الجبروت ذاته»^(١)

في البنية الفكرية الجرمانية الحق لا ينفك عن الجبروت بل يتدفق منه ويتحقق به، ولهذا نجد الفيلسوفان يورغن هابرماس وراينر فورست والباحثة السياسية نيكول ديتلهوف، والقانوني كلاوس غونتر الباحث في «الملاءمة» يصبغان حقانية هذه الوحشية والرغبة في الانتقام بـ «شن حرب مع احتمال إحلال السلام في المستقبل» فالدائرة الحقانية عند هذه التلة المريضة بالسياسة الإعلامية الغربية، تظل مبررة ما دامت مخرجاتها قد تؤدي إلى احتمال إحلال السلام، تدمير وقتل الفلسطينيين وإبادتهم سوف تؤدي إلى إحلال السلام في منظور هؤلاء، دون أن يهتموا لدقيقة واحدة في بحث سؤال شرعية المستوطنات من أساسه، لينقلب الخطاب الفلسفي النقدي عند هابرماس إلى ارتجاع للخطابة الكولونيالية في أحلك صورها.

واقعين من حيث لا يدرون أمام الدعابة الفرويدية القائلة: ١ - لم يسبق لي أن استعرت منك إبريقا، ٢ - أعدته إليك سليما غير مكسور، ٣ - الإبريق كان مكسورا حين أخذته منك.

فحرب الكيان الإسرائيلي تنطلق من الانتقام المبرر بوحشية لكنها ليست إبادة جماعية، يمكن أن تكون إبادة جماعية لكن لا دليل الآن عليها، هي إبادة جماعية لكن لا تشكل مبررا لمعاداة اليهود، هائمة في المتواليات التي ينقض أحدها الآخر.

وهذه المتواليات هي ثمرة حجاج مزبور لا يتأصل على أصل كانطي

(١) نيكوس كازانتزاكيس: فريدريك نيتشه وفلسفة الحق والدولة، تر: سلام خيربك، صادر عن دار الحوار سنة ٢٠٢١، الصفحتان ١٢٢ و ١٢٣.

محكوم بالتجربة، أو متخندق بالمنطق، بقدر ما هو كلام رائي إلى علاقات عامة تحجب السنوات الأكثر سوادا في تأريخ ألمانيا الحديثة.

فلا هي وضعت العملية القتالية الحمساوية ضمن إطارها العملياتي فتنتطعت إلى توصيفها ب « المذبحة مع النية المعلنة للقضاء على الحياة اليهودية » وهو قفز في النوايا ليس له عاضد نهائيا، رافعة من منسوب النية التطهيرية في عملية لم تتجاوز الست ساعات، لكنها في نفس الآن بعد أن تحدثت عن « الانتقام المبرر » اعتبرت حرب الأسابيع وقتل للمدنيين على أنه محكوم ب « نية السلام » دون أن تكون تجربة المشاهدة والمتابعة عاضدة لهذه الخلاصة، في مراهقة فكرية تتكى على الإرث النقدي بالمعنى السلبي، والحال أنه كان الأولى الاحتكام للتجربة المعينة للخروج بالخلاصة لا التنطع في النوايا والحسم فيهما معا رغم أن المخرجات العملية كفيفة بجعل الأمر أكثر خطورة من الاتكاء المعوج على فكر مدرسة فرانكفورت.

طبعاً هذا التصريح لا يمكن أن يمر مرور الكرام، وخصوصاً لتحقيق انحصاريته وانتفاء الحيادية والانبطاح بالكلية أمام الكيان الإسرائيلي ومخافة تفشي معاداة اليهود، مما اقتضى الرد عليه وبقسوة غير خافية.

فيصدر رد جديد في رسالة مؤرخة في ٢٢ نونبر ٢٠٢٣ بصحيفة الغارديان البريطانية موقعة من قبل مائة أكاديمي يتزعمهم آدم توزا وصامويل موين، وآميا سرينيفاسان، ونانسي فريزر، وغيرهم كثير وهم في غالبيتهم أكاديميين إما تخرجوا مباشرة من مدرسة فرانكفورت أو يشتغلون في المدرسة الحديثة للأبحاث الاجتماعية في نيويورك، والتي تعتبر نفسها تشتغل ضمن تقاليد النظرية النقدية، تحت عنوان « مبدأ الكرامة الإنسانية يجب أن ينطبق على

الجميع»^(١)، حيث أوضح الرد تحقق الحصرية في كلام البلاغ السابق دون استدخله للفلسطينيين والمسلمين ضحايا العنصرية بألمانيا، كما فصح غياب القانون الدولي في البلاغ. مصرحين بما يلي ويذكر البيان ثلاثة «مبادئ توجيهية» للعمل العسكري: «مبادئ التناسب، ومنع وقوع خسائر في صفوف المدنيين، وشن حرب مع احتمال السلام في المستقبل». «إذ نشعر بقلق من عدم وجود أي ذكر لضرورة تفعيل القانون الدولي، الذي يحظر أيضاً جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية مثل العقاب الجماعي والاضطهاد وتدمير البنية التحتية المدنية بما في ذلك المدارس والمستشفيات ودور العبادة. إن الاسترشاد بمبادئ المعايير القانونية الدولية والتضامن والكرامة الإنسانية يفرض علينا إلزام جميع المشاركين في النزاع بهذا المعيار الأعلى». بمعنى أن الضابطة العقلانية الأساسية في تدبير الصراع تم إحضارها بقوة في هذا الرد، لأن القانون الدولي ملزم للجميع تحت مفاعيل العقلانية الباردة والنقاش العقلاني في الفضاء العمومي عن حق، بما فيه الفضاء العمومي البورجوازي حتى لا يقال بأنه ليس ثمة انزلاق فلسفي جديد مارسه هابرماس.

ولم ينسَ الرد التأكيد على هراء «إن معايير الحكم تتدهور تماماً عندما تنسب نوايا الإبادة الجماعية إلى تصرفات إسرائيل، على وجه الخصوص، فإن تصرفات إسرائيل لا تبرر بأي حال من الأحوال ردود الفعل المعادية للسامية. «بالتالي» هناك نقاش مستمر بين الباحثين في مجال الإبادة الجماعية والخبراء القانونيين حول ما إذا كان قد تم استيفاء المعيار القانوني للإبادة الجماعية،

(١) يرجع إلى نص رسالة الرد الموقعة من مائة أكاديمي وأكاديمية ينتمون للمدرسة النقدية في الرابط الإلكتروني الآتي:

<https://www.theguardian.com/world/2023/nov/22/the-principle-of-human-dignity-must-apply-to-all-people>.

ورفعت جماعات حقوق الإنسان دعاوى قضائية تزعم حدوث إبادة جماعية أمام المحكمة الجنائية الدولية ومحكمة اتحادية في الولايات المتحدة، وقد ذكرنا عومر بارتوف، أستاذ دراسات المحرقة والإبادة الجماعية في جامعة براون، قائلاً: «نحن نعلم من التاريخ أنه من الأهمية بمكان التحذير من احتمال وقوع إبادة جماعية قبل وقوعها، بدلاً من إدانتها متأخراً بعد وقوعها، أعتقد أنه لا يزال لدينا هذا الوقت». إن إظهار التضامن واحترام كرامة الإنسان يعني أنه يجب علينا أن نتنبه لهذا التحذير وألا نغلق مجال النقاش والتفكير حول إمكانية حدوث إبادة جماعية. لا يعتقد جميع الموقعين أن المعايير القانونية للإبادة الجماعية قد تم استيفائها؛ ومع ذلك، يتفق الجميع على أن هذه مسألة نقاش مشروع. وواقعا الخطاب المعتمد في هذا الرد مال نحو الخطاب القانوني الصلب والغير المتفلت بالعاطفة أو الرؤية السياسية الضيقة التي تتوافق مع ميكانيزمات تدبير الجبروت في الصراع الدولي.

ومن هنا يشكل كلام هابرماس وفورست انقلاباً أساسياً على «أسس المدرسة النقدية لفرانكفورت» والتي دائماً ما سعت إلى تحرير المجتمعات من الأجهزة المعرفية القمعية الخائفة للوجود الإنساني الحر، ليقعا فيما ادعيا لسنوات طويلة السعي للهروب منه، وإن كان موقف هابرماس قد نتفهمه، فهو منذ تسرب ماضيه في صفوف النازية، دائماً ما يتهرب من مبادئه الفلسفية للاعتذار الممزوج بخطابة عجيبة أمام المسألة اليهودية، تحت عنوان كبير هو الإقرار بالذنب والتبرؤ المفتوح المدى تحت إسفين mea culpa، وهو هنا يتطابق تماماً مع السلوك الرسمي الألماني.

ولهذا تكون أزمة راينر فورست أعمق لأنه لا يحمل ماضياً قد يستغل في مواجهته بين يدي «الماكينة الإعلامية الغربية»، فليسوف حدود التسامح

والحق في التبرير لضمان مفاتيح تأويلية أوسع وأعظم للمجتمعات المختلفة بخصوص حقوق الإنسان.

فبعد إصداره لكتاب « الحق في التبرير » والذي ترجم سنة ٢٠١١ عن مطبوعات جامعة كولومبيا مظهرًا حسًا نقديًا عاليًا للخطاب الحقوقي الإنساني المتمركز غربيا والمعتمل بالتأويل الغربي الانحصاري، مدافعا عن الهويات الثقافية المتكثرة والحق في منح معاني متكثرة لمفاهيم حقوق الإنسان كما هي متعارف عليها دوليا بشكل يجعلها متوافقة مع الثقافات الاجتماعية المختلفة ولكي يصح القول بأنها حقوق عالمية، وبعد أن فتح مجالا أوسع بخصوص حدود التسامح ليسير عميقا في ضبط عمليات التسامح بشكل يخدم الرؤية الإنسانية غفلا عن الخلفيات الدينية والسياسية جاعلا من المكنة العقلانية هي الفيصل الوحيد، نقول بعد أن نظر في هذين المجالين بقدر كبير من الاحترافية نجده يتهاوى بالكامل في هذا البيان، مضيفا حدا جديدا لعدم التسامح ألا وهو حد « الكائن الفلسطيني الغير المرسل في المصانع الثقافية الغربية » منكسرا أمام آليات خطابية لا علاقة لها بالقانون الوضعي بله أن تتأصل على القانون الدولي الإنساني.^(١)

(١) لأهمية الفكرة سوف نفردها ورقة بحثية مستقلة، ويمكن للقارئ أن يعود إلى الكتاين المنوه إليهما أعلاه، لمعينة المفارقات الكبرى.

Rainer Forst: The Right to Justification Elements of a Constructivist Theory of Justice, Translated by Jeffrey Flynn Columbia University Press, 2011.

Rainer Forst: Toleration in Conflict past and present, Cambridge University Press, 2013.

« مبادئ التضامن » منتج « صناعة الثقافة » :

ثمة أبحاث اجتماعية أمبريقية عديدة أنتجتها مدرسة فرانكفورت مع الرعيل الأول، كان بغرض بحث المنتجات الثقافية ودورها في تهيئة العامة والجمهور، وكيفية بناء الوعي عندهم، لتخلص بعد سنوات مع نفس الرعيل إلى خلاصة أساسية وهي « أنها تساهم في إعادة إنتاج وتوحيد المنتجات الثقافية في شكل أنماط قابلة للتقليد والتكرار وأن حقيقتها هي « مبدأ تشغيل النظام الاقتصادي، وهو الرأسمالية، وليس ظاهرة تقنية بسيطة، وسواء كان الأمر يتعلق بشراء أسطوانة موسيقية أو تذكرة سينما أو سيارة، فإن الاستهلاك هو جزء من صنم السلع الذي يمتد بالتالي إلى جميع أنحاء المجتمع، بما في ذلك الثقافة والاتصالات، من خلال وسائل الإعلام. إن الاتجاه الشمولي لهذا النموذج من التضخيم، والذي ينتقل من الفورية الإنتاجية إلى الاتصال الجماهيري، يهدد بشكل مباشر الفرد والاستقلال والفضاء العام، الذي يفهم على أنه مجال لا يخضع للمبدأ التجاري أو البيروقراطي، هكذا يتحول العقل والعقلانية، للذات ولدا مع وعود التحرر في عصر التنوير، إلى هيمنة مقرونة بتمثيل صنمي ومذهل».^(١)

(١) Alexander Neumann : Kulturindustrie : l'industrie de la culture en tant que modèle critique, revue Variations. Revue internationale de théorie critique, numéro 21, 2018, Dossier thématique : L'industrie de la culture : version originale, voir <https://journals.openedition.org/variations/901>

« Les auteurs insistent sur le fait que cette industrie désigne un principe de fonctionnement du système économique, le capitalisme, et non pas un simple phénomène technique. Que ce soit pour l'achat d'un disque de musique, d'un ticket de cinéma ou d'une voiture, la consommation participe d'un fétichisme

فالأبحاث العديدة التي أنتجت سواء بألمانيا أو بالولايات المتحدة الأمريكية بسعي كل من والتر بنيامين وثيرودور أدورنو وإريك فروم، والتي استمرت مع أدورنو بالولايات المتحدة بتنسيق مع لازاسفليد، أوصلت إلى هذه الخلاصة وهي أن صناعة الثقافة في النسق الرأسمالي تنهي مكنة السعي إلى التنوير، وتبيء الأفكار تحت إرادتها الربحية.

لكن هذا لا يعني بأن مصانع الثقافة تقف في وجه الرؤى التحررية أو النضالية، بل هي تقبل بذلك شرط أن يندمج المناضل الثقافي لاحقاً فيها إذ «لأي مقاوم الحق في البقاء بشرط أن يندمج، بمجرد تسجيل ما يشكل اختلافاً خاصاً به من طرف الصناعة الثقافية، يضحي عضواً فيها كمسؤول الإصلاحات الزراعية هو جزء من الرأسمالية...»⁽¹⁾ فهي كائن ابتلاعي ويعمل على مواءمة الاختلافات في بطن الصناعة الثقافية كهاجس تبيئي.

de la marchandise qui s'étend ainsi sur toute la société, y compris la culture et la communication, à travers les mass médias. La tendance totalisante de ce modèle de massification, qui va du fordisme productif à la communication de masse, menace donc directement l'individu, l'autonomie et l'espace public, compris comme une sphère qui ne soit pas soumis au principe marchand ou bureaucratique. Voilà comment la raison et la rationalisation qui sont nés avec les promesses d'émancipation des Lumières se retournent en une domination qui se double d'une représentation fétichiste et spectaculaire. »

- (1) Adorno/Horkheimer : *kulturindustrie*, traduction : Éliane kaufholz , éditions Allia, 2019 « quiconque résiste a le droit de survivre a condition de s'intégrer. Une fois que ce qui constitue sa différence est enregistré par l'industrie culturelle, il fait déjà partie d'elle comme le responsable des reformes agraires fait partie du capitalisme »

واقعا لم تقف مدرسة فرانكفورت على توصيف الوضع الكبروي وكيفية هتك حريات الناس وضمان نقاش شفاف وحر في الفضاء العمومي، بل أنها استمرت في تسطير المعايينات ولو في ظل الحراك النيوليبرالي وعانت باتولوجيات الرأي العمومي، وسعت إلى تحصين الحس النقدي بكثير من الكفاءة، كمحاولة تأصيل « الصراع من أجل الاعتراف » بما هو سعي وجودي متكامل في العالم، ومحاولة التخلص من سلطة الكراهية المتمحضة في أغلب الأبنية الفكرية والثقافية الوجودية المتزاحمة، والتي تظل حقا في السقفين المعياري والإجرائي (أكسيل هونيث)، أو ضمان مجهود في التصادي للتغلب على حس التسارع المتحقق في المجتمعات الحديثة، قصد تخفيف السرعة ومزيد من العقلنة التأصيلية لكبح جماحها والمتلاعبة بالعواطف (هرتموت روزا).

كل هذا يجعلنا نخلص إلى أن « مبادئ التضامن » هتكت وإليات مدرسة فرانكفورت - وإن انتفض البقية ضد البيان - وانقلبت رأسا على عقب، كما لو أنها عضت ذيلها، هي مقالة تم تسطيرها على السريع يقينا سوف تعرف عمقا في المطارحة لاحقا بأصالة أكثر، وانهمام بكسر مقاليد « الواقعية الرأسالية ».

التلقي الغربي لطوفان الأقصى

د. أحمد فال السباعي^(١)

لم يعد المثقف والفيلسوف منعزلين داخل خصوصيتهما المكانية، ولا داخل خصوصيتهما المنهجية ولا حتى اللغوية، وسط هذا الاكتساح العارم لوسائل التواصل للحياة البشرية في كافة جوانبها العامة والخاصة والمعلنة والحميمة. وقع انقلاب خطير على منبر الفقيه وعلى منبر الفيلسوف وعلى منبر السياسي وعلى منبر السيادة الوطنية، وأصبح العوام والخواص في معركة جديدة لإثبات الذات والوجود.

هل غاب العقل؟ أم توارى خلف حجاب الضجة المتعالية التي تريد أن تعمي على الحقائق، أو تلك التي تريد أن تبني أوهاما جديدة تخلف موت الإيديولوجيا المزعوم؟ أم أسهمت شمشونية بنوية دريدا ومطرقة القسوة النيتشوية وعبثية الوجود السارتر، في تدمير اللغة، متلاعبا بالمعنى وحاطة من قيمة الكلمة، من خلال إخضاع الإنسان بأدوات الخطاب الجديدة لغايات جديدة؟

(١) أكاديمي وباحث في مركز الدراسات والأبحاث في العلوم الاجتماعية (cerss) المغرب.

لا شك أن اتساع السؤال قد يفقد أي دراسة قصديتها الزمنية وقدرتها البسيطة على الإحاطة بالكل، إن لم تشغل بجزئية معينة تدرب العقل على بناء تصور للكل، يراعي السؤال الأكبر من خلال السؤال الأصغر.

لقد تطورت منذ الحرب العالمية الأولى والثانية وسائل التأثير والبروبغندا وتطورت معها الوسائل التكنولوجية القادرة على اختراق المجال الاجتماعي، ليصبح للمتلقي مكانته الأبرز في عمليات الفعل ورد الفعل، وليصبح للتصورات التي يخلقها الخطاب مكانة أساسية في تحديد مصير العالم الذي ارتأى أن يجعل من الديمقراطية وسيلته الأولى في تحديد وجهة الحياة. لقد أصبح المتلقي مهما لأنه يحرك الجيوش ويطيح بالحكومات، وانتقلت الحقيقة من السماء نحو الأرض، ليصبح القارئ هو المصدر الأسمى في الفكر الغربي، فمات معه «الإله» عند نيتشه، ومات «المؤلف» في الإبداع ليتسبد مكانهما القارئ، وليصبح المعنى رهينا بالمتلقي لكونه صار الثقل الأكبر في محراب «الحقيقة».

ينشئ المتلقي «الحقيقة»، لكن إنشاء هذا يتأسس على تأريخ فكري لا يمكن أن يتملص منه. تأريخ الفكر الغربي بمرجعياته الدينية والأخلاقية والفلسفية التي أسست لهذا «التحرر العقلاني» الذي يقوده الإنسان الغربي منذ عصر النهضة.

يمثل طوفان الأقصى وسط هذا السياق اختبارا حقيقيا ومركزيا لهذه «المسيرة التحررية»، ليس فقط لجهة إنسانيتها كقضية تحررية، لكن أيضا لأنها تمثل سؤالاً لا يمكن أن يتجاوزه العقل الغربي دون أن يجيب عنه، لذلك شغل الطوفان الجامعات الغربية، وخلق أزمة كبرى لم تخلقها الأزمة الأوكرانية التي تهدد الأمن الغربي بشكل ملموس جغرافيا مقارنة مع فلسطين.

ورغم أننا قد نتعلل نحن العرب أحيانا بأهمية القضية تاريخيا ودينا،

وبمنطقة «الشرق الأوسط» إستراتيجيا، إلا أن لعلاقة هذه القضية «بالمسألة اليهودية» جانبا آخر لا يقل أهمية عن الطرف العربي والمسلم في الصراع. طوفان الأقصى يمثل في جانب منه عصارة الخطايا التي تخفت منذ قرون في رحم الفكر الغربي، والتي أسست لقيم الثقافة «المسيحية اليهودية» التي تدعو إلى بناء المجتمع الإنساني العادل العقلاني الديمقراطي، بسبب العلاقة الوثيقة التي ربطت بين مسألة اليهود ونضج الفلسفة الغربية.

لقد أصبحت المسألة اليهودية، وحتى قبل قضية المحرقة النازية شأنًا استثنائيًا في الفكر الغربي، يمثل القضية الإنسانية وقضية الأقليات، واختزن المتلقي الغربي سواء كان متخصصًا أو غير متخصص تصورا تاريخيا عاما مسلما به حول هذه القضية وحول تغريبة الشعب اليهودي التي انتقلت في فصلها الأخير إلى جزء مختلف من العالم نقلا، فبقيت معها ظلال تاريخ الإستعمار الغربي، وتاريخ تأنيب الضمير الأوروبي المشترك، وأشياء أخرى من الدين والسياسة.

• سجل جامعي:

حمي وطيس الجامعة الغربية في أوروبا وأمريكا الشمالية بسبب ضراوة الحرب المستعرة على أهل غزة، ومعها استعاد الصرح الأكاديمي بعضا من عنفوانه الذي لا يعبر عنه إلا «الوعي الشقي» الذي لم يعد حاضرا كما كان في زمن الصراع الأيديولوجي للحرب الباردة⁽¹⁾.

استعادت الجامعة النقاش حول الأسس الأخلاقية للحرب بشكل

(1) Adamson, Walter L. Hegemony and revolution: A study of Antonio Gramsci's political and cultural theory. Univ of California Press, 1983 p229.

ملفت، ومعه أعيد النظر في المعنى الأخلاقي للحرب. هل يوجد ما يبرر الحرب في غزة؟ وهل يمكن تجاوز المسلمات الجاهزة حول الإرهاب وصراع الحضارات الغامز في التاريخ الإمبريالي وصورته للثنائيات المعرفية الشهيرة: (المقدس، المدنس - المتحضر، المتخلف - الشمال، الجنوب).

اختصر النقاش الجديد تاريخاً طويلاً من الأكاديميات المنهجية المتراكمة حول الإنسان وحقوقه، وحول الديمقراطية ومساراتها، معيدا السؤال الأساس حول الحق وحول الحرية والأخلاق؟

في النزعة الجامعية هذه، تستعاد قيمة الإنسان مقابل قيمة الأشياء، ومقابل الكيان الجديد (الدولة)، الذي أصبح منذ عهد هيجل غاية في حد ذاته. تعبر بنا الفورة الجامعية من حرب غزة نحو النزعة الإنسانية المفتقدة في النقاش العمومي الغربي، وتعبّر من جهة أخرى عن تجذر فلسفة الحقوق الفردية الإنسانية، وعن تنافسها مع فلسفة الحقوق الجماعية.

يبدو المشروع الصهيوني اليوم على الأقل في هذا المستوى مناقضاً لمشروع الحريات الفردية، ورغم اعتراف «إسرائيل العلمانية» ببعض الحقوق الجنسية وحقوق طوائف الأقليات المهادنة للمشروع الصهيوني، إلا أن معضلة الحقوق الإنسانية الأساسية لا زالت عائقاً أمام استكمال الكيان لصورته الحقوقية «المتوهمة» في العالم الغربي.

يعبر هذا النقاش الأكاديمي عن البعد الإنساني المشترك والعميق الذي أسست له الفلسفة الغربية بروافدها المسيحية والإسلامية واليونانية القديمة، وتمثل الحقوق الجماعية كتلة المبررات الأخلاقية التي تجعل من الدولة غاية في حد ذاتها يستحق الحفاظ على بقائها، مبرراً لإهدار الحيات الفردية، ولتبرير وحشية الحرب وقسوتها.

بمقابل هذا، لازالت المنظومة الحقوقية الجماعية الموروثة عن المرحلة

الإشترابية حاضرة في وجهها التحرري الذي اندمج مع حركات التحرر الوطني ليتبنى في زمن ماض قضية الدول المستعمرة. على صعيد الحقوق الفردية، يدافع مناصرو الصهيونية عن تصور عقدي ثقافي عنوانه الأساس حماية النموذج الثقافي الغربي المتقدم للحريات «الفردية» داخل الكيان مقابل المجتمع الآخر الذي لا يضمن الحقوق الفردية الغربية المتعارف عليها اليوم. هذا الخطاب يظل ضعيفا أمام الإنتهاك الواضح للحق في الحياة، الحق الأساسي لكل فرد وجماعة بشرية.

أسفر هذا التفاعل الحقوقي والثقافي في نهاية المطاف عن مشهد متوتر متسارع التفاعل يصعب التحكم فيه عن طريق وسائل الإعلام والدعاية والتواصل، ولم تستطع الحرب الأوكرانية أن ترفع مستوى النقاش داخل المجتمع المعرفي الغربي كما فعلته حرب غزة، بسبب «الإلتماعات الحدية» لأطراف الصراع، الذي استدعى بشكل غير مباشر نقد الأسس القيمة والنموذج السياسي الغربي وبنية النظام الدولي نفسها، ليضع العالم الغربي نفسه أمام مرآة المثقف والفيلسوف.

أصبحت حرب غزة ميدانا للترافع الفلسفي والأخلاقي، الذي زادت حدته بسبب طبيعة وسائل التواصل وأرضيات المنازلات المعرفية المتعددة، ووجد الفيلسوف الليبرالي التقليدي نفسه أمام سؤال جديد مزلزل بعد سؤال حرب أوكرانيا، وحرب كورونا وصعود الصين.

تمثل المناظرات الأكاديمية الحادة التي تشهدها كبريات الجامعات الغربية أزمة فكرية حقيقية تعتمل اليوم في جوف العقل الغربي، الذي أزعج تاريخه الهادئ الداعم للحق الصهيوني في الوجود، فصاحة المشهد الإنساني والمقاوم في طوفان الأقصى.

تري الرسالة المفتوحة، التي وجهها أزيد من أربعين من كبار أكاديميي جامعة أكسفورد العريقة لرئيس الوزراء البريطاني أن حرب إسرائيل على غزة هي: «كارثة إنسانية غير مسبوقة. إن تصرفات إسرائيل تشكل إهانة للكرامة الأخلاقية الأساسية... والسؤال هو كيف يمكن للحكومة البريطانية ومعارضتها، في مواجهة تلك التهديدات، الاستمرار في دعم تصرفات إسرائيل. إننا نناشدكم، كأكاديميين يقضون حياتنا في التفكير في مثل هذه الأحداث، أن تروا ما سيكون واضحاً للجميع، في ملء التاريخ: أن إسرائيل منخرطة اليوم في ممارسة كارثية أخلاقياً، وأن تلك الدول التي تعطي وتغطي إسرائيل على ذلك وتلطخت أيديها بدماء الفلسطينيين الأبرياء. وباسم الكرامة الإنسانية والأخلاق الأخلاقية، يتعين عليكم أن تدعوا إلى وقف فوري لإطلاق النار في غزة»⁽¹⁾.

أدت هذه الرسالة المقتضبة والموجزة إلى جدل كبير في وسائل الإعلام وبين الأكاديميين المناصرين للصهيونية. ويتقد بيتر هاجر أحد فلاسفة أكسفورد هذه الرسالة بحدة بالغة «مندهشا» من دعم هؤلاء الأكاديميين للطرح الفلسطيني الذي يناصر حماس، ورغم غياب التحليل الفلسفي في هذا الرد الهجومي اللاذع، إلا أنه يكشف في الحقيقة عمق تميز المسألة الصهيونية في الوعي الغربي المعاصر، الذي لا يجد غضاضة في تبرير قسوتها المتعمدة تجاه الفلسطينيين، بوصفها أمراً لا بد منه لأجل محو المقاومة الفلسطينية من الوجود.

(1) Open letter on the humanitarian crisis in Gaza, 20th October 2023: <https://academicsongaza.wixsite.com/gazaopenletter> Accessed 2 Apr. 2024

«إن الحرب التي أعلنتها إسرائيل على حماس هي رد على تهديد وجودي لدولة إسرائيل. إن دعوة إسرائيل إلى الوقف الفوري للأعمال العدائية تشبه دعوة بريطانيا والولايات المتحدة إلى الوقف الفوري للأعمال العدائية عشية يوم الإنزال من أجل تجنب وقوع إصابات في صفوف المدنيين. إن قيام إسرائيل بوقف حربها قبل القضاء على حماس وبناءها التحتية سيكون بمثابة إدامة حكمها، وإظهار عجز إسرائيل عن تدميرها، ودعوتها إلى إعادة تجميع صفوفها والمحاولة مرة أخرى في غضون سنوات قليلة، كما فعلت في عام ٢٠٠٨. الماضي. وفي الواقع، قال المتحدث باسم حماس، غازي حمد، في حديثه على قناة إل بي سي التلفزيونية اللبنانية في ٢٤ أكتوبر/ تشرين الأول: «كل ما نفعله له ما يبرره»، مضيفاً أن «طوفان الأقصى [وهو الاسم الذي تطلقه حماس على هجومها] هو مجرد المرة الأولى، وسيكون هناك ثانية وثالثة ورابعة لأن لدينا العزيمة والعزيمة والقدرات على القتال.. لا شك أن أساتذة أكسفورد سيكونون قادرين على تذكرنا بالحروب التي شنّها البريطانيون والتي لم يقتل فيها أي مدنيين أبرياء، وأن نخبرونا كيف زود سلاح الجو الملكي البريطاني ألمانيا بالمساعدات الغذائية والطبية في الحرب العالمية الثانية. قُتل مئات الآلاف من الألمان، الذين لم يصوتوا للنازيين في عام ١٩٣٣، في قصف الحلفاء وغزوهم»^(١).

أصبح المبرر الوحيد لهذه الحرب في نظر هذا الفيلسوف هو تغاضي العالم عن وحشية ما فعل في الألمان أيام الحرب. سقط المبرر الأخلاقي في فورة

(1) Peter Hacker, A Reply to an Open Letter on the Humanitarian Crisis in Gaza <https://replytoacademicson.wixsite.com/replytoacademicson/ga/hacker-reply>, Accessed 2 Apr. 2024.

الغضب، ليظهر المبرر البرغماتي، الذي يريد أن يقلب ظهر المجن في عملية الإستعادة الدائمة لمذبحة الهولوكوست بوصفها مبررا للفعل ونقيضه في الكيان الصهيوني اليوم.

لم تعد المسألة هنا مسألة أخلاقية متأسسة على القوي والضعيف، أو مغتصب الأرض وصاحبها الأصلي، بل أصبحت القضية الأخلاقية نفسها تابعة لطرف واحد هو الشعب اليهودي المظلوم حين كان مظلوماً، و«المظلوم» اليوم حين صار ظالماً. ويستطرد الخطاب «الفلسفي» في تبرير قتل المدنيين على الطريقة النيتشوية دونما أي إشكال. لقد نجحت الروح الصهيونية إلى حد كبير في توفير لغة مريحة للدفاع عن نفسها، من خلال إيجاد البدائل المناسبة لكل مقام ومقال، في لعبة اللغة واللغو، وتجاوز المنطق حين يتعلق الأمر بالمسألة الصهيونية وريثة تغريبة الشعب اليهودي، وشعب الهولوكوست المظلوم.

غير أن السجال الجامعي الذي تعيشه اليوم الصروح الأكاديمية الغربية في المجموعات الطلابية يشي باندلاع حركة نقدية قد تتجاوز الحدث نفسه لتؤسس لحركة فكرية جديدة تعيد قراءة العلاقة بين الوهم والحقيقة، وتبني للعقل الغربي مرحلة جديدة من الوعي المتجاوز لوسائل التأثير والحرب النفسية الممارسة على المجتمعات الغربية منذ بداية الطوفان وقبله بعقود.

• جذور التلقي:

في كتابه «الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي» يبحث هابرماس عن جذور العلاقة بين التراث اليهودي والألماني ببراعة كبيرة، في قراءة الجذور اليهودية للمثالية الألمانية، وفي الموقف العدمي من الموت ومن الوجود الملقى والزائف.

يرى هابرماس أن العلاقة الوطيدة التي ربطت الفلسفة الألمانية بالتصوف اليهودي لم تقتصر على اتجاه فلسفي معين دون الآخر، بل عمت على مجمل الفكر الألماني اليهودي. إن الفلسفة الوجودية التي كان رائدها هيدغر منظر الحزب النازي، ولدت من التجليات الصوفية اليهودية.

«وجد التيار الهاسيدي تعبيره الفلسفي الفعلي في فكر فرانز روزنزويغ الذي سبق أن ترجم مع صديقه بوبر Bauber التوراة الى الألمانية، وعلى البحث في فلسفة الدولة عند هيجل وذلك عندما كان تلميذا لفريدريك مينيكه. وقد حاول روزنزويغ في كتابه المؤلف من ثلاثة اجزاء وكما يوحى بذلك عنوانه «نجمة الخلاص» تأويل الفكر المثالي منطلقا من عمق التصوف اليهودي^(١). وهو لا يعتبر فقط من الاوائل الذين اتبعوا فكر كيركيجارد بل إنه تبنى أيضا بعض موضوعات ما أسمى بالمثالية المتأخرة، اقتبسها خاصة من كتابات شيلينغ الأخيرة. وهكذا كشف عن نسب فلسفة الوجود قبل عشرات السنين من عملية اكتشافه العسير من قبل مؤرخي الفلسفة الرسمية^(٢)».

(1) Rosenzweig, Franz. The star of redemption. University of Wisconsin Press, 2005.

(٢) هابرماس، المرجع السابق، ص ٥٣.

يرى هابرماس أن الفيلسوف اليهودي الكبير روزنزويغ في كتابه نجمة الخلاص كان من أوائل المتأثرين بكير غارد فيما يخص الفلسفة الوجودية. من عمق التصوف الكابالي المتأسس على ثلاثية الله والإنسان والعالم، خرجت نجمة الخلاص التي أطرت أطروحة هذا اللاهوتي. لقد عاد إلى النص التوراتي يستنتقه من خلال نقده للتيارات القانونية الطقوسية داخل اللاهوت اليهودي منتصرا للعرفان وللتصوف Gnose فتجا بذلك للتجربة الإنسانية الفردية المكانة الكبرى للوصول إلى المعرفة.

إن الفكرة الكابالية القائلة بأن في اللغة سيلا إلى معرفة الله أعطت المكانة العظمى للغة والترجمة وللتأويل وللهيرمينوطيقا، وبعبارة هابرماس لقد رفضت المثالية اعتبار القانون كقانون معرفة، وأحلت محله فنا جرى تأليهه^(١). من هنا انطبعت الفلسفة الألمانية بالبصمة اليهودية لا في منهج التفكير فقط، لكن قبل ذلك وبعده في طرح السؤال نفسه.

النص الفلسفي الغربي هو نص مكتوب في مقابل علم الكلام الإسلامي، وليس الوقت مناسبا هنا للتوسع في هذه المقارنة البراديغمية بين هذين النمطين المعرفيين، لكن أهل النص أو لنقل أهل الكتاب وجدوا تراثا مكتوبا حاملا منذ ألواح موسى العشر سيادة المخطوط والمرقوم على القول. الألواح المكتوبة والوصايا العشر، والتوراة والتلمود وحواشي الكتب المقدسة جعلت من الكتابة آلة الوصول إلى المعرفة، وأعطت مع توالي القرون واختلاف البلدان وهجرات الشعب اليهودي، ثم انتقال المسيحية من مركزية الشرق

(١) يورغن هابرماس، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي؛ ترجمة نظير جاهل، ط. ١، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ١٩٩٥، ص ٥٥.

نحو مركزية الغرب في الفاتيكان، أعطت للترجمة والفهم اعتبارا كبيرا. كتب النص التوراتي بلغات بلدان الشتات، فاليهود لم يعيشوا في التاريخ إلا نزرا قليلا من السيادة السياسية حاملين معهم إرث أنبياء بني إسرائيل فلامست أديان أسيادهم ولغاتهم روح النص وشكله وفهمه، وحين أراد العقل الغربي المستيقظ منذ عصر الأنوار فهم الدين بعيدا عن سلطة الكنيسة، وجد أعظم إشكال في الورود على النص نفسه، الذي توزع معناه بين ديانتين كبيرتين قديمتين وبين أقوام ولغات وحضارات مختلفة.

النص التوراتي الذي يقدره الشعب المختار حسب الفهم اليهودي والذي يجعل من النبي موسى قائد الشعب، ومؤسس التوحيد، والذي يجعل من الأحرار والحاخامات التجسد الحقيقي لمنهاج الفهم والسير على خطى إسرائيل، هو نفسه النص الذي تعتبره الديانة المسيحية عهدا الأول والبداية الأولى لمجيئ البشارة الكبرى لمخلص البشرية «الإبن».

تأسست الثقافة المسيحية اليهودية على فهم النص وتأويله بعد أن إعتبر أحرار اليهود المسيح مجدفا ونبيا كاذبا يستحق الصلب، بينما اتخذت المسيحية منه رمز وجودها وتجسد الإله نفسه على الأرض. وتأسس الإلحاد الفلسفي نفسه على هذا الإرث المشترك.

إن عدم الوعي بالعمق الكابالي الرابض في روح الفلسفة الألمانية يجعل المتأمل للفلسفة الغربية غير قادر على الولوج لعمقها. لم يكن صمت فنجشتاين إلا استمرارا لفكرة الصمت الكابالي الصوفي الذي يترجم داخل التراث اليهودي استحالة إستخدام اللغة الخاصة^(١).

(١) بورغن هابرماس، الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، .. ص ٦٥.

قد يجد أيضا هذا المنحى من العلاقة تفسيره في اللغة نفسها، لقد نقل مارتن لوثر النص المقدس إلى اللغة الألمانية العادية، وكذلك فعل الفلاسفة اليهود فالنص العبري الذي انتقلت معه الأفكار والمعتقدات لم يكن بعيدا عن الثقافة الدينية السياسية.

إن العقل والروح اللذين نفخا في الوعي الأوروبي فكرة التخلّص من ثقل التقاليد وبناء العقل الإنساني على أسس جديدة، هما نفسهما اللذين انتقلا نحو أمريكا بمشروع نقدي جديد داخل أرض جديدة، لا يحمل من الاخلاص للتاريخ الملكي الكاثوليكي ما تحمله أوروبا العجوز في أحشائها.

• آليات التلقي وأزمة العقلانية

هل انتهت الفلسفة الألمانية أم استمرت في العالم الجديد؟ هل انتهت البروتستنتية الأوروبية داخل أسوار القارة العجوز أم انتقلت نحو أمريكا لبناء رؤية نقدية جديدة فلسفية؟ وإلى أي حد ظلت الفلسفة الألمانية رهينة هذه المركزية اليهودية؟.

تلبست الروح اليهودية بجسم الفلسفة الغربية في وقت مبكر، ليس فقط في مدرسة فرنكفورت ولا في مبحث الوجودية الهيدغرية، بل أيضا في تطور الكانطية وفي الماركسية والبنوية. الروح الكابالية التي أطرت الوعي الفلسفي الألماني، كانت استمرارا لتلك العلاقة اللاهوتية القلقة منذ عهد مارتن لوثر مترجم لغة العهدين للغة العادية⁽¹⁾.

(1) LUTHER, Martin. Épître sur l'art de traduire et sur l'intercession des saints. M Luther, Œuvres, 1964, vol. 6, p. 1.

هذه الروح الفلسفية جعلت من المسألة اليهودية استثناء في الوعي الغربي منذ بدايات القرن العشرين، حين أسهم الوعي اليهودي في نشأة السوسيولوجيا مع دوركهيم⁽¹⁾ وعلم النفس مع فرويد⁽²⁾. لقد اندغمت الروح اليهودية التلمودية التي تحررت من إصر الإيمان بإله موسى، في مشاريع جديدة وجدت لنفسها الفرصة في أشكال التفكير الجديدة المتحررة من سطوة الكنيسة ورؤيتها التقليدية للشعب الذي يسكن الغيتوهات.

يبدو في هذا السياق أن الخطاب الفلسفي الذي تفرعت عنه الأنماط المعرفية الأخرى ولد في هذا المخاض الثمل بلعنة بابل كما يسميها دريدا⁽³⁾، ولعنة التغرية التي طبعت بعد الفلسفة، الفكر السياسي، وفلسفة القانون لتنشأ العدالة الليبرالية، وتتطور حاملة في جوفها موقفا أرثوذكسيا من الشعب المختار في نسخته العلمانية الجديدة.

هذه الأبوة التي عاشها النص الفلسفي الغربي مع النص اللاهوتي اليهودي على مستوى المنهج وعلى مستوى الموضوع أعطت للشعب اليهودي ولللاهوت التلمود الكابالي روح الفكرة الفلسفية نفسها. لقد أصبح العقل الفلسفي الأخلاقي الغربي غير قادر على تجاوز المبررات التي نسجتها «المسألة اليهودية» في وعيه منذ عصر النهضة، وانتهاء بالهولوكوست النازي

(1) Derczansky Alexandre. Note sur la judéité de Durkheim / About Durkheim 's Jewishness. In: Archives de sciences sociales des religions, n°69, 1990. Relire Durkheim. pp. 157.

(2) Auclair, G. (1965). Bakan D., Freud et la tradition mystique juive. Revue française de sociologie, 6(3), p402.

(3) Jacques DERRIDA, Des tours de Babel, in Joseph Graham (ed.), Difference in Translation, Ithaca / Londres, Cornell University Press. 1985

الذي نقل التغريبة الفلسفية اليهودية من التجريد نحو الواقع ومن النقاش الأخلاقي نحو الالتزامات القانونية الدولية.

لم يجد خطاب العمالق^(١) استنكارا ملموسا في وسط المثقفين الغربيين ليس فقط بسبب البروبغندا، لكن أيضا بسبب الطابع العام الذي أنتجته فلسفة الخطاب وهيرمينوطيقا المعرفة التي أسست للمعاني المزدوجة للخطاب خصوصا حين يتعلق الأمر باللغة اللاهوتية.

طورت الآلة المنهجية أدوات متقدمة للتبرير اللغوي والتفسيري للكلمة ونقيضها في النص اللاهوتي المقدس، الذي يفقد معناه «المحكم» الواضح، نحو المعنى «المتشابه» في الدين المسيحي، بينما يحمل للمتلقي اليهودي دلالة الأصلية معناه الحقيقي.

لم يعد الخطاب يخفي نواياه، لأنه أصبح قادرا على تكييف المعاني حسب الفئة المستهدفة، ونضجت هيمنة القنوات الحاملة للخطاب في قدرتها على تسويق المعاني للعامة ولخواص المتخصصين، «كل حزب بمايراد لهم مقتنعون». لقد سطا منهج التفكير على الوعي وعلى الفكر، ليؤسس قواعد نسبية المعرفة ونسبية الخطاب، ليصبح خطاب العمالق، إشارة عابرة لرمزية الشعب الضحية، على النقيض من الآيات القرآنية التي أصبحت عنوان

(١) الإشارة هنا إلى خطاب بنيامين نتينياهو الذي استدعى فيه أحد أسفار العهد القديم مبررا مجازر الجيش الإسرائيلي في غزة ضد المدنيين والأطفال، (وقال صموئيل لشاول: «إياي أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه إسرائيل. والآن فاسمع صوت كلام الرب. ٢ هكذا يقول رب الجنود: إني قد افتقدت ما عمل عماليق بإسرائيل حين وقف له في الطريق عند صعوده من مصر. ٣ فالآن اذهب واضرب عماليق، وحرّموا كل ما له ولا تعف عنهم بل اقتل رجلا وامرأة، طفلا ورضيعا، بقرا وغنما، جملا وحمارا»، صموئيل، ١، ١٥، ٣.

رمزيا للوحشية البشرية ولقيم اللاتحضر.

ينطلق مبدأ التسامح العام للمثقفين الغربيين مع «المسألة اليهودية»، كما سماها ماركس، من هذا العمق الفلسفي الذي لامس انماط التفكير الغربي منذ قرون، وانفتل في بنيات الوعي محدثا اثرا عكسيا استفاد من تاريخ القمع الذي مورس على يهود أوروبا^(١).

• التلقي النيشوي لطوفان الأقصى

إن الجواب الأيديولوجي اليوم الذي يطرحه هابرماس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في هذا العالم، كأحد آباء المدرسة الفرنكفونية النقدية التي غازلت عرش الوعي الحر في العالم الغربي، ليس ببعيد عن أطروحات ميشيل أونفري الذي لا زال يحث خطاه في فرنسا ناقدا شرسا للحدثة وما بعدها، والليبرالية وصورتها الجديدة:

«إن أولئك الذين يرفضون الواقعية المأساوية التي فضحها صامويل هنتنغتون في كتابه «صراع الحضارات» لصالح الجرعة السحرية للمثالية الليبرالية التي روج لها فوكوياما في «نهاية التاريخ والرجل الأخير» ما زالوا يقاومون الدروس التي يقدمها لهم الواقع. إن تشخيص مستقبل تاريخ العالم تحت شعار صراع الحضارات سيكون عند البعض بمثابة خلق يجب أن نستنكره، وكأن طبيب الأورام يستحق الضرب لأنه أعلن عن إصابة مريضه بأورام خبيثة.!»^(٢)

(1) MARX, Karl. Sur la question juive. La fabrique éditions, 2006.

(2) Michel Onfray, La guerre de civilisation, hélas! : <https://www.causeur>.

يستعيد الفيلسوف النيتشوي هنا شرعية الصراع بوصفه ثابتاً تاريخياً موضوعياً غير قابل للبحث، وبمهارة البلاغة الفلسفية، يصرف النظر عن التقييم الأخلاقي لواقع الحال نحو القراءة الوصفية للصراع بوصفه قدراً لا بد منه.

في رأي ميشيل أونفري، الذي يقدم نفسه معارضاً متمرداً على كل ماهو رسمي في فرنسا، المدافع عن حقوق التعبير والوجود الإنساني، الهولوكوست اليهودي مقدس، ولا يجب أن يقارن به أي شكل من أشكال الصراع الحالي. يستعيد الفيلسوفان المعارضان الناقدان أطروحة واحدة تطابق الرؤية الرسمية للعالم الغربي في موقفها من حرب الإبادة الجماعية في غزة، وحين سألت أونفري مذيعاً فرنسية عن موقفه من «الرد الإسرائيلي» على أهل غزة في برنامج تلفزي شهير قائلة: ألهذا الحد تؤيد الرد الإسرائيلي غير المناسب وغير المتوازي إطلاقاً بين ما فعل تنظيم مناضل وبين ما قامت ولا تزال دولة رهيبة بقضها وقضيضها؟ كان رده: عندما تعلن الحرب على خصمك يجب ألا تبحث عن طريقة ومستوى الرد وتفقد الكيفية والطريقة التي يكون عليها الرد ودرجة الدمار الذي يمكن يحدث»⁽¹⁾.

قد تبدو هذه القسوة صادمة للمثقف العربي الذي ينتظر من المثقف الغربي «الملتزم» أن يساند قضيته، وقد لا يكفي أحياناً حتى الإتهام الأخلاقي البسيط

fr/michel-onfray-la-guerre-de-civilisation-helas-271450 Accessed 2 Apr. 2024.

(1) Michel Onfray dans le Grand Rendez-Vous Europe 1, 41mn21s, question sur Gaza, 18 février 2024 : https://www.youtube.com/watch?v=vq9HuCN-XRs&ab_channel=Europe1 Accessed 2 Apr. 2024.

لتفسير هذا التواطؤ الغريب ضد القضية الإنسانية، فمأساة «الهولوكوست» مقدسة والفظائع التي يعيشها الفلسطينيون تتحول في لغة الخطاب هنا إلى رد فعل.

لكن السؤال هنا لا يجب أن ينصرف إلى هذا البرعم النيتشوي، بقدر ما يعود بنا إلى الأطروحة النيتشوية في أصلاتها الأولى نفسها. ألم يكن الإنسان الأعلى الذي يدعو إلى سيادة القوة وإلى إعلان موت الإله شكلاً من أشكال القسوة البشرية التي تبحث عن السيادة على العالم من خلال منطق القوة؟ ألم يكن نيتشه الذي انتقد الإستضعاف اليهودي، هو نفسه الذي تمدح العهد صرامة العهد القديم وقواعده القاسية في إثبات منطق القوة؟. يقول أحد دارسي نيتشه المعاصرين:

«ومع ذلك، فإن نيتشه، باعتباره فيلسوفاً للثقافة فتح الأبواب أمام مقياس جديد للقيم، حرر نفسه من مثل هذه الأفكار المبتذلة وكشف النقاب عن آفاق جديدة ومثيرة للدهشة. من الواضح أن نيتشه كان يمتلك معرفة عميقة بالعهد الجديد واستفاد كثيراً من التقاليد البروتستانتية العميقة لعائلته. ومع ذلك، لا يوجد انقسام حاد بين العهدين القديم والجديد. الجديد ليس بأي حال من الأحوال نفيًا مطلقاً للقديم، لأنه في القديم توجد جذور المسيحية، على سبيل المثال في حساب فصل الإنسان عن الطبيعة. لقد ورثت المسيحية، وخاصة النسخة البولسية، من اليهودية مفهوم الخطيئة ذاته، و«ثورة العبيد»، والحكم الكهنوتي. كل هذا، بحسب نظرة نيتشه، لا ينطبق على شخصية يسوع نفسه. في بعض الأحيان يبدو أن فكرة كون اليهود «مذنبين» بالمسيحية مقبولة من قبل نيتشه ليس بالاقتران مع أبطال العهد

القديم، ولكن كحلقة وصل ما بعد الكتاب المقدس. لقد كان المنفى هو الذي أجبر اليهود على تطوير يهودية غير طبيعية، وثمرتها المسيحية. وبهذا المعنى يمكن للمرء أن يجد التمييز الواضح بين مصطلحي «إسرائيل» و«اليهود» أو «اليهودية». ويستحق الأول عادة استجابة إيجابية، في حين يتم التعامل مع الأخير بطريقة سلبية. «عادة»، أشير، لأنه، من وجهة نظر تاريخية نفسية وبعيدًا عن نظام القيم الدينية، كان نيتشه مندهشًا من إرادة البقاء وقوة حياة اليهود طوال تاريخهم في المنفى، وخاصة في حالتهم الاجتماعية. وكأن قوة الإرادة هذه تكفر عن «خطيئتهم» تجاه تاريخ البشرية: الأخلاق «اليهودية». ومع ذلك، لا يغيب عن أعين رجل الحقيقة نيتشه أن العهد القديم يحتوي بالفعل على إمكانية للتطور الديني الأخلاقي الذي ينفيه، تمامًا كما ينفي الأخلاق التي تنكر الطبيعة، حتى لو كان واضحًا له أن المسيحية وحدها هي التي استخلصت الاستنتاجات النهائية من هذه الاحتمالات وأوصلتها إلى إنكار الحياة تمامًا، أما اليهودية - وهذا مجدها وسر بقائها - فلم تسلك هذا الطريق حتى النهاية. إن تاريخ إسرائيل لا يقدر بثمن باعتباره التاريخ النموذجي لكل تغيير في طبيعة القيم الطبيعية.. لقد كان يهوه تعبيرًا عن وعي القوة، والفرح في النفس، والأمل في الذات: من خلاله كان النصر والرفاهية متوقعين؛ ومن خلاله تم الوثوق بالطبيعة لتمنح الناس ما يحتاجون إليه - المطر قبل كل شيء. الرب هو إله إسرائيل، وبالتالي إله العدل: منطق كل شعب في السلطة وله ضمير صالح. في عبادة المهرجان، يجد هذان الجانبان من تأكيد الذات للشعب تعبيرًا: إنهم ممتنون للأقدار العظيمة التي رفعتهم إلى القمة؛ إنهم ممتنون فيما يتعلق بالدورة السنوية للفصول ولكل الحظ السعيد في تربية الماشية والزراعة. ظل هذا الوضع لفترة طويلة هو الوضع

المثالي، حتى بعد أن تم التخلص منه بطريقة حزينة: الفوضى في الداخل، الآشوريون في الخارج»^(١).

إن الإستكانة اليهودية والإستضعاف الذي رضي به الشعب المختار هو ما جعل نيتشه ينتقد اليهود^(٢)، لكن وللمفارقة فما كان في نظره يستحق التمجيد هو تلك القسوة التلمودية التي أسست فيما بعد للفكرة الصهيونية.

• أنصاف حلول متوهمة:

يبحث تيار «معتدل» عن أنصاف حلول متوهمة للقضية الفلسطينية، تريد أن تجد تبريراً أخلاقياً للوجود الصهيوني ولمأساة الشعب الفلسطيني من خلال تجاوز نقطة البداية باعتبارها واقعا لا يمكن التخلص منه نحو البحث عن حلول لأزمة شعبين عانيا من آلام بسبب التاريخ. يجب تفهم الآلام هنا بوصفها شكلا من أشكال نقل الألم النفسي والمادي الذي وقع لليهود في أوروبا نحو شعب جديد. «بسبب ما عاناه الشعب اليهودي في الغيتوهات يجب أن نلتمس العذر له في وضعه الحالي داخل فلسطين»^(٣). ولنقرأ هذا

(1) Eldad, Israel, and Yisrael Medad. «Nietzsche and the Old Testament.» Studies in Nietzsche and the Judaeo-Christian Tradition, edited by JAMES C. O'FLAHERTY et al., vol. 103, University of North Carolina Press, 1985, pp. 47–68. JSTOR, http://www.jstor.org/stable/10.5149/9781469656557_oflaherty.6. Accessed 2 Apr. 2024.

(2) Holub, Robert C. «Nietzsche and the Jewish Question.» New German Critique 66 (1995): 94-121.

(3) Looking for a Way Out: Rethinking the Arab-Israeli Conflict, July, 11, 2007 : <https://www.pewresearch.org/religion/2007/07/11/looking-for-a-way-out-rethinking-the-arab-israeli-conflict/> Accessed 2

النص الآخر الذي يحاول أن يقنع الفلسطيني نفسه بتلقي الاحتلال باعتباره قدراً لا مفر منه، يرتبط بحاجة وجودية للشعب اليهودي نفسه: «ومن ناحية أخرى، يتعين على الإسرائيليين أن يدركوا أن مأساة حدثت بالفعل، وأن إنشاء إسرائيل كان سبباً في هذه المأساة. هناك حاجة هنا للفصل بين السبب الأول والسبب الثاني - ضرورة أن يدرك الفلسطينيون أن إسرائيل أنشئت لأسباب يهودية ولأسباب مبررة، ويجب الاعتراف بذلك. وعلى الإسرائيليين أيضاً أن يدركوا أن إنشاء دولتهم هو الذي أدى إلى هذه المأساة بالنسبة»⁽¹⁾.

في مقابل المعتدلين يدافع جاستن وينورج، وهو أحد المدافعين الشرسين عن الكيان الصهيوني وحروبه القاسية على الشعب الفلسطيني، عن الحرب الاسرائيلية في غزة مستدعياً النقاش الأخلاقي لمبدأ تناسب الضرر فلسفياً ونفسياً مع الأذى النفسي، مستعيداً أعمال كل من ديفيد رودين، وسيسيل فابر، وجيف ماكماهان في تبرير الحروب ووقوع الأذى المادي بسبب الأضرار المجردة المتمثلة في الاستيلاء على الأراضي واغتصاب حقوق الحكم الذاتي⁽²⁾.

أراد وينبورج Weinberg أن يبحث عن مبرر «أخلاقي» لقتل الأبرياء والأطفال بشكل واضح من خلال محاولة بناء معادلة الردع عن طريق الخوف. فمن حق إسرائيل أن تؤذي الفلسطيني رجلاً كان أو امرأة طفلاً أو

Apr. 2024.

(1) HELLER, Mark A. No trumpets, no drums: A two-state settlement of the Israeli-Palestinian conflict. Macmillan, 1993.

(2) FABRE, Cécile et LAZAR, Seth (ed.). The morality of defensive war. OUP Oxford, 2014.

شيخا مادام هذا سيخلق جوا من الطمأنينة داخل إسرائيل الخائفة من حماس .
 ورغم كاريكاتورية هذا الوصف إلا أنه يلخص في الحقيقة هذه الرؤية
 «الأخلاقية» لوينورج حين يقول: «بطبيعة الحال، لا يجوز لأي شخص
 أن يقتل شخصاً آخر باعتبار هذا الأمر أضرار جانبية حتى يمنع نفسه من
 العيش في حالة من الخوف الصادم. ولكنني أعتقد أن الأرقام مهمة عندما
 تكون الأضرار كافية. في الواقع، أعتقد أننا إذا نظرنا إلى الأسباب التي تجعل
 البعض يقتل المعتصمين؛ ليس إلا الضرر النفسي المستمر الذي تفرضه مثل
 هذه التجارب على الناس.» وهذا يعني أن القتل قد تبرره الأضرار النفسية
 الناتجة عن الأذى الذي يسببه الإغتصاب، ولنستمر مع هذا التحليل نحو
 المقدمة الصغرى الثانية:

«هل يمكن أن تكون حرب إسرائيل على غزة بهذا المعنى حرباً
 متناسبة؟ هناك ما يقرب من سبعة ملايين يهودي يعيشون في إسرائيل
 الآن، ويبدو أن معظمهم يشعرون - استناداً إلى مناقشاتي غير الرسمية
 مع الإسرائيليين - بأن العيش مع حماس النشطة على حدودهم أمر «لا
 يطاق». وأنا أفسر ذلك على أن الشعور بعدم الأمان الموثق في نفوسهم
 يمنحهم سبباً وجيهاً لشن حرب على حماس بهدف الإطاحة بها. ولكي
 نأخذ هذه الفكرة على محمل الجد، يتعين علينا أن نفترض أنهم يعتقدون أن
 انعدام الأمن يبرر التسبب في الأضرار الجانبية التي ستنتج عن الإطاحة
 بـ حماس. وإذا افترضنا أن ذلك سيكون حوالي ٣٠ ألف حالة وفاة، فإن
 النسبة الضمنية التي يتذرع بها الإسرائيليون هي مثل وفاة جانبية واحدة
 لكل ٢٠٠ إسرائيلي كانوا سيعيشون لولا ذلك في حالة من انعدام الأمن

العميق. ومع ذلك، يحتاج هذا العدد إلى التعديل بالنسبة لسكان غزة الذين سيتحملون بالضرورة، بغض النظر عن كيفية انتهاء الحرب، عبئاً نفسياً مماثلاً، إن لم يكن أكبر، بسبب الحرب. ومن المفترض أن أولئك الذين فقدوا أحياءهم في الحرب ينطبق عليهم هذا الوصف. ولنفترض أن عشرة فلسطينيين سيحملون هذا العبء مقابل كل فلسطيني يُقتل. ولنضيف إلى ذلك عدد المصابين والذين سيحملون هذا العبء لبقية حياتهم. لنفترض أن هذا الرقم أعلى بخمس مرات من عدد القتلى. وإذا جمعنا هذه الأرقام معاً، فسنحصل على حوالي نصف مليون. وإذا عوضنا عدد الإسرائيليين بدعوى تجنب العبء النفسي بهذا العدد، فإن عدد الإسرائيليين الذين يتحملون العبء النفسي سيظل قريباً من ستة ملايين. وستظل النسبة مثل حالة وفاة جانبية واحدة لكل ٢٠٠ أو نحو ذلك من الإسرائيليين الذين لولا ذلك لكانوا سيعيشون في حالة من انعدام الأمن العميق. أجد أنني لا أستطيع رفض ذلك باعتباره توازناً غير معقول. وبعبارة أخرى، بمجرد أن نحسب الضرر النفسي، يبدو أن حرب إسرائيل قد تكون متناسبة⁽¹⁾.

تبدو الحرب هنا متناسبة لأنها حسب سلسلة الافتراضات المتسلسلة هنا بشكل غير رياضي، أو ربما لأنها كتبت على عجل، بمنطق الأخطار المحتملة لا الأخطار الموجودة. سياسة الردع والحرب الوقائية لخطر

(1) Justin Weinberg, Proportionality, Psychic Harm, and the Day After (guest post), 28 November 2023 <https://dailynous.com/2023/11/28/proportionality-psychic-harm-and-the-day-after-guest-post/> Accessed 2 Apr. 2024.

القلق النفسي تساوي، بل تفوق المآسي التي يعيشها أهل غزة موتا ودمارا حقيقيا. وبعبارة أخرى، فإن الإسرائيلي هنا «فيلسوبا» يحاول إقناع الغربي أن مسلسل الإبادة الجماعية لشعب غزة مبرره الأساس هو بعث الإطمئنان في نفوس الشعب اليهودي الذي يتلظى من خطر محتمل إلى حد كبير.

رغم كاريكاتورية هذا الطرح منطقيا وعلميا، وتهافته حتى من ناحية نظرية قياس المخاطر نفسها في جوانبها الرياضية الواضحة، إلا أن وينبورج Weinberg يبني هنا برهانه على عقلية المتلقي الغربي الذي ألف في الحقيقة ابتلاع خطاب المخاطر وخطاب التنبؤ بوصفه خطابا مشروعا، يحيل مباشرة في وعيه الجمعي نحو الإرهاب وأحداث ١١ سبتمبر. هذا الطرح يمثل استمرارية أخرى لتصور ثنائية العالم التي أسست للعالم الغربي ولأوروبا العجوز، بين المتخلف والمتقدم، لتتحول مع نظرية صدام الحضارات، نحو ثنائية كارهي الديمقراطية ومحبيها، ثم مع الحرب على الإرهاب إلى صراع حضاري وقيمي.

يتمترس خطاب وينبورج هذا داخل العقل الغربي بوصف الكيان دولة غربية داخل مجتمع شرقي، يهددها مجتمع مجهول الأسماء anonyms ينتمي لعالم يهدد العالم المتقدم، والذي يستبطن في الحقيقة نظرة مغرقة في العنصرية تجاه إنسانية مالك الأرض الأصلي ولحقه في الوجود بعد أن سلب حقه في الأرض. أخرجت حرب غزة هذا الوعي الغربي ووضعت الملقي والمتلقي الغربي في أزمة عميقة لتاريخ طويل من علاقة الشرق بالغرب، ولقيمه التي تقدم كأنها قيم إنسانية أنتجها العقل الخالص والقانون الطبيعي ومشاركات البشر جميعا دون أي إستعلاء عرقي أو

فكري أو ديني، خصوصا مع تضعف قوة الغرب اقتصاديا وتكنولوجيا وعسكريا تجاه عالم جديد تستعيد فيه حضارات غابرة ألقها بخطوات ثابتة نحو مستقبل مختلف.

ميلان كونديرا والقضية الفلسطينية

الوعي المغلوط بالصراع العربي الإسرائيلي

عبد الله الحيمر^(١)

«إنّ الحركة الصهيونية قاتلت بسلاح الأدب قتالاً لا
يوازيه إلا قتالها بالسلاح السياسي» .. غسان الكنفاني

يضعنا غياب روائي كبير بحجم كونديرا، أمام معضلة محاكمة التاريخ الأدبي والخلود الأخلاقي لجائزة اللامعنى في القدس المحتلة. جائزة ملطخة بدماء أطفال ورجال ونساء التغريبة الفلسطينية. جائزة أدبية إسرائيلية دولية تمنحها بلدية القدس المحتلة مجازاً، لكتاب وكاتبات تتطرق إنتاجاتهم الأدبية إلى حرية الفرد في المجتمع. أمام الوعي الإنساني بالقضية الفلسطينية، رفعت عرائض وحملات دولية وعربية للمطالبة برفض استلام الجائزة ومقاطعتها لأسباب إنسانية وسياسية. مشكلة كونديرا الأساسية أنه لم يقرأ بعيون مجردة

(١) كاتب مغربي.

القضية الفلسطينية، تاريخا وأدبا ومجتمعاً، حتى أنه لم يقترح علينا كأحد الفائزين بالجائزة (الروائي البريطاني إيان ماك إيوان ٢٠١١): «بأنه يفضل البحث عن «طرق تتيح تجاوز الانقسامات السياسية، عبر استغلال قدرة النص الأدبي خصوصاً الروائي، في النفوذ إلى أذهان الآخرين».

علماً أن الرواية، في حد ذاتها شهادة ضد مأساة الإنسان، وهي معادية بطبعها للإقصاء والعنصرية والحقّد التاريخي، الرواية تفضح وتكشف أقنعة الزيف الإنساني في صيرورته نحو محو وإلغاء الآخر من ذاكرته الإنسانية، والإنصات العميق لتكون أكثر إنسانية نحو الجار، دون استكبار وغطرسة. الرواية مغامرة العقل الأدبي في تجاوز المراحل العابرة مادية فينا، وصناعة أجيال تحمل بذور السلام والتعايش والتسامح الأخلاقي في إنسان الغد.

يضعنا خطاب ميلان كونديرا في القدس، أمام أسئلة: الفجوة المعرفية، والصمت الميثولوجي، وأدلة الواقع الصهيوني. هل كونديرا يعرف معنى اللامعنى، وهل يعاني من أزمة اللامعنى؟ وما يقترحه في خطابه السابق من مغالطات أدبية وتاريخية؟ والانبهار وتعظيم دور اليهود في أوروبا، دون نقد هذه الشخصية اليهودية ثقافياً، بما يكشفه من مراجع لمحو أسطورة الشعب الفلسطيني. هذه السقطة للروائي كونديرا لن يغفرها له الشعب الفلسطيني، وكل كتاب العالم الأحرار، لأن خطابه في القدس المحتلة ينم عن وعي مغلوّط بالصراع العربي الإسرائيلي.

الأرجح أنّ القارئ العربي لم يكن على اطلاع على هذا الخطاب، وللتاريخ أقدم الترجمة الكاملة للخطاب الذي ألقاه في القدس المحتلة، عند تسلمه للجائزة سنة ١٩٨٥ أثر حصول روايته «خفة الوجود الذي لا يحتمل» عليها.

ضحك الله

علما ان هذه الكلمة موجودة في الكتاب المقدس - العهد القديم سفر المزامير ٢ و ٣٧ و ٥٩). «إذا كانت أهم جائزة إسرائيلية هي مخصصة للأدب العالمي، يبدو لي أن هذه ليست مصادفة بل إنها تقليد طويل. في الواقع، إن الشخصيات اليهودية العظيمة هي التي أبدت دائما، بعيدا عن أرضها الأصلية، فوق المشاعر الشعبوية الوطنية، حساسية استثنائية لأوروبا ما فوق القومية، ولم يتم تصورهما كأرض، بل كثقافة، إذا كان اليهود، حتى بعد أن أصيبوا بخيبة أمل مأساوية من أوروبا، مع ذلك ظلوا أوفياء لهذه الكوزموبوليتانية الأوروبية، فإن إسرائيل، وطنهم الصغير الذي أعيد اكتشافه أخيرا، تبدو لي على أنها القلب الحقيقي لأوروبا، قلب غريب موضوع خارج الجسد». وبعباطفة جياشة أتلقى اليوم الجائزة التي تحمل اسم القدس وبصمة هذه الروح الكوزموبوليتانية اليهودية العظيمة، أنا أتلقى ذلك كروائي، وأكد على مفهوم روائي، ولا أقول كاتباً. الروائي هو الذي، حسب فلوير، يريد أن يختفي وراء عمله. الاختفاء وراء عمله يعني التخلي عن دور الشخصية العامة. ليس الأمر سهلاً اليوم، حيث يجب أن يمر كل شيء مهم حتى من بعد، عبر المشهد المضاء بشكل لا يطاق في وسائل الإعلام، التي، على عكس نية فلوير، تجعل العمل يختفي خلف صورة مؤلفه. في هذا الموقف، الذي لا يمكن لأحد الهروب منه تماماً، تبدو ملاحظة فلوير بالنسبة لي بمثابة تحذير تقريبا: من خلال إقناع نفسه بدور الشخصية العامة، يعرض الروائي عمله للخطر، الأمر الذي قد يُنظر إليه على أنه ملحق لأفعاله، وتصريحاته، ومواقفه. الآن ليس الروائي هو المتحدث الرسمي لأي شخص فحسب، بل سأذهب إلى حد القول إنه ليس حتى المتحدث باسم أفكاره. عندما كتب

تولستوي المسودة الأولى لـ «أنا كارنينا» كانت أنا امرأة غير متعاطفة وكانت نهايتها المساوية مبررة ومستحقة.

في «ثلاثي كتاب» حياة غارغانتوا وبانتاغرويل لفرنسوا رابليه، تعذب «بانورج» أول شخصية رومانسية عظيمة في أوروبا، بالسؤال: هل يتزوج أم لا؟ يستشير الأطباء، العرافين، الأساتذة، الشعراء، الفلاسفة، الذين يقتبسون بدورهم من أقوال وحكم أبقرط، أرسطو، هوميروس، هيراقليطس، أفلاطون.

حكمة الرواية

النسخة النهائية من الرواية مختلفة تماماً، لكنني لا أعتقد أن تولستوي قد غير أفكاره الأخلاقية في غضون ذلك. أفضل أن أقول إنه استمع أثناء الكتابة إلى صوت غير صوت قناعته الأخلاقية. استمع إلى ما أود أن أسميه حكمة الرواية. يستمع جميع الروائيين الحقيقيين إلى هذه الحكمة الخارقة للشخصية، التي تفسر سبب كون الروايات العظيمة دائماً أكثر ذكاءً قليلاً من مؤلفيها. الروائيون الأكثر ذكاءً من أعمالهم يجب أن يغيروا وظائفهم. لكن ما هذه الحكمة، ما هي الرواية؟ يوجد مثل يهودي مثير للإعجاب: «الإنسان يفكر والله يضحك». مستوحاة من هذه الجملة، أحب أن أتخيل أن فرانسوا رابليه سمع، يوماً ما، ضحك الله، وهكذا ولدت فكرة أول رواية أوروبية عظيمة. أحب أن أعتقد أن فن الرواية جاء إلى العالم باعتباره صدى لضحك الله. لكن لماذا يضحك الله، وهو ينظر إلى الإنسان الذي يفكر؟ لأن الإنسان يفكر والحقيقة تغفل منه، لأنه كلما زاد تفكير الناس، ابتعد فكر أحدهم عن فكر

الآخر. أخيراً، لأن الإنسان ليس أبداً كما يعتقد. في فجر العصر الحديث، تم الكشف عن هذا الوضع الأساسي للإنسان، الناشئ من العصور الوسطى: يفكر دون كيشوت، ويفكر سانشو، وليس فقط في حقيقة العالم، لكن في الحقيقة المخيفة عن أنفسهم المخفية. رأى الروائيون الأوروبيون الأوائل واستوعبوا هذا الوضع الجديد للإنسان وفهموه، وقد أسسوا عليه هذا الفن الجديد، فن كتابة الرواية. لقد أبدع فرانسوا رابليه العديد من الكلمات الجديدة التي دخلت بعد ذلك اللغة الفرنسية ولغات أخرى، لكن إحدى هذه الكلمات ظلت منسية، ويمكننا أن نأسف لها. هذه هي كلمة «الأجيلاست» agelast، وهي مأخوذة من اليونانية وتعني: الشخص الذي لا يضحك ولا يتمتع بروح الدعابة. كان رابليه يكره الأجيلاست، وكان دائماً مرعوباً منهم، واشتكى من أن «الأجيلاست» كانوا فظيعين تجاهه لدرجة أنه كاد يتوقف عن الكتابة يوماً ما، وإلى الأبد. لا يوجد توافق محتمل بين الروائي و«الأجيلاست». لم يسمعوا أبداً ضحك الله، فإن الأجيلاست مقتنعون بأن الحقيقة واضحة، وأن جميع الناس يجب أن يفكروا بالشيء نفسه، ويعتقدون بأن عليهم بالواقع، لكن بفقدان يقين الحقيقة والموافقة الجماعية للآخرين يصبح الإنسان فرداً. الرواية جنة خيالية للأفراد، إنها المنطقة التي لا يمتلك فيها أحد الحقيقة، لا أنا ولا كارنينا، لكن حيث يحق للجميع أن يكونوا، وأنا وكارنينا. في الفن الروائي، تم تأكيد وإنشاء وتطوير مفهوم الفردية الأوروبية على مدى أربعة قرون مضت.

في «ثلاثي كتاب» حياة غارغانتوا وبانتاغريل لفرنسوا رابليه، تعذب «بانورج» أول شخصية رومانسية عظيمة في أوروبا، بالسؤال: هل يتزوج أم لا؟ يستشير الأطباء، العرافين، الأساتذة، الشعراء، الفلاسفة، الذين يقتبسون

بدورهم من أقوال وحكم أبقرط، أرسطو، هوميروس، هيراقليطس، أفلاطون. لكن بعد كل الأبحاث العلمية الهائلة التي تملأ الكتاب بأكمله، لا يزال «بانورج» لا يعرف ما إذا كان يجب أن يتزوج أم لا. نحن القراء لا نعرف ذلك أيضاً، لكن من ناحية أخرى، اكتشفنا من جميع الزوايا الممكنة الوضع، سواء كان كوميدياً أم أساسياً، لشخص لا يعرف ما إذا كان يجب أن يتزوج أم لا.

مثل أسطورة بينيلوبي

لذلك، فإن سعة الاطلاع على كتابات فرانسوا رابليه، على الرغم من أنها كبيرة، لها معنى مختلف عن معنى ديكارت. تختلف حكمة الرواية عن حكمة الفلسفة. لم تولد الرواية من الروح النظرية، بل من روح الدعابة والفكاهة. إن إحدى مشكلات أوروبا هي عدم فهم الفن الأوروبي - الرواية لا روحها ولا معارفها واكتشافاتها الهائلة، ولا استقلالية تاريخها. الفن المستوحى من ضحك الله هو، في جوهره، لا يعتمد على اليقين الأيديولوجي، لكنه يتعارض معه، مثل بينيلوبي، قامت أثناء الليل بتفكيك النسيج الذي نسجه اللاهوتيين والفلاسفة والعلماء في اليوم السابق.

في الآونة الأخيرة، كنا نتحدث عن شر القرن الثامن عشر، وتوصلنا إلى هذه الكليشيهات: سوء حظ الشمولية الروسية هو عمل أوروبا، وفلسفتها، خاصة العقلانية الإلحادية للتنوير، وإيمانه بالقدرة الشاملة للعقل. لا أشعر بالكفاءة في الجدل مع أولئك الذين يجعلون فولتير مسؤولاً عن الغولاغ الروسي. من ناحية أخرى، أشعر بالكفاءة للقول: القرن الثامن عشر ليس

فقط قرن روسو، فولتير، هولباخ، لكن أيضا (إن لم يكن بشكل خاص!) قرن فيلدنغ، ستيرن، غوته، لاكلوس. من بين جميع روايات ذلك الوقت، أفضل «حياة ورؤى تريسترام شاندي لورنس ستيرن. رواية مثيرة للفضول، يفتتحها ستيرن مع استحضار الليل عندما تم تصور تريسترام؛ لكنه بالكاد يبدأ في الحديث عنها حتى تغريه فكرة أخرى على الفور، وهذه الفكرة، من خلال الارتباط الحر، تذكره بانعكاس آخر، ثم حكاية أخرى، بحيث يتبع الاستطراد الآخر، وينسى تريسترام، بطل الكتاب لئمة صفحة. يمكن أن تظهر هذه الطريقة الباهظة في سرد الرواية كلعبة رسمية بسيطة، لكن في الفن، الشكل دائما ما يكون أكثر من مجرد شكل. تقدم كل رواية، إجابة على سؤال ما هو الوجود البشري وأين يقيم شعره؟ عرف معاصرو ستيرن، كالروائي فيلدنغ على سبيل المثال، بشكل خاص كيفية تذوق السحر غير العادي للحركة والمغامرة.

الجواب الضمني في رواية ستيرن مختلف: الشعر، حسب قوله، لا يكمن في العمل لكن في انقطاع الفعل وتوقفه. ربما بشكل غير مباشر هناك حوار كبير هنا بين الرواية والفلسفة، تستند عقلانية القرن لقولة الفيلسوف لايبنتز الشهيرة: «لا شيء يوجد دون سبب». العلم، الذي تحفزه هذه القناعة، يفحص بعزم سبب كل الأشياء، بحيث يبدو كل ما يمكن تفسيره، وبالتالي يمكن حسابه. الرجل الذي يريد أن يكون لحياته معنى يتخلى عن كل لفظة لا يكون لها سببها وهدفها. كل السير الذاتية مكتوبة هكذا. تظهر الحياة كمسار مضيء للأسباب والآثار والفشل والنجاحات، والإنسان، الذي يثبت نظريته غير الصبور على التسلسل السببي لأفعاله، يزيد من تسريع سباقه المجنون نحو الموت.

في مواجهة هذا التحول في العالم إلى التابع السببي للأحداث، تؤكد رواية «ستيرن» بشكلها الوحيد: الشعر ليس في العمل لكن حيث يتوقف عن العمل؛ حيث يتم كسر الجسر بين السبب والنتيجة، وحيث يتجول الفكر في حرية خاملة لطيفة، يقول شعر الوجود إن رواية ستيرن في حالة استطراد، إنه في ما لا يحصى، إنه على الجانب الآخر من السببية، إنه جيب الاختصاص، دون سبب. إنه على الجانب الآخر من حكم لا ينتز.

لا يمكننا الحكم على روح قرن حصريا وفقا لأفكاره ومفاهيمه النظرية، دون مراعاة الفن، خاصة الرواية. اخترع القرن التاسع عشر القاطرة، وكان من المؤكد أن هيغل استوعب روح التاريخ العالمي. اكتشف فلوبر الغباء، أجرؤ على القول إن هذا هو أعظم اكتشاف في قرن فخور جدا بمنطقه العلمي. بالطبع، حتى قبل فلوبر، لم يكن هناك شك في وجود الغباء، لكننا فهمنا الأمر بشكل مختلف قليلاً: كان يعتبر غياباً بسيطاً للمعرفة، وهو عيب يمكن تصحيحه عن طريق التعليم. في روايات فلوبر، الغباء هو بعد لا ينفصل عن الوجود البشري، إن البلاء تصاحب إيما بوفاري المسكينة طيلة عمرها حتى إلى سرير الحب، حتى إلى سرير الموت الذي يقربه اثنان من الأجيالست الرّهيبين، هومي وبورنيزيان، سيتبادلان بلاهاتهما كما لو أن الأمر نوع من التأبين، لكن الأكثر إثارة للصدمة والأكثر فضيحة في الرؤية الفلورية للغباء هو: الغباء لا يختفي قبل العلم والتكنولوجيا والتقدم والحداثة؛ بل على العكس من ذلك، فإنه يتقدم أيضاً مع إحراز التقدم العلمي!

بشغف شرير، جمع فلوبر الصيغ النمطية التي ينطق بها الناس من حوله، الذين يرددون لكي يبدو أذكاء ومطلعين. قام بتأليف «قاموس الأفكار

الملتقاء» الشهير. دعونا نستخدم هذا العنوان لنقول: الغباء الحديث لا يعني الجهل، بل عدم حكمة الأفكار المسبقة. الاكتشاف الفلوري أكثر أهمية لمستقبل العالم من أكثر الأفكار المزعجة لماركس أو فرويد، يمكننا أن نتخيل المستقبل دون صراع طبقي أو دون تحليل نفسي، لكن ليس دون الصعود الذي لا يقاوم للأفكار المسبقة، التي قد تصبح قريباً، مدرجة في أجهزة الكمبيوتر، والتي تروجها وسائل الإعلام، تصبح تقريباً قوة تسحق كل الفكر الأصلي والفردى، وبالتالي ستخلق جوهر الثقافة الأوروبية في الأزمنة الحديثة..

وفي هذه المدينة ذات المصير الدرامي والقاسى، قررت أن أتحدث فقط عن الرواية؛ ربما كنت قد فهمت أن هذا ليس من جانبي شكلاً من أشكال الهروب، مما يسمى القضايا الخطيرة. لأنه إذا بدالى أن الثقافة الأوروبية مهددة اليوم، إذا كانت مهددة من الخارج ومن الداخل في أثنى ما لديها - احترامها للفرد، لفكره الأصلي وحياته الخاصة - يبدو لي أن هذا الجوهر الثمين للفردية الأوروبية يترسب، في الصندوق الفضى، لحكمة الرواية، لهذه الحكمة أردت أن أشيد في خطاب الشكر هذا، لكن حان الوقت للتوقف. كدت أنسى أن الله يضحك عندما يرانى أفكر».

محاولات يائسة ومحتشمة للفيلسوف «بيتر كيف»

في الدفاع عن نزعة إنسانية أخلاقية
مما يحدث في غزّة من جرائم حرب

الزاهيد مصطفى^(١)

لعبت النهضة الأوروبية دوراً مهماً في تحقيق الانتقال الكبير - من العالم القديم إلى العالم الحديث - للأفكار، وذلك في عملية ثقافت عميقة أنضجتها أبحاث العصور الوسطى وخصبتها التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفلكية والعلمية والدينية الكبيرة خلال القرنين ١٧ و ١٨، وهي اللحظة التي ساهمت في إعادة الاعتبار للإنسان وللقيم الإنسانية الكونية عبر سرديّة النهضة والأنوار، لقد شيد المشروع النهضة على سرديّة تعلي من قيمة الإنسان وتعيد له الاعتبار في مقابل كل المرجعيات المتعالية،

(١) طالب باحث في سلك الدكتوراه؛ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بالقنيطرة
جامعة ابن طفيل / المغرب.

فقد صار معياراً للقيم وأساساً لها، لكن المشروع النهضوي الغربي الذي كان نتاجاً للغرب الثقافي الذي وجب تمييزه عن الغرب السياسي - عرف انعطافاً كارثياً منذ انتشار الاستعمار والحربين العالميتين؛ فقد كانت مؤشراً قوياً على أن مفهوم التقدم الذي صاغته الأنوار لا يعني دائماً التقدم إلى الأمام؛ كما لا يعني الارتقاء من وضع أدنى إلى وضع أرقى، بل تؤكد أنه يمكن للتقدم أحياناً أن يعرف منعطفات كارثية.

هذا الموقف الارتكاسي طال وأثر على النزعة الإنسانية وكأن الخطاب البنيوي الذي أعلن موت الإنسان صار واقعاً فعلياً حسب المآل، ولفهم هذا الارتكاس يكفي أن ننظر في العديد من المحطات الوجودية القصوى، وخاصة تلك التي عبرت في الحاضر على مواقف عدائية لكل نزعة إنسانية.

يبين هذا الوضع حجم التراجع في الموقف النقدي الأنواري الذي عبر عنه كانط بقوله: «التنوير (١) هو خروج الإنسان من القصور (٢) الذي يرجع إليه هو ذاته. القصور هو عدم قدرة المرء على استخدام فهمه دون قيادة الغير. يكون هذا القصور راجعاً إلى الذات إذا كان سببه لا يكمن في غياب الفهم، بل في غياب العزم والجرأة على استخدامه دون قيادة الغير! Sapere aude (٣)، تجرأ على استخدام فهمك الخاص! (٤) هذا إذن هو شعار التنوير.^(١)» بالنسبة لإيمانويل كانط سبب هذا القصور يرجع إلى عجز ذاتي وفقدان للشجاعة على استخدام العقل والتحرر من الوصاية. لكن ماهو السبب الذي يجعل الناس عاجزة على استخدام عقلها الخاص؟

(١) إيمانويل كانط؛ إجابة عن سؤال ما التنوير، ترجمه عن الألمانية: إسمايل المصدق مجلة فكر ونقد، العدد ٤،

يجيب كانط في نفس النص: «إن الكسل والجبن هما السبب الذي يجعل طائفة كبيرة من الناس يظلون، عن طيب خاطر، قاصرين طوال حياتهم، حتى بعد أن تكون الطبيعة قد حررتهم، منذ مدة طويلة، من كل قيادة خارجية»^(١)، لقد سبق لأفلاطون أيضا أن بين أن في الجمهورية أن التحرر من الدوكسا وبلوغ الحقائق الثابتة عملية شاقة لا يمكن أن ينجزها سوى الفيلسوف القادر على كسر أغلال العادة والحس المشترك، لكن هل استطاع كل الفلاسفة أو ممن صار الإعلام يتساهل في تسميتهم بالفلاسفة تجاوز الكهف الافلاطوني وبلوغ الإيدوس؟

إن واقعة الإبادة في غزة تكشف لنا بجلاء تهافت الموقف الفلسفي للمتفلسفة الجدد في عصرنا بخصوص المشترك الإنساني والحق الكوني ومركزية الإنسان وكونية حقوقه، بل أظهرت هذه الواقعة التراجيدية عن بربرية جديدة تستدعي أن نعيد صياغة السؤال الذي طرحه تيودور أدورنو وهوركهايمر: لماذا سقطت الإنسانية في بربرية جديدة عوض أن ترتقي لوضع إنساني أصيل؟

لقد سبق لمدرسة فرانكفورت أن انتقدت الأنوار، وكان مآل مفكريها في نقد الأنوار نكوصيا، لأن بعض روادها لم يستوعبوا كيف استطاعت الأنوار أن تتحول إلى جنون وقد انطلق (هوركهايمر) و(أدورنو) من مشروع عصر التنوير بما هو لحظة تأسيسية للحدث الغريبة، ومن أهم الأسس أو المبادئ التي قام عليها هذا المشروع: العقل والحرية والعدالة واحترام كرامة الإنسان وحقوقه وفكرة التقدم الإنساني، وهذا قصد التخلص من الظلم الذي ظل يعاني منه الإنسان، ومن مختلف أشكال السيطرة التي عرفها في

ظل المؤسسات الدينية والسياسية التي كانت سائدة في أوروبا في تلك الفترة. غير أنه وفي خضم التطور التاريخي تبين أن المشروع التنويري أصبح أبعد عن تحقيق المبادئ والقيم الإنسانية التي قام عليها، والتي دافع عنها الفلاسفة التنويريون، من أمثال جون لوك وإيمانويل كانط ومنتسكيو وديدرو وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين الذين عرفتهم أوروبا، في بداية القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر. لقد اتضح أن هذا المشروع لم يعد مؤهلاً أو قادراً على تحرير الإنسان من مختلف أشكال السيطرة التي أصبحت تهدد وجوده، وخاصة في ظل النظم السياسية والاقتصادية والشمولية، أو التوتاليتارية التي بلغت أوجها وقمة طغيانها في اللحظة التاريخية الحاسمة والخطيرة التي عايشها فلاسفة مدرسة فرانكفورت، أي بعد صعود النازية وما حل بأوروبا في تلك اللحظة التاريخية، كما قلنا سابقاً، حيث اختفت الحرية وغاب العقل وانقلب التقدم بمفهومه الإنساني إلى انحطاط شامل وتراجع مقلق للغاية^(١).

إن أسباب استمرار الغرب السياسي^(٢) في ضرب القيم التي أسسها الغرب الثقافي لا يمكن تفسيرها إلا بالعودة لاستيعاب كيف تشكلت المركزية الغربية Ethnocentrisme، لقد لعب التمرکز دوراً أساسياً

(١) كمال بومير: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت منشورات الاختلاف، الطبيعة الأولى 2010 ص 11-12.

(٢) أميز شخصياً في الغرب بين، غرب سياسي يعبر عن مصالح طبقة رأسمالية إمبريالية لا تعنى بالقيم الإنسانية وهي موجودة تاريخياً في قلب جميع الحضارات غايتها الحفاظ على مصالحها، وغرب ثقافي وتعبير عن روح حضارية ممتدة إلى بلاد الرافدين وضاربة في القدم، تراكمت وانتقلت عبر سلسلة تاريخية ناه فيها الفكر والقيم المعايير والأفكار إلى أن استوت في النهضة الأوروبية مانحة لنا عالماً جديداً وبراديجماً جديدة وسأعمل على توضيح هذا الأمر في مقالة ستششر قريباً. الغرب الثقافي مشترك إنساني بينما الغرب السياسي هو تعبير عن مصالح وعن ضواري على البشرية أن تبعد من القوانين والاليات ما يضبطها وذلك من أجل عالم يسوده السلام.

لا يسلم منه حتى المتفلسف الغربي، فهو ينطلق من كون إنتمائيه الإثني والثقافي أساس القيم والحضارة بشكل من التضخيم، خاصة من عاش طيلة حياته على خطاب كونية العقل الأوروبي وكونية قيمه وأسبقيته للتأسيس؛ لا يمكنه أن يسلم أبداً من السقوط ضحية الاستشراق والأنثروبولوجيا الكولونيالية التي كرسّت لدى العقل الغربي وهم المخلص وكونية التآمر على هذا المخلص من طرف البرابرة الجدد^(١)؟

(١) لا يصحّح كل الكتاب الغربيين بهذا التوصيف لكن تلمسه ثاويا في خطاباتهم، فمثلاً إن أخذنا صامويل هنتنغتون في كتابه: «صراع الحضارات»، يقول: أولاً: هل الحضارة الغربية صنف جديد، في مرتبة وحدها. مختلفة لدرجة ألا يمكن مقارنتها بكل الحضارات الأخرى التي كانت قائمة؟ ثانياً: هل اتساعها العالمي يهدد أو يعد بإنهاء إمكانية تقدم كل الحضارات الأخرى؟

يميل معظم الغربيين، وهذا طبيعي إلى الإجابة عن السؤالين بالإيجاب وربما كانوا على حق في الماضي على أية حال، كانت شعوب الحضارات الأخرى تفكر على نفس النحو وكانوا مخطئين من الواضح أن الغرب يختلف عن جميع الحضارات التي كانت قائمة في أن تأثيره طاع على كافة الحضارات الأخرى التي وجدت منذ سنة ١٥٠٠، كما أنه هو الذي دشّن عملية التحديث التي أصبحت عالمية. وكنيجة لذلك كانت المجتمعات في الحضارات الأخرى كلها تحاول اللحاق به في الثروة والحداثة. فهل تعنى سمات الغرب هذه أن تطوره وقواه المحركة لحضارة مختلفة.

الحضارات الأخرى التي وجدت منذ سنة ١٥٠٠، كما أنه هو الذي دشّن عملية التحديث التي أصبحت عالمية. وكنيجة لذلك كانت المجتمعات في الحضارات الأخرى كلها تحاول اللحاق به في الثروة والحداثة. فهل تعنى سمات الغرب هذه أن تطوره وقواه المحركة كحضارة مختلفة تماماً عن النمط الذي كان سائداً في الحضارات الأخرى؟ الدليل التاريخي وأحكام الباحثين في التاريخ المقارن تقول بالعكس. تقدم الغرب حتى الآن لم ينحرف بشكل كبير عن أنماط التطور التي كانت معروفة في الحضارات عبر التاريخ الصحوّة الإسلامية والقوى الاقتصادية المحركة في آسيا تدل على أن الحضارات الأخرى حية وبحالة جيدة وأنها - على الأقل - يمكن أن تهدد الغرب. إن حرباً رئيسية تضم الغرب ودول المركز في حضارات أخرى ليست أمراً حتمياً، ولكنها قد تقع من ناحية أخرى فإن انهيار الغرب التدريجي وغير المنتظم

لنأخذ نموذج المتفلسف والخطيب المعاصر بيتر كيف^(١)، فرغم ادعاءاته ورفعه الدائم للخطاب الإنسي ورغم كونه رئيس الفلاسفة الإنسانيين ففي

والذي بدأ في بداية القرن العشرين قد يستمر لعدة عقود وربما القرون قادمة. أو قد يمر الغرب بفترة يقظة ويقلب نفوذه المتدهور في الشؤون العالمية ويعيد تأكيد وضعه كقائد تتبعه وتقلده الحضارات الأخرى

أنظر: صامويل هونتغتون؛ صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي الجديد، ترجمة طلعت الشايب، الطبعة الثانية ١٩٩٩ ص ٣٨٧-٣٨٨ دار النشر سطور.

(١) درس بيتر كيف الفلسفة في جامعة لندن وكلية كينغز كامبريدج. وشغل خلال مساره العديد من الوظائف في لندن، كما عمل في جامعة الخرطوم في السودان، وجامعة سيتي في لندن. وألقى محاضرات في جامعة نيويورك في لندن ويعتبر بيتر كيف صديقاً في الجمعية الملكية للفنون وعضو شرفي في مؤسسة «Population Matters»، بل نجد في موقعه يقدم نفسه بأنه عضو في مجلس المعهد الملكي للفلسفة ورئيس الفلاسفة الإنسانيين البريطانيين، وراع لجمعية الإنسانيين بها. كما يدعم بشغف قاعة ويغمور والأوبرا الوطنية الإنجليزية.

بيتر كيف هو مؤلف لعديد من المقالات الفلسفية، وتشمل مجال بحثه الخاصة الإشكالات والقضايا الأخلاقية من قبيل مشكلة الحياة والموت، الشر. قدم بيتر العديد من المحاضرات الفلسفية كما حرر العديد من المقالات الصحفية، بل نجده كاتب عمود في مجلتي «The Investor» حول الضرائب وخرافات المال. كتب وأدار برامج فلسفية للإذاعة البريطانية، بدءاً من سلسلة حول «Paradox Fair» إلى برامج أكثر جدية حول جون ستيوارت ميل. كما يشارك في تنشيط الفضاء العمومي من خلال المساهمة في المناظرات العامة حول الدين والأخلاق والقضايا الاجتماعية والسياسية ويؤمن بأنه يجب «الوقوف والمشاركة» عند مواجهة بعض الفظائع، التي غالباً ما تكون نتيجة للإيمان الديني أو الحماسة غير المحدودة للرأسمالية. من كتبه الفلسفية - «This Sentence is False: an introduction to philosophical paradoxes and Humanism». كما ألف ثلاثية كتب خفيفة بعنوان «Can a Robot Be Human?» و«What's Wrong with Eating People?» و«Do Llamas Fall in Love?»، كتب «Philosophy: How to outwit Aristotle» في عام ٢٠١٢، نشر «Ethics: A Beginner's Guide» وفي عام ٢٠١٥ نشر «Ethics: A Beginner's Guide».

قضية غزة ظهر لنا بجلاء أن الفيلسوف نفسه لا يمكنه أن يسلم أحيانا من سلاسل الكهف الافلاطوني خاصة الفيلسوف الذي تصنعه الميديا وتفرضه على الرأي العام والوسط الأكاديمي باعتباره فيلسوفا احتفاليا فهو يناصر غزة ويفند موقف الداعمين لإسرائيل لكنه يظل متلكئا في إعطاء موقف حاسم من الاحتلال مرددا المغالطة الشهيرة: «ندين إسراف إسرائيل في القوة لكننا ندين حماس لقتلها الأبرياء»، السؤال المطروح هنا، ألا يموت الأبرياء والمدنيين يوميا في الأراضي الفلسطينية إلى أن أصبح الموت حدثا إعلاميا لا يحتاج الاحتفاء به نتيجة قتل حدث الموت واقعا عبر الميديولوجيا. وهو ما جعل الناس تأكل وجبة غدائها بكل شراهة ومذيعه الأخبار تعلن سقوط القذائف على المنازل وموت الأطفال!

كتب بيتر كيف مقالة بعنوان «تأملات فلسفية في العدوان الإسرائيلي على غزة»⁽¹⁾ على موقع «Daily Philosophy» في ٥ يناير ٢٠٢٤. في هذه المقالة، فصل أغلب الحجج التي تروجها وسائل الإعلام حول تسويق الإبادة في غزة بمبرر حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها. يوظف بيتر العديد من التسويغات الفلسفية والأخلاقية لمقاربة المفارقات الأخلاقية التي يواجهها العقل الغربي في تعامله مع الموقف الحالي من غزة.

(1) The objection is ungrounded. Israel's right to defend itself is not a right to do whatever it thinks necessary to defend itself. Let us reflect further. Even if the destruction of all Gazans were to be the sole means of ensuring the destruction of Hamas, and assuming that end to be desirable, it does not follow that those means are morally justifiable. A morally desirable end is not sufficient to justify just any means to that end, even if those means are the only available means. Israel's Attack on Gaza | Daily Philosophy (daily-philosophy.com)

ينطلق بيتر في مقالته من حالة «رد الفعل» التي صاحبت هجوم المقاومة الفلسطينية بزعامة حماس في السابع من أكتوبر، من طرف السياسيين ورجال الدين وكتاب الرأي والفنانين والباحثين والأكاديميين الذين بدأوا يطالبون إسرائيل باستخدام كل إمكانات القوة للدفاع عن نفسها. هؤلاء الأفراد تحركهم الآلة الإعلامية بشكل جماعي، مما يبين ضعف القدرة النقدية التي رسخها التنوير في حماية المثقف والفيلسوف من السقطات الأخلاقية الكبرى ومن جائحة الحشود المدارة من طرف البروباغندا الإعلامية.

يبين بيتر كيف تمكنهج إسرائيل قتلها للمدنيين عن سبق إصرار وترصد. فقد عملت على تهجير الغزّوين البالغ عددهم حوالي مليوني نسمة إلى مخيمات للاجئين، وألزمتهم باتباع التوجيهات الإسرائيلية بالانتقال إلى مخيمات وأماكن حُدّدت وأُعلن أنها آمنة، ولو بشكل مؤقت على الأقل، من القصف. لكن عادت لتقص تلك المناطق التي وُصفت «بالآمنة» - بما فيها مخيمات اللاجئين والمستشفيات والمدارس - بل حتى الطرق المؤدية إليها تعرضت للقصف، وهو ما ساهم في زيادة عدد الوفيات والإصابات الخطيرة. إن الإنسان، الذي اعتُبر قيمة عليا في الخطاب الأنواري للغرب الثقافي، صار مجرد أضرار جانبية في الإبادة الإسرائيلية. في المقابل، يتم التركيز على تجريم المقاومة الفلسطينية واعتبار قتلها للمدنيين يتنافى مع القانون الدولي، في صمت مريب من طرف القادة الغربيين والداعمين، لما يواجهه الأطفال والنساء والمسنين.

رغم ترده في إعلان موقف واضح يناصر الفلسطينيين أمام صمت دولي رهيب، استطاع بيتر كيف أن يعلن بوضوح ازدواجية المعايير الغربية وتواطؤ سلطة الإعلام. فتنتباهو حين أعلن أنه لن يتوقف حتى تدمير حماس، وضع داعميه في موقف أخلاقي وسياسي تاريخي سيُحاكم عليه الغرب دائماً، باعتباره

لا يقدم نموذجًا في القيم، بل في التدمير فقط. لقد وصل الأمر إلى أن فقدت العائلات الإسرائيلية الثقة في أولوية رهائنها عند حماس بالنسبة لنتيهاو.

المغالطات التي يستخدمها المدافعون عن إسرائيل	تفنيدها من طرف الفيلسوف بيتر كيف
لماذا لا يحتج داعمو فلسطين في المملكة المتحدة ضد جرائم حماس في حق المدنيين الإسرائيليين؟	المملكة المتحدة تدين حماس وتدعم إسرائيل في القضاء عليها، لكن بيتر كيف يرى أنه يجب الضغط على المملكة المتحدة لتفعل شيئًا يوقف قتل الأبرياء في فلسطين.
الربط بين معاداة السامية ومعاداة الصهيونية	يميز بيتر كيف بين السامية والصهيونية، ويؤكد أن معاداة الصهيونية لا تعني معاداة السامية.
العداء الذي يتعرض له اليهود الأرثوذكس في المملكة المتحدة سببه معاداة السامية	بالنسبة لبيتر كيف، ليست معاداة السامية هي المحرك للعداء. من منظور سوسيولوجي، يتضح أن العداء لليهود الأرثوذكس سببه تأييدهم العلني للأعمال الوحشية لإسرائيل، وأن ما يسمى بمعاداة السامية مجرد ذريعة للضغط على المحتجين لتغيير مواقفهم أو دفعهم للصمت.

يبين بيتر كيف أن هذه المغالطة لا تصمد أمام الواقع. فمطالب الناس بدولة فلسطين الكبرى لا تعني تدمير إسرائيل، بل تعكس رغبة في إقامة دولة تضمن السلام والتعايش بين الجميع.	أغلب المحتجين في المملكة المتحدة يحملون أعلامًا ويلوحون بتأسيس دولة فلسطين الكبرى من البحر إلى النهر، وهذا مؤشر على وجوب تدمير إسرائيل
إن حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها لا يعني مطلقًا الحق في القيام بكل ما تعتقد إسرائيل أنه ضروري للدفاع عن نفسها. فماذا لو كان تدمير حماس يتطلب تدمير كل سكان غزة؟ هنا يسقط التبرير الأخلاقي لهذه الغاية¹.	المؤيدون لإسرائيل في المملكة المتحدة يريدون منع إسرائيل من استخدام حقها في الدفاع عن نفسها
يفند بيتر كيف ذلك بملاحظات عديدة، فالقول بأن الهولوكوست عرض حياة ٦ ملايين يهودي للموت لا يتناسب مع عدد القتلى في ليلة الهجوم من طرف حماس.	إعلان إسرائيل أن هجوم حماس لا يضاهيه خطورة سوى الهولوكوست

كانت هذه بعضًا من أهم المغالطات التي قدمها بيتر كيف في رده على مغالطات إسرائيل بخصوص ما يحدث من جرائم في غزة. إن الموقف الذي انتهى إليه بيتر كيف هو إدانة إسرائيل واعتبار ما تقوم به غير أخلاقي، ويصل الأمر إلى حد توجيه أصابع الاتهام مباشرة من طرف بيتر كيف إلى رؤساء سابقين ينطبق عليهم وصف الإرهابيين. فلقد كان أول رئيس للوزراء في إسرائيل، وهو «مناحيم بيغن»، متورطًا في الجماعة الإرهابية الصهيونية

«إرغون»، التي فجرت فندق الملك داود في القدس سنة ١٩٤٦، مما أسفر عن مقتل وإصابة أكثر من مئة شخص، العديد منهم من المدنيين. وقد أدى الإرهاب الذي مورس في نهاية المطاف إلى تشكيل دولة إسرائيلية لقيت دعماً واكتسبت شرعية دولية. لذلك، يتأسف بيتر لما وصل إليه الأمر بخصوص الصمت الدولي، منها كلامه بقول المسيح: «ماذا سيغنم الإنسان لو انتصر على العالم كله وخسر نفسه في النهاية؟»

إن الموقف الفلسفي لبيتر كيف، رغم إنسانيته، إلا أنه يظل في حدود الإدانة الأخلاقية لموقف إسرائيل. فهو ليس لديه أي اعتراض جوهري على وجود إسرائيل، بل فقط على ما ترتكبه من تجاوزات بين الفينة والأخرى. ويمكن العثور في ثنايا خطابه على ما يؤكد هذا القول بالنص الصريح^(١). فكل ما يطالب به بيتر هو تحسين تدبير إسرائيل للعنف كما حصل في السنوات

(1) أنظر المقالة التي كتبها بيتر كيف حول ادعاءات داعمي إسرائيل في المملكة المتحدة Israel's Attack on Gaza | Daily Philosophy (daily-philosophy.com) أنظر أيضاً الحوار الذي أجراه ويليام إشلر مع الفيلسوف جوناثان غلوفر على مجلة «إنساني جديد» والذي عبر أيضاً عن موقف غامض وفيه الكثير من التديس، بحيث أن المشكلة ليست مع جرائم الكيان الصهيوني الذي تعبر عنه إسرائيل بل فقط في طريقة الردود وحجم التدخلات وهي من المغالطات الأخلاقية الكامنة في قلب أخلاقيات الحرب بحيث يقول :

As on other ethical questions, there is disagreement. But two claims have wide support. Responses must be proportional. And non-combatants should not be attacked. Few now thinking about a just war would disagree. I think that what Israel is doing in Gaza violates both. Proportionality: there is the huge disparity of numbers killed compared to 7 October. Civilian immunity: the bombing and cutting off electricity, water, etc. It is not only Hamas supporters who die when the hospital's power runs out. What can moral philosophy tell us about Israel-Palestine? | New Humanist

الماضية، وكأن الفلسطينيين قبل أن يقع هجوم حماس كانوا يعيشون في سلام وكرامة ومساواة، وأن القوانين هي المعايير التي تدبر بها إسرائيل القطاع. وهنا نذكر بيتر ونسائله عن موقفه من سنوات الحصار والتمييز العنصري؟ على العموم، يضعنا الواقع الفلسطيني اليوم وعمليات الإبادة في غزة أمام منعطف إنساني سيرخي بظلاله في العقود القادمة على الفلسفات الأخلاقية وعلى القانون الدولي. وسيظهر مرة أخرى ويعزز المواقف النكوصية والمادية للتنوير، ورغم كل ما يقال عن النزعة المحافظة والأخلاقية حتى لدى الإنسانيين الغربيين في رفضهم لأعمال الكيان الصهيوني وعمليات الإبادة التي ينفجها بدعم دولي، فإنهم يقفون عند حدود الإدانة الأخلاقية، وهو ما يجعلهم متواطئين مادامت لديهم القدرة على فعل أكثر من الإدانة ولا يفعلونها. بينما يدعمون في أوكرانيا بالسلح والمواقف والعقوبات. وهو ما يطرح سؤالاً: هل الجوهري اليوم هو الإنسان أم المصالح؟

أمام هذا الوضع، تسقط الأنوار من جديد في موقف حرج. لكن مهما كلفنا الموقف، فلن نعاذي الأنوار والعقلانية^(١)، لأن الغرب السياسي الذي عبر عن توحشه دائماً يضرب بممارسته في الصميم الغرب الثقافي الذي نعتبره مشتركاً إنسانياً وكونياً. فالأنوار موقف إنساني ساهمنا فيه أيضاً إذا نظرنا لعقل الأنوار باعتباره حياة العقل التي تنمو في ثنايا التاريخ.

(١) أنظر المقدمة التي كتبها غيرالدهارتونغ لكتاب إرنست كاسيرر الموسوم بفلسفة التنوير، ترجمة إبراهيم أبو هشيش حيث يقول: «تستحق حقبة التنوير الدفاع عنها إزاء تشويه مكتسباتها الاجتماعية والأخلاقية والقانونية والسياسية في خضم التطورات السياسية اليومية. لذلك فإن فلسفة التنوير موضوع ثقافي سياسي متفجر، والانشغال بها ليس شأن الوسط الأكاديمي بأسره. وكانت حجج مزدري التنوير - بأنه يقوض الأساس الأخلاقي لثقافتنا الغربية ويحول الإنسان الحديث إلى مخلوق بلا تاريخ أو قناعات».

القسم الثاني: قراءات سياسية

الطلبة الأمريكيون يطلقون طوفان الأقصى ٠, ٣^(١)

د. إبراهيم علوش^(٢)

يوافق ٤ أيار / ماي / مايو ذكرى مجزرة جامعة «كنت» الحكومية Kent State University، في ولاية أوهايو الأمريكية، التي وقعت في ٤ أيار / مايو ١٩٧٠، وقضى فيها، بحسب الأرقام الرسمية، ٤ طلاب، وجرح ٩، أصيب أحدهم بشللٍ دائم، كانوا يحتجون بصورة سلمية على حرب فيتنام، وذلك برصاص «الحرس الوطني» لولاية أوهايو.

جرت تبرئة عناصر «الحرس الوطني» الذين أطلقوا نيران بنادقهم على نحو ٣٠٠ متظاهر سلمي في حرم جامعة «كنت»، وكان اثنان ممن قتلهم الحرس، وهما طالب وطالبة، يقفان بعيداً مع جمهرة تراقب تظاهرة زملائهم عن بعد ١٠٠ متر تقريباً، أي أن بعض من قتلوا وجرحوا من الطلبة لم تكن لهم علاقة بالاحتجاج.

(١) ملاحظة: المراجع متضمنة في النص ذاته.

(٢) باحث ومفكر عربي أردني فلسطيني الأصل، خريج جامعة أوكلاهوما.

يمثل «الحرس الوطني» التابع للولايات قوات احتياط للجيش الأمريكي عندما يكلف بمهمة من طرف الحكومة المركزية، أي الرئيس، خارج البلاد، ويعد، ما عدا ذلك، قوة تابعة لحاكم الولاية يمكن أن يحركها ضمن حدود ولايته فقط في حالات الطوارئ.

العبرة من قصة مجزرة جامعة «كنت» الحكومية في ولاية أوهايو، في عز حرب فيتنام، أن الحكومة الأمريكية لا تتورع عن ارتكاب أعمال قتل عشوائية، حين يتعلق الأمر بموقفٍ مفصلي يهدد مصالح النخبة الحاكمة، كما في حالة مناهضة حربها في جنوب شرق آسيا في الستينيات والسبعينيات. لم تكن حادثة جامعة «كنت» فريدة من نوعها طبعاً، فهناك مثلاً إطلاق النار على طلاب محتجين في جامعة «جاكسون» الحكومية، في ولاية مسيسيبي الأمريكية، في ١٤ أيار / ماي / مايو ١٩٧٠، أي بعد ١٠ أيام بالضبط من حادثة جامعة «كنت»، من طرف قوة مشتركة من شرطة الولاية وقسم شرطة المدينة، ما أدى إلى مقتل ٢ منهم، وجرح ١٢، بعدما فتحت تلك القوة نيرانها عشوائياً على مبنى السكن الجامعي. ولم يُدَن أيٌّ من مطلقي النار في تلك الحادثة أيضاً.

هناك أيضاً حادثة جامعة «ساوث كارولينا» الحكومية في ٨ / ٢ / ١٩٦٨، عندما فتحت دورية من شرطة السير التابعة لولاية ساوث كارولينا الأمريكية النار على طلاب محتجين من أجل الحقوق المدنية، فقتلت ٣ منهم وجرح ٢٨.

كذلك، هناك حادثة طعن ١١ محتجاً من الطلبة والأساتذة والإعلاميين في جامعة «نيو مكسيكو»، في ٨ / ٤ / ١٩٧٠، بحراب بنادق عناصر «الحرس

الوطني» لولاية نيو مكسيكو الأمريكية، على خلفية مجزرة جامعة «كنت» وظاهرة مناهضة حرب فيتنام عموماً.

حادثة «كنت» هي الأكثر شهرة طبعاً، ربما لأن ضحاياها كانوا من الطلاب «البيض»، بعضهم من الطلاب غير المشاركين بالاحتجاج، ولأنها لم تقع في الولايات الجنوبية المضطربة، ولأنها ارتبطت مباشرة بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة.

وفي الإمكان الاستمرار طويلاً هنا في الحديث عن نشطاء حركة الحقوق المدنية أو مناهضي النظام الذين جرى اغتيالهم، مثل القائد المسلم مالكوم إكس في ٢١ / ٢ / ١٩٦٥، أو مارتن لوثر كينغ عام ١٩٦٨، أو الذين «ماتوا في ظروف غامضة» أو جرت تصفيتهم علناً.

للمزيد بشأن هذا الملف الكبير، يمكن مراجعة التقارير المنشورة عن عملية «كوانتليرو» COINTELPRO، والتي أدارها مكتب المباحث الفيدرالية FBI بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٧١ ضد معارضي النظام الأمريكي، ولا سيما مناهضو الحرب أو النظام الجذريون، ومنظمات وقيادات الأقليات العرقية التي تتجاوز «السقف»، مع تعليمات محددة من جي إدغار هوفر، الحاكم المطلق للـ FBI منذ عام ١٩٣٥، حتى وفاته عام ١٩٧٢، بـ «فضح، وتعطيل، وتضليل، وتشويه سمعة» المستهدفين بالبرنامج، و«تحييدهم عند اللزوم».

خرج هذا الملف إلى العلن، في صحيفة «واشنطن بوست»، بعد «تسريب ملفات أمنية»، نتيجة صراع بين أجنحة السلطة التنفيذية، كما يبدو، إثر تغول جهاز مخابرات الـ FBI عليها، كي يكشف جانباً من الوجه الحقيقي للنظام الأمريكي الذي يعاني من «فائض ديموقراطية وحقوق إنسان» يصير على

تصديره بالقوة إلى بقية العالم، على طريقة «حرب الأفيون» البريطانية على الصين عام ١٨٣٩.

دلالات الحملة على الطلبة الأمريكيين المتضامنين

مع غزّة وفلسطين

ليس مفاجئاً إذاً اعتقال مئات الطلبة المحتجين من أجل غزّة وفلسطين في الجامعات الأمريكية في ربيع عام ٢٠٢٤، ولا القسوة البالغة الذي جرى التعامل بها مع تلك الاحتجاجات، وتوزيع قرارات الفصل والاعتقال بالجملة، لمن يعرفون الوجه الحقيقي للنظام الأمريكي وسجله داخلياً، لا خارجياً فحسب.

تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية بـ«حرية التهريج»، وبسقوف لا تضبطها ثقافة أو دين أو احترام لمقامات دينية أو دنيوية، ويمنحك نظامها حق الاعتراض والاحتجاج ما دام لا يؤثر جدياً على مصالح النخبة الحاكمة. أما التصادم مباشرةً مع تلك المصالح في لحظة أزمة، فيواجهه بالبطش غير المقيد بقانون أو بالقيم الليبرالية التي يرفع لواءها النظام.

إذا صحّ هذا التقسيم لطبيعة النظام الأمريكي، فإن طريقة تعامله الشرسة مع الاحتجاجات الطلابية من أجل غزّة وفلسطين مؤشّرٌ على أنه متأزم بشدة، وأن أزمته صنعها صمود غزّة وبسالة مقاومتها، وأن غزّة نجحت في جعل الدعم الأمريكي للعدو الصهيوني، مسألة رأي عام داخلي أمريكي، الأمر الذي يتهدد العلاقة العضوية بين الإمبريالية والصهيونية في لحظة أزمة تجلت في مظهرين متلازمين:

- أ. تعثر العدوان الصهيوني على غزة وعجزه عن تحقيق أهدافه.
- ب. تقدم مكونات محور المقاومة الصفوف لنصرة غزة، الأمر الذي يهدد الهيمنة الأمريكية في المنطقة.

العنصر اللافت في انتفاضة الطلبة الأمريكية من أجل غزة وفلسطين

كما أدت مجزرة جامعة «كنت»، في خضم حرب فيتنام، إلى زيادة زخم الحراك الطلابي المناهض للحرب من مستوى بضعة آلاف إلى ٤ ملايين، بحسب تقرير أحد مراكز الأبحاث، وإلى أكبر إضراب طلابي في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي أدى إلى إغلاق أكثر من ٤٥٠ حرمًا جامعيًا أمريكيًا في احتجاجات سلمية أو عنيفة، فإن محاولة الإجهاز بالقبضة الأمنية العارية على المخيم الاحتجاجي الطلابي في حرم جامعة كولومبيا، إحدى أبرز الجامعات النخبوية الأمريكية، أسهم في تأجيج الاحتجاجات المتضامنة مع غزة وفلسطين كالنار في الهشيم في مزيد ومزيد من الجامعات الأمريكية، من الساحل الشرقي إلى تكساس في أقصى الجنوب إلى جامعات الساحل الغربي، ولا سيما كاليفورنيا.

اللافت بشدة هو أن الطلبة الأمريكيين كانت لهم مصلحة مباشرة في إيقاف حرب دولتهم في جنوبي شرقي آسيا، إذ أصبحت الجامعات ملاذًا قانونيًا للتهرب من الخدمة العسكرية حين كان التجنيد إجباريًا.

لذلك، تحولت الجامعات إلى بؤر طبيعية لمناهضة السياسة الخارجية الأمريكية، وإلى أكبر احتياطي استراتيجي لحركة مناهضة الحرب، مع ارتباط

تلك الحركة بحركة أقدم هي حركة الحقوق المدنية، والتي بلغت أقصى زخمها في الستينيات.

أما في حالة غزة وفلسطين، فإن المادة الكيميائية المحفزة لمناهضة السياسات العدوانية الأمريكية لم تكن أي مصلحة فردية من أي نوع لدى الشبان الأمريكيين، بل كان أثر الصورة والفيديو القادمين من غزة عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ولا سيما تطبيق «تيك توك»، والذين أسقطا قناع النظام الأمريكي لدى القطاعات الأكثر ليبرالية والأكثر اتصالاً بالفضاء الافتراضي من الشبان الأمريكيين.

وبما أن جزءاً لا بأس به من هؤلاء يعد من الجمهور التقليدي للحزب الديموقراطي، فإن ذلك ضاعف الانقسامات في صفوف ذلك الحزب، عشية انتخابات رئاسية حاسمة تواجه فيها الدولة العميقة خصماً عنيداً من خارجها، هو دونالد ترامب.

تكمن مأساة الرئيس (السابق) بايدن هنا في أنه ألقى كل ثقله علناً خلف الكيان الصهيوني عشية غزوة «طوفان الأقصى» المظفرة إخلاصاً للعلاقة الإمبريالية-الصهيونية، نعم، لكن أيضاً للمزايدة على ترامب انتخابياً، وإغواء لقواعده العنصرية، والمسيحية-المتصهينة، الأكثر التزاماً بـ«إسرائيل»، فوجد نفسه يخسر جزءاً من قاعدته الأكثر تأثراً بالقيم الليبرالية، والتي صدمها فيض صور الوحشية والمجازر والاستباحة التي اقترفتها «الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط».

فبدأ الرئيس بايدن يتراجع خطابياً فحسب عن دعم السياسات الصهيونية، وبأقل مما يجب، وبعد فوات الآوان، الأمر الذي لم يمر، وخصوصاً أن قيمة

جرعة الدعم الأمريكية الجديدة للكيان الصهيوني في نيسان / إبريل بلغت قيمتها ٢٦ مليار دولار فقط.

تنشأ أزمة وجودية هنا لدى الكائن الليبرالي: إما أن يتخلى عن منظومته القيمية، ويعترف أمام نفسه أن رداءه الليبرالي رداء حملٍ يرتديه مجرمٌ سفاحٌ، وإما أن ينتصر لمنظومته القيمية، من حقوق الإنسان إلى مناهضة العنصرية، محاولاً تصويب المسار السياسي.

لذلك، انتشر الحراك المتضامن مع غزة وفلسطين بين الشرائح الأكثر تأثراً بالחס الليبرالي، والأكثر مدنيةً، والاكثَر بياضاً عرقياً، والأكثر نخبويةً ثقافياً، والأقل ارتباطاً، في الآن عينه، بالهرم الاقتصادي-الاجتماعي، بحكم كونهم طلاباً، لا رجال أعمال أو موظفين حكوميين مثلاً، أو مهنيين.

ضد القتل والمجازر إذًا، وضد العنصرية والمعايير المزدوجة، والمذبحة الجماعية، وضد تغطيتها أمريكياً، وضد الدعم غير المشروط للكيان الصهيوني، كان التوجه الذي بدأ يكتسب زخماً غير عادي بمقاييس أمريكية بعد بضعة أسابيع من العدوان على غزة.

ثم جاءت الصفعة الثانية، التي أطاحت سائر القناع عن وجه النظام الأمريكي ليبرالياً: قمع الحراك المتضامن مع غزة وفلسطين، ومعالجته بالقبضة الأمنية، بالاعتقالات والضرب والفصل.

صرخ المعتصمون في جامعة كولومبيا النخبوية: «الإمبراطور عارٍ من الثياب»، إذ وقفت الإمبراطورية الأمريكية بلا رداء «سيدة الحرية» Lady Liberty والتي يقف تمثالها عند بوابة نيويورك البحرية وهي ترفع «مشعل الحرية» بينماها، وتضم ييسراها نسخة من «إعلان استقلال الولايات

المتحدة الأمريكية»، والذي يعلن أن «كل البشر خلقوا متساوين».

دور المجموعات اليهودية في الحراك الطلابي الأمريكي المتضامن مع غزة وفلسطين

يجب البعض التركيز على دور بعض المجموعات اليهودية-الأمريكية المناهضة للعدوان على غزة في الحركات الطلابية في الجامعات الأمريكية، من دون الالتفات إلى أن تلك النزعة تمثل استمراراً للانقسامات في المجتمع الصهيوني ذاته، التي تصاعدت بعيد ما يسمى أزمة «التعديلات القضائية»، والتي أخرجت التناقضات بين العلمانيين والمتدينين، وبين الليبراليين والمحافظين، وبين اليهود الشرقيين (الأكثر تشدداً) واليهود الغربيين.

لكن عامة اليهود الأمريكيين أكثر علمانيةً وليبراليةً وتغريباً (بالتعريف) من يهود الكيان الصهيوني، الأمر الذي جعلهم حاضنة أكثر معارضة لحكومة نتنياهو. كما أنهم يميلون إلى الحزب الديمقراطي، ويعدون من أهم مموليه. وهم أبعد جغرافياً عن فلسطين المحتلة، في حين تصطف نسبة أكبر من العلمانيين والليبراليين والمتغربين اليهود في الكيان الصهيوني مع العدوان على غزة.

نقول: اللهم زد وبارك في تلك التناقضات وفاقمها، لكن الحذر الحذر من تبني البرنامج السياسي لليهود الأمريكيين الداعين لوقف العدوان على غزة، من المرشح الرئاسي السابق السيناتور بيرني ساندرز، الذي هجا غزوة الـ ٧ من أكتوبر بأقذع ما يكون من الألفاظ، إلى مجموعات طلابية مثل «صوت يهودي من أجل السلام» Jewish Voice for Peace، أو «إن

لم يكن الآن « If Not Now، والتي تدفع باتجاه التعايش وتَقْبَل المحتلين في فلسطين تحت عناوين مثل مناهضة العنصرية و «إدانة قتل المدنيين من الطرفين».

وبحسب تقرير للأوسوشييتد برس في ١٦ / ١١ / ٢٠٢٣، فإن مجموعة «إن لم يكن الآن» اليهودية-الأمريكية بلغت عائداتها نحو ٤٠٠ ألف دولار عام ٢٠٢١. وبحسب تقرير لموقع NBC الأمريكي في ٢٠ / ٣ / ٢٠٢٤، فإن مجموعة «إن لم يكن الآن» اليهودية تلقت ١٠٠ ألف دولار من مؤسسة روكفلر في السنوات الخمس الأخيرة، في حين تلقت مجموعة «صوت يهودي من أجل السلام» نصف مليون دولار من مؤسسة روكفلر خلال الفترة ذاتها.

ويضيف التقرير ذاته أن «مؤسسة المجتمع المفتوح» Open Society Foundation، التابعة لجورج سورس، قدمت تبرعات كبيرة لمجموعة «صوت يهودي من أجل السلام» لأن هدف المؤسسة هو المساعدة على «إقامة سلام دائم في المنطقة».

يتباهى البعض بوجود هؤلاء ضمن حركة عريضة تدعو إلى وقف إطلاق النار في غزة، وتتقاطع على برنامج حده الأدنى سحب استثمارات الجامعات من الشركات الداعمة لـ «إسرائيل»، وحق الاحتجاج من دون تعرض الطلاب المحتجين لعقوبات، والمقاطعة الأكاديمية للجامعات ومراكز الأبحاث الصهيونية.

ليس الهدف هنا نفي إمكان وجود يهود مناهضين للصهيونية خارج فلسطين، أي مناهضين لحق الكيان الصهيوني في الوجود، ومناصرين لحقنا

بتحرير فلسطين كاملة، بالعمل المسلح. لكن ذلك، إن وجد في حالات مجهرية، لا يمثل الجانب الأبرز، أو حتى الأقلوي، في ظاهرة اليهود المناهضين لحكومة نتنياهو، والداعين لوقف إطلاق النار في غزة. وحتى يبرز مثل هؤلاء كتيار، فلنهدئ خيولنا قليلاً، لأنهم يصبحون أقرب لأحصنة طروادة، غايتها تفخيخ الحراك المناهض للصهيونية في الغرب سياسياً وتخفيض سقفه.

الجيلان الثاني والثالث من العرب في الولايات المتحدة الأمريكية تجاوز الحراك المتضامن مع غزة وفلسطين في الولايات المتحدة، في أجزاء مهمة منه، سقف الـ BDS، بطرحه شعار «من النهر إلى البحر»، في حين لا تنفي الـ BDS حق الكيان الصهيوني بالوجود، بل تدعو إلى جعل «إسرائيل» أكثر «ديموقراطية»، وأقل «عنصرية»، كما يمكن أن يرى من يتفحص برنامجها السياسي في موقعها عبر الإنترنت.

وفي رأي المتواضع، تمثل مجموعات الأمريكيين من أصل أفريقي المساندة لغزة وفلسطين ظاهرة أهم وأنقى وأوسع تأثيراً من الظاهرة اليهودية، وكذلك مجموعات الأقليات الداعمة للقضية الفلسطينية.

لكن الظاهرة الأهم في الحراك الطلابي المتضامن مع فلسطين وغزة اليوم، والتي لا تنال ما تستحقه من الاهتمام في الإعلام المقاوم، ليست اليهود المنخرطين فيها، بل الجيلان الثاني والثالث من الفلسطينيين والعرب والمسلمين الذين ولدوا في الولايات المتحدة، والذين تجاوزوا الشعور بالرعب من ممارسة أي نشاط سياسي الذي ينتاب المقيمين بصورة غير مشروعة، أو الموجودين بناءً على إقامات يمكن إلغاؤها.

بات هؤلاء مئات الآلاف اليوم، وهم يلقون بظلمهم بقوة على المشهد الطلابي الأمريكي، وبسقف مبدئية في كثير من الأحيان، تتجاوز ما تطرحه المجموعات اليهودية أو الـBDS. ومن هؤلاء على سبيل المثال، لا الحصر، مجموعة فلسطينية-أمريكية فعالة جداً وذات انتشار واسع اسمها «في حياتنا» In Our Lifetime، تطرح في موقعها في الإنترنت النقاط البرنامجية التالية:

أ. الوقوف ضد المشروع الاستيطاني الاستعماري الصهيوني بكلتيه، وتحرير كل فلسطين.

ب. رفض كل أشكال التطبيع، وأي حوار أو تعاون مع المجموعات الصهيونية.

ج. الدفاع عن الحق في مقاومة الاحتلال الصهيوني «بكل الوسائل الضرورية» By All Means Necessary، وهي مقولة للقائد المسلم مالكوم أكس طبعاً، في خطاب له عام ١٩٦٤، ولا يصعب تأويلها كثيراً، وأظن أنها تتضمن أكثر من «إضاءة الشموع».

د. دعم كل نضالات التحرر القومي حول العالم المناهضة للإمبريالية الأمريكية.

استغرب كثير أعقد نقص البعض التي تجعلهم يثمنون سقفاً شديد الانخفاض لتضامن يهودي، هو في الواقع صهيوني مشفر، متجاهلين أهم عامل مساعد في انتفاضة الطلبة الأمريكية من أجل غزة وفلسطين، وهو الفلسطينيون والعرب والمسلمون من الجيل الثاني والثالث، ومنظماتهم ونشطاءهم، وجهودهم.

ومن البديهي أن تلك المنظمات تتعرض حالياً لعملية تدقيق وشيطة

في المؤسسة الأمريكية الحاكمة، ومنها على سبيل المثال، لا الحصر، مجموعة «طلاب من أجل العدالة في فلسطين» Students for Justice in Palestine، ومجموعة «مسلمون أمريكيون من أجل فلسطين» American Muslims for Palestine، وغيرها كثير من المجموعات التي قد لا تتمتع بانتشار عبر الولايات، لكنها مؤثرة في بيئاتها المحلية.

الطلبة الأمريكيون يعودون إلى مقاعد الأيديولوجيا في فصل غزة جاءت مدهشة انتفاضة الطلبة الأمريكيين من أجل غزة وفلسطين، بل يمكن القول إنها مثلت «طوفان الأقصى ٠, ٣»، إذا عددنا تفاعل الجبهات المساندة، من جنوب لبنان إلى اليمن إلى العراق، «طوفان الأقصى ٠, ٢». ولعل أكثر ما هو مدهش فيها انبثاقها من العمق الاستراتيجي لما يمكن تسميته «الغرب الأقصى»، في الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها، من حيث ينبع دعم الصهيونية، بدلاً من «الشرق الأوسط»، ذلك المصطلح الاستشراقي الذي وضع لمحو الهوية وتهيئة المنطقة لتقبل «إسرائيل» ثقافياً. لكن، هل تعفي الانتفاضة الطلابية، عالمياً وأمريكياً، الأمة العربية وشعوب العالم الإسلامي، وخصوصاً شبابها وطلابها، من واجب دعم المقاومة بكل وسيلة ممكنة؟ وهل يجوز الاتكاء عليها، أو على فعاليات الجبهات المساندة وإنجازاتها، للانكفاء في مقاعد المتفرجين المصفقين أو الباكين؟ وهل يمكن أن تحقق انتفاضة الطلبة الأمريكيين ما لا يحققه إلا تولي عامة العرب والمسلمين أمر الصراع مع الطرف الأمريكي-الصهيوني بأنفسهم وبأدواتهم؟

بالتأكيد لا، ولا، ولا! فالعرب، قبل غيرهم، أولى بالنصرة، بمعايير

الجغرافيا والقرباة. وتعني النصرة تقديم الدعم بالمال والسلاح والتطوع وكسر الحصار وفتح الجبهات المساندة ومناهضة التطبيع، والتظاهر بمئات الآلاف والملايين دعماً للمقاومة، تماماً كما يفعل اليمينيون والمغاربة دورياً.

ومن يُسقط أوهامه التسوية مع العدو الصهيوني على حراك الطلبة الأمريكيين، معتقداً أنهم مركب الخلاص إلى عالمه الملوث كوكيلٍ للطرف الأمريكي-الصهيوني في المنطقة، يشطح بعيداً، للأسباب الآتية:

أ. أن مشروع التسوية مع العدو الصهيوني ليس برنامج الحراك الطلابي الذي يركز على مقاطعة الكيان ووقف إطلاق النار في غزة في المدى القريب، وعند تناول المدى البعيد، يذهب إلى الحديث عن فلسطين من النهر إلى البحر غالباً، لا عن تعميم نموذج السلطة الفلسطينية في غزة مثلاً. وتجري الآن محاولات لتدجين الحراك واختراقه بطروحات التعايش.

ب. أن أكثر ما يميز الحراك الطلابي في الجامعات الأمريكية أنه جاء من خارج المعادلات، لا من خلال جهود سفارات السلطة الفلسطينية والأنظمة العربية في الخارج مثلاً، لا سمح الله، وأنه استهدف الدعم الأمريكي للكيان الصهيوني، ودعم نخب الغرب للمجزرة في غزة، مباشرةً.

وتجري الآن محاولة إجهاضه والقضاء عليه بوسائل قمعية، كما سيأتي، لأنه يمثل حراكاً خارج السياق غربياً يُخلّ بسلطة النخب الحاكمة فيه، كما لم يحدث منذ حرب فيتنام، ولأنه مسّ بالحركة الصهيونية ونفوذها في عقر دارها.

ج. أن مشروع التسوية مع العدو الصهيوني، بمعنى «حل الدولتين»، سقط وانكشفت عورته بعد عقودٍ من اللهاث خلف سرابه، وإن استهتار النخب الصهيونية الحاكمة المزمّن بمن يتبنونه فلسطينياً وعربياً، كان عاملاً آخر مساعداً، بعد مبدأ حق الشعوب في مقاومة الاحتلال بدرجات، في إضفاء المشروعية على غزوة الـ ٧ من تشرين الأول / أكتوبر المظفرة لدى كثيرٍ من الغربيين، وإن السقف الأعلى أمريكياً وصهيونياً ما برح حكماً ذاتياً محدوداً بمسمى «دولة»، للسكان، وليس للأرض، في الضفة الغربية وغزة، «يشكل ضماناً لأمن إسرائيل»، في خضم تهيئة كل الظروف لتحقيق «الترانسفير» الناعم أو الخشن للفلسطينيين.

الثمن الباهظ الذي يدفعه الطلبة المشاركون

في الحراك التضامني مع غزة وفلسطين

أما القول إن الحراك الطلابي الأمريكي جاء من خارج المعادلات، فلا يستند إلى خطابه مرتفع السقف فحسب، قياساً بما جرت عليه العادة في الغرب، أو إلى ازدهاره وانتشاره بمثل هذا البهاء في أقل مكان يمكن توقع نشوئه فيه، أي في الجامعات الأمريكية بالذات، ولا سيما جامعات النخبة، بل إلى الثمن الباهظ الذي يدفعه المشاركون فيه فردياً، كما سنبين تالياً.

سأقتصر فيما يلي على الجامعات الأمريكية بحكم احتكاكي المطول بجوها العام، دراسةً وعملاً، وبمصادر المعلومات المحدثة عنها، تاركاً الجامعات الغربية الأخرى وحركاتها لمن هم أدري مني بها.

توجد نحو ٤٠٠٠ جامعة وكلية في الولايات المتحدة مخولة منح شهادات رسمية في المرحلة التالية للدراسة الثانوية، ثلثها تقريباً كليات تتم برامجها التدريسية في سنتين، وثلثها في ٤ سنوات، بحسب موقع وزارة التربية الأمريكية.

أما المراجع التي تشير إلى نحو ٦٠٠٠ جامعة وكلية أمريكية بالمجمل، فتضيف نحو ألفي معهد و«جامعة» تمنح شهادات «حضور برنامج» أو «متابعة منهاج» غير معترف بها رسمياً أو دولياً، كتدريب أو تعليم مستمر، أو لعشاق الشهادات الوهمية والألقاب الشكلية.

تسمى الجامعات الأمريكية التي تقدم برامج ماجستير فحسب «جامعات إقليمية» Regional Universities، والمقصود جامعات تخدم الولايات جهوياً. لكنّ أحدهم مصادر نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية عالمياً ينبع تحديداً من «الجامعات القومية» National Universities، وهي الجامعات التي تشمل مكوناً بحثياً وطيداً، لا تدريسياً فحسب، والتي تقدم برامج دكتوراة معمقة في تخصصات متعددة.

يبلغ عدد الجامعات القومية في الولايات المتحدة ٤٣٩ جامعة، منها ٢٢٧ جامعة حكومية، تتلقى دعماً حكومياً بصورة غير حصرية، و٢٠٨ جامعات خاصة غير ربحية تجني عائداتها من الأقساط والتبرعات وبعض الدعم الحكومي، و٤ جامعات خاصة تديرها شركات خاصة بغرض تحقيق الربح. وتتلقى الجامعات الحكومية تبرعات خاصة، أما الجامعات الخاصة فتتلقى دعماً حكومياً، وإنما الاختلاف في النسب بين الاثنين. وتتلقى الجامعات الحكومية والخاصة موازنات من حكومات الولايات، الأمر الذي

يفسر اختلاف أقساط الطلاب المقيمين في الولاية In-State Tuition مقارنةً بأقساط زملائهم القادمين من ولايات أخرى Out-of-State Tuition تضاف إليها رسومٌ أخرى في حالة الطلاب غير الأمريكيين International Students.

جامعة هارفرد، أقدم جامعة أمريكية، على سبيل المثال، جامعة خاصة غير ربحية لا تملكها شركة أو الدولة، وتؤول أصولها في حال حلها إلى ولاية ماساتشوستس التي سجلت فيها قبل قرون، لكنها تتلقى، بحسب آخر موازنة منشورة لها، ١٢, ٥٪ من عائداتها من الحكومة الفيدرالية، يذهب أغلبها لتمويل برامج أبحاثها بنسبة ٦٦٪ من تكلفتها، إضافة إلى نحو ٦٪ من أقساط طلابها على صورة منح طلابية.

وكان ذلك التمويل الحكومي هو الرافعة التي استغلها الكونغرس للتشهير برئيسة جامعة هارفرد السابقة كلودين غاي في جلسات عامة متلفزة وإطاحتها بتهمة «معاداة السامية».

تتيح الجامعات القومية الأمريكية للولايات المتحدة تصدر مراتب التصنيف الجامعي عالمياً، بـ ٥٣ من أول ١٠٠ جامعة عالمياً، تليها بريطانيا بـ ٨ جامعات، والصين بـ ٦، وأستراليا بـ ٦، وكندا بـ ٦، وهولندا بـ ٥، وسويسرا بـ ٣، وهونغ كونغ بـ ٣، وبلجيكا بـ ٢، وسنغافورة بـ ٢، وجامعة واحدة لكلٍ من ألمانيا واليابان والبرازيل وفنلندا والدنمارك والنرويج.

هذا يعني أن التعليم العالي عالمياً يبقى أنكلو-ساكسونياً، مع اختراق صيني حقيقي بـ ٩ جامعات في الصين وهونغ كونغ. أما المراتب العشر الأولى عالمياً فتحلتها ٨ جامعات أمريكية واثنان بريطانيتان. أما المراتب

العشرين الأولى، ففيها ١٤ جامعة أمريكية، واثنان صينيتان.

ليست كل الجامعات القومية الأمريكية سواء طبعاً، إذ تترع على رأسها مجموعة من الجامعات المتميزة تحتل مراتب متقدمة في التصنيف العالمي أيضاً مثل برينستون، ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا MIT، وهارفرد، وستانفورد، ويال، وجامعة بنسلفانيا، ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا CalTech، وديوك، وبراون، وجونز هوبكنز، ونورث وسترن، وكولومبيا، وكورنل، وجامعة شيكاغو، وجامعة كاليفورنيا في بيركلي، وغيرها.

وثمة جامعات لا يقع تصنيفها العام ضمن الفئة الأولى أمريكياً بالضرورة، لكنّ بعض كلياتها تصنف ضمن الفئة الأولى في مجالها، في الإعلام مثلاً أو الهندسة الزراعية إلخ... وفي الحاليتين، تخرّج تلك الجامعات نخبة النخبة ممن يفترض أنهم يملكون أعلى الفرص في تأمين مستقبلهم ومستقبل ذريتهم.

وإذا كانت أسماء بعض الجامعات أعلاه تبدو مألوفة من الإعلام فلأنّ بعض أعنف المواجهات والاعتقالات وفصل الطلاب المتضامين مع غزة وفلسطين جرت فيها مؤخراً.

لكنّ مستقبلهم المهني والشخصي ليس وحده ما خاطر به الطلاب المحتجون من أجل غزة وفلسطين. وحتى نقدر معنى ذلك جيداً في السياق الأمريكي، لا بد من البدء بشروط القبول في جامعات الفئة الأولى، ومنها الحصول على معدل عام في أعالي التسعينيات (من مئة)، أي GPA 4.0، ومعدلات تفوق ١٤٠٠، من أصل ١٦٠٠، في امتحان دخول الـ SAT، أو معدلات تفوق ٣١، من ٣٦، في امتحان دخول الـ ACT.

لكن هذا كله مجرد «فتحة عداد»، إذا صح التعبير، لأن الجامعات تأخذ

الأكثر تفوقاً فقط من بين هؤلاء. فجامعة هارفرد تقبل ٣٪ فقط ممن يتقدمون للانتساب إليها، وجامعة يال ٥٪، وجامعة كولومبيا ٤٪، أما جامعة كورنل فأكثر تساهلاً عند معدل قبول ٥, ٧٪، إلخ... أي أن التنافس للانتساب، بعد العلامات والمعدلات، يجري على الهامش بمؤهلات أخرى، مثل نشر بحث علمي في مجلة محكمة أو القيام بمشروع متميز في مجال التخصص، أو التميز رياضياً أو فنياً، ونتحدث عن سنة أولى جامعة هنا، أي أن الإعداد لدخول تلك الجامعات يبدأ في بداية المرحلة الثانوية فعلياً.

لنفترض، بعد ذلك كله، أن الطالب نال القبول الجامعي، فإن ذلك أيضاً يظل شرطاً ضرورياً غير كافٍ لمتابعة الدراسة، إذ هناك الأقساط الباهظة لتلك الجامعات، ولا سيما جامعات الفئة الأولى. لنأخذ وسطاً حسابياً هنا: في عام ٢٠٢٣، بلغ متوسط الأقساط والرسوم في جامعة كولومبيا نحو ٦٢ ألف دولار سنوياً، وفي جامعة هارفرد نحو ٥٨ ألف دولار...

وبلغ متوسط الأقساط والرسوم في الجامعات القومية الأمريكية عام ٢٠٢٣ كما يلي: في الجامعات الخاصة نحو ٤٥ ألفاً سنوياً، وفي الجامعات الحكومية ٢٨ ألفاً لغير أبناء الولاية، ونحو ١٢ ألفاً سنوياً لأبنائها، يعني تخيلوا كلفة الأقساط والرسوم وحدها في ٤ سنوات، من دون كلفة المعيشة. كما تغطي تلك الرسوم والأقساط أما من الأهل في حالة الأثرياء، وهم قلة، أو من القروض الطلابية في الأعم الأغلب. لذلك، بلغت القروض الطلابية للأمريكيين رقماً مهولاً هو ٦, ١ ترليون دولار، أي ١٦٠٠ مليار، مع نهاية عام ٢٠٢٣، ويعد الطالب المدين مسؤولاً عنها إن تخرج أو لم يتخرج. وقد تغطي الأقساط من المنح، منح التميز مثلاً، والإعفاءات الجزئية أو الكلية، وتسقط المنحة بالضرورة إذا جرى فصل الطالب من الجامعة، ولو

لأسباب غير أكاديمية مثل الاحتجاج من أجل غزة وفلسطين.

بهذا كله يخاطر الطلاب الأمريكيون عندما يتضامنون معنا... والاعتقال أقل الهموم، إذ بلغ عدد من اعتقل منهم في الاحتجاجات نحو ٣٠٠٠ في ربيع عام ٢٠٢٤. أما عدد من فصلوا مؤقتاً أو بصورة تامة، فلا يوجد تقدير مؤكد له، لأن الجامعات ترفض كشف تلك الإحصاءات، بحسب المواقع الأمريكية المعنية.

ولما نتطرق بعد إلى الأساتذة الجامعيين الذين يعملون بعقد سنوي Adjunct Professors، والذين لم تجدد عقودهم، أو الأساتذة المثبتين في الجامعات Tenured Professors الذين يتعرضون للاضطهاد والتضييق والتشهير، بحسب تقرير مفصل في موقع «ذا إنترسبت» في ١٦ / ٥ / ٢٠٢٤، بعنوان «أساتذة جامعيون يخسرون وظائفهم نتيجة مكارثية جديدة بشأن بغزة».

وبعد ذلك كله، هناك «القوائم السوداء»، للطلبة والأساتذة المستهدفين، والتي تقلل فرصهم في العمل في المستقبل.

مسألة الحافز الأيديولوجي تعود إلى الواجهة من جديد

يمثل الإقدام على فعل تضحية كبير من أجل قضية عامة يفترض أنها بعيدة كل البعد، جغرافياً وثقافياً، عمن تبناها، عملاً «أحق» من المنظور البراغماتي الفردي قصير المدى وضيق الأفق. لكننا لا نتحدث عن مجموعة من الحمقى والمغفلين هنا، بل عمن أثبتوا جدارهم واجتازوا أصعب الاختبارات كي يدخلوا جامعات الفئة الأولى والثانية والثالثة في الولايات المتحدة، ومن كان يجري تأهيلهم كي يصبحوا بيروقراط القطب الأوحـد كما يفترض.

ويدرك القارئ اللبيب أن الحديث هنا لا يدور عما قام به الطلبة الأمريكيون، بل عما لا نقوم به نحن. والأهم من الأثر السياسي لاحتجاجات الطلبة الأمريكيين هو المثال الأخلاقي الذي يضربونه لنا كعربٍ ومسلمين: ما الذي فعلته من أجل غزة وفلسطين مؤخراً؟

الأمر الوحيد الذي يمكن أن يدفع المرء لتجاوز ذاته من أجل الذوبان في قضية أكبر هو العقيدة، أو الأيديولوجيا، أي منظومة القيم والمفاهيم التي تحكم رؤية الإنسان للعالم وطريقة تعامله معه.

هنالك من ينظر إلى العالم بمقاييس المصلحة الخاصة فحسب، وتلك هي الأيديولوجيا البراغماتية، وهناك من ينظر إليه بمقاييس تتجاوز ذاته المعظمة: الأمة، الطبقة، جماعة المسلمين، البشرية، إلخ...

لعل بعض أولئك الطلبة ظنوا أنهم «أبناء النظام الأمريكي» وورثته المستقبليون، وأن «القيم الأمريكية» التي تشربوها تتيح لهم، لا بل تحضهم على، التعبير عن رأيهم المندد بالمجزرة الجماعية في غزة، بموجب «التعديل الأول» للدستور الأمريكي First Amendment Rights على الأقل، والذي يضمن حق التعبير بمختلف أشكاله. وكانوا قد تلقنوا أن «الأنظمة

الشمولية» وحدها هي التي تجمع حرية التعبير والاحتجاج والتظاهر، وأن الولايات المتحدة بلدٌ حر، وأنهم لم يمارسوا إرهاباً أو يعتدوا على أحد، وإنما ينتصرون لـ «حقوق الإنسان».

لعلهم ظنوا أن مناهضة الصهيونية كمناهضة غيرها، فُرِغت في وجوههم ورقة «معاداة السامية»، ذلك السيف البتار في الغرب الذي توضع رقاب مليارات البشر على حد نصله، والذي سقط على عتباته أكثر من مثقفٍ عربي، وخصوصاً في الغرب، حيث الحفاظ على الذات في مواجهته مسألة حياة أو موت، فيندفع تحت وطأته إلى إنتاج تحريجات «تقدمية» أو «علمانية»، أو حتى «إسلامية»، تدين مجرد الحديث عن النفوذ اليهودي عالمياً، في عالم المال والأعمال أو السياسة أو الإعلام أو حتى الأكاديمية، من أجل تبرئة نفسه وتركيتها غربياً.

ولو لم يكن مرتبطاً في عيشه بالغرب، بصورةٍ أو بأخرى، لما اضطر إلى ممارسة هذا النوع من الانتهازية الفكرية.

وبعيداً عن السقوط الأخلاقي والسياسي الذي مارسه رئيسة جامعة كولومبيا نعمت شفيق للحفاظ على منصبها باستدعاء الشرطة على الطلاب المحتجين، واعتقال وفصل عددٍ منهم، فإن الخطر الأكبر فكرياً هو أولئك الذين يلعبون على حبال الأيديولوجيا والمبدأ كي ينتجوا مناهضة صهيونية لا تمس النفوذ اليهودي العالمي، والذي ما برحت تلعب منظماته دوراً مفصلياً في تدمير عددٍ كبيرٍ من الطلاب والأساتذة المناصرين لغزة وفلسطين في الولايات المتحدة الأمريكية. وثمة معارك ضمير حقيقية تجري الآن على صعيدٍ فردي للصمود في وجهه.

مقارنة مع تجربة «احتلوا وول ستريت»

Occupy Wall Street

أقامت حركة «احتلوا وول ستريت»، مركز رأس المال المالي الدولي في نيويورك، مخيماً في متنزه زكوتي Zuccotti Park في منطقة منهاتن السفلى، حيث تقع وول ستريت، من ١٧ أيلول / سبتمبر حتى ١٥ تشرين الثاني / نوفمبر عام ٢٠١١.

ومع أن الحركة كانت تطرح عناوين صريحة مناهضة للرأسمالية، وهيمنة الاحتكارات على الاقتصاد الأمريكي، وللنظام الأمريكي الذي أنقذ البنوك المتعثرة في الأزمة المالية الدولية على حساب دافعي الضرائب، وكانوا أحياناً يسدون مداخل بورصة نيويورك، وشركات عالمية عابرة للحدود، فإن مخيمها استمر نحو شهرين، في متنزه زكوتي المملوك ملكية خاصة، في حين لم يحتل النظام الأمريكي المخيمات الطلابية في الجامعات الأمريكية بضعة أيام، أحياناً بذريعة أنها خاصة لا حكومية.

وعندما جرى فض مخيم «احتلوا وول ستريت»، نال المشاركون فيه أحكاماً مخففة جداً، وسمح لهم أن يعودوا للاحتجاج، بشرط ألا يبقوا ليلاً، ولم يتح ذلك للطلاب الأمريكيين المتضامنين مع غزة.

العبرة واضحة: غزة مست عصب النفوذ اليهودي العالمي، وصمود أهلها وبسالة مقاومتها هي ما ألهم الشعوب للانتفاض من أجلها، ولتجاوز ذاتهم من أجل قضية عامة.

وهي من قدم المثال الأعلى لهم في التضحية والفداء، فأعادوا إنتاجه على صورتهم. لكن تجربة الطلبة الأمريكيين تثبت أيضاً أن الحديث عن مناهضة

الهيمنة الأمريكية يبقى حديثاً خاوياً إن لم يترافق مع مناهضة النفوذ اليهودي العالمي الذي تحميه تلك الهيمنة في غزة وفلسطين. ومن يريد تجاهل ذلك النفوذ، فإنه لن يتجاهله.

مناهضة الصهيونية في الولايات المتحدة:

كم يغذيها اغتراب الشباب عن منظومة الحكم؟

ثمة مشاهد فارقة ترسخ في الأذهان كمعالم للأحداث الكبرى، ولعل من أبرزها، في هبة دعم غزة بين الشباب الأمريكيين، ما وقع يوم الأربعاء الموافق ٢٤ / ٧ / ٢٠٢٤ في ساحة محطة الاتحاد (Union Station) في العاصمة الأمريكية واشنطن دي. سي، لحظة إنزال المتظاهرين ٣ أعلام أمريكية وتجريدها عن سواربها العالية، ورفع ٣ أعلام فلسطينية مكانها، وإحراق علم الاحتلال الصهيوني إلى جانب العلم الأمريكي ودمية نتنياهو على وقع هتاف: «احرقوا هذا الهراء»!

لم تكن تلك المرة الأولى التي تُضرم فيها النيران بالعلم الأمريكي احتجاجاً، أما أن يُحرق من طرف مواطنين أمريكيين، في العاصمة واشنطن، من أجل غزة وفلسطين والمقاومة، فذلك هو الجديد اللافت.

في أرض الكونغرس، على بعد ٢٣٧ متراً من «محطة الاتحاد»، خط المتظاهرون على نصبين أمريكيين بارزين، هما جرس الحرية Freedom Bell وتمثال كريستوفر كولومبوس، شعارات مثل: «حماس قادمة»، «كل الصهاينة أولاد حرام»، «الحرية لفلسطين»، «عاشت المقاومة»، و«الحرية لغزة».

تصدت الشرطة الأمريكية للمتظاهرين بالهراوات والغاز والاعتقالات.

وجاء اعتراضها للتظاهرة المطالبة بوقف إطلاق النار في غزة واعتقال نتنياهو خطّ دفاع أول من أجل منعها من الاقتراب من الكونغرس المسور إبان خطاب نتنياهو.

هرع النواب الجمهوريون وآخرون للدفاع عن العلم، وانفضت التظاهرة بالقوة، وعكف موظفو قسم المنتزهات National Park Service التابع لوزارة الداخلية الأمريكية، في اليوم التالي، على إزالة الشعارات عن الجرس والتمثال كأن شيئاً لم يكن، لولا الصور والفيديوهات التي قبضت على تلك اللحظة من الزمن الغزي.

أما الجرس الكبير، فيمثل نسخة من جرس الحرية الأصلي Liberty Bell الذي قرع بمناسبة إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن بريطانيا عام ١٧٧٦، وأما كريستوفر كولومبوس، فزعموا أنه مكتشف القارة الأمريكية الأول، على الرغم من أنها اكتشفت مراراً من قبله، لكن لم تنتج أي تلك الاكتشافات من قبل إمبراطورية انتهكت حرية سكان القارة الأصليين أولاً، وحرية سائر شعوب الأرض ثانياً، كما انتهكها الغزو الأوروبي الحديث للقارة الذي فتح كريستوفر كولومبوس بابه الكبير.

أزيلت آثار الحريق ومحيط الشعارات، نعم، لكن دلالات ما جرى في ذلك اليوم في ساحة «محطة الاتحاد» من مساس بالعلم الأمريكي، وبرموز وطنية عريقة في محيط الكونغرس بالذات، رفضاً لاستضافة نتنياهو، ودعماً لغزة ومقاومتها، سيظل مشهداً نوعياً في مسار طوفان الأقصى ٠, ٣، بعد طوفان الأقصى ٠, ٢ الذي انطلق من الجبهات المساندة من لبنان إلى اليمن إلى العراق.

فهل حدث ما حدث في يوم خطاب نتنياهو في واشنطن نتيجة دعم

المنظومة السياسية الأمريكية للعدوان الصهيوني على غزة فقط؟

من حق الناس الاحتجاج على المنظومة الأمريكية برمتها باسم غزة، وخصوصاً أن الدعوة الموجهة لنتنياهو للتحديث أمام جلسة مشتركة لمجلسي الشيوخ والنواب جاءت موقعة من رئيسيهما الديموقراطي والجمهوري، على التوالي، ومن قائدي المعارضة الجمهورية والديموقراطية في المجلسين، في مشهد دعمٍ عابر للحزبين، لا للكيان الصهيوني فحسب، بل لعدوانه على غزة، ولحكومة نتنياهو تحديداً.

جاء ذلك طبعاً بعد حزمة الدعم المالي والعسكري الأخيرة البالغة أكثر من ٢٦ مليار دولار والتي أقرها الكونغرس في ٢٢ / ٤ / ٢٠٢٤.

كما أن إتاحة الكونغرس منصةً لنتنياهو قوّت موقفه إعلامياً وسياسياً إزاء المعارضة في الكيان الصهيوني ذاته، الأمر الذي أعطى دافعاً حتى بالنسبة إلى الامتداد اليهودي الأمريكي لتلك المعارضة كي تتظاهر ضد نتنياهو في واشنطن.

صدعٌ يتوسع بين جيل الشباب الصغار

والنخب الأمريكية الحاكمة

لا بد من التنويه إلى أن أكثر من ١٠٠ جهة منظمة دعت إلى المشاركة في تلك التظاهرة في واشنطن، من بينهم العرب الأمريكيون، ومن بينهم الشباب الأمريكيون الذين انتفضوا في جامعاتهم من أجل غزة قبل حلول العطلة الصيفية، وآخرون من توجهاتٍ ومنابتٍ شتى.

لكن التركيز هنا سينصب على الشباب الأمريكيين الذين يرى البعض أن انتفاضتهم من أجل غزة تستمد قوتها وسقفها من أسبابٍ أمريكيةٍ داخلية،

نتيجة شرح وقع بين المنظومة السياسية وجيل Z، أي المولودين بعد عام ١٩٩٦، كان من مظاهر تفضيل أكثر من ٣٤٪ من ناخبيه مرشحين رئاسيين من خارج الحزبين الجمهوري والديموقراطي، بحسب استطلاع رأي أجرته «الإذاعة العامة القومية» NPR (وهي خدمة عامة لا تتبع لأي شركة)، نشرت نتائجه في ٥/٦/٢٠٢٤.

ويظهر تقرير في موقع «بوليتيكو» في ٧/٤/٢٠٢٤ تدهور شعبية بايدن بين الناخبين تحت سن ٢٨ عاماً، مقارنةً بشعبيته عام ٢٠٢٠، أو بترامب، أو المرشحين خارج الحزبين، بحسب استطلاعات رأي مختلفة.

حدث ذلك على الرغم من إلغاء بايدن ١٤٤ مليار دولار من القروض الطلابية، بحسب موقع CNN في ٧/٣/٢٠٢٤. فإذا أخذنا بعين الاعتبار أن ناخبي جيل Z سيكونون ٤١ مليوناً مع حلول ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٢٤، وأن ٤٧٪ من هؤلاء سيكونون من غير البيض، يصبح واضحاً سبب استبدال بايدن بمرشح ديموقراطي أصغر سناً مثل كامالا هاريس، ومن خلفية عرقية آسيوية وإفريقية، وأقل خلافة في عيون جيل الشباب الصغار من الاقتصاد إلى غزّة إلى «تيك توك».

وكانت هاريس، التي أظهرت انتهازية عالية عبر مسيرتها السياسية، واعية جداً لهذه النقطة. لذلك، تغيت عن خطاب ننتياهو في الكونغرس بذريعة «ارتباط مسبق في ولاية انديانا بوليس في أخوية للشابات الأمريكيات من أصل إفريقي»، على الرغم من كونها، كنايبة رئيس، رئيسة مجلس الشيوخ بموجب الدستور الأمريكي، وكان يفترض أن ترأس الجلسة التي يتحدث فيها ننتياهو.

حتى عضوة مجلس الشيوخ عن الحزب الديموقراطي، باتي موراي،

والتي كان يفترض بها أن تحل محل كامالا هاريس في رئاسة الجلسة في حال تغييبها، تعمدت التغييب عنها، سوى أنها كانت أكثر وضوحاً من هاريس، فقالت في مقابلة مع قناة NBC، في ٢٥ / ٧ / ٢٠٢٤، إنها داعم قوي لـ «إسرائيل» (ويثبت سجلها ذلك فعلاً أسوءً بكامالا هاريس تماماً)، لكنها تعارض سياسات نتنياهو (من منطلقات مشابهة لمنطلقات المعارضة في الكيان الصهيوني ذاته)، وترفض أن تكون خشبة مسرح من خلفه.

ذلك هو أثر طوفان الأقصى والعدوان الصهيوني على غزة الذي أحدث انقساماً في قواعد الحزب الديمقراطي بالذات، جنح فيه قسم أكبر من الشباب الأصغر سناً إلى صف غزة، ودفع ٢٣ عضواً في مجلس الشيوخ، و٧٣ عضواً في مجلس النواب، إلى التغييب عن خطاب نتنياهو، حتى لا يحملوا وزره أمام قواعدهم الانتخابية. وكان المتغييبون عن خطابه عام ٢٠١٥ في الكونغرس ٥٨ شيخاً ونائباً.

كان بودنا لو أن النائبة رشيدة طليب، الفلسطينية-الأمريكية الوحيدة في الكونغرس، كانت من بين مقاطعي خطاب نتنياهو، فهي رفعت خلال خطابه يافطة كتب عليها من جهة: «مجرم حرب»، ومن الجهة الأخرى: «مذنب بالإبادة الجماعية»، وهي لم تصفق له كما فعل زملاؤها، لكن حضورها في ظل حملة مقاطعة غير مسبقة في الكونغرس لخطابه جعلها جزءاً من ديكور المسرح فعلياً، وجعل يافطتها نقطة إيجابية تسجل لمصلحة «الديموقراطية الأمريكية»، في حين كان المتظاهرون ضد نتنياهو خارج ذلك المسرح مباشرةً يتعرضون للضرب والرش بالغاز والاعتقال والتفريق بالقوة. وكان الأجدر بها أن تكون على رأس تلك التظاهرة.

اغتراب الشباب عن المنظومة الحاكمة:

«حالة نفسية» أم انعكاسٌ لأزمتهما؟

يقول تقرير نشر في «وول ستريت جورنال» في ١٥/٣/٢٠٢٤ إن استطلاعاً للرأي أجرته الصحيفة يظهر أن أكثر من ٧٥٪ من الشباب الأمريكيين ما دون الـ ٣٠ عاماً يرون أن بلادهم تتحرك باتجاه خاطئ. كما أن نحو ثلث أولئك الشباب يرون كلاً من ترامب وبايدن بمنظور سلبي. ويرى ٦٣٪ من أولئك الشباب، بحسب الاستطلاع ذاته، أن أيّاً من الحزبين الديموقراطي والجمهوري لا يمثلهم بصورة ملائمة. وكلها نسب لا يوجد لها مثيل في أي مجموعة عمرية أخرى.

يضيف التقرير ذاته، نقلاً عن استطلاع أجراه مركز أبحاث في جامعة تشيكاغو، أن جيل الشباب بين ١٨ و ٢٥ عاماً أقل ثقة بالمؤسسات العامة من أي جيل آخر سابق له عندما كان في المرحلة العمرية ذاتها.

كما ينقل تقرير «وول ستريت جورنال» ذاته، استناداً إلى استطلاع دوري للرأي تجريه جامعة ميشيغان منذ عام ١٩٧٦ للاتجاهات السياسية لطلبة السنة الأخيرة في المرحلة الثانوية، أن أولئك الطلاب أقل تفاؤلاً من أي جيل سابق منذ عقود في إمكانية الحصول على وظيفة جيدة، أو في تجاوز ما حققه أهلهم في حياتهم أو حتى في تحقيق مثله، وأنهم يعتقدون بصورة متزايدة بأن النظام مبني بطريقة تعمل ضدهم، وبناءً عليه، فإنهم يدعمون إجراء تغييرات جوهرية في الطريقة التي تدار فيها البلاد.

ويرى تقرير «وول ستريت جورنال»، وغيره من التقارير ومقالات الرأي التي تناولت هذا الموضوع، أن ذلك الجيل تعرض إلى «صدمة نفسية» من جراء تعطيل تقدمه التعليمي والمهني في لحظة مفصلية من حياته خلال

أزمة كوفيد-١٩، وما ترتب عليها من انكماش اقتصادي أولاً، ومن وصول معدلات التضخم إلى مستويات غير مسبوقة منذ ٤٠ عاماً ثانياً، وأن تلك «الحالة النفسية» سوف يجري تجاوزها، بحسب الخبراء، في غضون عقدين. اللعبة هنا طبعاً هي إلقاء اللوم على الشباب و«حالتهم النفسية»، لا على العوامل الموضوعية التي أنتجتها، ودخول إمبراطورية كولومبوس في قوس الأفول، وتراكم الدين العام بما يهدد الدولار، وإلقاء عشرات المليارات من الدولارات لتثبيت أقدام النظام الأوكراني والكيان الصهيوني، وانكشاف نفاق النخب الحاكمة عندما تتعارض قيمها المعلنة مع مصالحها.

التأويل الصهيوني لدعم الشباب الأمريكي لغزة ومقاومتها دخل الخبراء الصهاينة على الخط هنا كي يتهموا جيل Z في الولايات المتحدة بتحميل مسؤولية تلك «الحالة النفسية» التي يعانون منها لليهود، في نوع من «معاداة السامية» المرتبط بالضرورة بـ«نظريات المؤامرة»، ومن هنا ينبع «الإفراط» في اتخاذ مواقف ترفض حق «إسرائيل» بالوجود وتدعو إلى تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، بحسب وجهة النظر تلك.

على سبيل المثال، نشر موقع «فورورد»، أحد أهم المواقع اليهودية الأمريكية، والذي تأسس كصحيفة في نيويورك عام ١٨٩٧، مقالة في ٩/٥/٢٠٢٤، بعنوان «احتجاجات الحرم الجامعي لم تعد بخصوص إسرائيل... إنها تتعلق بأمريكا»، يحاول فيها كاتبتها، باراك سيللا، تسخيف المحتجين الذين يربطون الكثير من مشاكل الولايات المتحدة بـ«إسرائيل»، فالدعم الأمريكي للكيان الصهيوني، يسخر سيللا، «لا يترك حيزاً لتأمين رعاية صحية شاملة للمواطنين الأمريكيين»، ونفوذ اللوبي الصهيوني يُسقط المرشحين التقدميين، وبرامج تدريب الشرطة الأمريكية في الكيان الصهيوني

يجعلها تستنسخ تكتيكات الصهاينة مع الفلسطينيين في التعامل مع الأقليات العرقية في الولايات المتحدة، إلخ...

وبدلاً من تنفيذ تلك النقاط، تسخر المقالة منها، ويدعو كاتبها في هذا السياق إلى «ترشيد دعم غزة» بين الشبان والطلاب الأمريكيين من خلال التمييز بين معارضة نتياهو وسياساته من جهة، والتشكيك بـ«الهوية الإسرائيلية» وحق «إسرائيل» بالوجود من جهة أخرى، مطالباً داعمي غزة بالدعوة إلى إطلاق سراح «الرهائن»، أي الأسرى الصهاينة في غزة، وتفكيك حماس، ودعم «حل الدولتين»!

وهو تمييز يجب التنبه إليه فعلاً، فلا نغربم يعارض نتياهو وسياساته، من منطلق الحرص على «إسرائيل»، ونتوهم بأنه يناصر غزة ومقاومتها. واتبعوا هذا المقياس ولسوف تكتشفون الفرق بين الشحم والورم، من دون التقليل من أهمية التناقضات في معسكر العدو، ولكن أيضاً من دون التوهم أن المعارضة الصهيونية هي مقاومة أو مناهضة للصهيونية.

في السياق ذاته، نشر موقع The Conversation، الذي يتباهى بـ«مقاييسه الأكاديمية العالية» وحرصه على «تدقيق كل معلومة ينشرها»، تقريراً بعنوان «انتقلت معاداة السامية من اليمين إلى اليسار في الولايات المتحدة وراحت ترتد إلى قوالب نمطية قديمة»، في ٢٥ / ١٠ / ٢٠٢٣، أي عشية «طوفان الأقصى».

يستند ذلك التقرير إلى دراسة توصلت إلى أن «معاداة السامية» انتقلت من صفوف اليمين العنصري الأبيض إلى صفوف اليساريين والتقدميين المناصرين للقضية الفلسطينية بنسبة ٩٥٪، وأن ذلك تضمن تهجماً لفظياً أو جسدياً بصورة ما، وأن تلك الحوادث تتصاعد مع تصاعد «النزاع الفلسطيني-الإسرائيلي» منذ سنوات، وأنها ترتبط بالسياسات «الإسرائيلية».

لذلك، لا نفاجاً، يقول التقرير، من استهداف المنظمات اليهودية في الجامعات الأمريكية، عشية الـ ٧ من أكتوبر، من طرف أنصار القضية الفلسطينية. ويتابع التقرير بعدها الخط الذي يصف مناهضة المنظمات واللوبيات والشخصيات الداعمة للكيان الصهيوني في الولايات المتحدة عموماً، وفي جامعاتها خصوصاً، بأنه شكل من أشكال «معاداة السامية».

وفي ١١/٧/٢٠٢٤، نشر موقع «عصبة مكافحة التشهير» ADL، إحدى أبرز الجماعات الصهيونية في الولايات المتحدة، تقريراً مطولاً يركز على الجامعات الأمريكية بعنوان («حان وقت التصعيد» : الناشطون المناهضون لـ «إسرائيل» يكتفون الاحتجاجات بأعمال عنيفة ومباشرة)، يتعامل مع كل اعتصام في الحرم الجامعي، أو في مصنع ينتج الأسلحة للكيان الصهيوني، أو كتابة شعارات على الجدران، كـ «عمل عنيف»، ويحذر من تصاعد سقف الخطاب وخروجه عن القوالب المدججة القديمة باتجاه رفض الاعتراف بحق «إسرائيل» بالوجود والحاجة إلى مواجهتها في كل مكان.

في مواجهة ذلك الربط الضروري بين الصهيونية والنظام الأمريكي، والذي بات يتلمسه تيار مهم بين الشباب الأصغر سناً في الولايات المتحدة، سن الكونغرس الأمريكي قانوناً في ٥/١٢/٢٠٢٣ يؤكد أن مناهضة الصهيونية هي «معاداة السامية».

وفي ١/٥/٢٠٢٤، بعد اتساع الاحتجاجات في الجامعات الأمريكية على العدوان الصهيوني على غزة، سن الكونغرس الأمريكي قانوناً يوسع تعريف مناهضة الصهيونية ليشمل أي نقد لـ «إسرائيل» بصفتها «جماعة يهودية»، وهو ما لم يقره مجلس الشيوخ بعد نتيجة انقسامات بشأن مدى تعارض مثل هذا القانون مع التعديل الأول للدستور الأمريكي، والذي يحمي حق التعبير.

حظر «تيك توك» استهدف الشباب الأمريكي ودعمهم لغزة أيضاً

يرتبط جيل Z في الولايات المتحدة بتطبيق «تيك توك» أكثر من أي جيل آخر، حتى وصف بأنه جيل الـ «تيك توك»، فأفراده يتفاعلون بصورة أكثر كثافة على «تيك توك» ويقضون وقتاً أطول فيه، ويدعمون غزّة عبره بصورة أكبر. لذلك، عندما وقع الرئيس بايدن القانون الذي مرره الكونغرس وصادق عليه مجلس الشيوخ بحظر «تيك توك»، إن لم يبعه مالكة الصيني خلال ٢٧٠ يوماً، وكان ذلك في ٢٤ / ٤ / ٢٠٢٤، جرى ذلك بالتزامن مع توقيعه على حزمة دعم أوكرانيا والكيان الصهيوني، ولم يكن ذلك الربط عبثاً.

ليس المستهدف الصين فحسب إذًا، بل دعم جيل Z، أو تيار رئيسي فيه على الأقل، لغزّة ومقاومتها، في خضم محاولة الإجهاز على الاحتجاجات المناصرة لغزّة في الجامعات والشوارع الأمريكية.

من البديهي أن استهداف «تيك توك» يصب أيضاً في جيب شركتي «ميتا» و«غوغل»، اللتين عجزتا عن منافسة «تيك توك»، وخصوصاً في حلبة الشباب، والفارق هو أنه يتيح هامشاً أكبر للنقد وحرية التعبير.

فهل نفاجأ بعدها إذا كان جيل Z من أشد المحتجين على قانون حظر «تيك توك»؟ فكيف يصوّت لبايدن بعدها؟ بايدن استهلك، فجاءت شخصية هلامية تفتقد إلى مضمون ملموس، لكن غير محروقة بعد، هي كامالا هاريس، خلط الأوراق قبيل انتخابات ٥ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٢٤.

الحرب على غزة: الحقائق والمآلات

د. رفعت سيد أحمد^(١)

مثلت الحرب العدوانية الإسرائيلية على غزة، التي بدأت بعد عملية طوفان الأقصى الاستراتيجية يوم ٧/١٠/٢٠٢٣، فصلاً مؤلماً - ومؤخراً في الوقت ذاته - داخل قصة الصراع العربي الصهيوني منذ بواكيره الأولى زمن النكبة (١٩٤٨) وحتى يومنا هذا. إن الصمود والتحدي الأسطوري من قبل أهل غزة للعدوان بالغ القسوة والإجرام والمتجاوز لكل أعراف الحروب العالمية، ليقدم مثلاً للشعوب الحرة التي لا تبخل بأرواحها في سبيل الوطن والشرف والحرية. وفي هذه الدراسة، سوف نتناول بالتحليل قصة تاريخ وجغرافيا غزة، اللذين فرضا عليها القتال والصمود، ثم الأسباب الحقيقية لتلك الحرب، التي تتمثل ليس في هدف الثأر وتحرير أسرى عملية طوفان الأقصى فحسب، بل تهجير الفلسطينيين من قطاع غزة إلى مصر وإعادة رسم خريطة وجغرافية غزة من جديد وفقاً للمخطط والمصلحة الإسرائيلية. وسنبحث

(١) مفكر قومي وخبير في قضايا الصراع العربي- الصهيوني / مصر.

أيضاً عن أسباب صمت (الدواعش والجماعات الإرهابية المتطرفة) على هذا العدوان رغم أنها تدعي الحديث باسم الله وتحمل منذ ما سمي بالربيع العربي راية الدفاع عن المقدسات، ولكنها في هذه الحرب خرست تماماً.. لماذا؟ وستناول أيضاً النتائج الكبرى لتلك الحرب، ومنها الأثمان الكبرى التي دفعتها إسرائيل من قتلى وخسائر اقتصادية وسياسية، فضلاً عن سقوط مفهوم الأمن القومي الإسرائيلي رغم شدة المذابح وقسوتها. فماذا عن هذه الحقائق والأبعاد؟

١. غزّة: مدخل إلى التاريخ والجغرافيا المقاتلة

تستمر الحرب العدوانية الإسرائيلية على قطاع غزّة منذ السابع من أكتوبر ٢٠٢٣ ولا زالت مستمرة إلى اليوم، مستخدمة كل ما هو محرم دولياً من أسلحة، ومدمرة كل ما ينبض بالحياة، مع تحويل المباني والمؤسسات إلى ركام وأحجار دون تمييز. وقد ألقى على قطاع غزّة ما يعادل أربع قنابل نووية من حجم (قنبلة هيروشيما) التي كان وزن متفجراتها (١٥ ألف طن). نضيف إلى ذلك أن عدد الشهداء تجاوز خلال الساعات الأولى من العدوان، ثلاثة عشر ألف شهيد، نصفهم تقريباً من الأطفال والنساء وليسوا من مقاتلي (حماس أو الجهاد الإسلامي) الذين شنت هذه الحرب العدوانية رداً عليهم كما يزعم كذباً المحتل الإسرائيلي. بالإضافة إلى أن أكثر من ثلثي سكان غزّة، البالغ عددهم ٣, ٢ مليون نسمة، فروا من منازلهم منذ بدء الحرب، بل يعيشون ظروفاً إنسانية صعبة، بسبب حرمانهم الممنهج من الماء والكهرباء والمواد الغذائية والأدوية... ومع ذلك يتحمل أهل غزّة صبراً أسطورياً،

ويتحدون بإرادتهم الصلبة (الهولوكوست الجديد) الذي يمارس عليهم من النازيين الجدد من صهاينة هذا الزمان، في ملحمة تاريخية فذة، تدفنا إلى السؤال الكبير عن ذلك (السر) الذي يجعلهم يصمدون، والكامن خلف صمودهم الملحمي، رغم عظم التضحيات وأثمانها الغالية، فما هو السر في إيمان الفلسطينيين بعدالة قضيتهم؟ هل السر في الإنسان الفلسطيني أم في التاريخ أم هي الجغرافيا؟ لماذا يصمد أهل غزة ولماذا ينتصرون؟

٢. جغرافيا تجبر أهلها على الصمود:

نعتقد أن الجغرافيا الصعبة التي يحاصر فيها المحتل قطاع غزة، هي أحد أهم أسباب التشبث بالحياة، وأن النضال ورفض الخنوع والذل، سمة الروح القوية التي يحاصرها المحتل. لقد ساهمت (الجغرافيا) في تصليب قناعة أبناء هذا القطاع.

لم تكن الجغرافيا وحدها أحد أهم عوامل الصمود لغزة في مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية طيلة قصة الصراع منذ نكبة ١٩٤٨ وحتى ٢٠٢٣، بل شكلت عمقها التاريخي والحضاري. وتحدثنا كتب المؤرخين أن بدء تأسيس المدينة يعود إلى الكنعانيين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفي هذا الصدد يقول عالم الآثار الإنجليزي السير فلندرس بيري إن غزة القديمة أنشئت قبل الميلاد بثلاثة آلاف عام، فوق التل المعروف بـ «تل العجول»، وإن سكانها تركوها بسبب الملاريا التي اجتاحتها في ذلك الوقت. وعلى بعد ثلاثة أميال، حط سكانها رحالهم وأنشأوا غزة الجديدة الموجودة في موقعها الحالي. ويقال إن ذلك حدث في عهد الهكسوس الذين سيطروا على

هذه المنطقة قبل ألفي عام من ميلاد المسيح. وهناك من ينفي هذه الرواية ويقول إن غزّة ما زالت حتى اليوم في موقعها القديم، وإن «تل العجول» كانت ميناء غزّة التجاري. وهناك من قال إن غزّة القديمة خربت على يد الإسكندر الأكبر، وإن غزّة الحديثة ليست ببعيدة عنها كما قال السير بيري. ويقول «العارف» في كتابه إن «المعنيين» الذين يقال إنهم أقدم شعب عربي حمل لواء الحضارة في الألفية الأولى قبل الميلاد، هم أقدم من ارتاد مدينة «غزّة»، وأسسوها كمركز يحملون إليه بضائعهم. وتنبع أهمية «غزّة» لدى العرب من كونها تربط بين مصر والهند، فكانت الطريق التجاري الأفضل لهم مقارنة بالملاحة في البحر الأحمر، ومن هنا تأسست مدينة غزّة واكتسبت شهرتها التاريخية. وكانت التجارة تبدأ من جنوب بلاد العرب في اليمن، التي يجتمع فيها تجارة البلاد وتجارة الهند، ثم تسير شمالاً إلى مكة ويشرب «المدينة المنورة حالياً» والبتراء، قبل أن تتفرع إلى فرعين؛ أحدهما في غزّة على البحر المتوسط، وثانيهما في طريق الصحراء إلى تيماء ودمشق وتدمر. ومن هنا استنتج المؤرخون أن مملكة معين وسبأ أولى الممالك العربية التي أسست مدينة غزّة. كما كان «العويون» و «العناقيون» الذين يقال إنهم الفلسطينيون القدماء، وجاء ذكرهم في أسفار العهد القديم، هم أول من استوطن غزّة.

في هذا المنحى نخبرنا علم التاريخ أن المسلمين قد حرروا غزّة من أيدي الصليبيين، الذين كانوا مسيطرين عليها، على يد صلاح الدين الأيوبي، وأخذت بالازدهار والنمو في فترة الاحتلال العثماني، ولكن سرعان ما اشتعلت الحرب العالمية الثانية لتقع تحت نير الاستعمار البريطاني. وعند نشوب الحرب العربية الإسرائيلية في عام ١٩٤٨ تولت مصر إدارة أراضي القطاع، ليأتي عام النكسة ١٩٦٧ وتقع في أيدي الاحتلال الإسرائيلي،

فقاومته إلى أن انسحب منها مجبراً سنة ٢٠٠٥، ولكنه ما فتئ يعتدي عليها، وهو ما أشعل انتفاضة تضرب عمق العدو الاستراتيجي في تل أبيب على امتداد العشرين عاماً الأخيرة.

رغم غزة اليوم التي عدد سكانها يزيد قليلاً عن ٢ مليون نسمة، تحمل عبء ومسئولية الدفاع عن مقدسات تخص ٢ مليار مسلم، وتلك مفارقة كبرى! لأنه لو تضامن العرب والمسلمون وتوجهوا بإرادة واحدة ناحية فلسطين ودعموا أهلها بالمال والسلاح والسياسة والاقتصاد؛ لما كان هناك عدوان ونازية جديدة ممثلة في جيش الاحتلال الإسرائيلي. ولعادت غزة وكل مدن القطاع وفلسطين حرة عزيزة. لكن الفرقة والصراع ودواعش هذا الزمان الذين حرفوا البوصلة وشغلوا الجيوش من (٢٠١١-٢٠٢٣) عن فلسطين، وتضارب المصالح والتآمر مع المحتل ومن يسانده هو الذي وباستمرار يفشل - أو يؤجل على الأقل - هكذا مستقبل للقطاع الباسل - ولغزة هاشم في قلبه. ورغم ذلك فإن قصة وسر (الجغرافيا والتاريخ وسننه الخالدة) تؤكد يقيناً أن غزة هي المنتصرة في هذه الجولة كما الجولات السابقة في قصة الصراع!

٣. الهدف الاستراتيجي الإسرائيلي من العدوان على غزة: تهجير الفلسطينيين إلى سيناء:

مع بدء الرد الدموي لإسرائيل على عملية (طوفان الأقصى) التي أوجعت الجيش الإسرائيلي وحكومة المتطرفين هناك والتي أتت كرد طبيعي على سلسلة من الجرائم والاعتداءات الإسرائيلية المستمرة ضد الشعب الفلسطيني.. مع

بدء الرد الهمجي الإسرائيلي وقتل المدنيين الأبرياء ومع تصاعد وتيرته.. بدأ الإعلام والساسة في بعض الجهات المخبراتية الغربية المشبوهة وفي إسرائيل وواشنطن يعيدون الدعوة القديمة (توطين الفلسطينيين في سيناء بدلاً عن غزة) وهي الدعوة المرفوضة تماماً من الفلسطينيين والمصريين.

في بيان صادر عن وزارة الخارجية المصرية، يوم الجمعة ١٣ أكتوبر ٢٠٢٣، من مطالبة الجيش الإسرائيلي سكان قطاع غزة وممثلي الأمم المتحدة والمنظمات الدولية في القطاع، بمغادرة منازلهم خلال ٢٤ ساعة والتوجه جنوباً.

أكدت مصر على أن هذا الإجراء يعد مخالفة جسيمة لقواعد القانون الدولي الإنساني، وسوف يعرض حياة أكثر من مليون مواطن فلسطيني وأسرهم لمخاطر البقاء في العراء دون مأوى في مواجهة ظروف إنسانية وأمنية خطيرة وقاسية، فضلاً عن تكبد مئات الآلاف في مناطق غير مؤهلة لاستيعابها. وطالبت مصر الحكومة الإسرائيلية بالامتناع عن القيام بمثل تلك الخطوات التصعيدية، لما سيكون لها من تبعات خطيرة على الأوضاع الإنسانية في قطاع غزة.

ومن جديد يعود الحديث عن قضية تهجير الفلسطينيين وإعادة توطينهم في سيناء وهي جريمة بدأت مع النكبة عام ١٩٤٨ وتجددت عدة مرات ومنها تلك الحلقة الخطيرة التي أتت على يد الإخوان في عام ٢٠١٣، خلال لقاء جمع الرئيس الإخواني الراحل محمد مرسي، مع وزير الخارجية الأمريكي في ذلك الحين جون كيري، تضمن عرضاً مشبوهاً بإسقاط ديون مصر من قبل واشنطن ولندن ودول بالاتحاد الأوروبي، مقابل توطين الفلسطينيين في سيناء. وبرغم النفي الإخواني حينها، إلا أن رئيس السلطة الفلسطينية

محمود عباس، كشف في عام ٢٠١٨ عن أنه كان هناك ترتيب لتوطين جزء من الفلسطينيين في سيناء، ضمن دولة فلسطينية ذات حدود مؤقتة، حين تولى محمد مرسي حكم البلاد. عن هذا المخطط القديم، ولقد استطاع الجيش المصري وقتها - ٢٠١٣ - إيقاف هذه المؤامرة وجاءت ثورة ٣٠ يونيو لتوقفها تماماً وتسقط حكم الإخوان بكل مؤامراته على مصر وفلسطين.

اليوم (٢٠٢٣) يتجدد الحديث وتتجدد المؤامرة... ترى ما هي القصة الكاملة لهذا المخطط؟ وما هي حقيقته؟ ومن الذي حركه في الأعوام الماضية ولا يزال يحركه؟، وإلى أين تتجه خطواته القادمة؟ دعونا نجيب على الأسئلة بفتح هذا الملف.

أ- جذور المخطط:

تؤكد وثائق الصراع في المنطقة، أن واحداً من أبرز مهددات الأمن القومي المصري بعد ثورتي ٢٥ يناير ٢٠١١ و ٣٠ يونيو ٢٠١٣، هو المخطط الإسرائيلي لتوطين الفلسطينيين في سيناء بالتآمر أو بالإغراءات، وهذا المخطط له تاريخ طويل منذ الخمسينات وحتى اليوم، ووفقاً للوثائق المتاحة فإن هذا المخطط بدأ منذ حرب النكبة عام ١٩٤٨ ويتجدد كل حين عندما تشتد المقاومة ضد الكيان الصهيوني. فبعد تهجير أكثر من ٧٠٠ ألف فلسطيني عام ١٩٤٨، وقتل كل من حاول العبور والعودة بعدها بسنوات قليلة، كان مصير تلك الخطط هو الفشل، كانت عملية يوحنا الإسرائيلية (١٩٤٩-١٩٥٣) تهدف إلى توفير مزارع «لعرب إسرائيل» في الأرجنتين، وتحديدًا المسيحيين الذين يعيشون في الجليل. وأعقب ذلك خطة لتوفير

فرص عمل للفلسطينيين في أوروبا التي كانت بحاجة إلى عمال بعد الحرب العالمية الثانية. تلقت الدعم بموجب خطة مارشال الأمريكية، ولكن لم يتم تنفيذ أي من الخطتين وكلاهما اختفى بحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين.

عام ١٩٦٨، أعدت وزارة الخارجية الإسرائيلية خطة يتم بموجبها تسهيل حركة الفلسطينيين من غزة إلى الضفة الغربية، وبعضهم إلى الأردن، مما يؤدي إلى هجرتهم إلى أجزاء أخرى من العالم العربي. كان القصد من ذلك أن يبدو عفويًا، وليس بناءً على أوامر إسرائيل. تضمنت «خطة العريش» تطوير مشاريع مثل محطات تحلية المياه وإنتاج الطاقة والمصانع التي من شأنها توفير فرص عمل للفلسطينيين الذين سيقتلون إلى المدينة المصرية سيناء، لكنهم، لم يغادروا.

وفي نفس العام -١٩٦٨- وضعت لجنة في الكونغرس الأمريكي خطة للتهجير الطوعي لـ ٢٠٠,٠٠٠ فلسطيني من غزة إلى عدد من البلدان، بما في ذلك ألمانيا الغربية والأرجنتين وباراغواي ونيوزيلندا والبرازيل وأستراليا وكندا والولايات المتحدة. ولكن الشعب الفلسطيني رفضها وقاومها.

وحاولت سلطات الاحتلال في السنوات التالية وقبل حرب ١٩٧٣ نقل آلاف الأسر الفلسطينية إلى مدن القناة وحاول أرييل شارون وقتها نقل نصف مليون فلسطيني من غزة إلى العريش، ولكن الشعب الفلسطيني رفض وأفشل المخطط.

ب- عبد الناصر يرفض:

في دراسات ووثائق أخرى بشأن هذه القضية.. تؤكد تلك الوثائق أن هذه المؤامرة بدأت فعلياً فصلاً جديداً في العام ١٩٥٣، وقد رفضها عبد الناصر.. والمخطط بأكمله منشور في كتاب اسمه (خنجر إسرائيل) والكتاب عبارة عن تصريحات موشيه ديان وزير الحرب الإسرائيلي وقتها عن خطته لتقسيم العرب واحتلالهم. وفي العام ١٩٥٥ حاولت منظمة الأنروا خديعة عبد الناصر بحجج تبدو إنسانية وطلبت منه تخصيص ٢٣٠ ألف فدان لإقامة مشاريع للفلسطينيين المطرودين من المحتل ورفض عبد الناصر، وفي عام ١٩٦٧ قام أرييل شارون وكان قائد القوات الإسرائيلية في قطاع غزة بتقديم مشروعه الذي هو نسخة محدثة من المشروع السابق وكان مبرره أن المشروع لا يهدف سوى لتخفيف الكثافة السكانية بقطاع غزة المزدحم لكنه ألحق بتقديم المشروع تحركاً عملياً منه على طريقته المجرمة والخاصة بشق شوارع في المخيمات الرئيسية في قطاع غزة لتسهيل مرور القوات إلى المخيمات، مما أدى إلى هدم الآلاف من المنازل ونقل أصحابها إلى مخيم كندا داخل الأراضي المصرية، وبعد توقيع اتفاقية السلام مع مصر رفضت إسرائيل عودة هؤلاء إلى الأراضي الفلسطينية ليصبح مشروع أرييل شارون هو حتى تلك اللحظة المشروع الإسرائيلي الأكثر نجاحاً والذي أسس للمشاريع اللاحقة.

ج- خطة جيورا إيلاند:

وفي سنة ٢٠٠٣ قامت المجلة الدورية لوزارة الدفاع الأمريكية بنشر خرائط تقسيم الدول العربية التي وضعها الباحث اليهودي الأمريكي برنارد لويس وبها إشارة لهذا المخطط، وفي سنة ٢٠٠٥ نفذت الحكومة الإسرائيلية انسحاباً من قطاع غزة كبداية كما أعلن لبدء تنفيذه، وفي عام

٢٠٠٦ قامت حركة حماس بحكم غزة بعد صراعات مع السلطة الفلسطينية ومحمد دحلان، وفي عام ٢٠١٠ - وفي ٣٨ صفحة - جاءت أخطر وثيقة إسرائيلية في هذا المجال وهي وثيقة مستشار الأمن القومي الإسرائيلي السابق اللواء احتياط، (جيورا إيلاند)، وي طرح فيها أن مملكة الأردن هي دولة الفلسطينيين، وبوضعها الجديد ستكون من ثلاثة أقاليم تضم الضفة الغربية والشرقية وغزة الكبرى التي تأخذ جزءاً من مصر.

وقال إيلاند إن إسرائيل نجحت بجهود سرية خصوصاً في إقناع الولايات المتحدة الأمريكية بالضغط على العرب للاشتراك في حل إقليمي للصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، يقوم على استمرار سيطرة إسرائيل على مساحات ضخمة من الضفة الغربية، مقابل تعويض الفلسطينيين، بمساحات ضخمة من شبه جزيرة سيناء لإنشاء دولة فلسطينية مستقرة وقادرة على النمو والمنافسة.

لكن أخطر ما كشفه إيلاند هو أن عملية الانسحاب الأحادي الجانب من غزة عام ٢٠٠٥ كانت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، وهو ما رفضته مصر ولا تزال، لأنها تعرف وتدرّك مدى خطورة المخططات الإسرائيلية على أمن مصر القومي، ولقد بنى الاقتراح الإسرائيلي على الآتي:

✓ تنقل مصر إلى غزة مناطق مساحتها نحو ٧٢٠ كيلومتراً. وتشمل هذه المنطقة جزءاً من الشريط المبنى الممتد على طول ٢٤ كيلومتراً على طول شاطئ البحر المتوسط من رفح غرباً حتى العريش. بالإضافة إلى شريط يقع غرب كرم سالم جنوباً، ويمتد على طول الحدود بين إسرائيل ومصر. وتؤدي هذه الزيادة، إلى مضاعفة حجم قطاع غزة البالغ حالياً ٣٦٥ كيلومتراً نحو ثلاث مرات.

✓ توازي مساحة ٧٢٠ كيلومتراً حوالي ١٢ في المئة من أراضي الضفة الغربية. ومقابل هذه الزيادة على أراضي غزة، يتنازل الفلسطينيون عن ١٢ في المئة من أراضي الضفة التي ستضمها إسرائيل إليها.

هذا ولقد رفض الفلسطينيون والمصريون هذا المخطط وإن كانت الضغوط مستمرة لتنفيذه، من قبل أمريكا وإسرائيل والاتحاد الأوروبي وبعض الدول الإقليمية ذات العلاقة الاستراتيجية النفطية والعسكرية مع إسرائيل.

٤. لماذا يطرح المخطط مجدداً؟

خلاصة القول في المخطط الإسرائيلي لتوطين آلاف الفلسطينيين في سيناء والذي يعاد إحياءه بعد العدوان الإسرائيلي الأخير على غزة يوصلنا إلى الحقائق التالية:

✓ ملخص بنود الطبعة الجديدة للمؤامرة الذي بدأت محاولات تنفيذها بعد عملية (طوفان الأقصى) وفقاً للمخطط (الأوروبي - الأمريكي - الإسرائيلي) والذي حملة وزير الخارجية الأمريكي أنتوني بلينكن في زيارته الأخيرة للمنطقة، تتحدد بنوده في الآتي:

✓ نقل مليون مواطن من سكان قطاع غزة إلى مصر.

✓ توزيع باقي السكان على كلٍ من السعودية وقطر والأردن والإمارات.

✓ تتكفل السعودية بتوطين نصف مليون فلسطيني وتتكفل باقي البلدان بالبقية المتبقية.

حتى الآن يواجه المشروع الأمريكي بالرفض من جميع البلدان بما فيهم

قطر التي عرض مسؤولوها استضافة ٥٠٠ فلسطيني كحد أقصى. وترفض الدول العربية هذه المقترحات تماماً وفي مقدمة الرافضين: مصر ومن قبلها الشعب الفلسطيني وبخاصة أهل غزة. فإسرائيل والجهات الغربية والأمريكية المشبوهة حين طرحت - ولا تزال - هذا المخطط كانت تريد أن تحل مشكلتها الاستراتيجية مع تنامي قوة المقاومة الفلسطينية ومع صعود التحديات السياسية والديمقراطية (حيث التزايد السكاني الفلسطيني يهدد وجود إسرائيل ذاتها، حيث سيصل تعداد الفلسطينيين خلال خمس سنوات ثلاثة أضعاف الإسرائيليين في داخل فلسطين) هذه الزيادة السكانية تهدد الوجود الإسرائيلي والنقاء اليهودي المزعوم، لذلك ابتدعت قضية التوطين واستخدمت علاقاتها الحميمة بأمريكا ومخابرات الغرب وعملاء الداخل من قوى إقليمية وتنظيمات تطرف سياسي وديني لا تريد خيراً لفلسطين ولحقوق شعبها العظيم.. لذلك هذا المشروع التأمري مرفوض تماماً وكل من يجب فلسطين لا بد له أن يرفضه ويقاومه!

٥. ماذا صمت الدواعش ولم يدافعوا عن غزة؟

لقد كشفت الحرب العدوانية الإسرائيلية على غزة عن حقائق عدة، لعل أهمها التأكيد لمن نسي من مثقفينا ونخبتنا السياسية العربية بأن إسرائيل ليست دولة سلام ولا يمكنها أن تعيش في ظل سلام وحياة طبيعية، بل هي - عقيدة ودوراً - وباستمرار تريد أن تعيش في صراعات مع الآخر العربي بل ومع نفسها إن تعذر وجود هذا الآخر. هي دولة حرب بالأصل والمسار وبالنهايات.. هكذا قالت تلك الحقائق معركة غزة الأخيرة بنتائجها ضد الأبرياء. وأكدت ما كنا نعرفه منذ مذبحة دير ياسين (أبريل ١٩٤٨) وحتى

مجازر غزة الأخيرة. ولعل من أبرز ما كشفه العدوان على غزة هو الصمت المخزي (للجماعات الإرهابية والتكفيرية) ويأتي في مقدمة (الصامتين) جماعة الإخوان وتنظيمهم الدولي وخلاياهم النائمة في مصر وسوريا وفلسطين ومعهم قائمة طويلة من الجماعات الإرهابية في بلاد الشام والتي تضم كل من:

- القاعدة
- داعش
- جبهة النصرة
- جند الشام
- فتح الإسلام
- جيش الرحمن
- السلطان مراد
- نور الدين زنكي
- جند الله
- الجيش التركماني
- جيش محمد
- جيش الصحابة
- فيلق عمر
- الجيش الإسلامي
- جيش الراشدين

- الجبهة الإسلامية
- جيش أنصار السنة
- جيش المجاهدين
- الجماعة السلفية
- الجبهة الوطنية لتحرير العراق
- جيش تحرير الشام
- مجلس شورى المجاهدين
- جيش الفاتحين
- جيش الطائفة المنصورة
- الطريقة النقشبندية
- سرايا الجهاد
- جيش أبو بكر الصديق
- كتائب صلاح الدين الأيوبي
- جيش العزة في العراق
- جيش أهل السنة والجماعة
- حماس العراق
- كتائب القصاص العادل
- منظمة الخضراء الإسلامية
- حركة الكفاح الإسلامي

- جبهة حماة العقيدة
- مسلحو ثوار العشائر
- جبهة النصر و حركة الزنكي.

السؤال أين هؤلاء مما يجري في غزة ولماذا صمتوا صمت القبور وأين خلاياهم المنتشرة في أصقاع الأرض العربية لماذا لم تتحرك وتنصر الشعب الفلسطيني وبلاده التي تضم المقدسات التي يدعي هؤلاء الخوارج أنهم يدافعون عنها؟ ربما إذا كان من مكسب لهذه الحرب يخص الإسلام والمسلمين وشعوب الأمة المنكوبة... فهو أن هذه الحرب جددت الوعي بالقضية الفلسطينية لدى أطفال وشباب الأمة وساهمت أيضاً في كشف أدوار وطبيعة ووظيفة تلك التنظيمات الإرهابية وأنها أبعد ما تكون عن خدمة الإسلام والدفاع عن مقدساته وأنها ربيبة إسرائيل وأمريكا ولا تعمل تخريباً وإرهابياً إلا في البلاد الصامدة في وجه المخططات الإسرائيلية التوسعية وفي مقدمتها مصر وسوريا والعراق.. هؤلاء الإرهابيون مجرد (بنادق للإيجار) وليسوا ثواراً أو مصلحين كما كانوا يروجون في أعمالهم المجرمة إبان سنوات الربيع العربي! لقد كشفت الحرب على غزة مجرمين تاريخيين لهذه الأمة: الأول هو الإسرائيلي والثاني هو تلك الجماعات الإرهابية التي يتقدمها الإخوان مروراً بالقاعدة وداعش وتنتهي بالنصرة ومن سار في ركبهم من إرهابي هذا الزمان!

٦. كلفة العدوان على غزة:

رغم المعاناة واستمرار حرب الإبادة في غزة ضد الأبرياء العزل.. فإن الخسائر التي تكبدتها إسرائيل كبيرة ومؤلمة.. فمن سقوط آلاف القتلى والجرحى في اليوم الأول للحرب (٧/ ١٠/ ٢٠٢٣) وفي الأيام التالية إلى تكييد الاقتصاد الإسرائيلي خسائر بالغة وصلت إلى حد قرابة الـ ٦٠ مليار دولار في كل المجالات من البورصة إلى الأمن والعقارات والسياحة والتجارة العامة وخروج ٦٥ ألف عامل من نطاق العمل لذهابهم للجيش كاحتياطي! وهو ما ينطبق عليه نصاً وواقعاً قوله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: «ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً» (الآية ١٠٤ سورة النساء). وفي هذه السطور نرصد بعض هذا (الألم) الذي تسبب فيه وخلقته ذلك الإجرام والتطرف الإسرائيلي ضد الأبرياء العزل أصحاب الأرض الأصليين!

في أثناء العدوان على غزة قالت مجلة ناشونال إنترست: «هذه الحرب أخطر على «إسرائيل» من حرب ١٩٧٣، لماذا؟» تجيب المجلة لأن حرب ١٩٧٣ كانت حرباً عسكرية فقط، لكن الحال هذه المرة مختلف، فهي حرب سياسية- عسكرية وتشير الدلائل الأولية إلى أن إسرائيل تخسر ها. والمجازر التي فاق عددها الـ ٥٠٠ مجزرة ضد المدنيين من الفلسطينيين فضلاً عن كونها تعبيراً عن الفشل فهي تؤكد وتغذي الخسارة الإسرائيلية الأخلاقية والاستراتيجية. وهاهي الإيكونوميست تقول بعد شهر من الحرب المجرمة والعبيثة إن (نتنياهو هو الرجل الخطأ في المكان الخطأ في الوقت الخطأ)؛ هكذا

وصفت صحيفة «إيكونوميست» البريطانية رئيس حكومة الكيان الصهيوني بنيامين نتنياهو، وقالت إن «معركة تدور في «إسرائيل» بشأن إدارة الحرب وتداعياتها ومن يتخذ القرارات». ووفقاً للصحيفة، يقع نتنياهو في قلب هذه المعركة، وهو الشخصية المهيمنة في السياسة الإسرائيلية لأكثر من عقدين. وفي الوقت الحالي، قد يكون «الرجل الخطأ، في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ». وأشارت إلى أن نتياهو يُنظر إليه على أنه فقد ثقة الجمهور الإسرائيلي، فيما يحاول إدارة حكومة حرب. أما فيما يتعلق بالمستوطنين، أوضحت الصحيفة أن جزءاً كبيراً من «الإسرائيليين» يحمل نتياهو مسؤولية الإخفاقات التي أدت إلى معركة «طوفان الأقصى»، في الـ ٧ من تشرين الأول/ أكتوبر الماضي. وقالت: «على الرغم من اللوم الذي يقع على عاتق قادة «الجيش» الإسرائيلي والاستخبارات، فإن هؤلاء ما يزالون يتمتعون بشعبية أكبر من رئيس الوزراء بكثير». ووفقاً لها، أثار هذا الأمر غضب نتياهو، ما أدى إلى تفاقم مشكلة ثانية وهي الانقسامات داخل مجلس الحرب الإسرائيلي؛ حيث سادت أجواء «صادمة»، على حد وصف المسؤولين الحاضرين في اجتماعاته. وتساءلت الصحيفة: «إلى متى يستطيع نتياهو البقاء على قيد الحياة؟»، مشيرةً إلى أن الإطاحة به قريبة جداً!

ولرصد المزيد من الألم.. والظلم الذي توجب على الإسرائيليين دفعه بسبب عدوانهم وظلمهم على أهل غزة في الشهر الأول فقط للحرب - وليس في باقي الأشهر فهي أكبر وأشد - نجد مدير صندوق التعويضات الصهيوني (أمير دهان) يسجل أن إجمالي الخسائر التي لحقت بالممتلكات خلال الأيام العشرة الأولى فقط للعدوان زادت على الـ ٣٧ مليار دولار وهي بذلك تزيد عن خسائر الحرب على لبنان سنة ٢٠٠٦ والتي استمرت

٣٤ يوماً. فما المتوقع لو استمرت الحرب (وهي ستستمر قطعاً) لعدة شهور؟ لقد تراجع معدل النمو الاقتصادي خلال الشهر الأول من الحرب من ٥,٣٪ إلى ٢٪. وبالتالي تراجع قيمة الناتج الإجمالي بحدود ٣٪. وتراجع عمل البورصات الصهيونية وسعر صرف الشيكل الإسرائيلي بحدود ١٠٪. رغم تخصيص البنك المركزي الصهيوني ٤٠ مليار دولار لدعم الشيكل وتخصيص ١٥ مليار دولار لتأمين السيولة اللازمة. خسائر قطاع السياحة زادت عن ٤ مليار دولار من خلال إلغاء الكثير من الحجوزات السياحية والإقامة الفندقية، خسائر في تصدير الغاز بعد إغلاق حقل (تمار) وتعليق الصادرات الإسرائيلية عبر خط الأنابيب البحرية المتجهة إلى مصر والتصدير إلى الأردن وبمئات الملايين من الدولارات ونسبة ٢٠٪ كما أعلنت شركة (شيفرون)، تراجع عمل عشرات المؤسسات الاقتصادية الصهيونية بسبب عدم وجود أيدي عاملة متخصصة نتيجة سحب أكثر من ٣٦٠ ألف إسرائيلي للانضمام إلى جبهات القتال، تراجع التصنيف الائتماني للاقتصاد الصهيوني كما عبرت وكالتي (موديز وفيتش)، تراجع الاستثمار الأجنبي خلال هذه الفترة بنسبة حوالي ٦٠٪. هذا وقد تم إغلاق معظم الشركات التكنولوجية مكاتبها وأعمالها في الكيان الصهيوني بما فيها (مايكروسوفت وغوغل وألفابت وأبل وأوراكل ونستلة)، توقف مشروع تصنيع الرقائق الإلكترونية عن العمل وخصص له ٢٥ مليار دولار، تعطيل عمل

تعطيل عمل الكثير من شركات الطيران من وإلى الكيان - بيع ٣٠ مليار دولار من العملات الأجنبية في الأسواق الصهيونية بما يعادل ١٥٪ من إجمالي الاحتياطيات النقدية البالغة حوالي ٢٠٠ مليار دولار - تراجع عمل قطاع الأعمال بحد وسطي ٤٠٪ حسب بنك «هيو عليم» الصهيوني

- زيادة عجز الموازنة السنوية بأكثر من ٢٪ سنوياً وبدأ الكيان عملياً بمراجعة موازنة سنة ٢٠٢٤ - تراجع أسعار السندات الحكومية بنسبة ٣٪ وشركة العال الإسرائيلية بنسبة ١٦٪ - إلغاء مؤتمرات اقتصادية مثل مؤتمر الذكاء الصناعي الذي كان مقرراً عقده خلال الأسبوع الأول - توقيف عمل المؤسسات الدولية بسبب سيطرة «عدم اليقين» من مستقبل الكيان، وقد صرح رئيس البنك الدولي السيد أجاي بانغا أن البنك الدولي أوقف عملياته - إصدار سندات خاصة بجمع التمويل من مغتريها بما يعادل ١٢٪ من الدين الحكومي الإسرائيلي (حسب رويترز) - زيادة النفقات التأمينية لشركات التأمين المتعاملة مع الكيان - زيادة الخسائر يوماً بعد يوم لأن تكلفة الرد الصهيوني على المقاومة تزيد عن ٤٠ مليون دولار يومياً حسب صحيفة «ذا ماركر» - انهيار القسم الأكبر من الاقتصاد الزراعي الصهيوني وتراجع مبيعات الأسلحة - نفقات لوجستية بالملايين من الدولارات لتسكين وتأمين المستوطنين المرحلين من جوار غزة - خسارة مليارات الشواكل من صناديق الائتمان في أيام الحرب مما اضطر وزير الاقتصاد الصهيوني «نير بركات» لإصدار أمر يلزم بتفعيل قانون العمل في ساعات الطوارئ.

هذا ولقد تداولت عشرات المصادر الدولية (ولن نذكر العربية حتى لا تُتهم بالتهويل والانحياز) أبعاد كلفة العدوان الإسرائيلي المجرم على الاقتصاد الصهيوني في الشهرين الأولين منها فقط - وليس في باقي الأيام زمن الحرب. فهي صحيفة «نيويورك تايمز» تؤكد أن اقتصاد الكيان الصهيوني في مأزق غير مسبوق، وها هي مراكز الدراسات الإسرائيلية - ذاتها - تؤكد أن ٣٦٠ ألف جندي احتياط تركوا وظائفهم من أجل التعبئة العسكرية، تباطؤ صناعة التكنولوجيا وهي محرك النمو، توقف الإنتاج في

حقل تمارا النفطي خوفاً من استهدافه (كما سبق وأشرنا)، تخصيص ٤٥ مليار دولار لمنع الشيكول من الانهيار، تحذير وكالتي «فيتش» و«موديز» من إمكانية خفض تصنيف الكيان، توقّف السياحة بشكل كليّ، توقّف رحلات شركات الطيران الكبرى، بما في ذلك رحلات الشحن، إلغاء شركة «إنفيديا» لقمة الذكاء الاصطناعي في تل أبيب - لأول مرة يسقط لدى العدو أكثر من ٢٥٠٠ قتيل، ولأول مرة في تاريخ إسرائيل وفي كل حروبها مع العرب يتم أسر أكثر من ٢٥٠ جندي وضابط بينهم رتب كبيرة جداً، لأول مرة يتم تهجير نصف مليون من المستوطنين، لأول مرة يتم الحصول على كنز معلومات الموساد كانت موجودة في مستوطنات غلاف غزة واستولي عليها المقاومون الفلسطينيون ولا تزال في أيديهم ويقال أن بها معلومات سرية للغاية عن مفاعل ديمونة وإمكانية التحكم به وإطلاق قنابل منه بعد الحصول على الأكواد السرية له!

ماذا يعني كل هذا؟ يعني أن الكيان الإسرائيلي المعتدي يتألم ويعاني، وإن ادعى غير ذلك، صحيح معاناة الفلسطينيين أشد وأقسى، ولكن هذا هو ثمن الدفاع عن الحق والأرض والشرف العربي، وهي سنة التاريخ وقدر المقاومين الشرفاء.

٧. غزة أسقطت جوهر الأمن القومي الإسرائيلي

الآن، ثمة سؤالان أساسيان يفرضهما هذا الفصل الدامي في قصة الصراع؛ الأول: لماذا الإيغال الإسرائيلي في الدم الفلسطيني هكذا؟ ولماذا كل هذا الدمار والنازية ضد كل ما هو حي في أرض غزة؟ والسؤال الثاني: والمرتبط مباشرة بالسؤال الأول هو: هل تأثر مفهوم «الأمن القومي الإسرائيلي» فعلاً

بعملية طوفان الأقصى؟ أم أن ثمة مبالغة في الأمر؟

إن الإجابة الهادئة والموضوعية على السؤال الأول هي أن دولة الاحتلال وجيشها الإرهابي تعمدت «الإيغال في الدم الفلسطيني» بهذا الشكل غير المسبوق تاريخياً في فلسطين، لأنها أرادت استبدال «صورة الجيش الإسرائيلي المهزوم» والفاقد لتوازنه التاريخي يوم ٧/ ١٠/ ٢٠٢٣ في غلاف غزة، بصورة أخرى يُراد لها إسرائيلياً أن تثبت في ذاكرة وعقل العالم وفي عقل المرتبطين بقصة الصراع عربياً وإسرائيلياً، وأن يندم الشعب الفلسطيني على مقاومته ضد محتل غاصب ويمتد ندمه على «يوم ٧/ ١٠/ ٢٠٢٣» وأن يتمنى ألا يتكرر ثانية. وهذا لم يحدث وأظنه لن يحدث. لماذا؟ لأن الشعب الفلسطيني عبر قصة الصراع الممتدة لأكثر من مائة عام أصلب وأقوى مما يظن العدو، وقدم عشرات الآلاف من الضحايا دفاعاً عن أرضه ومقدساته ودفع أثباتاً باهظة في سبيل ذلك، وهو رغم شراسة وعنف هذه الجولة من الصراع، فإنه باق في أرضه، مستمر في مقاومته، ولا تزال في جعبته عشرات العمليات البطولية مثل عملية «طوفان الأقصى». ولذلك لن يتمكن العدو من إجباره عبر المذابح - ١٤٠٠ مذبحة منذ ٧/ ١٠/ ٢٠٢٣ - على نسيان ذلك اليوم أو «الكفر بالمقاومة» كما يتمنى الكيان المؤقت وجيشه المحتل!

أما السؤال الثاني: هل تأثر مفهوم «الأمن القومي الإسرائيلي» فعلاً بعملية طوفان الأقصى؟ أم أن ثمة مبالغة في الأمر؟ الإجابة المباشرة هي: نعم، تأثر وضرب في أهم مكوناته التاريخية وهو أنه جيش لا يقهر وأنه يحقق الأمن لدولته وأنه العمود الفقري لدولة الاحتلال. قديماً قال أحد فلاسفة دولة الاحتلال: «إسرائيل ليست دولة بني لها جيش، بل جيش بنيت له دولة».

هذا الجيش، هذا العمود الفقري، إذ به يكسر ويباغت في عقر داره فيهزم هزيمة منكرة صبيحة يوم ٧/١٠/٢٠٢٣. وهنا نستشهد بالحقائق التي توالي نشرها عالمياً خاصة ما يتصل منها بغلافها الاستيطاني المحتل وبالجدار الحديدي الذي انهار تحت ضربات ألف مقاتل فقط من كتائب القسام. وهنا نقول صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية التي ذكرت عن أسرار ذلك الاقتحام الذي أذل الجيش الإسرائيلي وضرب مفهوم الأمن القومي التاريخي مرفقة ما تقوله بتقارير وفيديوهات ووثائق مهمة، مجيبة على السؤال التاريخي: كيف قام مقاتلو حماس بتحييد قوة الجيش في منطقة الغلاف الاستيطاني وتحييد الكاميرات بعيدة المدى، وأجهزة الاستشعار المتطورة، وأسلحة التحكم عن بُعد من أجل اختراق السياج عالي التقنية - في تكتيك معروف داخل الحركة باسم «خطة التعتيم».

وأعادت الصحيفة تصميم الهجوم بتحليل مئات مقاطع الفيديو والصور المنشورة على الإنترنت، بما فيها المشاهد المصورة في ٧ أكتوبر/ أثناء إعداد مقاتلي حماس. كما راجعت مقاطع الفيديو والتسجيلات الصوتية من الكاميرات التي ارتداها المقاومون وبحثت الصحيفة عن اللقطات من كاميرات المراقبة الإسرائيلية، وتحديث إلى شهود العيان. وفحصت الخرائط ووثائق التخطيط التي تم العثور عليها في حوزة الشهداء من مقاتلي حماس. وعثرت الصحيفة في بحثها على لقطات تُظهر ١٤ اختراقاً منفصلاً للحاجز. وحدد مراسلوها مواقع حدوث التوغلات عن طريق مقارنة تلك اللقطات بالخرائط، وصور الأقمار الصناعية، والبيانات الأخرى، وذلك بداية من معبر إيريز في الشمال، وصولاً إلى معبر كرم أبو سالم في الجنوب. بينما قالت إسرائيل إن الحاجز تعرض لنحو ٣٠ اختراقاً إجمالاً.

هذا وقد انتشرت على الشبكات الاجتماعية قبل شهور مقاطع فيديو تدريبية كانت واضحة للجميع، وظهر فيها المسلحون وهم يهاجمون مجسمات تشبه المستوطنات الإسرائيلية. وتذكر التقارير الدولية المحايدة أن حماس كانت توسع مساحة معسكراتها التدريبية منذ عدة سنوات، وهو نشاط يظهر على نطاق واسع في الخرائط المتاحة عبر الإنترنت. وقد حددت الصحيفة الأمريكية لاحقاً الموقع الجغرافي لتلك المعسكرات، بالاعتماد على التضاريس والسمات المميزة الأخرى التي تظهر في مقاطع الفيديو التدريبية. وأظهرت مقاطع الفيديو المنشورة على الشبكات الاجتماعية بعد الهجوم، أن مقاتلي حماس كانوا يتدربون على التكتيكات المستخدمة في اختراق السياج منذ شهور. لكن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية أخطأت في الحكم على نوايا حماس، بحسب المحللين. إذ اقتنع المسؤولون بأن الحركة لا تريد الحرب. لهذا وجّه الجيش الإسرائيلي الكثير من اهتمامه مؤخراً للتركيز على الاضطرابات في الضفة الغربية، ونقل بعض جنوده إلى هناك.

المعنى الأساسي المستخلص هو أن عملية «طوفان الأقصى» قد ضربت مرتكزات نظرية الأمن الإسرائيلية بالكامل؛ فلم تردع القوة الإسرائيلية كتائب القسام عن التفكير في شن هجوم واسع يشمل عشرات المستوطنات والمواقع الإسرائيلية، ولم تتمكن الاستخبارات الإسرائيلية من الحصول على أي معلومات مسبقة عن الهجوم، ونجح المقاتلون الفلسطينيون في السيطرة على مساحات واسعة من الأراضي المحتلة للمرة الأولى.

ووفقاً للخبراء الدوليين فقد أيقظ هذا الانهيار للجيش الصهيوني المحتل مجدداً هواجس احتمال انهيار دولة الاحتلال في ظل صمود الفلسطينيين وصلابتهم رغم القمع والحصار، كما قوّض الشعور بالأمان والاستقرار

الذي أتاح المزيد من عمليات الهجرة والاستيطان خلال العقود الأخيرة. وكذلك انهارت نظرية الردع الإسرائيلية، وهاوت نظريات «كي الوعي» و«جز العشب»، وأثبتت مقاربة «المعركة بين الحروب» فشلها في تقويض قدرات المقاومة، أو ردعها عن تنفيذ هجوم ضخم مثل الذي نفذته صبيحة ٧ أكتوبر.

وخلاصة القول هنا أنه وبعد أن تسكت المدافع والمذابح - بفترة ليست بالطويلة - سيكتشف الإسرائيلي ومعه من ساعده من الغرب بحاملات طائراته أن أمن هذا «الكيان المؤقت» قد ضرب في قلبه ويحتاج لسنوات طويلة لإعادة ترميمه، وأن ما دفعه الفلسطينيون من تضحيات وأثمان ستمثل عبر التراكم التاريخي بدايات دولتهم المستقلة الحرة والكاملة من البحر إلى النهر، التي بنيت بالدم والمقاومة. وما بني بالدم لن يموت أو يسقط أبداً... هكذا تقول سنن التاريخ وتجزم!

طوفان الأقصى والتحوّلات الثقافية في الغرب

محمد محفوظ^(١)

مقدمة

منذ أن وضعت الحرب الباردة أوزارها، بدأ المفكرون الإستراتيجيون ومعاهد الأبحاث والدراسات بوضع التصورات وصياغة الأفكار والسياسات لمرحلة ما بعد الحرب الباردة . واجتهد كل مفكر استراتيجي أو معهد بحث في بلورة الأفكار التي تعتبر وفق منظور المفكر أو المعهد، هي الاستراتيجيات المثلى لصناعة مستقبل أكثر سعادة ورفاء ورفاهاً من الحقب الزمنية السابقة .

ومنذ نهاية عقد الثمانينيات ونحن نسمع ونقرأ عن الأفكار والنظريات والمقولات التي تسعى نحو ملء الفراغ الأيديولوجي الذي حدث في نهاية الحرب الباردة . فقد نشر في هذا الصدد فرانسيس فوكوياما مقالته التي اعتبر فيها أن الديمقراطية الليبرالية انتصرت بسقوط الاتحاد السوفيتي وأن

(١) باحث ومفكر من المملكة العربية السعودية.

هذا الانتصار يشكل نهاية التاريخ . وتبعه «توفلر» مؤلف كتاب (صدمة المستقبل) بنظرية جديدة يرى فيها أن الثروة الحقيقية في حضارة الموجة الثالثة (الموجة الأولى الزراعية والموجة الثانية الصناعية) هي المعرفة، وتشمل المعرفة هنا المعادلات العلمية والمعلومات التقنية ، إضافة إلى الثقافة والقيم ، وهو يرى أن المعرفة سوف تتحكم بإنتاج الثروة من خلال تقليلها من أكلاف العمل والمواد الأولية والمستلزمات المكانية والمالية للإنتاج . ومن سمات نمط الإنتاج هذا تجزؤ عملية الإنتاج وتنوع المنتجات وتعقد مستويات التكامل والإدارة .. وحيث أن اقتصاد الموجة الثالثة لم يزل في طور تجلياته الأولية ، فإنه سيواجه تعارضات وتوترات محلية ودولية قبل أن يسود كونيا ، وهذا يعني ضرورة تجاوز عقبات عدة هي من بقايا الموجة الثانية ، كالحواجز القومية ومخاطر التلوث البيئي والهجرة إلى الشمال وتزايد النمو السكاني ..

صدام الحضارات:

وجاء صموئيل هنتغتون بمقولة صدام الحضارات، معتبرا أن صدام الحضارات هو عنوان المرحلة العالمية القادمة، وهي الصراعات التي ستملاً فراغ ما بعد الحرب الباردة .. ويحدد هنتغتون مقولته أو رؤيته بالآتي : أن النظام الدولي السابق كان يقوم على صراع بين ثلاث قوى رئيسة : الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي والعالم الثالث .. أما النظام الدولي الجديد (نظام ما بعد الحرب الباردة) فيقوم على صراع بين ثنائي حضارات .. وهذه الحضارات هي : الحضارة الغربية والكونفوشيوسية والهندوكية واليابانية والأمريكية اللاتينية والأرثوذكسية السلافية والحضارة الإسلامية ..

وهو يرى أن الانتماء إلى حضارة ما يتعدى الفوارق الأثنية والحدود

الوطنية .. وأن الحضارات الثماني الكبرى تحتزن الصراع المستقبلي .. وبالتالي فإن العنوان الأساسي الذي سيتحكم في الكثير من صراعات الغد هو صدام الحضارات ، وعلى ضوء تباين الحضارات ستحدد خريطة العالم في الفترة المقبلة ..

ولا شك أن هذه المقولة تخفي الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العالم .. إذ يكشف لنا هذا الواقع أن الكثير من ظواهر الصراع والصدام لا ترجع بالدرجة الأولى إلى الاختلاف في الانتماء الديني والحضاري .. وإنما هي ظواهر تكونت من جراء العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .. وإلا كيف نفسر الصراع المفتوح الموجود في الصومال وأفغانستان مثلاً .. حيث أنها صراعات لا تجري على قاعدة الاختلاف في الانتماء الديني أو الحضاري ، وإنما هي تجري على خلفية سياسية - اجتماعية - اقتصادية .. كما أن حرب الانفصال التي جرت في السبعينيات الميلادية بين باكستان وبنغلادش ، لم تكن حرباً بين مجتمعين تتناقض مرجعيتهما الدينية والحضارية ، بل هما ينتميان إلى دائرة دينية وحضارية واحدة ..

وهذا يؤكد لنا أن الكثير من الصراعات التي تجري في العالم ، تجري على قاعدة سياسية - اقتصادية ، وليس على قاعدة الصدام الحضاري ..

ولهذا نستطيع القول: أن هتتغتون حينما بلور رؤيته حول صدام الحضارات ، لم يكن بعيداً عن المصلحة السياسية والإستراتيجية للحضارة الغربية .. وإنما هو قام بجهد فكري يصب في إطار الحفاظ على سيطرة الغرب على العالم .. لهذا نراه يحذر من قيام متحد كونفوشيوسي إسلامي ينطلق من منطقة زينجيانغ في الصين ويمتد إلى الجمهوريات الإسلامية

في آسيا الوسطى .. ويبرر هنتغتون مخاوفه هذه أن العداء للغرب يجمع بين الإسلام والكونفوشيوسية ، الأمر الذي يشكل تحديا خطرا للحضارة الغربية ولقيمها الإنسانية ..

وإن دعوة هنتغتون إلى تفسير الصراعات والأحداث التي تجري في العالم على قاعدة الاختلاف الديني والحضاري تحقق مجموعة من الفوائد إلى الغرب الحضاري أهمها :

١ . تدفع الدول والقوى الغربية إلى تطوير تحالفاتها وتنظيم علاقاتها ومصالحها لمواجهة العدو المشترك ، والذي يهدد حسب هذا المنظور المصالح الإستراتيجية للغرب ..

٢ . إن هذا المنظور يدفع باتجاه صناعة رأي عام غربي يرفض التعايش مع الحضارات والأمم الأخرى .. وهذا بالتالي يؤدي إلى اتخاذ مواقف مجتمعية غربية من المهاجرين من الشعوب والأمم الأخرى ، الذين يعيشون في الغرب ..

٣ . إن الحضارة الحديثة ومع التطور العلمي الهائل الذي صنعتته ، حيث سيطرت التكنولوجيا والتقنية الحديثة على الكثير من مجالات الحياة ، فهي تواجه خطر الغياب التدريجي لمسألة الهوية والذات الحضارية ، لصالح الآلة الحديثة .. وهذه النظرية وضمن تداعياتها المجتمعية ، تحاول أن تبلور عدوا ذا هوية تاريخية وحضارية واضحة .. من أجل أن ينهض الغرب بقواه المختلفة إلى إزالة الركام التاريخي عن الهوية الحقيقية للغرب.

فالدعوة صريحة إلى إحياء الهوية الغربية من جديد أمام خطر الهويات والشعوب الأخرى التي بدأت بالتعايش والتفاعل مع الحضارة الحديثة.

لهذا فإن من الصعب الاقتناع بأن الحروب الساخنة التي تستعر في ما يزيد على (٣٠) بلدا ومنطقة ، بأن أسبابها ترجع إلى مقولة صدام الحضارات ، كما أن ازدياد موجة المهاجرين من البلدان الفقيرة إلى البلدان الغنية وتدفع أبناء الريف إلى المدن ، الأمر الذي يشكل ظاهرة سهاها صندوق الأمم المتحدة للسكان (الأزمة الراهنة للجنس البشري) ، يصعب القول أن هذه الظاهرة جاءت نتيجة للنزاع بين حضارات مختلفة على حد تعبير الصيني المنشق (ليو بينيان) ..

ويشير إلى حقيقة أن الكثير من صراعات اليوم ترجع بجذورها إلى العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية الدكتور فؤاد عجمي (جامعة جون هوبكينز) بقوله : أن هنتغتون يرى أن الدول ستحارب من أجل الروابط والولاءات الحضارية ، في حين أنها تتدافع بالمناكب من أجل حصصها في السوق .. وتتعلم كيف تتنافس في اقتصاد عالمي لا يعرف الرحمة، وكيف توفر الوظائف وتخلص من الفقر ..

لهذا كله نستطيع القول أن الرؤية التي طرحها هنتغتون في المقال الذي نشرته مجلة (فورين افيرز) صيف عام ١٩٩٣ م ، يسعى من خلالها إلى تأطير جميع القوى الغربية من أجل الاتفاق على العدو القادم .. إذ أن الغرب كنمط عقلي وحضاري لا يمكنه العيش دون عدو. ولقد أبانت العديد من الأحداث والتطورات خلال العقد المنصرم ، على أن الغرب بكل مؤسساته قد حدد عدوه وعمل على خلق فوضى خلاقة ، من اجل إعادة صياغة المنطقة

وفق رؤيته ومصلحه، ولكن إرادة شعوب المنطقة حالت دون ذلك. على كل حال مانود إثارته في هذا السياق هو طبيعة الجدل الفلسفي والسياسي بين الدين والدولة في التجربة الغربية .

جدل الدين والدولة في التجربة الغربية:

على المستوى الغربي ثمة بلدان وتجارب ، حاربت الكنيسة الحداثة السياسية والثقافية ، فتتج عن ذلك تقلص وتراجع حضور الدين في الحياة العامة . كما هو الشأن في إسبانيا . وفي بلدان أخرى اضطلعت الكنيسة بدور محوري في مواجهة الأنظمة الشمولية ، فكانت طليعة تنويرية للمجتمع ، فشهدت يقظة دينية جلية للعيان وبارزة في الحياة العامة كما هو شأن بولندا . فالتجربة الغربية ليست على نسق واحد ، وهناك تفاوت بين البلدان الغربية في طبيعة الجدل المعرفي والسياسي بين الدين والدولة في فضاء هذه الدول والمجتمعات .

إلا إننا نستطيع القول: أن أسس وأصول هذا الجدل واحدة في الدول الغربية ، مع تمايز في طبيعة اللحظة التاريخية التي تمر بها هذه الدول . فأغلب هذه الدول لم تقصّ الدين تماما من الحياة العامة ، وإنما حددت له مكان وموقع ينشط ويتحرك فيه ، دون الإضرار أو التدخل المباشر والفج في أداء الدولة ومواقفها المختلفة . كما أن التكوين المعرفي والفلسفي للكثير من أطراف النخب السياسية في الغرب ، هي متأثرة ومستلهمة للقيم الدينية - المسيحية .

فالغرب لم يطرد الدين من فضاء الدولة ، وإنما جعل مؤسسة الدولة هي المهيمنة والمسيطرة على الفضاء الديني في الكثير من الجوانب والأبعاد .

والسلطة ومؤسساتها المختلفة في ظل الأنظمة الغربية - الديمقراطية، ليست منفصلة عن مجتمعها، وشرعيتها (أي السلطة) ليست نابعة من خارج المجتمع وخياراته السياسية، بل هي على مستوى الشرعية والمشروعية، نتاج مباشر لخيارات المجتمع وانتخاب هذه السلطة من أجل تحقيق هذه الخيارات في الواقع الوطني العام. فلا شرعية للسلطة وفق الرؤية الديمقراطية - المدنية إلا شرعية الجمهور التي منحها صوته واختارها لإدارة شؤون الدولة والمجال العام. «إن السلطة الديمقراطية تنتشر تحت طالع المثولية. فهي ليست سوى تعبير عن المجتمع، والمجتمع يمثل نفسه بنفسه من خلالها، ومن داخل ذاتها. باستثناء أن هذه العملية تفترض ابتعاد السلطة، أي تمايزها بين عن المجتمع. هذا هو الشرط الذي يجعل من الممكن التحقق من نسبة التماثل بين هذين القطبين.

فالديمقراطيات المعاصرة لم تجد سبيلا إلى الاستقرار إلا بدءا من اليوم الذي اكتشفت فيه أنه من الضروري القبول بالفارق من أجل تقدير الوفاق، بدلا من البحث بلا جدوى عن التطابق. فالارتباط الميتافيزيقي بين السلطة والمجتمع أبعد من أن يقرب بينهما، بل هو عمليا يفصل بينهما.. وكلما توفرت المطابقة بينهما في الجوهر، كلما ازداد الفارق الوظيفي بينهما. هذا يعني أن الغيرية المستبعدة لصالح تفوق معياري عادت لتنبثق من جديد داخل الآلية السياسية نفسها، بصورة غير مرئية، وغير معروفة بالنسبة للمعنيين بها، ولكن بفاعلية شديدة. إن ما كان يتخذ مظهرا دينيا بحثا نراه مجددا وبشكل عملائي في قلب الرابط الجماعي»^(١).

(١) مارسيل غوشيه، الدين في الديمقراطية، ص ٢٩ - ٣٠، ترجمة شفيق محسن، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت ٢٠٠٧ م.

والذي يؤكد أهمية التمييز بين الدولة والدين في الفضاء الغربي ، وجود تفسيرات كنسية شمولية - سلطوية للدين ، بحيث إذا سادت هذه التفسيرات ووصل أصحابها إلى السلطة ، فهم سيمارسون كل ألوان العنف والقسر من أجل تعميم قناعاتهم وأفكارهم . والذي يمارس اليوم العنف والتكفير والتفجير ضد المختلفين معه في السياسة أو الدين أو المذهب ، فإنه إذا امتلك مقدرات الدولة فهو سيوظفها لصالح مشروعه الأيدلوجي ، فسيعمل من موقع السلطة والقدرة على ممارسة القسر ، لإقناع الشعب بخياراته وأفكاره وسياساته .

وهذا يعني على المستوى العملي ، تأييد الاستبداد السياسي بتغطية دينية . بحيث يتكامل الاستبدادان الديني والسياسي . وعلى المستوى التاريخي في التجربة الغربية فإن أسوء اللحظات من الناحيتين السياسية والدينية ، هي تلك اللحظات التي يتكاتف الديني بالمعنى الكنسي مع السياسي لبناء سلطة سياسية - دنيوية ، تمارس الاستبداد بكل صنفه . فالتمييز بين الدين والدولة لا يعني إلغاء موقع الدين من حياة الناس ، وإنما ضمان هذا الموقع حتى لا تتعدى الدولة بمؤسساتها المختلفة على مجال الدين .

والمنظرون الغربيون يتحدثون عن مجموعة من الاعتبارات تؤكد ضرورة التمييز بين الدين والدولة ، ويمكن بيان هذه الضرورات في النقاط التالية :

- ١ . توزيع عناصر القوة والسلطة ، وعدم اجتماعها في مساحة اجتماعية ضيقة . لأن احتكار عناصر القوة والسلطة في يد فئة محدودة ، يفضي بالضرورة إلى الاستبداد والديكتاتورية في أشبع صورها .

- ٢ . حتى لا تتحول التفسيرات البشرية للدين إلى أيقونة مقدسة ، لا

يمكن نقدها وإبراز عيوبها ، بحيث سيتم التعامل معها بوصفها متعالية على زمانها ومكانها ، وهي في حقيقة الأمر ليست كذلك ، مما يؤدي إلى قيام السياسي بتوظيف التفسير الديني المدعوم من قبله لتأييد سلطته ، ومنع أي شكل من أشكال الاعتراض عليه . فلكي يتحرر الديني من سطوة السياسي ، ثمة ضرورة قصوى للتمييز بين مجال الدين ومجال الدولة .

٣. لكون المجتمع متعدد ومتنوع أفقياً وعمودياً ، وحتى لا تتحول الدولة بكل مؤسساتها إلى حاضنة للبعض وطاردة للبعض الآخر لاعتبارات أيديولوجية ، بحيث تتحول إلى دولة مع البعض من مكونات شعبها وضد مكونات أخرى من شعبها . وهذا بطبيعة الحال يفضي إلى تفشي الظلم والتمييز بين المواطنين ، مما يهدد الاستقرار الاجتماعي والسياسي . لذلك وحتى تكون الدولة دولة للجميع بدون الافتئات على أحد أو الانحياز لأحد على حساب أحد آخر ، ثمة ضرورة للتمييز ، حتى تصبح الدولة بكل هياكلها متعالية على انقسامات شعبها ورافعة لهم جميعاً نحو مواطنة جامعة بدون تمييز بين المواطنين . لذلك على مستوى التجربة الغربية ارتبط تاريخ العلمانية بتاريخ الدولة . بمعنى أن النخب الغربية لم تتمكن من بناء دولة عادلة وديمقراطية وحاضنة لجميع مواطنيها إلا بالخيار العلماني .

لذلك تراكت الممارسة العلمانية في أروقة مؤسسات الدولة ، وترافق بقاء الدولة مع صعود الخيار العلماني ، بوصفه الخيار الذي يحترم الدين

دون معاداة ، ويفسح له المجال لممارسة دوره على صعيد الإيمان الشخصي ومؤسسات المجتمع المدني . مع إدراكنا التام أن ثمة تجارب علمانية - غربية ، حاربت الدين وعملت على إقصاءه من الوجود والتأثير . فحين تفقد المؤسسات الدينية قدرها الجامع والحاضن للجميع ، لا مناص من التمييز بين مجال الدين ومجال الدولة .

لذلك فإن الدولة التي تدار بعقلية مذهبية - مغلقة ، بصرف النظر عن صوابية هذا المذهب أو حقانيته في الاعتقاد والإيمان ، فإن هذه الدولة ستعبر حين الالتزام بمقتضيات العدالة النسبية عن آمال وحساسيات بعض شعبها وليس كل الحساسيات الموجودة في شعبها . لذلك فإننا نعتقد أن كل دولة في الفضاء الإسلامي ، تحول الدين الإسلامي إلى أيولوجيا من خلال تفسير محدد ومعين لقيم الدين ومبادئه الأساسية ، ستساهم في تنمية الفوارق بين المواطنين ، ولن تتمكن من الوفاء بكل حاجات ومتطلبات كل مكونات شعبها . ونحن هنا نفرق بين الدين كمنظومة قيمية وتشريعية متكاملة ، وبين الأيدولوجيا الدينية ، وهي أحد تفاسير هذا الدين . وليس من الطبيعي هنا أن نساوي بين الدين المنزل من الخالق عز وجل وبين الاجتهادات البشرية التي قد تصيب وقد تخطئ . وحين المفاضلة والاختيار بين دولة تستند إلى رؤية دينية خاصة ليست محل إجماع وتوافق ، وبين دولة تستهدي بقيم الدين العليا ، وتتعامل مع المواطنين على حد سواء بصرف النظر عن أصولهم ومنابتهم الأيدولوجية ، فنحن نختار الدولة المدنية التي تعتبر قيم الإسلام مرجعيتها العليا ، وتتعامل مع أبناء شعبها على قاعدة المواطنة المتساوية في الحقوق والواجبات . فنحن لسنا مع قسر الناس وإخضاعهم لرؤية دينية واحدة ، كما إننا لسنا مع دولة تتدخل بشكل غير قانوني في المجال الخاص للأفراد والمواطنين .

فال مطلوب حياد الدولة كمؤسسة تجاه عقائد المواطنين . حتى لو التزم أفراد هذه المؤسسة برأي دين أو عقيدة دينية خاصة . فمن حقه ذلك ، ولكن ليس من حقه أن يوظف موقعه الرسمي لتعميم عقيدته أو الترويج لآرائه . فالدولة كمؤسسة على مسافة واحدة بين جميع المواطنين ، حتى لو تعددت انتماءات المواطنين وقناعاتهم الفكرية والسياسية . والدولة هنا معنية بتطبيق القانون المنبثق من إرادة الشعب ، وليس التفتيش في ضمائر الناس وقلوبهم ، بمعنى أنها دولة تحترم الحريات الفردية في إطارها الحقيقي وفي كل ما لا يتعلق بالمواد الإجبارية في القوانين العامة . «إنها تسمح بشكل خاص للمعتقدات الدينية وللعبادات بأن تنمو بحرية خارجها ، على أن لا يمتد مطلب حق ممارسة حريات المعتقد المحق إلى أفعال وتدخلات تخالف الحق العام ، وعلى أن لا تسعى أي ديانة (أو مذهب) إلى منح مؤسساتها سلطة تنافس السلطة المدنية ، وتناوئها في مجالها وتسعى إلى القضاء عليها ، هناك تسامح كامل إذا ، طالما أن السلطة المدنية ليس لها أي منافس في مجالها ، في ما يتعلق بالقيم الجوهرية التي باسمها تسود الجماعة ، وهي قيم ليست في هذه الحالة سوى تلك التي ينص عليها العقد الاجتماعي»^(١) ..

فهي دولة لها سلطة تطبيق القانون والحفاظ على النظام العام وتسيير شؤون الناس الداخلية والخارجية . وتمارس كل هذه الأدوار والوظائف على قاعدة الدستور ومبادئه الأخلاقية والقانونية .

ومن المؤكد ان عملية طوفان الأقصى ومتوالياته العسكرية والسياسية ، يعد نقطة تحول جوهرية في السياق السياسي والاجتماعي الغربي ، وتعد عملية طوفان الأقصى زلزال سياسي واجتماعي وثقافي طال كل دول المنطقة

(١) مارسيل غوشييه ، الدين في الديمقراطية ، ص ٦٨ ، مصدر سابق .

وكذلك الدول الأوروبية ، الذي كان لها الدور الأساسي في انشاء الكيان الصهيوني ..

بمعنى لو رجعنا تاريخيا الى اللحظة التي نشأت فيها إسرائيل ، نجد ان الدول الأوروبية تخلصت من مشكلة المسألة اليهودية في أوروبا ، وصنعت مشروعا عسكريا واستراتيجيا وسياسيا من المسألة اليهودية في منطقة الشرق الأوسط .. فالمنطقة العربية والإسلامية ، لم تعيش ازمتها الحقوقية والمنطقة التي كانت تعيش هذه الازمة هي الدول الأوروبية .. ولكن هذه العقلية الأوروبية التي تعيش هاجس السيطرة والاستعمار على دول العالم الأخرى حولت ازمتها الداخلية في المسألة اليهودية الى مشروع عسكري وسياسي متقدم وجزء من مشروع حركة الاستعمار والسيطرة على العالم العربي والإسلامي ..

وأبانت عملية طوفان الأقصى ان إسرائيل بدون حماية غربية مباشرة لا تستطيع الاستمرار في منطقة الشرق الأوسط .. وان حاجة إسرائيل الى الدول الغربية حاجة ذاتية ، وان الدول الغربية بحاجة الى ان تعيد النظر الى مشروع إسرائيل في المنطقة وان بدون مراجعة المشروع الغربي لإسرائيل ، ستستمر المنطقة تعاني من الكثير من المواجهات والحروب ..

وان بدون تحمل الغرب خيار الدولتين ، لن تتمكن من حماية اسرائيل في المنطقة العربية ..

وان أي تراخي في مشروع الدولتين لن تهدأ المنطقة ، وطوفان الأقصى نموذج لما يعتمل في الشارع الفلسطيني .. والغرب بحمايته المطلقة لإسرائيل يتحمل مسؤولية تاريخية وسياسية في خلق المسألة اليهودية في المنطقة

العربية .. وبدون خيار الدولتين لن يتمكن الإسرائيليون من السيطرة على الشعب الفلسطيني .. ولقد اثبت المسار التاريخي ان كثرة القتل من الشعب الفلسطيني تزيده تمسكا باهدافه وتطلعاته ، وقادر على تفجير الأوضاع في المنطقة .. فلا سلام حقيقي في المنطقة العربية الا بدولة فلسطينية مستقلة، وبدون نيل هذا الحق التاريخي سيصمد الشعب الفلسطيني وسيقاوم كل المخططات التي تستهدف امنه واستقراره ..

ومن المؤكد ان المقاومة الفلسطينية حققت انتصارا استراتيجيا على إسرائيل وزيادة وتيرة حرب الإبادة التي يتعرض اليها كل الفلسطينيين لن يغير حقيقة المكسب الاستراتيجي التي حققتها المقاومة الفلسطينية ، وصمت العالم الغربي تحديدا عن ما يتعرض اليه الشعب الفلسطيني من تدمير حياته واستقراره سيتحمل تاريخيا وزره الغرب عموما .. وبدون ان تسعى الدول الغربية إيقاف هذه الحرب العنيفة سينعكس على المستوى الحضاري على الغرب في اللحظة الراهنة والمستقبل .. وادماء الشعب الفلسطيني بكل وسائل القتل والتدمير التي تطال كل شيء لن يدفع الشعب الفلسطيني الى الاستسلام ورفع الراية البيضاء بل على العكس تماما ان صبر الشعب الفلسطيني سيتحمل المجتمع الدولي وبالاخص الدول الكبرى مسؤولية معالجة هذه الأزمة بحكمة واعتدال .. وان صمت الدول الكبرى على جرائم الكيان الصهيوني ..

كل القتل والتدمير الذي يجري اليوم في فلسطين يتم بأسلحة أمريكية وبمساعداة أمريكية وأوروبية وفي تقديرنا ان استمرار المواقف اللاحيادية من قبل أمريكا وأوروبا سيكلف هذه الدول ان لا تكون ملتزمة برسالتها الحقوقية والحرية وسيادة القانون ..

ونرى ان العمل على تغيير الموقف الأمريكي والاوروبي تجاه القضية الفلسطينية وما يقوم به الكيان الصهيوني ، هو بداية الحل لهذه القضية ..
 فالشعب الفلسطيني لن يستسلم ولن يخضع للاملاءات الإسرائيلية والحل ليس في الدعم اللامتناهي لآلة القتل والإرهاب التي يتعرض اليها الشعب الفلسطيني ، وإنما في وقف الدعم الغربي المفتوح لإسرائيل .. لأن هذا الموقف سيخلق بداية الحل السياسي للقضية الفلسطينية ..

ونرى ان الغرب وإسرائيل معا ، لا يريدوا الاعتراف بدولة فلسطينية مستقلة وعاصمتها القدس الشريف .. لأن بناء الدولة الفلسطينية المستقلة لا يتأتى الا بوقف حركة الاستيطان المدعوم بالمال الأمريكي والاوروبي ..
 أن الآوان ان يغير الغرب رؤيته الاستراتيجية لفلسطين وإسرائيل معا .. ولا يمكن ان يصل العالم الى حل عادل للقضية الفلسطينية الا بوقف الدعم اللامحدود لإسرائيل ووقف بناء المستوطنات التي لا زالت تقضم الأراضي الفلسطينية ..

وبدون هذه الخطوات سيبقى هذا الجرح مفتوحا وسيبقى الغرب يدعم حروب الإبادة الجماعية التي يتعرض اليها الشعب الفلسطيني ..

غزة

د. سناء شامي^(١)

كتب بير جورجيو أرديني أستاذ الاقتصاد السياسي والتنموي في جامعة بولونيا، بأن مبادرة حكومة جنوب أفريقيا التي وضعت إسرائيل أمام محكمة العدل في لاهاي، دفعت الكثير من الصحفيين و المحللين الإيطاليين، وكذلك عموم الناس في الشارع العام للحديث عن «الإبادة الجماعية»، وهو مصطلح مروع يشير إلى الإبادة المنهجية للسكان.

مصطلح حديث تم استخدامه للإشارة إلى ما حدث للأمريكيين الأصليين، والسكان الأصليين الأستراليين، و «البوشمان» في ناميبيا، والأرمن، واليهود في أوروبا (في الماضي: إن القضاء على مئات الآلاف من الأشخاص، كما حدث في الخنادق الأوروبية خلال الحرب العالمية الأولى، في دريسدن الألمانية وهيروشيا وناجازاكي، لكن لم يحمل اسم الإبادة الجماعية،

(١) كاتبة وصحفية دولية، مسؤولة العلاقات الدولية الاقتصادية والثقافية في جمعية البندقية الصداقة الإيطالية العربية .

ربما لأنه كان أكثر محدودية، ولكن حتماً لم يكن أقل وحشية.

لقد مرت أشهر منذ بدء الحرب الإسرائيلية على غزة، أو حسب ما يسميها الغرب هجوم حماس على مدنيّين إسرائيليين، لكن هذا لا يغير شيئاً من فظاعة ما تقوم به إسرائيل، فقد محت مُدن القطاع وسوّتها بالأرض. لقد كان رد فعل الأحزاب الإيطالية والحكومات والمنظمات فوق الوطنية هو تبرير تصرفات إسرائيل لأن «مهاجمة إسرائيل هي معاداة للسامية»، وبالتالي فإن رد فعلها دائماً هو مشروع بوصفها دفاعاً عن النفس.

ولم يسبق قط أن أصبحت إسرائيل موضع تعاطف باسم الجذور المشتركة، باسم «الحضارة الغربية» المشتركة، مثل هذه الفترة. حضارة بأكملها يتم القضاء عليها على مسمع ومرأى الجميع، الحضارة التي تم القضاء عليها. الأغلبية من عالم الثقافة صامتون، لقد انتصرت في إيطاليا الامتثالية على الصدق الفكري، والعمى على الحقيقة، لا شجاعة ولا استقلال: لقد تم قبول حل الإبادة الجماعية باسم المزيد من القيم العليا. ولم يكلف أحد نفسه عناء تفسير السبب وراء السماح لإسرائيل بسجن آلاف الأشخاص، وغزو وتدمير آلاف المنازل، وإجبار ملايين الفلسطينيين على الفرار، لأنهم لا يرون بأن كل هذا القتل هو مسألة إبادة جماعية، وبالتالي فإن كل ما يحدث يقع ضمن نطاق ما هو «مقبول سياسياً» مثلما حدث في دريسدن، أو هير وشيما، وإن هكذا أمور، تُعدّ عادية في الحروب.

إن صمت وسائل الإعلام والصحافة والمثقفين وعالم الثقافة أمام ما يحدث في غزة وحجم ووحشية المذبحة التي يتعرض لها المدنيون، يُظهر إلى أي مدى اقتربت «حضارتنا» من نهايتها. والامثال الناتج عن نوم العقل

وغياب السخط، هما علامة تلك النهاية. لقد قيل ذات مرة بأن حقوق الإنسان والإنسانية هي قيم عالمية، وباسم العقل لم نعد «برابرة»، بل أصبحنا «متحضرين»، لن تكون الإبادة الجماعية والتصفية الجسدية للناس والشعوب مقبولة بعد الآن... ولكن من الواضح أن هذه كانت أيضًا فكرة أوروبية نسبية، تتعلق بجزء محدد من العالم و بمفهوم أوروبي منغلق على ذاته.

هناك من يتساءل لماذا لم تكن هناك ردة فعل قوية من جانب اليسار في إيطاليا وأوروبا ضد عملية الإبادة الواضحة للسكان في غزة؟ إن تأييد ألمانيا للسامية، يتناسب فقط مع عقدة ذنبها المتراكمة بسبب معاداة السامية الرجعية، وما زال ينجيم على أوروبا، من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال، مشكلة كتلة جذورها المسيحية التي لم يتم حلها بعد. لكن لا بد أن اليسار، بعد قرنين من الزمان، قد استوعب بأنه ليس هناك تحرر دون التعايش بين الشعوب والثقافات الأخرى. غير أن رد فعل ثقافة وسياسة الدول الغربية يدل على فشل حضارتها التي لم تتخل قط عن مبدأ القوة الذي ميّز الاستعمار والإمبريالية التي بنت حقها في الوجود، على أساس إنكار الآخر. أيضاً، وفي صحيفة المانيفستو الإيطالية^(١)، في ١١ شباط فبراير ٢٠٢٤ كتب الصحفي ألبرتو نيكري:

المأساة الأخيرة في غزة تلوح في الأفق بمذبحة جديدة في رفح، وفي سيناء، ولدينا أيضًا قصة سيئة لترويها، فقد بدأت ما يسمى «خطة ماتي» ففي ٢٩ أكتوبر، وفي خضم الحرب، أعلن وزير الطاقة الإسرائيلي عن توقيع

(١) المانيفستو؛ هي صحيفة شيوعية إيطالية تأسست عام ١٩٧١ بعد تحول الصحيفة التي تحمل نفس الاسم والتي تأسست عام ١٩٦٩ من قبل مجموعة من المثقفين المنشقين عن الحزب الشيوعي الإيطالي.

اتفاقية حصلت بموجبها شركة إيني الإيطالية وشركات دولية وإسرائيلية أخرى على ترخيص استغلال حقل الغاز البحري المواجه لغزة ضمن المنطقة البحرية التي تبلغ مساحتها ٦٢٪ من مساحة الأراضي الفلسطينية.

كذلك الصحفي الدولي بير هاسكي يشرح معنى جملة القلق العميق في لغة الدبلوماسية الأوربية، فهي تعني شيئين: لمن ينطقها، فهو بالتأكيد «منزعج»، لكنه في الوقت نفسه لن يفعل شيئاً لتغيير الوضع أو لمواجهة الكارثة الإنسانية في رفح، لذلك نرى الهجمات الإسرائيلية في جنوب قطاع غزة، تزايد والتصريحات المكررة و«القلق العميق» أيضاً في تزايد، إلا أن جمود الموقف ما زال هو السائد، رغم الإحراج الكبير للحكومات الغربية التي لم تعد تعرف كيف تُجَبَّى تحاذلها وتواطئها مع إسرائيل، وخصوصاً مع انتشار المشاهد المفزعة لما يحدث اليوم في رفح. ولفهم دراما ما يحدث، ما عليك سوى الاستماع إلى شهادة الدكتور رافائيل بيتي، وهو طبيب فرنسي اعتاد العمل في مناطق الحرب وعاد لتوّه من رفح. وفي الأيام الأخيرة، وصف بيتي ظروف الحياة وفوق كل شيء الموت في المدينة الفلسطينية، التي زاد عدد سكانها خمسة أضعاف بسبب وصول اللاجئين. في ١٢ شباط فبراير، أخبر الطبيب فرانس إنتر بأنه كان عليه الاختيار بين المرضى الذين سيتم إنقاذهم وأولئك الذين سيغادرون ليموتوا في المستشفى المنهار حيث كان يعمل.

جميعنا يعرف بأن الاستجابة لأزمات الصحة العامة يجب أن تكون واجباً أخلاقياً (فضلاً عن واجب مهني) للعاملين في المجال الطبي، فإن الافتقار إلى المناقشة حول الأزمة الصحية الحالية في غزة في المجالات الطبية الأكاديمية التي تتخذ من الولايات المتحدة مقراً لها، أمر ملفت للنظر لعبت تاريخياً

دوراً رائداً في المنطقة، كونها المانح الرئيسي للمساعدات العسكرية للجيش الإسرائيلي والمساعدات الإنسانية للفلسطينيين. وخلافاً للمجلات غير الأمريكية الأخرى، التي نشرت عدة مقالات تتعلق بالحرب الحالية في غزة، مكتوبة بمجموعة متنوعة من وجهات النظر المهنية وتضم أصواتاً إسرائيلية وفلسطينية، ظلت الصحافة الأكاديمية الأمريكية صامته إلى حد كبير في هذه المناسبة، في حين أنه نُشرت مقالات حول أزمات أخرى في العالم.

حتماً للصحافة الطبية دور حاسم في الدفاع عن الحرية الأكاديمية والحوار النقدي؛ ومع ذلك، فيما يتعلق بموضوع الحرب في غزة، غالباً ما تتدخل الرقابة الذاتية حتى قبل أن تصل المخطوطات إلى مكاتب محرري المجلة. هناك دراسة حديثة أجراها مشروع Middle East Scholar Barometer، وهو مشروع مشترك بين الجامعات يهدف إلى التحقق من تقييمات الباحثين الأمريكيين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا حول القضايا الحاسمة المعاصرة، لاحظوا بأن ٨١٪ منهم يشعرون بالحاجة إلى الرقابة الذاتية عندما يتعلق الأمر بانتقاد إسرائيل و ١١٪ منهم يفعلون ذلك عندما يتعلق الأمر بانتقاد الفلسطينيين، ولا يُستبعد أن يكون ذلك نتيجة للإسكات المؤسسي للأطباء والباحثين الصحيين بعد ٧ أكتوبر.

كتبت جادا فاتزالاري في الجريدة الإسبوعية آفانتني، و التابعة للحزب الاشتراكي الإيطالي: عار، لعلها الكلمة الأنسب لوصف كل ما يحدث حول الإبادة الجماعية التي تحدث في غزة.

مشهد رعب عادي: بينما يسير البشر في صف واحد مثل العبيد، معرضين للإذلال والخوف والرعب والموت الوشيك، وفي أيديهم خرق

بيضاء للدفاع عن أنفسهم من الهجمات، تجري أمّ نحو ملجئ، ومعها طفل بين ذراعيها. قُتل، وهرب ابنها، وحتماً سيواجه الموت هو أيضاً.

الصحفي موريتسيو فيسكوفي وزميلته ستيفانيا ريه، كلاهما صحفيان في الجريدة الإيطالية المعروفة لاريوبليكا^(١) كتبا: وقت الدفاع عن النفس ليس وقت الانتقام القاسي. هناك الكثير من الصمت بشأن مأساة الأطفال الذين ماتوا في غزة في الأيام الأخيرة.

إلى أطفال غزة - الذين ضحوا بحياتهم وهم يتنفسون رائحة الغبار النفاذة التي تثيرها الانفجارات والدخان الأسود الناتج عن الإطارات المحترقة، الذين أغمضوا عيونهم وحملوا في أنوفهم رائحة الحرب والدم والموت النتنة، المستمرة والحضور المرعب في بضعة أيام من حياتهم الأرضية - لا يمكننا حرمان أطفال غزة، ضحايا الكثير من الكراهية والهمجية، من أن يصبحوا جزءاً من ذاكرتنا الجماعية. إنه واجبنا، بل حاجتنا أيضاً، لكي تظل تضحياتهم محفورة في قلوبنا وتبقى وجوههم وقصصهم بمثابة إنذار للأجيال القادمة، حتى نعرف كيف نوقف، نهائياً، كل شكل من أشكال العنف والاستغلال والقمع. ويجب أن نكرّس أفكارنا إلى هؤلاء الأطفال الفلسطينيين الذين نجوا من الكثير من العنف - ودائماً تحت أنظار المجتمع الدولي، والذين يهتمون أكثر مما ينبغي بالمصالح الاقتصادية يوازنون الأفعال لصالح الأقوى، ويتمتعون بالقدر نفسه من المهارة في النأي بأنفسهم عن اللوم والمسؤولية.

(١) صحيفة لاريوبليكا: وهي ثاني صحيفة عامة في إيطاليا تملكها عائلة أنيلي الشهيرة والمعروفة بصناعتها لسيارات فيات

ما حدث و يحدث في غزة، كشف تحجّر المُقل في أغلب العيون، و لكن في الوقت نفسه فجّر حب الحق في عقول الكثير من البشر، و قد شاهدنا شعوبا غربية دافعت عن وجودها و حقها بالإنسانية من خلال دفاعها عن حقوق الفلسطينيين، حتى أن هناك العديد من الناشطين و السياسيين الإيطاليين الذين دافعوا و ما زالوا عن فلسطين، مثل الناشط و البرلماني السابق أليساندرو دي باتيستا الذي رفض هذا الإجرام الممنهج، و أكد على أن حل الدولتين ممكن، بشرط الاعتراف بالدولة الفلسطينية، و في روما، يوم ٢٥ كانون الثاني يناير ٢٠٢٤ صرّح دي باتيستا: «لقد تقدمنا مع جمعيتي بقانون مبادرة شعبية إلى المحكمة العليا لطلب الاعتراف بدولة فلسطين و عاصمتها القدس الشرقية، والأداة الأفضل هي التحرك البرلماني لحل هذه المشكلة. ولكن لماذا لا يعترفون بدولة فلسطين؟ و لا يتم حتى الاعتراف بالفلسطينيين كمحاورين. و هو أمر غير مقبول على الإطلاق في مواجهة مذبحه لا علاقة لها بمكافحة الإرهاب، و تدمير حماس و إطلاق سراح الرهائن. فكيف يمكن أن نفكر في محاربة الإرهاب إذا غذيناه بالمجازر و الاحتلال غير القانوني؟ و أكد أليساندرو دي باتيستا، العضو السابق في حركة ٥ نجوم و الناشط الآن قائلاً: «لكن في الواقع ربما يكون هذا هو هدف نتيها هو إطالة أمد الحرب من أجل البقاء في السلطة و عدم الانتهاء في السجن». أيضاً المفكر و الباحث و البروفسور ألبساندرو أورسيني، يدافع عن الحقوق و الحريات من خلال دفاعه اليوم بكل نزاهة و جرأة عن فلسطين و شعبها، كذلك الفنان و الكاتب، و مدير مسرح مدينة فيرّارا، اليهودي الإيطالي الذي ينتقد بشدة زيف الغرب، و يدعو لمحاكمة نتيها هو مؤكداً على الحق التاريخي لفلسطين بالوجود، لاعناً الصهيونية و أهدافها الاستعمارية... الأمثلة عن الشرفاء الأوروبيين الذين لم

يتخلّوا عن فلسطين هي عديدة، ورغم قتلهم، فهم فاعلين، لأن فلسطين بالنسبة لهم هي ميزان مبادئهم وصدقهم الإنساني... و يرو داني سؤال لا أستطيع تجاهله، هل العرب استمعوا إلى أغنية سيد درويش «شقع بقع يا ذيل الفار»؟ إذن، لماذا تجاهلوا النزيف البطيء، ولماذا لم يمنعوا تحوّلَه إلى أنهار من الدم؟ غزّة التي جُبل تراها بالدماء الطاهرة، لا بد أن تُثمر سندسا وريحانا، تينا و زيتونا، و بأي آلاء ربكما تُكذّبان.

القسم الثالث: حول بيان هابر ماس: قراءات وردود

نقد الموقف المتحيز لإسرائيل من فلاسفة ألمانيين يدّعون الدفاع عن القيم الكونية!!؟

د. محمد الأشهب^(١)

تفاعلا مع الموقف المشترك الذي أعلنه (يورغن هابرماس) بمعية (راينر فورست)، و(كلاوس غونتر)، و(نيكول ديتلهوف)، أقدم اعتراضا نقديا عليه. وترجمتي له تندرج في باب تعريف القارئ بالعربية بالموقف الذي عبر عنه هابرماس وأتباعه. بالرغم من أنني أعتبر نفسي من المهتمين بالنظرية النقدية التي تعلمت منها أسس التفكير الفلسفي النقدي بحكم الأبحاث التي قدمت عنها لأزيد من عشرين سنة خاصة حول هابرماس وراينر فورست، فإنني لا أتفق مع هذا الموقف المتحيز لإسرائيل من فلاسفة يدعون الدفاع عن القيم الكونية، ويتعاملون عن جرائم الإبادة التي يتعرض لها المدنيون في فلسطين محاولين إيجاد تبريرات عن وعي أو بدون وعي للمذبحة الجماعية في حق الأطفال والنساء والشيوخ حتى ولو كانوا في المستشفيات ومؤسسات الأمم المتحدة .

(١) باحث فلسفي وأستاذ الفلسفة بجامعة ابن زهر.

الترجمة الكاملة للنص^(١) :

إن الوضع الحالي، الذي تسببت فيه وحشية الهجوم غير المسبوق الذي شنته حماس ورد فعل إسرائيل عليه، أفضى إلى سلسلة من المواقف الأخلاقية والسياسية والمظاهرات الاحتجاجية. ونعتقد أنه في خضم كل وجهات النظر المتعارضة التي تم الإعراب عنها، فإن هناك بعض المبادئ التي لا يجب أن تكون محل خلاف. وهي مبادئ تشكل أساساً لتضامن مُفكر فيه ومُتَعَقِل مع إسرائيل واليهود واليهوديات في ألمانيا.

إن المجزرة التي ارتكبتها حماس والمصحوبة بنيتها المعلنة لإبادة الحياة اليهودية بشكل عام، كانت سبباً في دفع إسرائيل إلى الانتقام بهجوم مضاد. لكن كيفية تنفيذ هذا الهجوم المضاد، المبرر من حيث المبدأ، حظيت بمناقشة اتسمت بالكثير من الجدل. فمبادئ من قبيل علاقات التناسب [ضمنياً، علاقات عدم التناسب بين حماس وإسرائيل] *Verhältnismäßigkeit*، وتجنب سقوط ضحايا من المدنيين، وشن حرب مصحوبة باحتمال إحلال السلام في المستقبل، ينبغي أن تكون مبادئ توجيهية. وعلى الرغم من كل القلق على مصير السكان الفلسطينيين، فإن معايير الحكم تزيغ عن الطريق تماماً عندما تعزى نوايا الإبادة الجماعية إلى التصرفات الإسرائيلية.

وكيفما كان الحال، فإن تصرفات إسرائيل لا تبرر بأي حال من الأحوال ردود الفعل المعادية للسامية، وخاصة في ألمانيا. فأن يتعرض اليهود واليهوديات في ألمانيا مرة أخرى لتهديدات تهدد حياتهم وأجسادهم، وتجبرهم على الخوف من العنف الجسدي في الشوارع، فهذا أمر لا يُطاق

(١) أول ترجمة مباشرة للنص الأصلي.

وغير مقبول إطلاقاً. فالروح الديمقراطية لجمهورية ألمانيا الاتحادية، والتي تقوم على أساس الاعتراف باحترام الكرامة الإنسانية، ترتبط بثقافة سياسية تعتبر الحياة اليهودية وحق إسرائيل في الوجود عنصرين أساسيين يستحقان حماية خاصة مع استحضار الجرائم الجماعية التي ارتكبت سابقاً في الحقبة النازية. ولهذا الاعتراف بهذه المسألة والالتزام بها أمر أساسي في حياتنا السياسية المشتركة.

إن الحقوق الأساسية في الحرية، والسلامة الجسدية، وكذلك الحماية من التشهير العنصري هي حقوق غير قابلة للتجزئة وتسري على الجميع بالتساوي. وعليه يجب على جميع أولئك الذين يُقيمون في بلادنا والذين بثوا فيها المشاعر، والقناعات المعادية للسامية باعتماد شتى أنواع الذرائع، ويرون الآن فرصة ملائمة للتعبير عنها دون عائق، أن يلتزموا بتلك الحقوق ويمثلون لها.

(نيكول ديتلهوف، راينر فورست، كلاوس غونتر

ويورغن هابرماس)

تعليقي على الموقف:

صعب جداً ترجمة موقف سياسي لفلاسفة من حجم هابرماس، وفورست، وغونتر في موضوع حساس للغاية. ولهذا حرصت أن أضع النص الألماني في مقابل النص المترجم. وبالرغم من ترجمته وتطوير لغته للعربية بقيت بعض الإيحاءات الضمنية التي لم يتم التعبير عنها بشكل مباشر. وهو ما سأبينه في تعليقي النقدي لفلاسفة نقدر قيمتهم العلمية في الخطاب

الفلسفي المعاصر دون أن يمنعنا ذلك من مساجلتهم نقدياً من موقع مخالف. تجدر الإشارة في البداية إلى أن فيلسوف الفضاء العمومي وضمير ألمانيا المعاصر، كان من اللازم عليه أن يتدخل في الحدث كما تعود على ذلك مراراً. والكل يتذكر موقفه المشرف والنقدي للتدخل الأمريكي من الحرب على العراق التي خاضتها لوحدها في تحدٍ سافر لقواعد ومبادئ القانون الدولي. لكن هذه المرة ظل هابرماس صامتا لمدة أزيد من شهر على المذبحة الجماعية ليطلع علينا بهذا الموقف المتحيز بمعية فلاسفة سبق لهم التعاون معه في تطوير النظرية النقدية وأقصد هنا فورست وغونتر اللذان اشتغلا معه في مشروع كتابه الشهير حول الفلسفة السياسية المعنونة بـ العيانية والصلاحية.

الفقرة الأولى:

يصر الموقف المعبر عنه في هذه الفقرة أن يظل مرتبطاً فقط بالوضع الحالي دون الإشارة إلى الجرائم التي ارتكبت في حق الشعب الفلسطيني لعشرات السنين. ومن المعروف عن هابرماس والعديد من الفلاسفة الألمان أنهم يتفادون الإدلاء بآراء في الموضوع خوفاً من تهمة معاداة السامية. لكن هذه المرة أصّر هابرماس ومن معه على الإنطلاق من آخر حلقة في مسلسل القضية الفلسطينية للتعبير عن موقف متحيز دون استحضار للماضي ودون استحضار للداخل الإسرائيلي الذي تسيطر عليه حكومة يمينية متطرفة غير مرغوب فيها حتى في إسرائيل، وكلنا نتذكر الاحتجاجات ضدها قبل بدء الحرب. ويعبر الموقف في الفقرة نفسها عن مبادئ لا يجب أن تكون محل خلاف. هذه الفكرة في الحقيقة غريبة بالنظر إلى فلسفة التواصل وأخلاقيات المناقشة التي تجعل كل شيء محل نقاش وخلاف إلا بعد مناقشته وفحصه

بطريقة عقلانية وأفقية تتيح لكل المعنيين بالأمر المشاركة فيه. كما أن صاحب الحق في التسوية راينر فورست بدوره لا يخرج عن نفس السكة في الوقت الذي يصر على مبدأي التبادلية والعمومية كمبدأين ضروريين لتسوية المعايير والمبادئ. بينما هنا يصران على أن مبادئ التضامن مع إسرائيل مفكر فيها ومُتعلقة وليست محل خلاف على الإطلاق. فأين هي الكونية؟ والحق الكوني في التسوية كأفكار مؤسسة لعدالة نقدية عابرة لحدود الدولة الوطنية.

Transnationale Gerechtigkeit

الفقرة الثانية:

تعلن هذه الفقرة بشكل صريح عن الموقف المباشر لهابرماس ومن معه في تبرير صريح يشر عن العنف الممجى الذي تمارسه إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني، بدعوى أن حماس هي من بدأت وأن إسرائيل هي في موقف الدفاع عن النفس حتى ولو أزهقت أرواح الآلاف من الأطفال. والأفزع في الموقف هو استبعاد ما تقوم به إسرائيل من دائرة جرائم الإبادة. ولهذا فأى حكم على الفعل بأنه يندرج في جرائم حرب ضد الإنسانية هو خارج عن دائرة الصواب حتى وإن كان هناك قلق على مصير الفلسطينيين. فأن يتصور المرء هابرماس ومن معه قضية في المحكمة الجنائية الدولية معناه أن ما يحدث من جرائم موثقة بالصوت والصورة لا ترقى إلى كونها جرائم حرب. وبالتالي فحكمهم هو رفض الدعوة. هذه قمة سياسية الكيل بمكيالين المتأصلة في الثقافة الغربية. وللأسف لم تقتصر هذه السياسة عند السياسيين بل أعدت مثقفين كبار أمثال هابرماس. وهذا أمر غير مفهوم أن يصدر عن فلاسفة كبار من المفروض أن يحافظوا على قدر من النزاهة الفكرية بدل الاصطفاف وراء مواقف السياسيين.

الفقرة الثالثة:

يقيم الموقف علاقة بين ما يحدث في فلسطين وألمانيا والماضي الألماني. أذكر أن هابرماس في مقدمة الترجمة العربية لكتاب صدر بعنوان الخطاب السياسي للحدثاثة قال ما مفاده أن إسرائيل إنتاج للحدثاثة الغربية. وهذا الكلام فيه إشارة إلى الإضطهاد الذي تعرض له اليهود في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية. ولهذا لا يمكن فهم التفكير الفلسفي لهابرماس وبعض الفلاسفة الألمان دون استحضار تلك الأحداث. فهابرماس ومن معه وبحكم الإرث النازي يعتقدون أن اليهودي واليهودية لا يزالان مهددان في وجودهما. ومن ثم فحق الوجود لإسرائيل أمر ثابت في السياسة الألمانية. بل إن إسرائيل كما سبق لميركل أن عبرت عن ذلك هي سبب وجود Staaträson ألمانيا وليس العكس.

الفقرة الرابعة:

بناء على هذا العبء التاريخي فالموقف المعبر عنه في هذه الفقرة يريد أن يقول إن أي تضامن مع الفلسطينيين في ألمانيا يندرج في إطار معاداة السامية. وهذا هو نفسه موقف الحكومة الألمانية الذي عبر عنه رئيس الدولة اشتاينماير، والمستشار أولاف شولتس، ووزيرة الخارجية بيربوك. وبناء عليه فكل صوت مناهض للحرب ومدافع عن حق الفلسطينيين في الوجود إلى جانب الإسرائيليين حتى ولو كان يهوديا فهو معاد للسامية. الغريب في هذا الموقف أن العبارة الألمانية أولئك الذين يقيمون في بلادنا diejenigen in unserem Land halten المقصود بها الأجانب بطريقة ضمنية وهم العرب، والمسلمون، ولا توجه تهمة تهديد وجود اليهود في ألمانيا لليمين

المتطرف وللنازيين الجدد الذين يهددون اليهود أكثر من غيرهم. فهؤلاء المقيمون يمكن طردهم في أية لحظة من ألمانيا إذا ثبت أنهم يتعاطفون مع الفلسطينيين. وهذا موقف لوحته الحكومة الألمانية مرارا في انتهاك صارخ لحقوق الجنسية وحق التعبير في الفضاء العمومي.

هل خدعنا هابرماس؟

غزّة في اليوم العالمي للفلسفة

ادريس هاني^(١)

بلغني موقف هابرماس مما يجري في غزّة، بينما كنت أتهيأ للمشاركة في ندوة حول الفلسفة والسلام العالمي، نظّمها منتدى الفكر والفلسفة بالقاهرة بإشراف رئيسها صديقنا د. بهاء درويش، حيث لم أجد سبيلاً للاشتباك فلسفياً مع سياق ما يجري في غزّة، سوى بالعودة إلى ذلك التّحدّي الذي ما زال يراودني، ألا وهو إخضاع الجغرافيا السياسية إلى السُّؤال (الأنطولوجي). إنّ القلق الوجودي له جغرافيا يفرضها مفهوم الحيز، ذلك المفهوم الذي به يتخصّص المكان نفسه، إذا ما استحضّرنا التمييز الذي انتهى إليه لا يبتز، هذا الامتلاء المُشخّص للمكان، المخرج له من اللامعنى إلى التحيز، ليس هاهنا امتلاء يحيل إلى خبرة ثقافية بالمعنى نفسه للجغرافيا الثقافية، بل يحيلنا إلى خبرة أنطولوجية.

(١) باحث في الفلسفة والشؤون الاستراتيجية.

بارك لي الصديق د. مصطفى حجازي هذه المداخلة، واصفاً إياها بالفكر الكاشف، لكنني سأذهب بعيداً حين أذكر رائد سيكولوجيا الإنسان المقهور، حيث حفزني الأمر إلى الحديث عن جيوستراتيغيا الإنسان المقهور أيضاً، إنّ السؤال الأنطولوجي يكشف أكثر مُعضلة الميتافيزيقيا الغربية الموسومة نيتشيا بالجن والتّفاق، وهيدغيريا بنسيان الوجود.

في معرض الرد على تساؤلات المتابعين والأصدقاء، تناولت على نحو سريع ما بلغني عن هابرماس، على أمل أن أحقق في مدى صحته، حيث أعلنت عن أن ذلك إن صحّ سيكون إعلاناً عن فراق فلسفي بيننا، وذلك بمناسبة اليوم العالمي للفلسفة، يا للمفارقة! وأيضاً بدافع الحدث الكبير في غزّة، وهذا ما سيمنح للحدث بالمعنى الدولوزي سلطة.

لقد تحققت مما صدر عن هابرماس، وكانت تلك سانحة للتأكيد على هذا الانتهاك الكبير الذي قام به هابرماس ضدّ نظريته التّواصلية نفسها، على ما فيها من جيوب قابلة للنّقد، ولأنّها ليست عاصمة للعقل والمعقول من أن تُصبح أداة لتأسيس إجماع ملغوم، ذلك لأنّ التداولية على ما لها وما عليها، تجاوزت كونها تداولية بريئة في مستوى فعل الكلام، فهي ككل الأنساق الثورية أصابها الوهن أمام تدفق القدرة التقنية الفائقة على الزّيف، كيف يكون إعلام البروباغندا يملك كل هذه القدرة على احتواء الفكر النقدي نفسه، ليصبح هابرماس مجرد «مُلاوِغ» بمقتضيات الخطاب الميديولوجي الكلاسيكي للبرالية المتوحشة بمقاصدها الإمبريالية، هنا أهمية الحدث، وهنا خطورة الإجماع بالمعنى الفلسفي.

سبق وكتبت مقالة عن هابرماس على هامش رفضه جائزة الشيخ زايد،

حسب ما جاء في موقع «شبيغل» أونلاين يوم الأحد ٢ آذار ٢٠٢١، ومع أننا بحسن النية، التي هي قاصمة ظهر العرب، لم ندقق في سبب هذا الرفض الذي اعتبرناه أيضاً تزهّداً ووفاء للمبادئ الديمقراطية الإنسانية، حيث جاء رفضه بعد أن قبل الجائزة ثم تراجع عنها، بعد أن تم انتقاده في بعض الصحف، كما لم نكن نقرأ الأمور تحت ضغط نظرية المؤامرة، لتتساءل عن الجهة التي طالبت به بالتراجع عن قبول الجائزة؟ لكن ما أثارني هنا، هو أن المحتوى نفسه يتكرر لدى كلّ من انضمّ إلى جبهة المدافعين عن الاحتلال، خطاب مشترك صادر من الكابنيت نفسه، بقول يقع تحت شرف الفلسفة، باعتبارها خطاب التضحية والأنوسة الفائقة، إن فلسفة «الفلسفة» هو النهوض بالمفاهيم، وأيضا حراستها من الانحطاط في الاستعمال.

أعود إلى كتابات الشباب، حيث لا توجد حسابات الكبار، حين كتبت «العرب والغرب: أي علاقة، أي رهان»، كنت مهووساً بسؤال الهوية، والمصير، والتموضع الحضاري من غرب حوّل الآغورا إلى محمية، ثم حوّل الفلسفة إلى مقالة، بات الإنتاج السوسيولوجي في فترة معينة تحت إشراف المؤسسة الاستعمارية، ثم تحول تحت إشراف الكولونيالية الجديدة، هذا ما سنجده مع هابرماس، التفكير الحر المؤطر بالفضاء العام «الخاص بالفضاء البرجوازي»، وتبني الإجماع التداولي حتى لحظة الإبادة، لنرّ أولاً ماذا قال هابرماس: لقد استعمل كلمة اختزالية تعزز المتداول في البروباغندا، بحثاً عن مبادئ مشتركة وجب الاتفاق عليها طبقاً لمقرر النظرية التواصلية، ومنها الاتفاق بطريقة غير مباشرة على ما سأسميه بالحق في الاحتلال، الحق في الإبادة، ولكن يمكن تغيير الألفاظ، وعندما نتحدث عن هابرماس، فإننا إزاء مفهوم خاص عن اللغة، إن تغيير اللغة هنا يعني تغيير فعل الكلام،

أجل، لقد اختزل المشكلة في صراع بين الاحتلال وبين «حماس»، حيث وصف أصل المشكلة - وانظروا أنّ هابر ماس يعيدنا إلى السببية - في الهجوم الوحشي الذي شنته «حماس» وفي مقابل هذا الوصف، يتحدث عن رد فعل (إسرائيل) على ذلك، إذ بدأنا نتحدث عن فعل ورد فعل، عن السببية التي تُلغي العلل الأولى التاريخية، القلق الجغرافي.

يخرج هابر ماس بموضوعة خادعة ليقول، بأننا أمام آراء متعارضة. إنّ عنف الإبادة لا يظهر جلياً أمام عيني رائد التنوير، لأنّه ما يجب في خضم هذا الاختلاف، ووجهات النظر حول الإبادة، بل كيف يذكرنا بالموقف الإنساني ضد المقاومة الفلسطينية، التي اعتبرها تهديداً لحياة اليهود. فما يجب إزاء كل ذلك حسب هابر ماس هو: «بعض المبادئ التي يجب ألا نختلف حولها، وهي تشكل مبادئ أساسية لتضامن مُفكّر فيه ومعقول مع (إسرائيل) واليهود واليهوديات في ألمانيا»، وفي هذا السياق يذكر بأن ما يسميه المجزرة التي ارتكبتها «حماس»، كانت معززة بنية مُعلنة لإبادة اليهودية، ما أدى إلى انتقام (إسرائيل)، وهو ما بدا له في تصريحه عملاً مبرراً من حيث المبدأ، ومن هنا، يذهب هابر ماس إلى القول بأننا سننحرف عن الموضوع حينما نعتبر الأعمال الإسرائيلية تعبر عن نيات الإبادة الجماعية، ويوجه أحكاماً استباقية للرأي العام الألماني ومن خلاله إلى الرأي العام الغربي، بأنّ أعمال «إسرائيل» لا تبرر ردود الفعل المعادية للسامية.

حين يقع فيلسوف له موقعه في الحركة النقدية المعاصرة في التبسيط والبروباغندا، يصبح السقوط مُضاعفاً، وفعل الكلام أكثر إيلاًماً لشعوب ما زالت تعاني الاضطهاد. إن هابر ماس يردد مفهومًا ابتكرته الدعاية لقمع الكلام، وهو القمع الذي يناقض نظريته التواصلية الاجتماعية، ضرورة

مُقاومة أو هام العصر التي نازعه بها دولوز، لها (مصدق كبير) في هذه المغالطة.

لا يعتبر في نظري موقف هابرماس انتهاكاً سافراً لنسقه التواصل التداولي فحسب، بل هو أيضاً موقف يُعزّز هشاشة البناء التواصل الذي كاد يختزل فيه صناعة المعرفة، يرى هابرماس أنّ ردة الفعل على ما يسميه تصرفات (إسرائيل) وما نسمّيه حرب الإبادة، أنها مجرد وجهات نظر متعارضة، على الرغم من أنّ صيب النار هو موجه أكثر من أربعين يوماً حتى كتابة هذه السطور، للأطفال والخدم والمخافي والبنيات التحتية فضلاً عن مستقبل السلام العالمي، ما زلت حائراً؛ كيف يمتلك الفيلسوف الغربي المتواطئ مباشرة أو ضمناً مع المركزية السياسية الغربية، كل هذه القدرة العبقريّة في الحفاظ على الدم البارد تجاه حروب الإبادة؟ هل ذلك راجع إلى البنية العميقة لغرب مارس الإبادة دائماً في مستعمراته بلغة ميتافيزيقيا التنوير؟ إن هابرماس يتحدث عن الروح الديمقراطية لجمهورية ألمانيا الاتحادية، التي تقوم على أساس احترام الكرامة الإنسانية، ترتبط في نظره بما سمّاه الثقافة السياسية التي ترى الحياة اليهودية وحق (إسرائيل) في الوجود، وهما عنصران أساسيان يستحقان حماية خاصة، من دون أن تغفل الجرائم الجماعية التي تعرضوا لها في الحقبة النازية. ويرى هابرماس أنّ هذه هي القضية الأساسية فيما يجب أن تكون عليه الحياة السياسية المشتركة.

إن هابرماس يمارس هنا انتهاكاً للثالث المقوم للغة التواصلية التي أسسها ثم فارقها في نوع من التضليل والمغالطة، حيث نراه يُباهي بين الاحتلال واليهود في حقهما في الوجود، ثم يزف ما سمّاه بالجرائم ضدهم في الحقبة

النازية، بينما لم يسمّ ولا مرة، ما فعله الاحتلال في غزة بالجرائم، ويضيف هابرماس كلاماً فضفاضاً يهدم به ركن الصدقية والجدية في خطابه، حين قال بأنّ الحقوق الأساسية في الحرية، والسلامة الجسدية، وكذا الحماية من التشهير العنصري، هي جميعاً حقوق غير قابلة للتجزئ وتجري بالتساوي على الجميع، لكن هذا المستوى لم نشهده في ذروة الإبادة الجماعية التي يقوم بها الاحتلال ضدّ شعب أعزل، أليس للمجال العمومي وللنقاش العمومي ضمير وبصيرة وبصر أمام هذه المشاهد الجنازية؟

هنا ستبدأ قصتي مع هابرماس، الذي أعطاني فرصة كافية لمزيد من تحليل ظاهرة الجمود والمغالطة في لغة النقاش العمومي غير المنتج، في فيلسوف يفكر تحت ضغط البروباغندا، ويجاريها بوفاء كبير، لقد سقط هابرماس في المجال التحرري، وسقط في التكرار الذي هو العدو الأخطر للفلسفة، وهناك سأفتح نقاشاً في العمق مع هابرماس، الفيلسوف الذي قدّم خدمة كبيرة لتنتياهو، مُخالفًا بذلك الإجماع الذي ترجمته الشعوب الأوروبية نفسها، وهو ما كشف عن أنّ ما يقصده هابرماس بالفضاء العمومي هو بالفعل الفضاء البورجوازي فقط، لكنه اليوم تجاوز ذلك أيضاً، إنّهُ فضاء قوى المصالح، إجماع رواد لعبة الأمم.

انظم هابرماس إلى مدرسة فرانكفورت كمساعد لأودرنو، وحاول أن يشتغل على رسالة ثانية لولا أن رفض هوركايمر ذلك، معتبراً إياه لا يتوفر على شروط تؤهله بهذا المعنى ليكون ضمن هذا التيار على الرغم من اشتغاله ضمنه، فهو في نظر هوركايمر - والعهد على الراوي - لم يكن مفكراً اجتماعياً، بل كان فقط «سوسيولوج»، بالإضافة أنّه لا يلتزم بديالكتيكية

التنوير، قد تفيدنا هذه الملاحظة في فهم هذا الانحطاط المدوّي لهابرماس، الذي يتمثل التنوير كميّافيزقيا.

ما زالت النظرية التواصلية وعلاقتها بالمصلحة، تنمو بشكل مضطرد، وهي تمنح الإجماع - على علة تنزيله ومشروطيته - على الإبداع، وسوف يستند هابرماس إلى بيرس في نزعته البراغماتية «التداولية»، كما سيتبنى مثلث كارل أوتو آبل بخصوص أخلاقيات النقاش، بعناصره الثلاثة: الحقيقة التي تحيل إلى الواقع الخارجي، ما يشير إلى الوظيفة الإدراكية، والصحة المعيارية التي تحيل إلى العلاقة الاجتماعية، وهو ما يشير إلى الوظيفة التفاعلية، والصدق التي تحيل إلى الذاتية، وهو ما يشير إلى الوظيفة التعبيرية، يذهب هابرماس إلى أن هذه هي قوائم ومستويات التوافق التي تعزز العيش المشترك.

الفعل التواصلية وفق الاستراتيجية المرتكزة على سحرية اللغة التي تُنشئ التفاهات، هو ما تبقى في عالم فقد مرجعياته. العبارة المُعْرية التي لفتت انتباه الجميع وانتباهنا أيضاً، لكنها تُخفي الكثير. فاللغة التداولية بما أنّها فعل الكلام، حين يفسد الاجتماع، وحين يصبح مصدرها مركزية ضخ العالم بالمعنى، ستفضي بنا إلى تداولية مركزية، في خطاب عمودي يفرض سلطة التداول نفسه، تلك العلاقة بين الإمبريالية واللغة، سلطة الفضاء العمومي نفسه، حتى وإن تعددت اللغات بإقرار من «يونسكو»، إلّا أنّنا نتحدث اللغة الواحدة، لغة الرموز، لغة الاقتصاد السياسي للمعرفة، هل يوجد إذاً تفاهات، هل يوجد إجماع حقيقي؟

سينازع ليوتار هذا الهاجس التوافقي التداولي الخادع، سيراهن على ما هو أهمّ ألا وهو الإبداع، والإبداع يقوم على الاختلاف لا على الإجماع. لقد

تمكنّ (دوروز) في خرق الأيديولوجيا التواصلية، وذلك باعتبار أنّنا في نهاية المطاف لسنا في حاجة إلى التواصل، فهذا الأخير موجود على كل حال، إننا نتواصل، ولكن المطلوب هو إبداع المفاهيم.

فكرة الحدث، كما هي عند جيل (دولوز)، تتجاوز مفهوم التواصل، وهي هنا تحديداً مهمّة لقراءة الواقع، إنّ الحدث يتجاوزنا، وهو بالفعل يفاجئنا ويدعونا لإعادة تشكيل العالم والمفاهيم بما أنها أحداث فلسفية أيضاً، إنّ حدث غزّة بهذا المعنى الدولوزي للحدث (événement)، أي الحدث بما هو حدث في حدّ ذاته، ممتافيزقيا الحدث.

يخشى هابرماس من أن يتجاوزنا حدث غزّة، وبما يحيل به الحدث وما يترتب عنه من إعادة تشكيل الجغرافيا السياسية لمفاهيم تقع خلف الطنين اليومي للتداول التواصلية، أعني حقيقة أن الصراع، هو تواصلية بشكل آخر، بالعنف التواصلية إن شئت، تواصل الحرية والقهر، تواصل السادة والعبيد: حداثة السادة وحداثة العبيد، تلك التي جعلت (تولستور) راوي الحرب والسلم، يرى أن لغز التناقض الذي وحده يمنح التاريخ ميزة تحليله، مع أنّني أعتقد أنّ السؤال الأنطولوجي المستبعد، هو الذي يجب أن يحظى بهذه الميزة، صراع يقتضي الاعتراف والإخضاع وفق المنظور الهيغلي - الكوجيفي، وليس التفاهم المؤسس للعيش المشترك، تمنح مدرسة فرانكفورت للمقاربة الديالكتيكية أهمية في الاجتماع والمفاهيم، هل يا ترى يوجد عيش مشترك في اجتماع طبقي، في مسرح دولي قائم على علاقة بين الغالب والمهانين بتعبير برتراند باداي؟ هل يمكن أن نتحدث عن عيش مشترك وتساوي في قيم الكرامة في عالم فقد السواء؟ هابرماس يرى أن لا قيمة بقيت غير التواصل

بعد أن فقد العالم مرجعياته، إنها بتعبير آخر، نوع من العمائية التي ستحلها التداولية بانتهاك ثالوثها عبر لعبة الأمم ولعبة اللغة، لكنه حين اصطدم بالحدث الكبير في غزة، أحالنا إلى مرجعية نظرية، بينما فضل أن يُخضع آثار الجريمة إلى نقاش عمومي، يُفضل أن تُصبح حرب الإبادة وجهة نظر في متاهة الفضاء العمومي بالمعنى الأكثر خصوصية لهذا المجال، في زمن الهيمنة على الجغرافيا السياسية وعلى اللغة وثروة الأمم، ومع ذلك، إن صمته لأكثر من شهر على الإبادة الجماعية، يؤكد أنه غير وافي للنقاش العمومي، فهو ينتهك حرية القول، حرية النقاش في صميم المبادئ التي اعتبرها مجال اتفاق، إن هابرماس خدعنا، لم تترك له غزّة مجالاً للدفاع عن ثالوث الحالة المثالية للكلام والنقاش الأخلاقي، إنه تكلم من فوق، ثم اختفى.

فلسطين هابرماس وفلسطين دولوز

عبد السلام بنعبد العالي^(١)

خيرا فعل الزميل محمد الأشهب، عندما نقل إلى العربية البيان المشترك، الذي وقعه الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس ومن معه، تحت عنوان: «مبادئ التضامن. موقف»، إعلانا لموقفهم من الحرب على غزة. من جملة ما جاء في إعلان المبادئ هذا: «نعتقد أنه في خضم كل وجهات النظر المتعارضة التي أعرب عنها، فإن هناك بعض المبادئ التي لا يجب أن تكون محل خلاف. وهي مبادئ تشكل أساسا لتضامن مفكّر فيه ومتعلّق مع إسرائيل واليهود واليهوديات في ألمانيا... لقد دُفعت إسرائيل إلى الانتقام بهجوم مضاد. لكن كيفية تنفيذ هذا الهجوم المضاد، المبرر من حيث المبدأ، حظيت بمناقشة اتسمت بالكثير من الجدل. فمبادئ من قبيل علاقات التناسب (ضمينا علاقات عدم التناسب بين حماس وإسرائيل *Verhältnismäßigkeit*)، وتجنب سقوط ضحايا من المدنيين، وشن حرب مصحوبة باحتمال إحلال

(١) فيلسوف مغربي.

السلام في المستقبل، ينبغي أن تكون مبادئ توجيهية. وعلى الرغم من كل القلق على مصير السكان الفلسطينيين، فإن معايير الحكم تريغ عن الطريق تماما عندما تعزى نوايا الإبادة الجماعية إلى التصرفات الإسرائيلية. وكيفما كان الحال، فإن تصرفات إسرائيل لا تبرر بأي حال من الأحوال ردود الفعل المعادية للسامية، وخاصة في ألمانيا... فالروح الديمقراطية لجمهورية ألمانيا الاتحادية، والتي تقوم على أساس الاعتراف باحترام الكرامة الإنسانية، ترتبط بثقافة سياسية تعتبر الحياة اليهودية وحق إسرائيل في الوجود، عنصرين أساسيين يستحقان حماية خاصة مع استحضار الجرائم الجماعية التي ارتكبت سابقا في الحقبة النازية. ولهذا فالاعتراف بهذه المسألة والالتزام بها أمر أساسي في حياتنا السياسية المشتركة. إن الحقوق الأساسية في الحرية، والسلامة الجسدية، وكذلك الحماية من التشهير العنصري هي حقوق غير قابلة للتجزئة وتسري على الجميع بالتساوي. وعليه يجب على جميع أولئك الذين يقيمون في بلادنا والذين بثوا فيها المشاعر والقناعات المعادية للسامية باعتبار شتى أنواع الذرائع، ويرون الآن فرصة ملائمة للتعبير عنها دون عائق، أن يلتزموا بتلك الحقوق ويمثلوا لها.

لا يمكن لقارئ هذه «المبادئ» أن يتصور أنها صادرة عن معتبر فيلسوف «الفضاء العمومي»، وصاحب «نظرية التواصل»، وسليل «المدرسة النقدية»، الذي سبق له أن اتخذ موقفا مشرفا عندما أعلنت الحرب على العراق. ما يثير الاستغراب، هو أن فيلسوفا في حجم هذا الرجل يُدخل كل ما جرى قبل السابع من أكتوبر ضمن «ما قبل التاريخ»، ليعتبر أن تلك هي البداية التي ينبغي أن يعلن بصدها «مبادئ»، أي النقاط التي ينبغي الابتداء منها وبها وانطلاقا منها، ليهتدي بها كي يحدد موقفه ويعلم تحوفه من معاداة السامية.

قبل أن يسن هذه المبادئ، كان هابر ماس مشهورا بكثرة حديثه عما كان يدعوه «أخلاقيات الحوار»، وآداب المناقشة. ولكن ها هو يضع أمامنا خطوطا حمراء لا ينبغي تجاوزها، أو على الأقل، مساءلتها، والخفر في خلفياتها حتى إن كان ذلك الخفر يغوص في ما اعتبره هو داخلا في «ما قبل التاريخ». لا يمكن لقارئ هذا البيان ألا يتذكر ما كان الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز قد كتبه، في شأن القضية الفلسطينية منذ حوالي أربعين سنة. وعلى الرغم من طول الاقتباس، أستسمح القارئ في نقل جزء منه غير قصير: «ستطالب الصهيونية، وفي ما بعد، دولة إسرائيل، الفلسطينيين بالاعتراف بها قانونيا. ومن جهتها، فإن دولة إسرائيل لم تتوقف عن إنكار وجود شعب فلسطيني. فلا حديث عندها عن فلسطينيين، وإنما عن عرب فلسطين، وكأنهم وجدوا أنفسهم هناك صدفة أو خطأ. لاحقا، سيتم الأمر وكأن الفلسطينيين المهجّرين جاؤوا من خارج. ولن يتم الحديث قط عن حرب المقاومة الأولى التي خاضوها وحدهم. وسيعتبرون من سلالة هتلر، ما داموا لم يعترفوا بحق دولة إسرائيل. إلا أن إسرائيل تحتفظ بحقها في إنكار وجودهم الفعلي. وهنا تبدأ سرديّة سيزداد انتشارها أكثر فأكثر لتثقل كاهل كل أولئك الذين يدافعون عن القضية الفلسطينية».

ويتابع دولوز: «هذه السردية، وهذا الرهان هو أن تعمل إسرائيل على أن تصور كل أولئك الذين يعارضون ظروفها الفعلية، والأفعال التي تقوم بها الدولة الصهيونية، على أنهم معادون للسامية... لم تخف إسرائيل قط هدفها منذ البداية، وهو إخلاء الأراضي الفلسطينية، وفضلا عن ذلك، التصرف كما لو أن الأراضي الفلسطينية كانت دوما أراضٍ فارغة رُصدت للصهيانية منذ الأزل. لقد كان الأمر يتعلق باستعمار، لكن، ليس بالمعنى الذي أعطاه

الأوروبيون للكلمة خلال القرن التاسع عشر: إننا لن نستغل سكان البلاد، سنعمل على تهجيرهم، وأولئك الذين سيقون، فإننا لن نجعل منهم أيادي عاملة مرتبطة بالأراضي، وإنما بالأحرى، أيادي عاملة عابرة منفصلة عن أراضيها، وكأنهم مهاجرون وضعوا في غيتوهات. لذا، ومنذ البداية، كانت هبة شراء الأراضي، شريطة أن تكون خالية، أو قابلة للإخلاء. إنها إبادة جماعية، ولكن، حيث ستظل التصفية الجسدية متوقفة على الإخلاء الجغرافي... قد يُرد علينا: هذه ليست إبادة جماعية، ليكن، إنها وسيلة من بين وسائل أخرى. إن تواطؤ الولايات المتحدة مع إسرائيل، لا يتأتى فقط من قوة اللوبي الصهيوني، فقد أوضح إلياس صنبر كيف أن الولايات المتحدة وجدت في إسرائيل جانباً من تاريخها: إبادة الهنود، التي لم تكن هي كذلك إبادة جسدية إلا في جزء منها. كان الأمر يتعلق بإخلاء المكان، وكأن الهنود لم يكونوا هناك أبداً، اللهم إلا في غيتوهات تجعل منهم مهاجري الداخل. والفلسطينيون، في نواح متعددة، هم الهنود الجدد، هنود إسرائيل».

ما أبعد تساؤلات دولوز عن «مبادئ» هابرماس، لست أقصد الفاصل الزمني الذي يفصل الموقفين، وإنما الهوة الفلسفية التي تميز نصاً يثقل كاهل صاحبه تاريخ بلده فيهاب مساءلة ما يردّد ويقال، وآخر لا يخشى الاختلاف والخلاف.

حين تَغْسِلُ الفلسفة يَدَهَا

من دَمٍ بِدَمٍ آخِرٍ

د. صلاح بوسريف^(١)

في اليوم العالمي للفلسفة، يطلع علينا موقف فلسفي - سياسي بعنوان «مبادئ التضامن»، وقَّعَهُ بعض كبار الفلاسفة الألمان المعاصرين، على رأسهم يورغن هابرماس وراينر فورست، وكلاوس غونتر ونيكول ديتلهوف، وبين هؤلاء مَنْ هُمْ أَتْبَاعُ هَابِرْمَاس، أو مَنْ تَأَثَّرُوا بِأَسَسِ التَّفَكِيرِ الفلسفي النقدي عنده، وهذه المبادئ، كما ترجمها محمد الأشهب، هي، في جوهرها، مبادئ تنحاز إلى الجلاّد، وتتجاهل الضحية، أو تتهم الضحية بالإرهاب، وبالسعي لمحو اليهود ومحقهم، دون أن يفكر السيد هابرماس الذي نسي أنه فيلسوفاً تقوم نظريته على أسس التفكير الفلسفي النقدي، بما يقتضيه من تأمل، ومن تدقيق، ووضع المعطيات والحقائق، بما فيها التاريخ

(١) شاعر وناقد مغربي.

البعيد والقريب، وما كان من أسباب العدوان الصهيوني الذي اكتفى فيها هؤلاء بذكر السامية واليهود، تحت المجهر، وكأنّ السامية تُخصّ اليهود وحدهم ولا علاقة للعرب بها، أو هم جاؤوا من دم آخر، ومن عرق آخر، غير ما تُحاول الصهيونية، ومعها هابرماس، اليوم، بل ومنذ ادّعاء المحرقة، اعتبارها وسيلة كَسْب، وتهديد، واتِّهام، لكل من ينتقد، ويُدين، ويتَّهم، ويكشف الوحشية النازية للصهاينة، وما يقومون به من مذابح، وما يشعلونه من محارق، ليس اليوم، بل منذ وضعوا دباباتهم وخناجرهم على التراب الفلسطيني.

أين الفلسفة، والفكر الفلسفي، وأين النقد، وما يفرضه من انتصار للقيم الإنسانية، بغض النظر عن عقدة الألمان مما جرى على أرضهم من محرقة وقتل لليهود، وكأنّ هابرماس، ومن معه، رغبوا بهذه المباديء أن:

— يغسلوا دمهم الألماني القديم الذي تركه هتلر عالقاً برقابهم،

— وأن لا يُتَّهمُوا، أو تتبعهم تهمة «مُعَاداة السامية» التي يختصرونها في النازية الصهيونية، التي يكتفون بتسميتها، خطأ هنا، بـ «اليهود»، هذه التهمة التي ما يزال مارتن هايدغر يجرها خلفه، ويؤدي عنها ثمناً كبيراً، كُتِبَ حوله كتب، وجرت بشأنه حوارات وجدالات ما زالت تطفو على السطح بين الفينة والأخرى، بكل ما يُرافقها من عنف وهُجُوم وإدانة.

— ونسي هؤلاء، أنهم يتصرفون لـ «السامية» الصهيونية، ويُعادون الإنسان، هذا المبدأ القيمي الذي، في لحظة انفعال طائش، بل مقصود، بعد أكثر من شهر من الذبح، والهدم، والقتل، والتدمير، الذي لم يُدن به هؤلاء المُقاومة، بل أدانوا به الفلسفة، في يومها الاحتفالي، وكأن هابرماس ومن معه،

يحتفلون باندحار الفلسفة، في تسويقها في «مباديء» هي كذب، ومغالطات، وهي نوع من تبرئة الذمة، ونوع من الانتصار للوحشية وما يجري من محارق خارج ألمانيا، هذه المرة، في غزة بالذات.

ألم ير هابرماس، والألمان قاطبةً، ما فعله النازيون الصهانية بآلاف الأطفال والنساء، وبالجامعات والمدارس والمستشفيات والبنيات التحتية، وما تركوا فيه الناس من جوع وظلمة وعطش وعراء، أم أن الألمان حنّوا إلى النازية في قناعها الصهيوني الذي لا علاقة له باليهود، ولا باليهودية، بل بالتطرف السياسي والديني، وبالتطرفين الصهانية من يحكمون اليوم، ومن يهدمون البيوت فوق رؤوس الأطفال والنساء!!؟

ما الذي يحدث في العالم، وفي الثقافة والفكر، بل وفي العقل، وفيما اعتبرناه إلى وقت قريب فكراً إنسانياً بما دعا إليه من قيم كونية مشتركة، تجمع كل البشر تحت سماء واحدة، بغض النظر عن ألوانها التي لا تبقى هي نفسها، بين ضفة وأخرى!!؟

ولم لم يترك الفلاسفة السياسة لمن يعبثون بالخطابات والنصوص، ويعملون بالتأويل، لا بالأفعال والأقوال، وما يجري على الأرض، وما تقوله الوقائع والأحداث، لا أن يغسل هؤلاء يدهم من دم بدم آخر، ويمسحونها بياقة هايدغر المسكين، الذي لو كان بيننا اليوم، لطلّب منه، بالقوة، أن يغسل هو الآخر ما نُسب إليه من دم، بدم الفلسطينيين. أو ليس هذا هو الغرب السياسي الثقافي الفلسفي اليوم، الذي هو هاوية فيها تتلاشى كل القيم، ليبقى الكون بلا قيم، وبلا معنى، بل بلا إنسان، وبلا عقل وخيال.

إننا أمام اندحار العقل، وخَرَفَه، مهما يكن الشخص الذي يصدر عنه مثل هذا الكلام الذي لا شيء فيه يصمد أمام الحق والتاريخ والدم الذي يجري على الأرض بوازع الاستحواذ والهيمنة والاستعمار، وغسل الدم بالدم.

إذا لم تتعاطف مع المعاناة الإنسانية

لا يمكنك الاحتفاظ باسم الإنسان!

آصف بيات، شاعر إيراني^(١)

قد لا تتذكروني، لكننا التقينا في مصر في مارس ١٩٩٨. لقد جئتم إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة كأستاذ زائر متميز للتواصل مع أعضاء هيئة التدريس والطلاب والجمهور. كان الجميع متحمسا لسماع محاضرتكم. كانت أفكاركم حول المجال العام والحوار العقلاني والحياة الديمقراطية بمثابة نسمة من الهواء النقي في وقت كان فيه الإسلاميون والمستبدون في الشرق الأوسط يخنقون حرية التعبير تحت ستار «حماية الإسلام». أتذكر محادثة ممتعة أجريناها حول إيران والسياسة الدينية خلال وجبة العشاء في منزل أحد الزملاء. حاولت أن أنقل لك ظهور مجتمع «ما بعد الإسلاميين» في إيران، والذي بدا أنك اختبرته لاحقا في رحلتك إلى طهران في عام

(١) عالم اجتماع أمريكي، إيراني الأصل، أستاذ علم الاجتماع ودراسات الشرق الأوسط بجامعة إيلينوى الأمريكية.

٢٠٠٢، قبل أن تتحدث عن مجتمع «ما بعد العلمانية» في أوروبا. نحن في القاهرة رأينا في مفاهيمكم الأساسية إمكانات كبيرة لتعزيز المجال العام العابر للحدود والحوارات بين الثقافات. لقد أخذنا على محمل الجد نواة فلسفتكم التواصلية حول كيفية توافق الآراء مع الحقيقة.

والآن، بعد حوالي ٢٥ عاماً، في برلين، قرأت بيانكم الذي شاركتكم في تأليفه بعنوان «مبادئ التضامن» حول حرب غزة بكثير من القلق والانشغال. إن روح البيان تحذر أولئك الذين يعبرون عن موقفهم في ألمانيا، من خلال البيانات أو الاحتجاجات، ضد القصف الإسرائيلي المستمر لغزة رداً على هجمات حماس المروعة في ٧ أكتوبر. وهذا يعني أن هذه الانتقادات لإسرائيل لا تطاق لأن دعم دولة إسرائيل هو جزء أساسي من الثقافة السياسية الألمانية، «التي تعتبر الحياة اليهودية وحق إسرائيل في الوجود عنصرين مركزيين يستحقان حماية خاصة». أليس مبدأ «الحماية الخاصة» متجذراً في تاريخ ألمانيا الاستثنائي فيما يتعلق بـ «الجرائم الجماعية خلال الحقبة النازية».

إنه لأمر مثير للإعجاب أنكم والطبقة السياسية المثقفة في بلدكم مصررون على الحفاظ على ذكرى ذلك الرعب التاريخي حتى لا تحل أهوال مماثلة باليهود (وأفترض، وآمل ألا تصيب شعوباً أخرى). لكن صياغتك للاستثنائية الألمانية وتركيزك عليها لا يترك عملياً أي مجال للحديث عن سياسات إسرائيل وعن الحقوق الفلسطينية. عندما تخلطون بين انتقادات «أفعال إسرائيل» و«ردود الفعل المعادية للسامية»، فإنكم تشجعون الصمت وتخنقون النقاش خنقاً.

بصفتي الأكاديمية، أذهلني أن أعلم أنه في الجامعات الألمانية - حتى داخل الفصول الدراسية، التي يجب أن تكون مساحات حرة للنقاش والاستفسار - يلتزم الجميع تقريبا الصمت عندما يطرح موضوع فلسطين. وتكاد تكون الصحف والإذاعة والتلفزيون خالية تماما من النقاش المفتوح والهادف حول هذا الموضوع. في الواقع، لقد تم طرد عشرات الأشخاص من وظائفهم، بمن فيهم اليهود الذين دعوا إلى وقف إطلاق النار، وألغيت مساهماتهم وجوائزهم، واتهموا بـ «معاداة السامية». كيف يفترض بالناس أن يتداولوا حول ما هو صواب وما هو خطأ إذا لم يسمح لهم بالتحدث بحرية؟ ماذا يحدث لفكرتكم الشهيرة عن «الفضاء العام» و «الحوار العقلاني» و «الديمقراطية التداولية»؟

والحقيقة هي أن معظم النقد والاحتجاجات التي تحذرهم لا تشكك أبدا في مبدأ حماية حياة المواطنين اليهود - ونرجوكم عدم الخلط بين هؤلاء النقاد العقلانيين للحكومة الإسرائيلية والنازيين الجدد اليمينيين المتطرفين أو غيرهم من المعادين للسامية الذين يجب إدانتهم ومواجهتهم بقوة. والواقع أن كل بيان قرأته تقريبا يدين فظائع حماس ضد المدنيين في إسرائيل وسدين أيضا معاداة السامية. هؤلاء النقاد لا يشككون في ضرورة حماية الحياة بالنسبة لليهود أو حق إسرائيل في الوجود. إنهم يستنكرون إنكار حق الحياة للفلسطينيين وحق فلسطين في الوجود. وهذا شيء يصمت عنه بيانكم بشكل مأساوي.

لا توجد إشارة واحدة في البيان إلى إسرائيل كقوة احتلال أو إلى غزة كسجن في الهواء الطلق. لا يوجد شيء حول هذا التفاوت الفظيع. هذا لا

يعني المحو اليومي للحياة الفلسطينية في الضفة الغربية المحتلة والقدس الشرقية. إن «أفعال إسرائيل»، التي تعتبرونها «مبررة من حيث المبدأ»، استلزمت إسقاط ٦٠٠٠ قنبلة في ستة أيام على سكان غير مسلحين وهو ما أسفر عن أكثر من ١٥٠٠٠ قتيل (٧٠٪ منهم من النساء والأطفال) و٣٥٠٠٠ جريح و٧٠٠٠ مفقود؛ دون إغفال ١,٧ مليون نازح - ناهيك عن قسوة حرمان السكان من الغذاء والماء والسكن والأمن وأي قسط من الكرامة كما قد اختفت البنيات التحتية الرئيسية للمعيشة اليومية.

وفي حين أن هذه الانتهاكات، كما يوحى ببيانكم، قد لا ترقى من الناحية التقنية إلى «نوايا الإبادة الجماعية»، فقد تحدث مسؤولو الأمم المتحدة بعبارات لا لبس فيها عن «جرائم الحرب» و«التهجير القسري» و«التطهير العرقي». قلقي هنا ليس حول كيفية الحكم على «أفعال إسرائيل» من منظور قانوني، ولكن كيفية فهم هذا البرودة الأخلاقية واللامبالاة التي تظهرونها في مواجهة هذا الدمار المذهل. كم عدد الأرواح التي يجب أن تهلك قبل أن تصبح جديرة بالاهتمام؟ ما معنى «الالتزام باحترام كرامة الإنسان» الذي يؤكد عليه بيانكم بشكل قاطع في النهاية؟ يبدو الأمر كما لو أنكم تخشون أن يؤدي الحديث عن معاناة الفلسطينيين إلى تقليل التزامكم الأخلاقي بحياة اليهود. إذا كان الأمر كذلك، فكم هو مأساوي أن يكون تصحيح خطأ فادح ارتكب في الماضي مرتبطاً بإدامة خطأ وحشي آخر في الوقت الحاضر.

أخشى أن تكون هذه البوصلة الأخلاقية الملتوية مرتبطة بمنطق الاستثنائية الألمانية التي تدافعون عنها، لأن الاستثنائية، بحكم تعريفها، لا تسمح بمعيار عالمي واحد ولكن بمعايير تفاضلية. بعض الناس يصبحون

بشرا أكثر استحقاقا لوصف الإنسانية، والبعض الآخر أقل استحقاقا والبعض الثالث لا يستحق شيئا على الإطلاق. هذا المنطق يغلق الحوار العقلاني وينزع المشاعر من الوعي الأخلاقي. إنه يؤسس لكتلة معرفية تمنعنا من رؤية معاناة الآخرين، مما يمنع التعاطف.

لكن لا يستسلم الجميع لهذه المعايير المعرفية والتخدير الأخلاقي. ما ألاحظه هو أن العديد من الشباب الألمان يعبرون سرا عن وجهات نظر حول الصراع الإسرائيلي الفلسطيني مختلفة تماما ي عن آراء الطبقة السياسية في البلاد. حتى أن البعض يشارك في الاحتجاجات العامة. يتفاعل جيل الشباب مع وسائل الإعلام البديلة ومصادر المعرفة ويختبر عمليات معرفية مختلفة عن الجيل الأكبر سنا. لكن معظمهم يلتزمون الصمت في المجال العام، خوفا من الانتقام.

يبدو كما لو أن نوعا من «المجال الخفي» أخذ في البروز، ومن المفارقات في ألمانيا الديمقراطية، على غرار أوروبا الشرقية قبل عام ١٩٨٩ أو تحت الحكم الاستبدادي في الشرق الأوسط اليوم. عندما يغلق الترهيب التعبير العام، يميل الناس إلى صياغة رواياتهم البديلة الخاصة حول المسائل الاجتماعية الرئيسية في السر، حتى عندما تتماشى مع الآراء المعتمدة رسميا في الفضاءات العامة ومثل هذا المجال الخفي يمكن أن ينفجر عندما تسمح الفرصة.

هذه لحظات مقلقة يا أستاذها برماس وفي مثل هذه المناسبات بالتحديد، توجد حاجة ماسة إلى الحكمة والمعرفة وقبل كل شيء إلى الشجاعة الأخلاقية للمفكرين مثلكم. تظل أفكاركم الأساسية حول الحقيقة والعمل التواصلي

والعالمية والمواطنة المتساوية والديمقراطية التداولية والكرامة الإنسانية مهمة للغاية. ومع ذلك، فإن مركزيتكم الأوروبية والاستثنائية الألمانية وإغلاق النقاش الحر حول إسرائيل وفلسطين الذي تساهمون فيه يبدو أنه يتناقض مع هذه الأفكار.

أخشى أن مجرد المعرفة والوعي قد لا يكونان كافيين. فكيف يمكن للمثقف أن «يعرف» من دون «يفهم» ويفهم من دون أن «يشعر»، كما تساءل أنطونيو غرامشي؟ فقط عندما «نشعر» بمعاناة بعضنا البعض من خلال الإحساس والشعور قد يكون هناك أمل لعالمنا المضطرب جدا.

دعونا نتذكر كلمات الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي في القرن ١٣:

البشر هم أعضاء في كل،

في خلق جوهر واحد وروح واحدة.

إذا أصيب أحد الأعضاء بالألم،

فسيظل الأعضاء الآخرون غير مستقرين.

إذا لم يكن لديك أي تعاطف مع المعاناة الإنسانية،

فلا يمكنك الاحتفاظ باسم الإنسان!

مع كامل احترامي لكم

- أصف بيات، شاعر إيراني

ردًا على بيان تضامن الفيلسوف هابرماس مع الهمجية الإسرائيلية

محمد المعزوز^(١)

يحتّم علينا الموقف الأخير الذي عبّر عنه يورغن هابرماس، مسنودا براينر فورست وكلاوس غونتر ونيكول ديتلهوف، بخصوص الحرب على غزة، مراجعة علاقتنا الفلسفية والإيديولوجية بهؤلاء الفلاسفة ومن سبقهم من أساتذتهم الذين انتصروا إلى إسرائيل مثل جون بول سارتر وليفيناس وغيرهما.

إنّ الموقف الذي عبّر عنه هابرماس وأتباعه في بيان تضامني مع إسرائيل عنوانه « مبادئ التضامن: موقف »، وقد ترجمه إلى العربية مشكورا الأستاذ محمد الأشهب، موقف موصول يتمثل أغلبية المفكرين الغربيين للعرب كقوم وللإسلام كدين وللفلسطين كسياسة، تأكيداً منهم على صيغة التعارض والتمايز الاستعلائي الذي يجعل الغرب دائماً هو الأقوى وموثلاً مطلقاً

(١) باحث ومفكر مغربي عضو الرابطة الدولية للأنثروبولوجيا.

للعقلانية. كما أنّه موقف مستمد من نزعة استشراقية يجعل من موضوع العرب والشرق مادة معرفية لدعم التحيز الإيديولوجي والسياسي تبريرا لكل مواقف الغرب وقراراته ضدّ العرب.

وقبل أن ندخل في حوار مع بيان هابرماس، لا بد من التأكيد على أنّ «طوفان الأقصى» بكل تبعاته وما ستؤول إليه غزّة، قد أكمل حلقة اعتبار القضية الفلسطينية، اليوم، قضية فكرية معقّدة أكثر منها سياسية؛ لأنّ المسألة لم تعد مسألة احتلال أرض فقط، ولا مسألة سياسية تتعلّق بالمصلحة الضيقة لإسرائيل وأمريكا فقط، وإنّما هي سرديّة إنسان مضطّهد منذ أربعينيات القرن الماضي أراد لها الغرب أن تتوقّف عبر «احتفالية» الإبادة الجماعية يشهد عليها عالم فقد كلّ شيء إلاّ جُنبه باسم المصلحة. لقد افتتحت هذه «الاحتفالية» طقوسا لإبادة جوهر الثوابت الأخلاقية للوجود الإنساني، فلم يعد يسعى إبادة الأطفال والنساء إبادة للهويّة أو للجنسية، وإنّما هو إبادة لماهية موصولة بالجنس البشري، رُبّتها أكثر من العنف باعتبار العنف ينتهي دائما إلى لحظة خمود بأثر كابح من كوابح ثابت أخلاقي ملزم.

إنّما قضية معرفية معقّدة تشهد تجازبا مريرا بين السعي إلى الحقيقة وبين الطّمس وتسييد الكذب. لقد تقاطبت فيها السّياسة والفلسفة والإيديولوجيا والتكنولوجيا والاقتصاد وعلوم الحرب والإعلام، ممّا جعلها أصل القضايا الكبرى التي باتت تشغل العالم مستدعية تفكيرا جديدا في مسألة القوّة المنفردة المركزة بين كفتي أمريكا. من هنا خلق «طوفان الأقصى» منعطفًا حاسما في تاريخ العلاقة بين الغرب وفلسطين ليُماط اللثام عن الجزء الكبير من الحقيقة وتسقط سرديّة حقوق الإنسان والقوانين الدّولية والمواثيق الإنسانية، ممّا قد

يرجّح فرضية بروز مقاومة مختلفة لا وطن لها ضدّ هذه القوّة الممرّكة التي استعلت عن أبسط أخلاقيات البشر. والمؤكّد أن هذه المقاومة ستكون شاملة ومنفتحة على عنف مضاد غير مسبوق، تنهار فيه معاني الدّولة وقيم السّلم والعيش معا.

موقف هابرماس وبيان التّضامن

يندرج موقف هابرماس، وراينر فورست، وكلاوس غونتر، ونيكول ديتلهوف وهم يدبّجون بيانا تضامنيا يتظاهرون فيه بالانتصار إلى مبادئ مخصوصة في التضامن، في ما أسمّيه «مُضمّر التّجنيد العرقي» وراء اليهودية. يقول البيان «هناك مبادئ تشكّل أساسا لتضامن مُفكّر فيه ومتعقّل مع إسرائيل واليهود واليهوديات»، معتبرا في الآن عينه أن حماس قد ارتكبت مجزرة بنيّة «إبادة الحياة اليهودية بشكل عام».

منذ بداية هذا البيان الذي جاء بعد أكثر من شهر عن مجازر إسرائيل، تهافت هابرماس إلى إصدار موقف متحيّز فيه حكم قاطع بإدانة حماس. وكأنّه ليس بالفيلسوف الذّي ملأ الدّنيا بهتاف وظيفه الفلسفة في خلق حوار متكافئ وأنّ الغاية القصوى للفعل التواصلي هي حصول التّفاهم بين الأطراف المتحاورّة بشروط حدّد أهمّها في عدم تأثير طرف على الآخر. لم يستطع هابرماس أن يخلق مسافة بين اليهودية والفلسفة والسياسة، على الرّغم من القوّة الفلسفية التي أبدّاها وهو يؤسّس لمشروعه الذي لا يجادل اثنان في متانته وأهميته الفكرية. ففي كتابه «الفلسفة الألمانية والتّصوف اليهودي» يحول الدّفاع عن شرعية الطليعة اليهودية في تصدّرها الفكري للمجتمع

الألماني بناء، حسب دعواه، على مرتكز فكرة الخلاص الصّوفي الكابالي الذي اعتبرها أساس نظرية المعرفة والفلسفة الوجودية. يظهر في هذا الاستنتاج، الذي لم يناقش بما فيه الكفاية، استفزازا ثقافيا وفكريا للإنتاجات الفلسفية المحليّة غير اليهودية، والتي تمكّنت من الانتشار بقوة وسط الجامعات الغربية والعربية وفي إسرائيل، فيما اعتبرت اجتهادات الفكر العربي الإسلامي في جعل التصرّف إمكانا للإسهام في حلّ الاستشكالات الفكرية المعاصرة، أصولية مشينة وتحلّف لا يمتّ للحدث بأيّ صلة. وهي الأطروحة نفسها التي دافع عنها إيمانويل ليفيناس ذو الأصول اليهودية، الذي سعى إلى بناء منظومة أخلاقية بديلة افترض فيها تجاوزها للوغوس الإغريقي وجعل من شخصية اليهودي أفقا مركزيا للتفكير، مستندا في ذلك على نصوص التوراة التقليدية بكثير من الموثوقية. لقد جعل ليفيناس من منظومته الأخلاقية أداة سياسية بخلفية فلسفية للاستثمار في الأحداث السياسية، كمعادته لفلسطين وإقصائه المعتمد للتراث الثقافي العربي الإسلامي بتنصيبه على أنّ تاريخ البشريّة كلّ يتكوّن من التوراة والإغريق. وكلّ ما عدا ذلك فهو تابع. إنّه بذلك يسقط عن أطروحته دعوى فصل الأخلاق عن السياسة ولا يجعل من الآخر كما يدّعي مادة للمعرفة وإنّما موضوعا سياسيا تكون فيه الشخصية اليهودية كائنا مطلقا يهيمن على المشهد الأخلاقي في الفكر الأوروبي.

في هذا السّياق، يندرج بيان هابرماس، الذي يعبر بدوره عن جوهر «المسألة اليهودية» كفلسفة نشأت في الغرب وترعرعت فيه وأصبح لها فلاسفة كبار ودعاة يروّجون بشتّى الطرق أن اليهود مهدّدون بالعنف وبخطر الإبادة الجماعية على يد الفلسطينيين، وهذا ما ردّده البيان في مطلع الفقرة الثانية المترجمة، ليلمسك لاحقا بأن كل انتصار أو تضامن مع الفلسطينيين

هو من قبيل معاداة السّامية.

ما ينبغي التأكيد عليه أنّ المسألة اليهودية والانحياز إلى إسرائيل، منظومة فكرية يضطلع بتقويتها فلاسفة الغرب من منظور عرقي وديني، ولا يجرّهم في مختلف المناسبات التعبير عن إسرائيليتهم كما هو حال هربرماس الآن وأتباعه، وكما هو حال جان بول سارتر وغيره في محطّات عديدة من الاعتداءات الهمجية على الفلسطينيين.

أمام هذا المعطى الذي لم يناقش بجدّية من طرف المثقّفين والمفكرين العرب، أظنّ أن الوقت قد حان لخلق مسافة نقدية مع فلاسفة الغرب بالاجتهاد في خلق منظومة فكرية وفلسفية عربية مضادة لشناعة تبرير همجية إسرائيل من داخل التداول الفلسفي الغربي. وأن وزن المعرفة بميزان المعرفة فقط، وإهمال وزنها بميزان السياسة والإيديولوجيا، كما فعلنا في جامعاتنا العربية، خطأ تاريخي ومعرفي قد تمّ ارتكابه ولم نجن معه إلا أنّنا كنّا طلابا نجباء نردّد بزهو ما تعلّمناه منهم في الفلسفة والعلوم الإنسانية؛ ونسينا أن المعرفة إذا لم تكن إنسانية تنّصر إلى القيم الثابتة للبشرية، تبقى مجرد لغو وهذيان.

هابرماس وإسرائيل فلسطين وفاتورة الهولوكوست

د. سهيل القش^(١)

النص الذي وقعه يورغن هابرماس، وثلاثة من زملائه من جامعة فرانكفورت - نيكول ديتلهوف، كلاوس غونتر، راينر فورست - يدعي الانتماء الى تراث مدرسة فرانكفورت النقدية، ويُسترجع منه قول ثيودور أدورنو الشهير: «عندما تجد نفسك في عالم يلعب بالكلمات، عليك أن تضع أوراقك على الطاولة». إن استعراض النص المذكور، «بيان مبادئ التضامن»، يشير لملاحظتين: الأولى، صحيح أن هابرماس كان مرتبطاً في وقت ما بمدرسة فرانكفورت، وهو ما يتوافق مع فترة هابرماس الأول، والصحيح أيضاً أن فكره وصل إلى نقطة تحول نظري في نهاية السبعينيات. وهي فترة تقاربه مع فلسفة جرج بولز التحليلية، والتي لازمت هابرماس الثاني، الذي يبدأ بنصه الشهير

(١) مفكر لبناني، أستاذ مشارك في الفلسفة بجامعة لافال بكندا.

عن «الفعل التواصلي». لكن القول بأن هذا «نص مختصر وقوي، مكتوب بأفضل تقاليد النظرية النقدية»، ليس دقيقاً تماماً. ثانياً، لقد أحسن هذا النص التضامني مع إسرائيل، الإشارة إلى مقولة أدورنو، على الرغم من تحفظي تجاه لغة أدورنو الفلسفية التي يستعصي تفسيرها في كثير من الأحيان، وهي لغة يعوض عنها في مدرسة فرانكفورت وضوح لغة هربرت ماركوز، وإيريك فروم، وحتى فالتر بنيامين. وبقبول تورية أدورنو هذه، لنبدأ بالنص الذي وقعه هابرماس وزملاؤه في ١٥ نوفمبر ٢٠٢٣:

بيان مبادئ التضامن

- «إن الوضع الحالي، الذي خلقه هجوم حماس الوحشي الذي لا مثيل له، ورد فعل إسرائيل على ذلك الهجوم، أدى إلى ظهور سلسلة من المواقف والمظاهرات السياسية والأخلاقية. ونعتقد أنه، على الرغم من وجهات النظر المتضاربة التي تم التعبير عنها، ينبغي الاحتفاظ ببعض المبادئ التي لا يمكن الجدل فيها. إنها تشكل أساس التضامن المبرر مع إسرائيل ومع يهود ألمانيا»...

- «إن المذبحة التي ارتكبتها حماس بهدف معلن، هو تدمير الحياة اليهودية بشكل عام، دفعت إسرائيل إلى الانتقام. إن الطريقة التي يتم بها هذا الرد، المبرر من حيث المبدأ، هي موضوع نقاش مثير للجدل؛ إن مبادئ التناسب، ومنع وقوع إصابات في صفوف المدنيين، وشن الحرب بهدف تحقيق السلام في المستقبل، يجب أن توجه هذه المناقشة. وعلى الرغم من كل القلق بشأن مصير السكان الفلسطينيين، فإن معايير التقييم تخرج تماماً عن المسار عند نسب نوايا الإبادة الجماعية إلى العمل الإسرائيلي».

- «وعلى وجه الخصوص، فإن تصرفات إسرائيل لا تبرّر بأي حال من الأحوال ردود الأفعال المعادية للسامية، خصوصاً في ألمانيا. من غير المقبول أن يتعرّض اليهود في ألمانيا مرة أخرى لتهديدات في حياتهم وسلامتهم الجسدية، وأن يتعرضوا مجدداً للخوف من العنف الجسدي في الشوارع. إن المفهوم الديمقراطي لجمهورية ألمانيا الاتحادية، القائم على الالتزام باحترام كرامة الإنسان، يرتبط بثقافة سياسية تعتبر الحياة اليهودية وحق إسرائيل في الوجود عنصرين أساسيين فيها، في ضوء الجرائم الجماعية التي ارتكبت في الحقبة النازية، يستحق حمايتنا بشكل خاص»

- «ومن الأساسي أن نلتزم به من أجل تعايشنا السياسي. إن الحقوق الأساسية في الحرية والسلامة الجسدية والحماية من التمييز العنصري لا يمكن فصلها وتنطبق على الجميع بالتساوي. أولئك الذين زرعوا في بلادنا مشاعر وقناعات معادية للسامية تحت كل أنواع الذرائع، والذين يرون الآن فرصة سانحة للتعبير عنها دون ضبط النفس، يجب عليهم أيضاً أن يمثلوا لها».

ووفاءً لمقولة أدورنو، وتجاوزاً للعب مع الكلمات البسيطة، يضع هابرماس أوراقه على الطاولة ويلعب بقصة الصراع بين إسرائيل وفلسطين: فهو يعلن تضامنه من حيث المبدأ مع إسرائيل، ضحية الإرهاب النازي بالأمس، وحركة حماس اليوم. هذا التضامن غير المشروط مع إسرائيل إنما يكشف ما يسميه كارل ياسبرز «الشعور بالذنب الألماني».

في الواقع، في كتابه الصادر العام ١٩٤٦ عن «الشعور بالذنب الألماني»،

يميز كارل ياسبرزين أنواع أربعة من الشعور بالذنب: الإجرامي، والسياسي، والأخلاقي، والميتافيزيقي. إن شعور هابرماس بالذنب تجاه اليهود ينتمي الى أصل سياسي - أخلاقي نبيل، بمعنى أن الألمان يتحملون مسؤولية جماعية عن أعمال الإبادة الجماعية الإجرامية التي ارتكبتها الحكومة النازية ضد اليهود. مشكلة العرب مع هذا الشعور الألماني بالذنب، والذي عمّ كل الغرب فيما بعد، هو أنه تم تصديره الى فلسطين بأشكال أقل نُبلاً، تسببت في أضرار جانبية لا تحصى: أصبح اليهودي المضطهد مرادفاً للصحية الفريدة والأبدية، بمعنى أنه تم «إخراجه من سياقه» كما يقترح هابرماس في «أخلاقيات النقاش». يمكن القول بأن اليهودي المجرد أصبح تقريباً كائنًا ميتافيزيقياً مرادفاً للصحية المضطهدة أبدياً والتي يحق لها ما لا يحق لغيرها. إن المؤرخين الجدد في إسرائيل، من أمثال شلومو ساند، حاولوا إخضاع هذه السردية الميثولوجية للنقد التاريخي، فلم يسلموا من تهمة معاداة السامية، التهمة الجاهزة التي يشهرها الصهاينة المتزمتون في وجه كل من يشكك في تاريخية النص التوراتي.

فقط أحفاد اليهود من نسل إسحاق بن إبراهيم، لهم الحق في اتهام الآخرين بمعاداة السامية، بما في ذلك أبناء عموماتهم العرب الذين يتحدثون من نسل إسماعيل - الابن الأكبر لإبراهيم! وحدهم أحفاد إسحاق، اليهود، باعتبارهم شعب الله المختار، لهم الحق في نهب أرض فلسطين، حتى لو كان ذلك يعني طرد أحفاد إسماعيل وكنعان من أراضيهم، وكأن وجود هؤلاء في فلسطين لم يكن سوى وجود ميتافيزيقي محض. فقط أحفاد إسحاق، اليهود، لهم الحق في جعل العرب يدفعون فاتورة الهولوكوست، حتى لو لم يكونوا هناك. وحده شعور أوروبا بالذنب تجاه اليهود يشكل هابرماس

المرتكز الأخلاقي لطمس تاريخ المأساة الفلسطينية التي بدأت العام ١٩٤٨ حين قررت أوروبا غسل يديها من تبعات أوشفيتز، وتحميل الفلسطينيين مسؤولية ذنب لم يرتكبه أصلاً. ان فلسطين مأساة تجري أحداثها بين أوشفيتز والقدس: ضحية أوشفيتز اليهودية تتحول إلى جلاّد في القدس العربية. لا، التاريخ في فلسطين لم يبدأ في ٧ أكتوبر بعملية حماس في غزة. لا، الفلسطيني الذي عرف الظلم الغربي بجلده منذ العام ١٩٤٨، هذا الشعب الفلسطيني، لا يختزله «ذنب فلسطيني» يصر هابرماس وزملاؤه على إلصاقه بهم من أجل أن يتم قبولهم في نقاش يبدو مفتقراً إلى الأخلاق.

في الواقع، سبقت كتاب «أخلاقيات النقاش» (١٩٩١)، «نظرية العدالة» (١٩٧١) التي يقترح فيها جون رولز فكرة «الموقف الأصلي» كأساس للحوار بين الغرب وبقية البشرية. يتمثل هذا الموقف في إنشاء إجراء عادل، بحيث تكون كافة المبادئ التي تم التوصل إلى اتفاق حولها، مبادئ عادلة. الهدف من وراء ذلك هو استخدام مفهوم العدالة الإجرائية البحتة كأساس للنظرية: «يجب علينا، بطريقة أو بأخرى، أن نبطل آثار الحالات الطارئة الخاصة التي تجعل الناس ضد بعضهم البعض، ويلهمهم إغراء استخدام الظروف الاجتماعية والطبيعية لمصلحتهم الخاصة. ولهذا السبب أفترض أن الشركاء يختبئون خلف حجاب من الجهل» (جون رولز، نظرية العدالة، ١٩٧١). تحاول نظرية العدالة، بالإجماع، استبدال المونولوج الهيغلي المتمركز حول الأنوية الغربية بحوار مرغوب فيه بين دولة غربية جيدة التنظيم، وبقية البشرية التي تعاني سوء التنظيم أو التنظيم المتمايز عن النسق الغربي (جون رولز، قانون الناس، ١٩٩٧). وعلى الرغم من نيتها الطيبة للدخول في حوار مع هذه «البقية»، فإن العدالة القانونية عند رولز تهمل توازن القوى السياسي

بين القوى العالمية ورعاياها المحيطين، كما يقول أنطونيو نيغري ومايكل هاردت في وصفهما لإمبراطورية ما بعد الحداثة، إمبراطورية الشركات متعددة الجنسيات (نيغري وهاردت، الامبراطورية، ٢٠٠٠). ويصبح هذا الحوار وهمياً منذ اللحظة التي يدعو فيها الشعوب إلى نسيان اسمها الحقيقي كشعوب مهزومة، وإلى الخضوع للاسم العالمي الشائع المتمثل في التفوق الغربي المطلق.

تماشياً مع رولز، يحاول هابرماس ٢ وضع «أخلاقيات النقاش» (١٩٩١) على أساس «إخراج المتحاورين من سياقهم» كشرط لاغنى عنه لأي حوار محتمل بين شركاء غير متساوين. وهذه طريقة أخرى أكثر أناقة لتجنب الإزعاج الناتج عن الأسماء الصحيحة للشعوب والثقافات التي هزمتها قوة الحداثة العالمية. وفي مواجهة المعضلة نفسها، المتمثلة في إيجاد طريقة لإخراج الحداثة الغربية من مونولوجها مع نفسها، والتناغم مع بقايا الإنسانية غير الحداثيّة وغير الجمهورية، فإن قراءة حنة أرندت إلى كانط تختلف عن قراءة كل من رولز وهابرماس له. فهي تستخلص من «ملكة الحكم» عند ايمانويل كانط طريقة وضع نفسه في مكان فكر الآخر (مبدأ العقلية الموسعة) بصيغة الجمع. وهذا هو السبب وراء عدم وجود الفلسطيني ومشاعره في أخلاقيات النقاش عند هابرماس، في حين أن فكر أرندت الموسع منفتح على التواصل من خلال مراعاة جميع الآخرين في نمط تفكيرهم ومشاعرهم واضطهادهم.

لا يمكن للمرء أبداً أن يجبر أي شخص على الموافقة على أحكامه الخاصة، ولا يمكنه إلا «جذب» أو «طلب» موافقة الآخرين من خلال نشاط الإقناع. وبالتالي فإن قابلية التواصل تعتمد على العقلية الموسعة. لا يمكننا التواصل

مع الآخر إلا إذا كنا قادرين على التفكير من وجهة نظره، وإلا فلن نلتقي به أبداً، ولن نتحدث أبداً بطريقة تجعلنا نفهمه. من خلال إيصال مشاعر الفرد وملذاته ورضاه غير الأناني، يكشف المرء عن خياراته ويختبصحبته، (حنة أرندت، «محاضرات حول فلسفة كانط السياسية» ١٩٧٨). يبدو لي أن مفهوم العقلية الموسعة بالمعنى الذي أعطته أرندت لفلسفة كانط السياسية، قد ينقذنا من العالمية الزائفة للفكر السياسي الغربي اليوم، الذي ينزلق نحو الفكر الأحادي.

في اليوم الذي يتقبل فيه أتباع جون رولز تصور وجود بقية للبشرية قادرة على التفكير خارج مقولات الحداثة، ويأخذون وجهة نظرهم بعين الاعتبار، سيتمكن غير الغربيين من مناقشة نظرية رولز في العدالة وقانون الناس كشيء عالمي. ويوم يدرك هابرماس أنه لن يتمكن من مناقشة فلسطيني غزة والقدس في ظل التهديد الذي يأتي للدفاع عن حق إسرائيل في القتل، بحرمان الفلسطيني من حقه في الدفاع عن نفسه والتحرر من الاحتلال الذي حرمه من أرضه، وسحقه لمدة ٧٥ عاماً، يومها سيتمكن هابرماس من تأسيس أخلاقيات النقاش غير الميتافيزيقية بين شركاء متساوين. إن النقاش السياسي الحالي يخاطر بأن يكون غير أخلاقي، لأنه يساوي بين الفلسطيني مسلوب الحقوق، والصهيوني المحتل، مدعوماً بالصهيوني المسيحي المتمثل في الغرب. من المرجح في حوار كهذا، غير متكافئ أصلاً، أن تكون القوة على حق في مواجهة محاور عربي محروم من عناصر القوة، بغض النظر عن صحة حجته وعدالة قضيته. لقد انقضى الزمن الذي كان فيه الغالب يسعى لكسب ود المغلوب من خلال وضع نفسه مكانه، وذلك حين اكتشف الغالب انصياع المغلوب بالإكراه،

أنجع للانقياد من التملق له بالإقناع. لم يخطئ مكيا فيللي حين نصح الأمير بأنه خير له أن يكون مُهاباً من أن يكون محبوباً. وخلافاً لها برماس، الذي لا يستحضر إلا تاريخ الغالب الصهيوني العَصيّ على النقد التاريخي، تقترح حنة أرندت أن نضع أنفسنا مكان العدو المغيب، إذا أردنا فعلاً أن نؤسس معاً أخلاقيات حوار متكافئ لا يسعى فيه الغالب لإلغاء الآخر الذي لا يميز بين عدالة الغالب وانتقامه.

إن الفلسطيني يعرف من تجربته المريعة أن الصهيوني اليهودي الذي يريد أرضه في فلسطين، إنما يستمد قوته من الصهيونية المسيحية الأميركية، حيث ترسخت معتقدات الإنجيليين التوراتية كركن من أركان الإستشراق الأميركي في قراءته لتاريخ الشرق الأوسط.

كثيراً ما كان الرئيس الأميركي هاري ترومان يردّد آيات أشعيا المفضلة لدى ننتياهو، وقد قادته قناعاته التوراتية إلى الاعتراف بدولة إسرائيل بعد إحدى عشرة دقيقة من إعلانها. ونتيجة لهذا الدعم، أكد الرئيس هاري ترومان، «أنا قورش، أنا قورش»، في إشارة إلى الملك الفارسي الذي زُعم أنه سمح لليهود بالعودة إلى القدس وأمر بإعادة بناء الهيكل في القدس الذي دمره نبوخذ نصر الثاني. تجدر الإشارة إلى أن هذه الرواية التوراتية عن قورش الفارسي الذي يحرق اليهود من المنفى البابلي، والتي شكك فيها شلومو ساند من مدرسة مؤرخي إسرائيل الجدد، هي أساس التقارب بين لوبي الإنجيليين المؤيد لإسرائيل واللوبي الفارسي في الولايات المتحدة. وهي المعتقدات الكتابية نفسها التي تفسر المواقف التي اتخذها القس الإنجيلي الأميركي بات روبرتسون، الذي لُمح في العام ٢٠٠٦ إلى أن السكتة الدماغية

التي تعرض لها أرييل شارون كانت انتقاماً إلهياً للانسحاب من غزة: «إن الله يشعر بالعداء تجاه أولئك الذين يقسمون أرضه [...] ولكل رئيس وزراء إسرائيلي يقرر تقطيعها والتنازل عنها، يقول الله: لا، هذه لي. أرييل شارون قسم أرض الله». وهو المنطق نفسه الذي يفسر إغتيال إسحق رابين وياسر عرفات، كعقاب إلهي. وهذا ما يفسر أيضاً لماذا لن يرى الاقتراح العربي للسلام ضد الأراضي التي تحتلها إسرائيل، النور أبداً، مع المتطرفين الدينيين اليهود الذين اغتالوا رابين وعرفات. ويبدو أن هذه الحقائق التاريخية لن تجد مكانها أبداً في أخلاقيات النقاش التي اقترحها هابرماس، والتي يقصد بها أن تكون مناقشة ميتافيزيقية بحتة.

إن موقف هابرماس المؤيد لإسرائيل، ليس حقيقة معزولة في رحلته السياسية والفلسفية. وما زال هابرماس ٢ موجوداً في المنعطفات الكبرى للعالم العربي، فالغزو الأميركي للعراق العام ٢٠٠٣ لم يفلت من «أخلاقيات النقاش» لديه، بل كان فرصة له لإظهار اصطفاؤه مع مواقف المحافظين الجدد الذين نصحوا بوش الابن بغزو العراق من دون اللجوء إلى موافقة المجتمع الدولي. بالإشارة إلى بول وولفويتز، يرى يورغن هابرماس «إن ما يعارضه هؤلاء المحافظون الجدد، في الواقع، على أخلاقيات القانون الدولي ليس واقعية ولا رومانسية الحرية، بل هو تصميم ثوري: بما أن القانون الدولي قد تمّ انتهاكه وتعطيله، فإن الهيمنة تفرض أعظم إنجاز سياسي - أي الليبرالية - على العالم. إن جعله نظاماً عالمياً هو أيضاً أمر مبرر أخلاقياً، حتى لو كان يعني ذلك مخالفة للقانون الدولي». (هابرماس، «التمثال والثوريون»، لوموند، ٣ مايو ٢٠٠٣). لكن منطق هابرماس، بصرف النظر عن ميله إلى تصديق ما يقوله المحافظون الجدد عن أنفسهم وعن نيتهم عولمة الليبرالية السياسية والديموقراطية بالقوة،

لا يعبر إلا عن انزعاج المثقفين في أوروبا القديمة من رؤية إنشاء إمبراطورية أميركية تستهزئ بالقانون الدولي وبسيادة القانون التي تصاحبه. والحقيقة أن الاعتراف بهذا الواقع الجديد يعني الاعتراف بواقع محرج ومزعج، ألا وهو تحول ديموقراطية توكفيل الأميركية إلى إمبراطورية مستبدة. وفي المقال نفسه، يضطر هابرماس إلى الإشارة إلى أن الولايات المتحدة حررت الكويت العام ١٩٩٠ من دون إضفاء الطابع الديموقراطي عليها. وهذا هو الشعور بعدم الارتياح الذي حاولت أوروبا القديمة صياغته مع الملايين من الأوروبيين الذين تظاهروا ضد الحرب في العراق، من دون تغيير مجرى الأحداث.

إن الدول الأوروبية، التي رفضت تأييد العدوان غير القانوني على العراق، انتهت بها الأمر إلى قبول الأمر الواقع، وتبرير تبعاته اللاحقة، تماماً مثل هابرماس الذي برر العواقب الجديرة بالثناء لهذه الحرب التي لا يمكن وقفها: تخلص العالم من دكتاتورية صدام حسين، حتى لو كان ذلك يعني تسليم البلاد للطغيان الديني الفارسي، وإرساء الأسس لشرق أوسط جديد يضم أقليات عرقية ودينية تطمح إلى الهروب من هيمنة الغالبية السنيّة الساحقة. إن هذا الاستشراق الأميركي الذي يعيد تأهيل قورش في دوره كمحرر لليهود هو ما دفع هابرماس إلى إعطاء تأييده الأخلاقي لبول وولفويتز، مهندس غزو العراق، وهو المنطق نفسه الذي يدفع هابرماس اليوم إلى تبرير اغتصاب الأرض والجرائم ضد الإنسانية التي يرتكبها الاحتلال الصهيوني في فلسطين. يحق للفلسطيني أن يقاوم الاحتلال، بعدما اختبر كل لغات الحوار والتنازلات التي لم تُجده نفعاً في اقناع هابرماس ببداية أن الاحتلال الصهيوني لفلسطين سابق ومسبب للعنف الذي نشهده اليوم.

أقنعة المركزية والكونية المشتركة

د. عبد الله السيد ولد أباه^(١)

بعد أحداث غزّة الأخيرة التي اصطف فيها بعض كبار مفكري الغرب وكتابه مع العدوان الإسرائيلي، تساءل صديقي الفيلسوف التونسي صالح مصباح: هل من المتاح تحرير العقل من سلطان نقاد الإمبراطورية من الداخل؟

وهل يمكن التخلص كلياً من أقنعة الكولونيالية الماكرة؟ الصديق صالح مصباح من أوائل فلاسفة العرب اطلاعاً على الدراسات النقدية للكولونيالية، وقد خصص كثيراً من جهده لكتابات توني نغري ومايكل هاردت وجورجيو أغامبن... وهي في عمومها تنطلق من رفض المركزية الغربية في سرديتها التاريخية وتشكّلاتها المفهومية ونمط علاقاتها بالثقافات الأخرى. لقد بدأ هذا التوجه في الفلسفة الغربية المعاصرة مع ميشال فوكو وريتشارد رورتي.

(١) أكاديمي وباحث فلسفي أستاذ الفلسفة بجامعة نواكشوط

أولهما فرنسي تمحورت دراساته حول العلاقة المركبة بين المعرفة والسلطة في الخطابات المعرفية وأنظمة العقاب والرغبة، مبيّناً أن إرادة الحقيقة في مسار الثقافة الغربية كانت أداة للضبط والتحكم وأن العلوم الإنسانية لم تكن موجّهة بالحياد الموضوعي، بل بغايات واستراتيجيات نفعية عملية.

وثانيهما أميركي رفض بشدة التصور الموضوعي للوجود من منظور تداولي يكرس أولوية التضامن على الحقيقة الوجودية، بما يفسح المجال أمام أخلاقية مفتوحة للنقاش العمومي دون مرجعيات أنطولوجية ثابتة أو محددة. ومع أن الفيلسوفين المذكورين لم يخرجوا من مدونة الفكر الغربي، إلا أن أعمالهما وظّفت على نطاق واسع في الدراسات النقدية لما سماه الكاتب المصري سمير أمين «الكولونيالية الإستمية»، وهو يعني بالعبارة الخلفية الاستعمارية للمقولات والنظريات الفلسفية والعلمية التي تتناول الإنسان غير الغربي.

ولعل أهم ممارسة نظرية جديدة للنقد الكولونيالي برزت في البداية في كتابي المفكر الفلسطيني الأميركي إدوارد سعيد «الاستشراق» و«الثقافة والإمبريالية». لم يكن قصد سعيد كما يستشف من كتابه الأول نقد الدراسات الاستشراقية التي تعرضت للإسلام الوسيط والثقافة العربية الكلاسيكية، وإنما كان غرضه أن يبين كيف أن خطاب الهوية في الفكر الأوروبي لا يمكن أن ينفصل عن النزعة الإقصائية للثقافات الأخرى التي ليس لها بالضرورة موقع من منظور الكونية الإنسانية التي هي براديجم الحداثة الغربية. لم يكن إدوارد سعيد فيلسوفاً، وإنما كان ناقداً وأديباً وناشطاً سياسياً ومدنياً فاعلاً، إلا أنه دشّن مسلكاً منهجياً هاماً في الفكر الفلسفي والدراسات الإنسانية

عرف بـ«ما بعد الكولونيالية» و«دراسات التابع» (subaltern studies). وقد انتشر هذا المسلك لدى مفكرين بارزين من آسيا وأفريقيا وداخل الجامعات الأميركية. الإشكال الذي ظل مطروحاً بالنسبة لهؤلاء الباحثين هو إلى أي حد تمكن الاستعانة بمناهج وأدوات المفكرين الغربيين الذين نقدوا سرديّة الكونية الأوروبية في البحث عن ما سماه المفكر المغربي الراحل محمد عابد الجابري، تبعاً لأنطونيو غرامشي، «الاستقلال الحضاري للذات»، أي بناء قاعدة صلبة للهوية المختلفة عن المركزية الغربية وسلطتها المطلقة؟ لقد بدا للبعض من مفكرينا أن الحل هو اعتماد فلسفات المغايرة والاختلاف بديلاً عن فلسفات الوعي والذات، لتأكيد حقوقنا في التميز والانفصال، بيد أن هذا الطريق قاد إلى أفق مسدود، بعد أن ظهر جلياً للعيان أن براديجم الاختلاف هو آخر قلاع المركزية الغربية وأصعبها على الاختراق والتجاوز.

لقد تساءل مرة الفيلسوف السوري غانم هنا: ألا يوجد بديل للفكر العربي خارج لاهوت الظهور والتجسد من جهة ولاهوت الشتات والاختلاف من جهة أخرى؟ لا محيد عن الإقرار بأن الذين راهنوا من بيننا على فلسفة الاختلاف والمغايرة بحثوا عن قاعدة نظرية صلبة لحقوق التميز الثقافي والحوار الحضاري المتكافئ، لكنهم لم يقيموا شأناً لما سماه كانط «سياسات الحقيقة» التي تحيل إلى رهانات قوة وهيمنة خارج الإطار المعرفي نفسه. وعلى العموم لا خطر على المركزية الغربية من تجاور لا أثر له على توازنات القوة، ومن حقوقٍ شكلية مجردة لا تأثير لها في الواقع العملي.

وكما يقول الفيلسوف الكامبروني آشيل بمبة، فإن التحدي المطروح راهناً ليس الدفاع عن الاختلاف الذي هو في نهاية المطاف ضربٌ من الانكفاء

والانعزال، بل الدفاع عن الكونية المشتركة المتكافئة التي تجمع بين متشابهين في الإنسانية. ما عجز الفكر الغربي عن التفكير فيه ليس الوجود كما يقول هايدغر، ولا الآخرة كما يقول لفيناس، بل المماثلة التي هي المعنى الحقيقي لوحدة الإنسانية أخلاقياً ومعيارياً، بما يعني ضرورة التخلص من الصورة الأحادية للإنسان، سواء تعلق الأمر باعتبارات الوعي الذاتي أو بأنماط التشكل التاريخي والاجتماعي.

بعد أحداث غزة الأخيرة التي اصطف فيها بعض كبار مفكري الغرب وكتابه مع العدوان الإسرائيلي، تساءل صديقي الفيلسوف التونسي صالح مصباح: هل من المتاح تحرير العقل من سلطان نقاد الإمبراطورية من الداخل؟

وهل يمكن التخلص كلياً من أقنعة الكولونيالية الماكرة؟ الصديق صالح مصباح من أوائل فلاسفة العرب اطلاعاً على الدراسات النقدية للكولونيالية، وقد خصص كثيراً من جهده لكتابات توني نغري ومايكل هاردت وجورجيو أغامبن.. وهي في عمومها تنطلق من رفض المركزية الغربية في سرديتها التاريخية وتشكُّلاتها المفهومية ونمط علاقاتها بالثقافات الأخرى. لقد بدأ هذا التوجه في الفلسفة الغربية المعاصرة مع ميشال فوكو وريتشارد رورتي.

أولهما فرنسي تمحورت دراساته حول العلاقة المركبة بين المعرفة والسلطة في الخطابات المعرفية وأنظمة العقاب والرغبة، مبيّناً أن إرادة الحقيقة في مسار الثقافة الغربية كانت أداة للضبط والتحكم وأن العلوم الإنسانية لم تكن موجهة بالحياة الموضوعي، بل بغايات واستراتيجيات نفعية عملية.

وثانيهما أميركي رفض بشدة التصور الموضوعي للوجود من منظور تداولي يكرس أولوية التضامن على الحقيقة الوجودية، بما يفسح المجال أمام أخلاقية مفتوحة للنقاش العمومي دون مرجعيات أنطولوجية ثابتة أو محددة. ومع أن الفيلسوفين المذكورين لم يخرجوا من مدونة الفكر الغربي، إلا أن أعمالهما وظّفت على نطاق واسع في الدراسات النقدية لما سماه الكاتب المصري سمير أمين «الكولونيالية الإستمية»، وهو يعني بالعبارة الخلفية الاستعمارية للمقولات والنظريات الفلسفية والعلمية التي تتناول الإنسان غير الغربي.

ولعل أهم ممارسة نظرية جدية للنقد الكولونيالي برزت في البداية في كتابي المفكر الفلسطيني الأميركي إدوارد سعيد «الاستشراق» و«الثقافة والإمبريالية». لم يكن قصد سعيد كما يستشف من كتابه الأول نقد الدراسات الاستشراقية التي تعرضت للإسلام الوسيط والثقافة العربية الكلاسيكية، وإنما كان غرضه أن يبين كيف أن خطاب الهوية في الفكر الأوروبي لا يمكن أن يفصل عن النزعة الإقصائية للثقافات الأخرى التي ليس لها بالضرورة موقع من منظور الكونية الإنسانية التي هي برادغم الحداثة الغربية. لم يكن إدوارد سعيد فيلسوفاً، وإنما كان ناقداً وأديباً وناشطاً سياسياً ومدنياً فاعلاً، إلا أنه دشّن مسلكاً منهجياً هاماً في الفكر الفلسفي والدراسات الإنسانية عرف بـ«ما بعد الكولونيالية» و«دراسات التابع» (subaltern studies).

وقد انتشر هذا المسلك لدى مفكرين بارزين من آسيا وأفريقيا وداخل الجامعات الأميركية. الإشكال الذي ظل مطروحاً بالنسبة لهؤلاء الباحثين هو إلى أي حد تمكن الاستعانة بمنهج وأدوات المفكرين الغربيين الذين

نقدوا سرديّة الكونية الأوروبية في البحث عن ما سماه المفكر المغربي الراحل محمد عابد الجابري، تبعاً لأنطونيو غرامشي، «الاستقلال الحضاري للذات»، أي بناء قاعدة صلبة للهوية المختلفة عن المركزية الغربية وسلطتها المطلقة؟ لقد بدا للبعض من مفكرينا أن الحل هو اعتماد فلسفات المغايرة والاختلاف بديلاً عن فلسفات الوعي والذات، لتأكيد حقوقنا في التميز والانفصال، بيد أن هذا الطريق قاد إلى أفق مسدود، بعد أن ظهر جلياً للعيان أن براديعم الاختلاف هو آخر قلاع المركزية الغربية وأصعبها على الاختراق والتجاوز.

لقد تساءل مرة الفيلسوف السوري غانم هنا: ألا يوجد بديل للفكر العربي خارج لاهوت الظهور والتجسد من جهة ولاهوت الشتات والاختلاف من جهة أخرى؟ لا محيد عن الإقرار بأن الذين راهنوا من بيننا على فلسفة الاختلاف والمغايرة بحثوا عن قاعدة نظرية صلبة لحقوق التميز الثقافي والحوار الحضاري المتكافئ، لكنهم لم يقيموا شأناً لما سماه كانط «سياسات الحقيقة» التي تحيل إلى رهانات قوة وهيمنة خارج الإطار المعرفي نفسه. وعلى العموم لا خطر على المركزية الغربية من تجاور لا أثر له على توازنات القوة، ومن حقوق شكلية مجردة لا تأثير لها في الواقع العملي.

وكما يقول الفيلسوف الكاميروني آشيل بمبة، فإن التحدي المطروح راهناً ليس الدفاع عن الاختلاف الذي هو في نهاية المطاف ضربٌ من الانكفاء والانعزال، بل الدفاع عن الكونية المشتركة المتكافئة التي تجمع بين متشابهين في الإنسانية. ما عجز الفكر الغربي عن التفكير فيه ليس الوجود كما يقول هايدغر، ولا الآخرة كما يقول لفيناس، بل المماثلة التي هي المعنى الحقيقي لوحدة الإنسانية أخلاقياً ومعيارياً، بما يعني ضرورة التخلص من الصورة

الأحادية للإنسان، سواء تعلق الأمر باعتبارات الوعي الذاتي أو بأنماط التشكل التاريخي والاجتماعي.

ما ينبغي التأكيد عليه أنّ المسألة اليهودية والانحياز إلى إسرائيل، منظومة فكرية يضطلع بتقويتها فلاسفة الغرب من منظور عرقي وديني، ولا يجرّهم في مختلف المناسبات التعبير عن إسرائيليّتهم كما هو حال هربرماس الآن وأتباعه، وكما هو حال جان بول سارتر وغيره في محطات عديدة من الاعتداءات الهمجية على الفلسطينيين.

أمام هذا المعطى الذي لم يناقش بجدية من طرف المثقفين والمفكرين العرب، أظنّ أن الوقت قد حان لخلق مسافة نقدية مع فلاسفة الغرب بالاجتهاد في خلق منظومة فكرية وفلسفية عربية مضادة لشناعة تبرير همجية إسرائيل من داخل التداول الفلسفي الغربي. وأن وزن المعرفة بميزان المعرفة فقط، وإهمال وزنها بميزان السياسة والإيديولوجيا، كما فعلنا في جامعاتنا العربية، خطأ تاريخي ومعرفي قد تمّ ارتكابه ولم نجن معه إلا أنّنا كنّا طلابا نجباء نردّد بزهو ما تعلّمناه منهم في الفلسفة والعلوم الإنسانية؛ ونسينا أن المعرفة إذا لم تكن إنسانية تنتصر إلى القيم الثابتة للبشرية، تبقى مجرد لغو وهذيان.

ملحق: نصوص

نوربرتو باريديس:

«الغرب يظهر النفاق والمعايير المزدوجة بالنسبة للقضية الفلسطينية»^(١)

ترجمة عبدالله الحيمر^(٢)

من رحم المعاناة التغريبية الفلسطينية، يواصل التفوق على جراح الاحتلال بالمكان والزمان. الطبيب الفلسطيني ابن غزة الابية، الذي قتلت قوات الاحتلال الاسرائيلي ثلاثا من بناته وابنة أخيه وأصابت آخرين من أقربائه في عملية ما يدعى «الرصاص المصبوب» في ٢٠٠٨. أبو العيش، الذي يعيش الآن في كندا مع آخر أطفاله، لا يؤمن بالوسائل العسكرية وهو مدافع قوي عن المصالحة بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وهو معروف في جميع أنحاء العالم برسائله للسلام، والتي أكسبته ترشيحه لجائزة نوبل ثلاث

(١) ترجمة بتصرف عن موقع: BBC News Afrique

(٢) كاتب وباحث مغربي.

سنوات متتالية. كما تم ترشيحه لجائزة ساخاروف لحرية الروح ، التي منحها البرلمان الأوروبي ، وحصل على العديد من الجوائز ، بما في ذلك جائزة المهاتما غاندي للسلام . منذ عام ٢٠١٠ ، تم إدراجه في قائمة أكثر ٥٠٠ مسلم نفوذا في العالم ، والتي جمعها المعهد الإسلامي الملكي للدراسات الاستراتيجية في عمان . التي تمنحها الحكومة الهندية . كان معه هذا الحوار بالقسم العالمي بهيئة الإذاعة البريطانية .

* قبل أربعة عشر عاما ، خاضت الجماعات الفلسطينية المقاومة وإسرائيل حربا شبيهة بالحرب التي نشهدها اليوم . في ذلك الوقت ، كيف تقطعت بك السبل في غزة مع عائلتك . وكيف ترى الوضع اليوم ؟

- من المهم أن تعرف أن ملحمة طوفان الاقصى يوم ٧ أكتوبر لم تخرج من العدم . يعتقد الكثير من الناس أن الصراع بدأ في هذا اليوم ، لكن هذا ليس هو حال للواقع الفلسطيني . يمثل هذا الصراع تهديدا وجوديا للفلسطينيين على أرضهم الأصلية ، وهو مستمر منذ عقود عديدة ، ومن الضروري فهم الأسباب الجذرية للمشكلة . بصفتي فلسطينيا ، أنا أحد الناجين من النكبة . الكارثة التي ثم بها اغتصاب فلسطين من طرف الصهاينة . هجر بالقوة أكثر من ٧٥٠,٠٠٠ فلسطيني ، و طردوا من منازلهم بعد إعلان إسرائيل ما يدعى استقلالها عن الانتداب البريطاني على فلسطين في ١٤ مايو ١٩٤٨ ، وأثناء الحرب العربية الإسرائيلية التي بدأت في اليوم التالي واستمرت ١٥ شهرا . والدي وأمي وجدي هم جميعا ناجون من النكبة وما زلنا نعاني حتى اليوم . لا توجد دولة أخرى في العالم عانت كما عانينا نحن الفلسطينين .

* بنظرك، ما هو الطريق الأمثل لإنهاء معاناة الفلسطينيين؟

- نحن لا نحب القتال ، نود فقط أن نكون أحرارا. نحن بحاجة إلى العالم لمساعدتنا في تحقيق هذا الهدف. ما الذي نبحث عنه بالعنف؟ إذا أنا عنيف تجاهك وأنا تنتهك حقوقك وكرامتك، ماذا كنت ستفعل؟ على الأرجح ، سوف تسعى للدفاع عن نفسك، لديك الحق في حماية كرامتك. من خلال احترام كرامة وحقوق الآخرين، يمكننا التغلب على العنف.

* ماذا تقصد بالعنف؟

- تعرف كلمة «عنف» دوليا في عالمنا المعاصر، بأنها الاستخدام المتعمد للقوة أو القوة البدنية ، الحقيقية أو المهددة ، ضد الذات أو ضد شخص أو مجموعة عرقية أخرى ، مما يتسبب في الإصابة أو الوفاة أو الضرر النفسي أو الحرمان أو الإبادة الثقافية .هذا ما يحدث لنا نحن الفلسطينيين. الاحتلال الإسرائيلي هو شكل من أشكال العنف. ويجب أن نمنع العنف بإنهاء الاحتلال الإسرائيلي حتى يتسنى للإسرائيليين والفلسطينيين أن يكونوا أحرارا بالواجبات والحقوق.

* ما هو الغرض من العنف؟

- قتلت ابنتي ، رحمة الله عليها ، في ١٦ يناير ٢٠٠٩. اعتادت أن تخبرني أنه لا ينبغي لنا الرد على العنف بمزيد من العنف. كطبيب، أنا لا أعالج الأمراض بالأمراض ، ولكن بالمضادات الحيوية أو العلاجات. لا يتم التعامل مع السلبية أو حلها بمزيد من السلبية ولا يتم حل العنف بالانتقام أو القتل. وفي الصراع الإسرائيلي الفلسطيني ، نحتاج إلى بديل للعنف ، ألا وهو الحرية واحترام حقوق الإنسان للجميع.

* لقد ولدت وترعرعت في غزة، كيف ينظر الفلسطينيون إلى إسرائيل؟ وهل تغيرت هذه الرؤية بعد ملحمة طوفان الاقصي؟

- منذ عام ١٩٤٨، يعيش الفلسطينيون في ترهيب وإذلال وحرمان من أقدس شيء في الكون: الحرية. الفلسطينيون يريدون أن يكونوا أحرارا، ولا يريدون أن يتعرضوا للقمع أو الاستعمار أو الاحتلال أو الترهيب أو الإذلال. إنهم يحبون الحياة ويريدون أن يعيشوا ويريدون أن يعيش الآخرون.

إن فلسطيني غزة يعيشون الآن تحت الاحتلال، بلا أمل وبدون مساعدة بدون عمل وبدون حياة. إنهم يعيشون تحت حصار بري وبحري وجوي. ما يحدث الآن في فلسطين أمر مروع. قتل ما يقرب من ٣٠٢٢٨ فلسطيني في غزة، معظمهم من النساء والأطفال الأبرياء، لأن ٧٠٪ من سكان غزة هم من النساء والأطفال.

* يزعم الإسرائيليون أن حماس قتلت أيضا أطفالا في إسرائيل!!

- أنا أفهم ذلك. أنا أعارض قتل أي طفل، سواء كان إسرائيليا أو فلسطينيا. ونود أن تكون حياة الأطفال الفلسطينيين نفس قيمة حياة الأطفال الإسرائيليين. بالحياة والكرامة الإنسانية هل لديهم نفس القيمة؟ نود أن يكونوا متساوين في الحقوق والواجبات. لكن في بعض الأحيان يبدو أن حياة طفل إسرائيلي تساوي أكثر من حياة طفل فلسطيني.

* لقد كرست حياتك للمصالحة بين الفلسطينيين والإسرائيليين. كيف ترى هذه المصالحة اليوم، بعد الأحداث الأخيرة؟

- أنا أؤيد المصالحة، لكن قبل ذلك يجب أن نفهم ما حدث حتى تتمكن من علاجه ومنع حدوثه مرة أخرى. كما قال يسوع: «اطلبوا

الحق والحقيقة ستحرركم». يجب أن نبحث عن الحقيقة ونفهم أن هناك شعبا فلسطينيا وشعبا إسرائيليا ، وأن أحدهما هو الغازي والآخر محتل ، وأن أحدهما مضطهد والآخر هو الظالم ، لكنني أريد أن يكون كلاهما متساويين. قبل المصالحة ، أول شيء يجب فعله في الأزمة الحالية هو وقف إراقة الدماء.

* برأيك، المصالحة لن تتم إلا إذا أنهت إسرائيل احتلالها للأراضي الفلسطينية؟

- في تقديري ، الأولوية الحالية هي وقف إراقة الدماء وقتل الأبرياء. ويجب أن ينصب التركيز على إنقاذ أرواح الفلسطينيين والإسرائيليين. ثم يجب أن نبدأ مفاوضات جادة وأن نعالج الأسباب الجذرية للمشكلة ، دون تحيز. يجب أن تستند المفاوضات إلى قرارات دولية ويجب أن يشارك العالم. من مصلحة الجميع أن ينتهي الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين وأن يكون الشعبان أحرارا. أرى إنسانيتي وكرامتي وحريتي في إنسانيتك. لن أكون حرا حتى تكون حرا. ولهذا السبب يجب أن ندافع عن الحرية والعدالة والمساواة والسلام والأمن للجميع. لقد قلت هذا للإسرائيليين مرات عديدة. إن أمن إسرائيل ومستقبلها واستقلالها وسلامها ترتبط بالحقوق المتساوية للفلسطينيين.

* هل حل الدولتين لا يزال ممكنا؟

- لا تسألني ذلك؛ اسأل الإسرائيليين: ماذا يريدون؟ نحن نقبل حل الدولتين. اسأل الغزاة عما إذا كانوا يريدون إنهاء الصراع ، وما إذا كانوا يريدون حل الدولتين على أساس القرارات الدولية. يجب أن نبحث عن الحقيقة ، ونفهم أن هناك شعبين فلسطيني وإسرائيلي ،

أحدهما هو الغازي والآخر محتل ، والاخر مظلوم ، والآخر هو
الغازي»

* ولكن هل تعتقد أن هذا لا يزال ممكنا؟

- رفض بنيامين نتياهو (رئيس الوزراء) وقادة إسرائيليين آخرون في بعض الأحيان تأييد حل الدولتين ووجود دولة فلسطينية. نفى بتسليل سموتريتش [وزير المالية الإسرائيلي (أقصى اليمين) مؤخرا وجود شعب فلسطيني أو أمة فلسطينية وقال إنه لن تكون هناك دولة فلسطينية على الإطلاق. كما وصف وزير الدفاع (يوآف غالانت) الفلسطينيين بأنهم «حيوانات بشرية». ماذا تريد مني أن أقول؟
إما أن يكون هناك حل دولة واحدة ، أو هناك حل دولتين. الأمر متروك للإسرائيليين والمجتمع الدولي ليقرروا ما إذا كانوا يدعمون أحد هذه الحلول أم لا ، وليس للفلسطينيين. نحن نقبل حل الدولتين على أساس القرارات الدولية. هل الإسرائيليون على استعداد للمضي قدما وقبوله؟ وإذا لم تكن هذه الدول مستعدة لقبول ذلك ، فإن للمجتمع الدولي دورا يؤديه. نحن الفلسطينيون نعترف بإسرائيل كدولة ، هل يعترفون بنا؟ أعتقد لا.

* أثار دعم الغرب لإسرائيل اتهامات بالنفاق والازدواجية بالمعايير في العالم العربي، هل توافق على هذه الصفات الاعتبارية ؟

- الغرب يتصرف مع النفاق والمعايير المزدوجة: ويرفض احتلال أوكرانيا من قبل روسيا ولكن لماذا لا يرفض الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين؟ لا يعتقدون أن الفلسطينيين تحت الاحتلال؟ النفاق هو لالتقاط الأنفاس. إن المملكة المتحدة هي أصل الفوضى التي نشهدها، من وعد بلفور إلى الدعم المستمر الذي قدمته لإسرائيل حتى الآن، على حساب المعاناة الفلسطينية والنكبة. يدعي الغرب أن

إسرائيل لديها الحق في الدفاع عن نفسها، ولكن ماذا عن الفلسطينيين الذين يعيشون في ظل الاضطهاد والاحتلال - هل لديهم الحق في الدفاع عن أنفسهم؟ يدعي الغرب دائما في كل المحافل الدولية ، أن إسرائيل لديها الحق في الدفاع عن نفسها، ولكن ماذا عن الفلسطينيين الذين يعيشون في ظل الاضطهاد والاحتلال؟ مع الاسف ، اقولها بصراحة العالم الغربي متحيز لوجهة النظر الاسرائيلية.

* هل ما يحدث في أوكرانيا مماثل لما نراه في الأراضي الفلسطينية؟

- بالطبع هو كذلك. لقد غزا الروس أوكرانيا ويحتلونها ، ولهذا السبب بدأ الغرب والولايات المتحدة وكندا والمملكة المتحدة وغيرها في تعزيز الدفاع عن حقوق الأوكرانيين وتزويدهم بالمساعدة العسكرية. الفلسطينيون تحت الاحتلال ولهم أيضا الحق في الدفاع عن أنفسهم. لكن معظمنا لا يؤيد استخدام الوسائل العسكرية ، لأن هذه لن تنهي الصراع. نحن بحاجة إلى أن يعمل المجتمع الدولي كوسيط شفاف وأن يثبت أنه يهتم بالشعب الفلسطيني واتفاقية حقوق الإنسان وقرارات الأمم المتحدة. والمجتمع الدولي غير مبال ويدعم مرتكبي هذه الأعمال. ويشارك المجتمع الدولي في معاناة الشعب الفلسطيني. إنها لا تدافع عن العدالة ، بل تدافع عن النفاق وسياسة الكيل بمكيالين. فلماذا تقرر بولندا وقف تزويد الأسلحة إلى أوكرانيا؟

* كيف ينظر للغرب في العالم العربي اليوم؟

- ينظر بالعالم العربي قاطبة إلى الغرب من خلال أفعاله. ينظر إليه على أنه مجموعة من البلدان المتحيزة. ويجب عليهم التخلي عن سياسة الكيل بمكيالين إذا كانوا يؤمنون حقا بحقوق الإنسان والعدالة

والحرية وحرية التعبير. لقد حان الوقت للدول الغربية لتغيير نهجها، واحترام المبادئ التي تدافع عنها والتصرف وفقا لذلك.

* بعد وفاة بناتك الثلاث في غزة بعد التفجيرات الإسرائيلية ، بدلا من اختيار طريق الكراهية أو الانتقام ، حثت الجهات الفاعلة في الصراع على التواصل واختيار الحوار. وهل قد تغير موقفكم؟

- لم يتغير أبدا موقفي. أنا أؤمن دائما بالحوار البناء من أجل بناء سلام دائم بالمنطقة. وأنا ملتزم به دائما. أعرف ماذا يعني فقدان أحد الأحباء. أتحدث الآن وأفكر في بناتي وشعبي وجميع الأبرياء في جميع أنحاء العالم ، الفلسطينيين والإسرائيليين والأوكرانيين. يجب أن نفهم أن الطريقة العسكرية والقتل والنفاق والمعايير المزدوجة والظلم لن تصل بنا إلى أي مكان. نحن بحاجة إلى السلام والتعايش بين الشعوب والحضارات في هذا العالم. نحن نعيش في عالم متنافر لأن بعض الغربيين ما زالوا يؤمنون بسيادة العرق الأبيض وقد حان الوقت لفهم أننا جميعا متساوون. يجب أن نتوقف الغطرسة والتفوق وعقلية الاستعمار. يجب أن نساعد بعضنا البعض ، ونحترم بعضنا البعض ونعيش في وئام وسلم عالمي .

* حاولت الحصول على العدالة في المحكمة العليا الإسرائيلية بعد وفاة بناتك، كيف حدث ذلك؟

- لقد حاولت مرارا و كل ما توقعته من إسرائيل ان تصدر إدانة رسمية وتعويض من محكمة الاحتلال (لقد رفضت محكمة بئر السبع الإسرائيلية ،دعوى تعويض قدمتها بادعاء أن «الحادثة» حصلت خلال أعمال حربية وأن منظمات «إرهابية» خبأت سلاحا داخل منزلي)أبو العيش دون علمه مما زاد من قوة الانفجار» .. ألا

تظن بناقي تستحق إدانة و اعتذار وتعويض رسمي من دولة محتلة؟
 ألا تعتقد معي، أنهم يستحقون الاعتراف بإنسانيتهم؟ لكن اليوم،
 يعيد التاريخ نفسه. لقد بدأوا (إسرائيل) في خلق قصص كاذبة و
 مغالطات مفضوحة للإعلام العالمي . قالوا إن بناقي قتلن على يد
 حماس وبدأن في تبرير ما حدث. طلبت استصدار حكم قضائي
 يدين الجيش الإسرائيلي ولم أحصل عليه. لكنني ما زلت أؤمن
 وأنقل رسالتي لصالح الحرية للجميع، الاحتلال اختار الموت
 ونحن اخترنا الحياة. وسأنتصر لا رواحهم الطاهرة حينما احصل
 لمن على الحد الأدنى من حقهن بالإدانة والتعويض.

* كلفلسطيني، ما رأيك في ملحمة طوفان الأقصى في غلاف غزة
 المحتل؟

- لم تحدث ملحمة طوفان الاقصى من فراغ ، كما سبق أن قلت. لم
 ينهضوا ويقرروا القيام بذلك دون أن يحدث أي شيء من قبل. هذه
 هي المشكلة. علينا أن نفهم ما حدث من قبل. كما قلت ، أنا أرفض
 قتل أي إنسان. ما حدث هو نتيجة لاستمرار الفظائع التي ارتكبت
 ضد الفلسطينيين طوال اغتصاب ارضهم باعتبارها ارض خلاء
 بدون شعب اصلي.

* هل تقول أن هجوم حماس كان ردا؟

- رجاءا من فضلك؛ هل سألت الإسرائيليين إذا كانوا يدينون ما
 يحدث ضد الفلسطينيين؟ لقد رأيت سؤالك في جميع وسائل الإعلام
 الغربية. هل يمكنك أن تسأل الإسرائيليين عما إذا كانوا يدينون
 مقتل بناقي؟ هذه ليست النقطة. عليك أن تفهم السياق والوضع
 والقضية الفلسطينية في بعدها التاريخي والسياسي. قتل العديد من

الفلسطينيين لسنوات عديدة قبل ملحمة طوفان الاقصى . انظر إلى ما يحدث في العديد من المدن الفلسطينية وفي القدس المحتلة . على أي حال ، أنا أدين قتل أي إنسان كيفما كانت اصوله او عرقه او حضارته . أنا أتكلم هنا كفلسطيني ، وليس كعضو في حزب .

* في الشرق الأوسط، يعتبرك الكثيرون رمزا للأمل: هل ما زلت تحتفظ به ؟

- لن أفقد الأمل أبدا ولهذا السبب أنا هنا لأتحدث معك . طالما أنا على قيد الحياة ، لن أفقد الأمل أبدا . وآمل أن تصبح هذه المأساة التي نشهدها يوما ما شيئا منسيا ، الفلسطينيون والإسرائيليون ، أمامنا فرصة لفهم بعضنا البعض وتحويل هذا الوضع إلى حرية وحياة لكلا الشعبين . أشعر أكثر بالمسؤولية لإيصال رسالة شعبي بأننا طلاب حق وسلام .. لقد كرست حياتي للسلام والتعايش بين الشعبين . وحلمي اليوم أن تتاح الفرصة للعودة إلى غزة وأعيش ما تبقى لي من عمر وأموت وأدفن فيها .

المؤرخ الفرنسي هنري لورنس:

«بالنسبة للغرب ، من غير المعقول أن يكون للفلسطينيين أيضا الحق في الدفاع عن أنفسهم»^(١)

حاوره تشارلز بيراجين

ترجمة عبدالله الحيمر

هنري لورنس (Henry Laurens)، مؤرخ فرنسي، متخصص في الشرق الأوسط. ومؤلف العديد عن التاريخ والدراسات حول العالم العربي والإسلامي. وهو أستاذ ورئيس تاريخ العالم العربي المعاصر في كوليج دو فرانس بباريس.

في هذا الحوار، يشرح للقارئ الغربي آثار الحرب الجديدة بين إسرائيل وحماس في العالم العربي، ويفك شفرة منظومة التفكير الغربية تجاه الفلسطينيين. وعلى الشعور بالتحيز الذي يعيشه الشتات العربي المسلم أمام موقف الغرب.

* ماذا يكشف حجم التصعيد الأخير بين إسرائيل وفلسطين ؟

- هذا اعتراف آخر بفشل المشروع الصهيوني ، بقدر ما تأسست دولة

(١) ترجمة بتصرف عن مجلة الفلسفة الفرنسية.

إسرائيل لضمان سلامة اليهود بعد مذابح الهولوكوست. منذ عام ١٩٤٠ ، كانت إسرائيل تبني بمشروعها الإحلالي ضد العداء العربي على أنه استمرار لمشروع النازية الأوروبية ، كما يتهم العرب الإسرائيليون بالنازيين في المقابل. حددت هذه المواقف الوجودية بالشرق الأوسط تاريخاً عنيفاً ومتكرراً من الحروب . بادئ ذي بدء ، نحن نعيد إحياء عام ١٩٤٨ ، وهو نفس العام الذي احتلت فيه إسرائيل هذه المنطقة التي وقعت فيه عملية «طوفان الأقصى» يوم السبت ٧ أكتوبر الماضي ، هذه المنطقة التي طرد فيها جميع السكان الفلسطينيين المحليين ، قبل ٧٥ عاماً ، إلى ما أصبح آنذاك قطاع غزة. هذا لا يبرر الفظائع بنظري بين الطرفين ، لكن يجب أن ندرك أن أولئك الذين هاجموا هم من نسل المطرودين في عام ١٩٤٨ . إنه أيضاً تأثير ارتدادات وتداعيات التهجير السكان والحروب منذ عام ١٩٦٧ . بدءاً من حرب الأيام الستة ، ازداد عدد القتلى في الصراع العربي الإسرائيلي بشكل مفاجئ ودائم ، مما جعل التوصل إلى اتفاق سياسي أكثر احتمالاً ، بغض النظر عن طبيعة المقاومة الفلسطينية. بعد احتلال عام ١٩٦٧ ، لم يكن المقاتلون في قطاع غزة إسلاميين. كانوا يقودها اليساريون الماركسيون اللينينيون. وكان القمع بالفعل قاسياً للغاية مع الكثير من الدمار ، خاصة في عهد أرييل شارون. لم يأت الإسلاميون إلا بعد ذلك بكثير ، في عام ١٩٨٧ ، خلال الانتفاضة الأولى.

* يمتد الصراع اليوم إلى ما هو أبعد من حدود فلسطين وإسرائيل ، مع الخوف من النفي القسري ، وخاصة إلى سيناء المصرية. فما هو رأيك؟

- بالإضافة إلى نزوح السكان في غزة ، هناك حالياً الكثير من عمليات الترحيل إلى الضفة الغربية. اقترح الرئيس المصري السيسي بالفعل نقل

مواطني غزة إلى النقب في إسرائيل ، حتى نهاية الحرب. لطالما كان لمصر نفس الموقف منذ عام ١٩٤٨: حظر أي توطين للاجئين الفلسطينيين على أراضيها. هذا من غير المرجح أن يتغير. العرب يحبون فلسطين. لا يزال هناك الأردن ، نصف سكانه من أصل فلسطيني. على عكس ما يقال، لا تسعى إلى محو الهوية الفلسطينية للمملكة ، بل إلى إدارتها. دعونا لا ننسى أن الملكة « رانيا » من أصل فلسطيني.

* هل يمكن للبنان أيضا أن يرحب باللاجئين ؟

- لقد ترك الفلسطينيون ذكريات سيئة للغاية في لبنان ، لأن المسيحيين والشيعية يلومونهم على الحرب الأهلية التي استمرت من ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠.

* ما هو الدور الذي يمكن أن تلعبه إيران؛ بالنظر إلى دعمها المتزايد للقضية الفلسطينية؟

- لا يوجد نص عقائدي يحدد خطأ سياسيا يربط بين إيران وفلسطين. البعض يجعل إيران الزعيمة الاولى للإسلام الجهادي الدولي ... يجب أن نبقى جادين. في عام ٢٠١١ ، تدخلت إيران وحزب الله على نطاق واسع للدفاع عن سوريا بشار الأسد ، في حين أن حماس ، من جانبها ، انحازت إلى الثوار. اقتربت حماس من إيران مرة أخرى من ٢٠١٣ و ٢٠١٤ ، لأنها لا تزال تعرف نفسها على أنها حركة مقاومة إسلامية ، تماما مثل حزب الله. إنه دعم حربي لكنه لا يذهب أبعد من ذلك بكثير. لذلك أرسلت إيران معدات عبر سيناء ومن المؤكد أنها كانت قادرة على توفير التدريب والتدريب العسكري.

* هل دعم تركيا بزعامة أردوغان أكثر إثارة للدهشة؟

- لقد مرت عشر سنوات منذ أن أدرك أردوغان أن الصراخ ضد

الإسرائيليين جعله يتمتع بشعبية في الشرق الأوسط. حتى أنه كان يحلم بأن يكون زعيماً للحركات الثورية العربية في عام ٢٠١١. ورحب بالإخوان المسلمين بعد الإطاحة بهم من مصر وجزء من قيادة حماس. تصالح مع إسرائيل لفترة من الوقت: معظم السياح في تركيا هم من الروس والإسرائيليين. إذا كانت النغمة قد تشددت مرة أخرى، فذلك لأن الرأي العام التركي يعارض بشدة الدولة اليهودية وضرباتها على غزة. الرئيس أردوغان يتابع الرأي العام فقط في وقت الصعوبات الاقتصادية.

* هل يمكن للصراع العربي الإسرائيلي أن يشكك في عملية التطبيع الإسرائيلية مع دول الخليج؟

- إذا أخذنا اللاعبين الرئيسيين في هذا التطبيع، الإمارات العربية المتحدة والبحرين، يجب أن تكون العواقب السياسية محدودة. في الإمارات العربية المتحدة، لا يشكل الإماراتيون سوى جزء صغير من إجمالي السكان. والبحرين دكتاتورية سنية، تقوم على أغلبية شيعية لا تملك حقاً الفرصة للتعبير عن نفسها. يمكنك الذهاب إلى السجن على بيان عام بسيط. قطر، من جانبها، هي أستاذة في فن: «في نفس الوقت». إنهم يرحبون بالإخوان المسلمين. إنهم يدعمون فلسطين ولكن بموافقة إسرائيل. وبما أن التحويلات المصرفية غير ممكنة، فإنها ترسل ملايين الدولارات نقداً إلى قطاع غزة، وكل ذلك فيما يتعلق بإسرائيل. بالنسبة للرأي ووسائل الإعلام، من قناة الجزيرة إلى اليسار، تم تصنيف إسرائيل كدولة معادية. على الجانب السعودي، التوحيد القياسي أكثر تعقيداً. وهذا ليس من عملية «طوفان الأقصى» يوم ٧ أكتوبر. قبل هجمات حماس مباشرة، كان نايف السديري، القنصل

السعودي لدى السلطة الفلسطينية ، قد أذن من قبل الإسرائيليين بمقابلة محمود عباس [أبو مازن ، رئيس السلطة الفلسطينية] في رام الله - التي شكلت أول وفد دبلوماسي إلى الضفة الغربية منذ توقيع اتفاقيات أوسلو في عام ١٩٩٣ . أراد الذهاب إلى المسجد الأقصى في القدس للصلاة لكنه قرر عدم ذلك لأنه خاطر بأن يستهدفه الفلسطينيون أنفسهم ، المعادين للتطبيع .

* كيف يمكن أن نفسر مثل صدى هذا الصراع في العالم ، خصوصاً في الغرب ؟

- هذه هي خصوصيتها . وقبل بضعة أسابيع ، لم تثر الفظائع التي ارتكبتها إسرائيل في «ناغورنو - كاراباخ» الأذاريون المسلحون سوى ردود فعل غاضبة قليلة ولم تثر أي مشاعر جماهيرية . لا يمكننا تحليل حاملة طائرات أمريكية في البحر الأسود للدفاع عن الأرمن . الصراع العربي الإسرائيلي عاطفي ، إنها الأرض المقدسة ، للديانات الثلاثة ... نسمع أنه لا ينبغي استيرادها إلى ديمقراطيتنا الغربية ، ولكن تم ذلك في وقت مبكر من عام ١٩٦٧ ، بقدر ما شعر الرأي العام الفرنسي بالنصر الإسرائيلي في حرب الأيام الستة على أنه انتقام للحرب الجزائرية . لقد أصبحت القضية الفلسطينية نضالاً ليسار المناهض للاستعمار ، الذي شن حملة ضد الحرب الجزائرية . أصبح هذا السبب أخيراً رمزا لشتات من أصل عربي : أظهرت الدراسات أن تحديد المواقع تجاه إسرائيل كان عنصراً قوياً في بناء هوية المهاجرين العرب المسلمين في الدول الغربية .

* وماذا عن البلدان التي تعيش فيها المجتمعات اليهودية أيضاً ؟

- وقد ولد هذا توترات بمرور الوقت ، تفاقمت بسبب العنف المستوحى من الإسلاميين ، ولا سيما الفظائع التي ارتكبتها الفرنسي المسلم محمد

مراح والموجهة مباشرة ضد اليهود. اليوم، نرى أيضا كيف أن الهجوم على الخطاب المؤيد للفلسطينيين باسم مكافحة الإرهاب له صدى سياسي قوي، على وجه التحديد لأنه ينضم في الرأي إلى شكل من أشكال العداء تجاه السكان المسلمين بشكل عام. وهذا يزعج القادة السياسيين. داخل الجمهوريين، يعارض الكثيرون السياسة الإسرائيلية، لكنهم لا يستطيعون التعبير عنها حقاً، لأنها ستجعل مواقفهم السياسية ضد الهجرة أقل مسموعة، على سبيل المثال. تذكر الدوائر الكاثوليكية المقربة من فرانسوا فيون الذي شن حملة ضد «علي جوب» خلال الانتخابات التمهيدية لعام ٢٠١٦، مما جعله يبدو وكأنه شخص راض عن الإسلام السياسي... من خلال الارتباط بالقضية الفلسطينية، تحتل فرنسا الأبية أخيراً مكانة لا يريد لها أحد لبلده عالمياً.

- * وما هو مصير الحزب الذي يتهم بشكل متزايد بمعاداة السامية؟
- أصبح اتهام معاداة السامية سلاحاً سياسياً في العديد من المجتمعات الغربية. هكذا حصل المحافظون على جلد حزب العمال بزعماء جيريمي كوربين في بريطانيا العظمى، وهي دولة ذهبت إلى حد مناقشة حظر المفروض على العلم الفلسطيني...
- * هل أثرت الهزات الارتدادية الداخلية للصراع الإسرائيلي الفلسطيني على دبلوماسية الدول الغربية؟

- لقد مرت ١٥ عاماً منذ أن وضعنا القضية الفلسطينية تحت الطاولة. نحن نتصرف وفقاً لقول هنري كويلي: «لا توجد مشكلة ينتهي حلها بعدم اتخاذ قرار فيها». في البيانات الصحفية الصادرة عن الحكومة الفرنسية في السنوات الأخيرة، نجد حل الدولتين، طيلة الأعوام

السابقة يتكرر بنفس المشهد المملّ..، لكننا بشكل ملموس لم نفعل شيئاً من أجله. أردنا السماح للفلسطينيين بالتعفن في صراع منخفض الحدة بتكرار هذه الصيغة المخوفة. في الواقع، لكي تكون هناك دولتان، سيكون من الضروري ممارسة ضغط قوي جداً على إسرائيل، ولا أحد مستعد للقيام بذلك، خاصة في الوقت الذي تريد فيه حاشية الرئيس ماكرون اتباع سياسة مصلحة لأن إسرائيل متقدمة في مجال الصناعات الالكترونية، وفيها شركات عملاقة عالمياً في هذا المجال.. ماذا إذن تبقى؟ الإنساني، هو علامة على هزيمة السياسية. هذه مساعدة مفيدة للغاية، ولكن عندما لا يكون لديك حلول سياسية جادة لاقتراحها، فهذا كل ما تبقى.

* هل في النهاية الغرب ككل الذي يخرج ضعيفا سياسيا ودبلوماسيا من هذه الأزمة؟

- لم يغير اللحاق بالركب الإنساني امام شناعة الهجمات الاسرائيلية على المدنيين بغزة، شيئاً إلى حقيقة أن الدول الغربية بدت متضامنة مع إسرائيل. يقولون إن إسرائيل تدافع عن نفسها، بالطبع، لكن الكثيرين كانوا يودون أن يسمعو أن للفلسطينيين أيضاً الحق في الدفاع عن أنفسهم. والدول الغربية لا تقول هذا لأنه لا يمكن تصوره بنظرها. وهذا لا يخلو من العواقب: يكفي أن نرى أن السفارة الفرنسية في تونس تحت حماية الشرطة. هناك مشاعر معادية للغرب تنتشر في جميع أنحاء العالم العربي الإسلامي وخارجه: في ماليزيا واندونيسيا وباكستان، كل ذلك على خلفية الاستياء المرتبط بذكرى استعمار القرنين التاسع عشر والعشرين. والفائزون من هذه المواقف هم الصين وإيران وروسيا.

د. حميد لشهب يفكك خلفيات دعم الغرب لإسرائيل

حاوره بالنمسا الإعلامي عبد العزيز كوكاس

يعيش الباحث المغربي حميد لشهب منذ ٣٥ سنة في قلب العالم الجرمانى، بين غرب النمسا وجنوب ألمانيا والشمال الشرقي لسويسرا، ما يشبه ديلتا بحيرة الكونسطنس، التي يمر منها نهر الراين. ساعدته إقامته في هذا الفضاء الجغرافى والثقافى على فهم العالم الجرمانى فكرى ونفسى واجتماعى، مسلحا بما تعلمه فيه ومنه في ميدان علم النفس والبيداغوجيا والفلسفة. ترجم الكثير من الأعمال الفلسفية والنفسية من الألمانية للعربية، كما ألف في نفس التخصصات، بكلتا اللغتين.

رغم إقامته الطويلة في الغرب، ظل متصلا بقضايا العالم العربى والإسلامى وأسئلته. إنه من طينة المواطن العربى الذى حمل هم وطنه وأمتة في حقيقته. لم يترك مجالا للإستيلاب ليحرفه، بل تعامل معه بحذر وبمنطق نقدي متفحص، طوره على مر السنين، وقاده إلى النداء إلى التعامل مع الغرب بحذر، لأن الواجهة الذهبية البراقة التي يقدم نفسه بها، تخفي واجهة قصديرية لمعدن رخيص. انتبه إلى أن الساسة الغربيين يستغلون شعوبهم بدون هوادة لإبقائهم تحت نير تبعية وجودية. فالمواطن الغربى لم يعد يعتبر نفسه سعيدا،

لأن له دخل قار، ومنزل، وتغطية صحية إلخ، لأن ظروف الإبقاء والمحافظة على هذا، لا تختلف عن العبودية إلا قليلا: لرب العمل، لثقافة الاستهلاك، لديون الأبناء... مصحوبا بتفكك مجتمعي حقيقي وانهار أو شبه انهيار لمؤسسة الزواج والأسرة وتربية الأطفال وباقي العلاقات الاجتماعية.

خبر لشهب السياسة الغربية تنظيرا وممارسة، حيث كان نشيطا سياسيا على مستوى الإقليم حيث يعيش (الفوخا حليبرغ)، وقضى مدة ١٥ سنة كمستشار بلدي في المدينة التي يقطنها. لذا فإن آراءه السياسية، غير بعيدة عن الممارسة، وفي هذا الإطار التقيناه في النمسا فكان لنا معه هذا الحوار، لفهم «تسونامي» العدوانية، الذي أطلق له الغرب العنان في الأسابيع الماضية ضد الفلسطينيين، ومحاولة القضاء على نضالهم المشروع من أجل الحق في الحياة على أرضهم.

نص الحوار

* أجريت في الأسابيع الأخيرة حوارات مع مفكرين وفلاسفة

جرمانيين حول القضية الفلسطينية في سياق حرب الإبادة بغزة،

كيف تقرأ موقف المفكرين الجرمان من طبيعة الصراع اليوم؟

- عندما نستقرئ واقع الساحة الفكرية الجرمانية اليوم، فإننا نصاب

بذهول كبير، لأن دور المفكر تراجع كثيرا لأسباب متعددة، ومنها

بالخصوص ابتلاع الأحزاب السياسية للطاقت الفكرية، والتقلص

المهول لفهم المفكر الجرمانى لدوره المجتمعي كسلطة نقدية مصححة

للمسارات السياسية والقرارات التي تُصدرها. إن أغلبية المفكرين

الجرمانيين، على غرار زملائهم الغربيين عامة، أصبحوا إما موظفي

دول مهيمنة، أو منظري الأحزاب (كوادر حزبية)، لم يعد التفكير عندهم من أجل تغيير الأوضاع نحو الأحسن، بل من أجل تعزيز مكانة الأحزاب، وبالتالي الحكومات التي تفرزها الانتخابات. ولعل مرد هذا إلى طبيعة تطور المجتمع الغربي نفسه، وبخصوص طبقة الحاكمة، التي طورت في ربع القرن الأخير فهمًا خاصًا للعمل السياسي عامة، والحزبي بالخصوص، بحيث إن ما أصبح مهمًا لم يعد مشاريع إنسانية على المستوى الطويل، بل فقط ممارسات وأنشطة تضمن إما المشاركة في السلطة، أو الوصول إليها، أو تعكير الجو على من نجح في الاستيلاء عليها، بطرق «ديمقراطية».

* كيف تقيمون طبيعة موقف الحكومة الألمانية من الوضع المأساوي بغزة؟

لم تصدم أية حكومة ألمانية العالمين العربي والإسلامي مثلما صدمته هذه المرة بدعمها المطلق والمتحيز للغزاة ضد حق أصحاب الأرض الأصليين. وما يُعتبر إهانة حقيقية للمفكر العربي والإسلامي هو أن هذا الموقف المتحجر واللاعقلاني اتُخذ من طرف حكومة ثلثها من اليسار، يعني نظريًا هي ضد الحرب، كيفما كان نوعها وحيثما اندلعت. والإهانة المعنية بالأمر هنا هي أن المفكر في الديار العربية والإسلامية، استيقظ على فاجعة حرق الحكومة الألمانية لكل تراثها الإنساني، الذي بناه فلاسفتها منذ الإرهاسات الأولى للحدث مع كانط. كانت العلامة «المسجلة» للألمان في العالم العربي والإسلامي تطويرهم عبر قرون لإرث فكري، تقّنت عليه الإنسانية لحد الآن.

* إلى أي سبب تعزو موقف الحكومة الألمانية اليوم الداعم لإسرائيل؟

- يمكن أن يفهم المرء طبيعة موقف هذه الحكومة على مستويات عدة، بناء على فرضيات محددة، نذكر أهمها: انتبعت الحكومة الألمانية الحالية إلى خطأ اختيار خندقها في بداية الصراع الروسي - الأوكراني (الغربي)، في العمق لم يكن اختيارا، بل فرض عليها فرضا، لأنها كانت مترددة في البداية أيما تردد. لا تلوح في الأفق، كما تخيل الغرب، أية مؤشرات تقنع بأن روسيا ضعفت جراء تحالف كل الغرب ضدها، بل أصبحت الشعوب الغربية تترنح، وتطالب سرا وعلانية بإنهاء هذه الحرب، مما يعني كارثة على الغرب نفسه. وكتمهيد لشي من هذا القبيل، سلطت الحكومة الألمانية الضوء، ونزلت بكل ثقلها وسط الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، بالمال والعتاد والخبراء، لتصفية الشعب الفلسطيني بغزة، كضمن لإخفاق مشاركتها في الحرب ضد روسيا.

المستوى الآخر هو تاريخ العلاقة المتشنجة لألمانيا مع اليهود، والتي توجت بمحرقة النازية لليهود عزل، نساء وأطفال وشيوخ، وتجريدتهم ليس فقط من حقوقهم وأموالهم، بل من شرفهم وكرامتهم، أي من إنسانيتهم. هذا الإرث النازي، الذي أصبح وصمة عار على جبين ألمانيا بعد انهزام النازية، يلاحقها يوميا تقريبا، بل لا تزال تدفع ثمنا باهظا له، ماديا ومعنويا، إلى درجة أن محاربة «معادات السامية» أصبح شعار السياسة الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، ليس حبا في اليهود، بل محاولة صقل صورة ألمانيا من جديد.

* لكن ماذا لو أن النازية لم تكن خسرت الحرب، هل سيكون لديها ذات الشعور؟

- هذا سؤال جوهري، لأن محاربة «معاداة السامية»، تعني محاربة عرق بشري، ومن الصدف أن العرب يشتركون مع اليهود في هذا العرق. يعني أن ألمانيا، وكل الغرب، يحارب جزءاً من هذا العرق على حساب الجزء الآخر، لدواعي جيو- سياسية واقتصادية في المقام الأول.

المستوى الثالث هو أن مشاركة الحكومة الألمانية في غزو غزة هو مشاركتها في إعادة تقسيم النفوذ في العالم، أي السماح لها من طرف القوى الغربية الأخرى المشاركة في الحركة الاستعمارية الجديدة، لأن الهدف الأخير لمحاولة خنق الشعب الفلسطيني في غزة، وفي الضفة الغربية هي بسط النفوذ على منطقة الشرق الأوسط، أي استعمارها المباشر من جديد، لأن السيناريو المطبق عهدناه منذ فجر الاستعمار الغربي.

* هل هناك أمل في الأنتلجنسيا الألمانية، بعد خسارة هابرماس ومن معه، وهجومه على المقاومة الفلسطينية؟

- هابرماس لا يمثل في تاريخ الفكر الألماني المعاصر إلا فاصلة، وضعت بالخطأ، بين الفكر النقدي (مدرسة فرانكفوت) وما يسمى الفلسفة الليبرالية. هو موظف دولة طيع، اتضح من خلال مجموعة من ممارساته بأنه شوفيني نفعي: انقلب على فكر التنوير بإعلان هدنة مع الفكر الديني بدءاً من «مناظرته» في كنيسة كاثوليكية مع رجل دين «البابا بينديكت». كاد أن يموت فرحاً بالإعلان عن فوزه

بجائزة عربية من آلاف الدولارات، قبلها بالليل، ثم رفضها صباحاً بعدما تعرض لهجوم سبيغل، واتهامه بدعمه لدول تعتبر في نظره ضد حقوق الإنسان، وخرج مع صديق له في الأسابيع القليلة ببيان لا يساند فقط الصهيونية النازية، بل يدافع فيه عن حقها في إبادة الفلسطينيين. هابرماس لم يكن أبداً نموذج المفكر الألماني، كإيريك فروم مثلاً، الذي كان موقفه واضحاً من القضية الفلسطينية: دولتان لشعبين، علماً بأنه كان يهودياً.

بغض النظر عن المفكرين الموظفين، وهم الأغلبية، الذي يكتبون في فضاء ما تحدده لهم حكومتهم الحالية، فإن هناك نخبة من المفكرين الألمان الشرفاء، الذين ظلوا أوفياء لمبادئهم الإنسانية، وبقي ضميرهم نقياً ووهاجاً، لا يعترفون بأي ولي، من غير الولاء لعقلهم وما رضعوه من ثدي مبادئ الأنوار. يساهم هؤلاء في إعادة بناء الوعي الألماني، وإحياء روح العدل فيه وعدم نُصرة أي طرف ضد الآخر، دون التساؤل الجذري على أساس موضوع التناحر. عملهم مضني ومحفوف بمشاكل عدة، ومنها بالخصوص هذا النوع من الوصاية والحجر، الذي بدأت الحكومات الغربية في ممارسته علانية بمطلع شهر أكتوبر من هذه السنة.

* بغض النظر عن الموقف المعروف للغرب الداعم للصهيونية، كيف تقرأ موقفه الحالي الذي يُشرعن ويزكي إبادة أهالي غزة؟

- ربما أفصح عن أطروحة أحاول من سنين إيجاد أجوبة لها، تتمثل في كون الصهيونية هي بناء قائم الأركان للثقافة والممارسة الغربية منذ ما يسمى عبثاً الاكتشافات الجغرافية، يعني حركات استعمار

أراضي غير أوروبية من طرف الأوروبيين. الصهيونية في نظري هي امتداد للحركة الإستعمارية في حلتها القديمة، وبالمخصوص عندما نتذكر بأن الغرب هو الذي أقام إسرائيل. ولم يكن اختيار الفضاء الجغرافي لإقامتها صدفة، بل لحسابات اقتصادية وجيو- سياسية، لأن انسحاب القوى الاستعمارية من الشرق الأوسط، لم يكن إلا انسحاباً رمزياً، لأنه نصب بالقوة خليفة له، يتفنن في آليات محاولات إخضاع كل الشرق الأوسط للهيمنة الغربية، وليس فقط فلسطين.

لم تقم الإمبراطورية الغربية لا القديمة ولا الحالية إلا على أشلاء الشعوب الأخرى، بإقامة أمريكا مثلاً، تم على رفات السكان الأصليين (الهنود الحمر)، وإبادتهم الجماعية بشتى الطرق. وينسى المرء أو يتناسى بأن الأمريكيين والكنديين، الذين يحكمون شمال أمريكا، هم في الأصل أوروبيين، نزحوا لهذه البقعة الشاسعة هروبا من الجوع والفقر والعطالة والاضطهاد الديني (البروتستانت). أبادوا الشعوب الأصلية، واستعبدوا الأفارقة لبناء إمبراطوريتهم، دون رحمة وشفقة، بل ضد ما كانوا يوهمون الشعوب الأخرى بأنهم سيحققونه لهم (إلحاقهم بـ«الحضارة» وحقوق الإنسان، والعدل، والسلام).

على ضوء ما قيل، فإن ثقافة الإبادة من جينات الثقافة الغربية، طبقتها في عصرنا الحالي أيضاً بلا هوادة فالفيتنام، والصين، وأخيراً في العراق وأفغانستان وسوريا إلخ). ولم تتورع على دعم الصهاينة، بل المشاركة في إبادة الغزاويين العزل، تحت ذريعة محاربة حماس.

* كيف يعيش المهاجر المسلم في أوروبا هذه الأيام في سياق حرب غزة؟

- عامة المهاجرين المسلمين يعيشون تحت ضغط نفسي، لم تنجح حتى

الأحزاب اليمينية المتطرفة إيصالهم له من قبل. أصبحت المصالح الأمنية تشير لهم بالأصابع، وتضايقهم في الكثير من المدن الأوربية الكبيرة بسلوكات تذكر بمحاكم التفتيش الإسبانية بعد انهيار الأندلس. تداهم بيوت بعض المسلمين في ألمانيا مثلاً، دون سابق إعلان، وتفتش ويتعرض ساكنيها لضغوطات نفسية، للاشتباه فيهم بأنهم يدعمون حماس، بل تطالب دول أخرى بسحب أو إسقاط الجنسيات الأوربية عن هذه الفئة من المواطنين، وبالخصوص عندما يكونون من أصول فلسطينية، بافترض أنهم إرهابيون، قد يملأوا للفعل في أول فرصة تتاح لهم. وهذا هو الحال في بلجيكا وفرنسا مثلاً. بل الأدهى أن ألمانيا تعمل بطريقة ممنهجة ليعلم العربي والمسلم علانية على أنه لا يدعم حماس، هناك بعض أرباب العمل ممن يطالبون العاملين عندهم من أصول مسلمة بتوقيع ميثاق شرف بأنهم غير معادين للسامية ولا يدعمون عمليات حماس، ولو بالدعاء.

* كيف تفسرون موقف الشارع الغربي المناهض للحكومات؟

- عموماً الشارع الغربي غير مبالي بما يحدث في فلسطين، لسبب واحد هو أنه منعكس في مشاكله الاقتصادية والاجتماعية وضيق اليد، والعطالة، جراء اختيارات سياسية بعينها، ومنها بالخصوص أزمة أوكرانيا. وقد يكون دعم الأوربيين لإسرائيل في قتلها أبرياء غزة هو تحويل للأنظار، وإيهام الشعوب الأوربية بأن الخطر بعيد عنهم، وبأن أزمة روسيا وأوكرانيا لم تعد خطيرة عليهم، لأن العدو الحقيقي

يوجد في الشرق الأوسط. لم تعد وسائل الإعلام، الموجهة للطبقات الشعبية في أوروبا، تهتم بمشاكل أوكرانيا إلا في حدود ضيقة، بينما أصبح الصراع الإسرائيلي- الفلسطيني يحتل صدارة وكالات الإعلام، التي تغذي وسائل الإعلام على اختلاف أنواعها.

* لكن رأينا الألاف في شوارع كبريات العواصم الغربية عبروا عن سخطهم على قرار حكوماتهم دعم حرب الإبادة التي تحدث بغزة؟

- هناك فئة من الشعوب الأوروبية، تؤمن بحق الشعب الفلسطيني في الحياة، وتعي بأن ما يحصل له حاليا هو محاولة إبادة جماعية، بموافقة حكوماتهم. هؤلاء الناس يتظاهرون بقوة، كما تتظاهر الشعوب العربية، تحتج، تتخذ مواقف لإيقاف العدوان الإسرائيلي، تعبر عن رأيها، وتساهم أيضا بطريقة مباشرة في التعريف بالقضية الفلسطينية، التي تحاول الحكومات التعتيم على تاريخها، وتقديم بداية أكتوبر كتاريخ بداية الصراع، في حين أن فلسطين كانت تحت وطأة هذا الاستعمار منذ ١٩٤٨. والنجاح الباهر الذي حققته هذه الانتفاضة الجديدة على مستوى بناء الوعي بنكبة فلسطين هي بالضبط إيقاظ الشعوب الغربية وخدش وعيها وضميرها، لتفهم ما يحصل في إطاره التاريخي، وليس فقط مما يستهلكه من أبواق حكوماته.

* ماذا عن موقف الحكومة البريطانية الحالية من هذه الأزمة؟

- بريطانيا هي التي «أهدت» أرضا لم تكن لها «لايواء» الصهاينة، لأنها كانت تعلم منذ البداية أنها الطريقة الأمثل لتبقى في المنطقة. منطقيا، تحمي بريطانيا مستعمرتها القديمة، محافظة على مصالحها بالمنطقة.

علاوة على هذا، تعرف بريطانيا منذ انفصالها على الاتحاد الأوروبي مشاكل عويصة على كل الأصعدة، وتحاول من خلالها دعم الغرب ضد روسيا، والآن ضد فلسطين بغية تحويل عيون شعبها لكي لا يرى مشاكله الداخلية. إذا قيل قديماً بأن «الدين أفيون الشعوب»، فإن «الحرب أفيون الشعوب أيضاً»، وهذا ما تحاوله بريطانيا في سياستها الحالية.

* لكن هناك حكومات غربية، لم تنزلق في مؤازرة محاولة إبادة الفلسطينيين، بل تطالب بوقف الاعتداء الإسرائيلي على العزل والأطفال والنساء والشيوخ؟

- يتعلق الأمر عادة بالدول التي كويت في تاريخها المعاصر بلهيب الأنظمة الشمولية، كإسبانيا، وإلى حدود ما اليونان، وتعرف حق المعرفة معنى كلمة «الإبادة» والعقاب الجماعي للمدنيين، وتعذيب البشر من أجل التعذيب، انتقاماً منهم لمطالبتهم بحقوقهم وحقهم في العيش الكريم. والملاحظ أيضاً أن الدول الأوروبية حيث نرى ممارسة الكثير من الناس لدينهم المسيحي، يقفون لأسباب عقائدية - أخلاقية ضد هذه الحرب، لأن فعل القتل محرم، على اعتبار أن الحياة والموت، في مثل هذه المعتقدات، لا يقررهما إلا الخالق، ولا يحق للمخلوق قتل النفس الإنسانية، بسبب أو دون سبب، وأقصى ما يمكن للسلطة القائمة القيام به هو سجن من يرتكب جريمة، واحترام كرامته كإنسان في السجن أيضاً. بمعنى أن المرء يمكنه أن يفقد الكثير مما يكتسبه في الحياة، بما في ذلك حقوقه المدنية، وحرية، ومنصبه، لكنه لا يفقد كرامته كإنسان.

زيادة على هذا، في حالة إسبانيا مثلاً، فقد كانت مدريد بوابة معاهدة أوصلو، حيث اتفقت فلسطين وإسرائيل على «عقد» سلام. هذا الدور الرمزي لإسبانيا كبلد نجح في تعبيد الطريق لشيء جميل، هو «تاج» تحمله الدبلوماسية الإسبانية على رأسها، وتخاف عليه من الكسر.

روسيا تتفرج في هدوء على ما يدور، علماً بأنها أعلنت في السابق مراراً وتكراراً بأنها تضمن تحرير فلسطين، وبناء الفلسطينيين لوطنهم. إلى ماذا يشير هذا؟

روسيا لا تزال منهمكة في حرب استنزاف مع الغرب، الذي كان يعتقد أن سياسة الحرب بالنيابة ستساعده لاستعمار روسيا، لأن الهدف الأول والأخير له هو استكمال تركيعه لها بعد سقوط المعسكر الشرقي. ففي عز مواجهتها للغرب، لا يكون في وسع روسيا إلا التفرج من بعيد، ويدها على الزناد، في محالة منها للبقاء واقفة أمام غرب، اتضح أنه وجد فيها عظمًا غير سهل الابتلاع.

بطبيعة الحال لا ندري ماذا يجري في الكواليس بين روسيا والفلسطينيين، وماذا إذا كانت أسلحة روسية قد وصلت إلى ساحة المعركة في غزّة قبل بداية الحرب، وما هي طبيعة المساعدات التي لربما قدمتها روسيا من قبل. المجال مفتوح على كل الاحتمالات، في غياب معطيات تحليل موضوعية.

* كيف تقيم موقف الحكام العرب والمسلمين والمنظمات العربية من

هذه الكارثة، التي يعيشها الفلسطينيون حالياً؟

- أظهرت هذه الكارثة من جديد، بل أثبت، بأن الشعوب العربية هي شعوب يتيمة، ليست لها حكومات من صلبها. المنظمات العربية هي

طقم أسنان (أسنان اصطناعية dentier)، تصلح لأكل الموز، وليس لتحطيم العظام أو مضغ الحمص المحمص. ومن المعروف أن الإنسان يرجع للأسنان الإصطناعية، إما عندما يفقد أسنانه الطبيعية، لسبب ما، أو عندما يتقدم في العمر. والحالتان مجتمعتان في واقع الحكام العرب والمسلمين ومنظمتهم. نزع الغرب أسنانهم، وزرع لهم أسنانا اصطناعية، يظهر نظيرين (جھيلين) عندما يتسمون، وفي المساء، عندما ينزعونها قبل النوم، لكي لا يتلعوها، وينظروا للمرأة فإنهم يتنكرون لأنفسهم، وينامون لنسيان بناء سلطتهم على أسس، يعون جيدا بأنها قد تفتت من تحت أرجلهم في أية لحظة، لأن مادة بناء هذه الأسس في يد الغرب.

من السذاجة، بل الحماقة والعمى الوجودي، انتظار أي شيء من الحكام العرب والمسلمين في القضايا المصرية للأمة، لأن سياسة فرق تسد، معششة في أفئدة هؤلاء الحكام ورؤوسهم. يخافون من شعوبهم، لأن أغلبية هؤلاء الحكام، ليست لهم أي شرعية، منحتهم إياهم شعوبهم - باستثناء المغرب -، ويخافون من بعضهم البعض، ومن الغرب. مساكن حكامنا العرب والمسلمين، يعيشون في مناخ خوف وريبة، قبل أن يموتوا طبعيا، أو يقتلوا ويوضعوا في سلة مهملات التاريخ.

* شكل تظاهر الشعوب العربية رفضا لذبح الفلسطينيين، حيث إعادة معارك الأقصى القضية الفلسطينية إلى الوجدان العربي كقضية ذات أولوية، لكن ماذا بعد؟

- أھبرت هذه الشعوب العالم بمواقفها الواضحة من القضية الفلسطينية

ونضالها السلمي لاستعادة هذا البلد أرضه وأمنه، على الرغم من أن ظروف النضال في شكل تظاهرات شعبية شبه منعقدة في بعض الدول العربية، للأسباب التي نعرفها. هذا النضال السلمي مهم للغاية، وبالأخص للفلسطينيين والفلسطينيات في عين المكان، لأنه يرفع من معنوياتهم ويعطيهم الانطباع بأنهم ليسوا وحدهم، وبأن الشعوب العربية والمسلمة بجانبهم، ليس أساسا لاشتراكهم في لغة وعقائد واحدة (وبالأخص المسلمة والمسيحية)، بل فوق كل هذا لعدالة قضيتهم، والإيمان العميق بأن مفعول المثال: «لا يضيع حق وراءه طالب» لم يفقد من بريقه.

إن الدعوة لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية بكل السبل القانونية والسلمية هي سبيل أيضا للنضال، خاصة إذا كنا نعلم بأن المستهلك العربي والإسلامي، نظرا لقوة العدد، قد يخلق مفاجئة غير سارة للاقتصاد الإسرائيلي. الرفع من مستوى الوعي بهذا الأمر أمر ضروري جدا، خاصة إذا استحضرنا تجارب وقعت في السابق اتجاه منتجات بعض الدول الغربية. تنطبق هذه المقاطعة أيضا على أغلبية الدول التي تشارك في محاولة إبادة أهل غزة.

واجهة النضال الأخرى التي أراها هي الواجهة الثقافية، ليس فقط بتنظيم لقاءات فكرية وسياسية ونظم الشعر وكتابة قصص أو روايات عن مخنة الفلسطينيين، بل أيضا بمقاطعة منتجات الثقافة الغربية، كالأفلام مثلا، ووسائل الترفيه، بما في ذلك الألعاب الإلكترونية، ومقاطعة كل المفكرين الغربيين، مهما كانت شهرتهم، ممن يدعمون فتك إسرائيل والغرب بالفلسطينيين. ويصح هذا أيضا على المغنيين والناشطين في المسرح إلخ.

المعادلة التي تستغلها الصهيونية في فرض تضامن الشعوب والحكومات الغربية مع هجماتها الهمجية على الفلسطينيين بسيطة ومضللة للغاية: إما معي، وإما أنك معادي للسامية. هل لهذه المعادلة حظ للعيش لمدة طويلة؟

هي معادلة المنهزم، المجروح، النرجسي، الذي - بفعل تدليله من طرف الغرب - شعر بأن جبروته قد انكسر. والمعادلة مُرسلة للشعوب الغربية بالأساس، ولحكوماتها، لأن العملة التي تؤمن بها إسرائيل لحد الآن هي اتهام الآخرين بمعاداتهم للسامية ولليهود. والعملة الرسمية للصهاينة (الشيكل) مبنية على هذا الرأس، الذي تستغله الحكومات المتعاقبة في إسرائيل للضغط على الغربيين. منطقياً وإنسانياً، وحتى من زاوية القانون الدولي وقوانين الحروب، لا يمكن قبول قتل المدنيين العزل، تحت ذريعة الحرب ضد حماس. لكن الغرب يقبل هذا، ليس لقوة إسرائيل، بل يعتبر هذا من بنود مخططات إتمام استعمار كل فلسطين، كمقدمة لاستعمار كل الدول العربية الأخرى، لتحقيق الحلم التوراتي: إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، ومنه إلى الخليج. نجاح حماس في خدش هذا الحلم، أثار غضب الصهاينة. وبأحداث بداية أكتوبر أو دونها، كانت غزة على جدول أجندات إسرائيل، والغرب معها، لإكمال الهيمنة على الشرق الأوسط برمته.

* بالإضافة إلى الإبادة والعقاب الجماعيين، الممارسين من طرف إسرائيل على الغزائين حالياً، تحاول تهجيرهم قصراً خارج حدودهم. ما هي حظوظ نجاح هذا المشروع الجديد القديم؟

- السؤال تخميني، والجواب لن يكون إلا كذلك أيضاً. ما هو أكيد هو أن نية تهجير الفلسطينيين من غزة حاضرة بقوة، بل هو شرط

لبداية عدوان أضخم على إيران، كتمهيد للاستيلاء على المنطقة، لأن غزّة مهمة جدا، نظرا لموقعها الإستراتيجي وواجهتها البحرية. هي القاعدة الأمثل للعدوان الغربي. الضغط على مصر وعلى الأردن أيضا على أشده، وفي غياب أية قوة رادعة ثانية، ستفرض أمريكا مبدأ الأمر الواقع على مصر بالخصوص. بتلخيص شديد، التهديد فعلي، وتطبيقه وارد، إلا إذا نجحت المقاومة، ليس فقط في غزّة، بل في الضفة أيضا، في خلق معادلة لم تكن في الحسبان، وقد فاجأت العالم بمثل هذه المفاجئات، وما يعزز هذا الطرح، هو أنها لم تدخل في حربها الحالية دون تخطيط، ودون أخذ معادلة الخسارة والربح في الحسبان.

* لو افترضنا بأن إسرائيل ستنجح ولو بعد معاناة قد تطول وقد تقصر في القضاء على مقاومة حماس، فهل ستنجح بذلك في القضاء على المقاومة بصفة نهائية في فلسطين؟

- المقاومة، سواء من طرف حماس، أو من طرف فصائل فلسطينية أخرى، هي فكرة، أسلوب تربية، لن يموت في نفس وعقل ووجدان الفلسطيني، ولو بقي شخص وحيد منهم. وأكبر انتصار للشعب الفلسطيني في تاريخ نضاله من أجل أرضه وحرية هو هذا الأمر بالضبط. كلما تفننت إسرائيل في تعذيب وإذلال وإهانة الفلسطيني، كلما زاد قوة وعزما، وتفنن في إبداع مقاومة يضرب بها المثل. فالساهرون على المقاومة حاليا، كانوا في ثورة الحجارة، وكل النضالات الأخرى، أطفالا، تأثروا وكونوا أنفسهم نفسيا وعقليا وجماعيا لبداية صفحة جديدة من النضال: عوض المقلع أصبحنا نرى آليات عسكرية، محلية الصنع، وعوض الحجارة رشاشات نارية معدلة. إنه الإيمان بالقضية، وروح النضال من أجلها.

* برغم ما راكمناه من تصورات مثالية عن التمثيل الديمقراطي والممارسة السياسية ذات التقاليد الباذخة التي أصبحت تشكل نموذجا مغريا بالنسبة لنا؟

- هذا هو ما جعلني دوما أطلب بتغيير تصوراتنا القبلية التي تحكمت فيها شروط وضعنا السياسي ما بعد الاستقلال وأشكال الانبهار التي مارستها علينا الواجهة البراقة للديمقراطية الغربية، الغرب اليوم يعيش في فضاء ومناخ ثقافة استهلاكية، تحكمها السرعة والرقمية والبحث عن «البوز» وإثارة الانتباه، ولم ينج المفكر من هذا «التسونامي» الهدام لإغراءات واجهات المحلات التجارية، بل لم ينتبه إلى قيام أخلاقيات جديدة، تحكمها النفعية والنجسية، ومبدأ أنا والطوفان من بعدي.

لكن هناك استثناءات، على قلتها، تعلمت في مسارها الفكري الصمود، والبقاء وفيه لبعض مبادئ التنوير، ومنها بالخصوص النزعة الإنسانية ومبدأ العدل بين الأشخاص والشعوب، والتعاون والتكامل بين الأمم. ولهذا السبب بالضبط، لا يمكن إطلاق أحكام عامة مطلقة، أو الوقوف على موقف الأغلبية الساحقة من المفكرين، ضحايا ثقافتهم المجتمعية، وعديمي أي إحساس نقدي، يُعول عليه.

دومينيك فيدال

ما يحدث في غزة إبادة جماعية

أجرى الحوار: وسام البزديني

ترجمة: عبدالله الحيمر

متابع لعدة عقود لقضايا الشرق الأوسط ، والذي غطى أحداثه للعديد من وسائل الإعلام الفرنسية كجزء من عشرات الكتب المخصصة بشكل أكثر تحديدا للصراع العربي الإسرائيلي ، يصر دومينيك فيدال في هذه المقابلة على طبيعة الإبادة الجماعية للعمل الذي تقوم به إسرائيل حاليا في غزة. لقد كنت تتابع الشرق الأوسط منذ عقود ، وكرست له العديد من الكتب حول الوضع الاشكالي للقضية الفلسطينية. ما هي قراءتك لهذا الهجوم الوحشي، الذي تشنه الاسرائيلية ٢٠٢٣ منذ ١٧ أكتوبر قراءتي الاولى في هذا المشهدي الدامي للأبرياء بقطاع غزة المحتل. إنها مأساة لا تطاق بكل المعايير الانسانية والدولية ، لأنها حاضرة بمشهدنا اليوم، وتنقل أمام أعيننا مباشرة إلى الجميع، إلى المجتمع الدولي ، دون أن يتم فعل أي شيء لوقف المذبحة الرهيبة بحق الابرياء بقطاع غزة . إذا أردنا التحدث

عنها بعبارات أوضح ، وربما سنعود إليها لاحقاً بمزيد من التفصيل ، فمن الواضح أننا هنا نواجه إبادة جماعية تتركبها القوات .

بالنسبة لي ، المشكلة المطروحة بالقضية الفلسطينية لها وجهتين أو شقين .. لا أخبرك عن المأساة بالنسبة لي ، لأنه في كل مرة يحدث صراع في الشرق الأوسط ، نعتقد أننا رأينا الأسوأ . لسوء الحظ نحن مخطئون في تصديق ذلك في المنطقة ، الأسوأ هو دائما جزء من مجال الاحتمالات امام جبروت وطغيان العسكرية الاسرائيلية .

أنت تتحدث عن الإبادة الجماعية ضد سكان غزة قطاع غزة الابرياء ، هل يمكنك إيضاح أكثر وجهة نظرك حول هذه الإبادة ؟

١٩٩٥ إذا كنت تتذكر ، في يوليو بسربرينيتسا ، وهي بلدة صغيرة في البوسنة والهرسك ، قتل جيش جمهورية صرب البوسنة بقيادة الجنرال راتكو ملاديتش حوالي ٨٠٠٠ مسلم سني . و الحدث اعتبرته المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة ومحكمة العدل الدولية مشروعاً للإبادة الجماعية . «اليوم ، قتل بالبداية الان وصل العدد ١٠٠٠٠ ، لكن القادة الإسرائيليين أعربوا بوضوح نيتهم في اليوم السابق لبدء عملية السيف ، كان وزير الدفاع الإسرائيلي ، يوآف غالانت ، قد نعت الفلسطينيين بالحيوانات البشرية ، باختصار ، هناك ما يكفي من العناصر القانونية والجنائية ، لاتهام دولة إسرائيل اليوم بالإبادة الجماعية .

ما هو برأيك ، المانع الذي يجعل المجتمع الدولي من إسرائيل علنا وما تفعله من إبادة في قطاع غزة ؟

كما تعلمون ، هذا هو السؤال الأبدي كما يسمونه بالوحش البارد لمصالح الدول . غضون أسابيع قليلة على كل حال في كل ، ستبنى الجمعية العامة للأمم المتحدة نصا رائعا تطالب فيه بوقف الاحتلال الإسرائيلي للأراضي

الفلسطينية وأن يكون للفلسطينيين دولتهم ، كان الجميع متفقين باستثناء موقف المتعنت لإسرائيل الواضح ، وهو ما لا يقل وضوحا عن موقف الولايات المتحدة ، ثم عن ثلاث قوى عظمى أخرى ، وجزر الصغيرة . وباستثناء هذه البلدان الخمسة ، أعربت جميع دول العالم بوضوح عن دعمها لإقامة دولة فلسطينية.

هل يمكن ان نقول من وجهة النظر الدبلوماسية، امام هزام اسرائيل عالميا على مستوى معركة الصورة، هل يمكن ان نقول ان اسرائيل في طريق تحقيق اهدافها من الحرب؟

في الوقت الحاضر، هي بالطبع تفوز، للعودة إلى ما قيل من قبل ، لا ترى نفسها مدانة دوليا بالإبادة الجماعية التي تقوم بها. فالدليل الجغرافي يدل على أن إسرائيل تقع في إطار عربي إسلامي ، وأنه لكي تحافظ على مكانها هناك ، فإنها تحتاج ، كما أقول ، إلى السماح بإقامة دولة فلسطينية . وبصراحة لا أرى أنها تنتصر باستمرار ، كما يتضح من الهجوم الذي تعرضت له من قبل حماس في ٧ أكتوبر . وبعد ذلك ، دعنا نقول أن الدول العربية تلعب اللعبة ، حيث بدا أنه من الممكن أن تصبح الحال مع اتفاقيات إبراهيم. أنتم أنفسكم في المغرب ، ولستم تدركون أن غالبية السكان ليسوا من يؤيدون التطبيع ؛ بل أود أن أقول إن الأمر عكس ذلك تماما ، كما أعتقد أنني أفهم من التعبئة التي أراها حاليا تترسخ في الشارع وكما أبلغني أيضا العديد من الأصدقاء المغاربة الذين لدي. كما أود أن أغتنم هذه الفرصة لأشير لكم إلى التحقيقات التي يجريها المركز العربي للبحوث والدراسات السياسية في الدوحة بانتظام حول هذا الموضوع ، والتي لا أعرف لماذا يتم تجاهلها بشكل عام. يقولون بوضوح أنه في جميع البلدان العربية ، فقط عشر السكان ، على الأكثر ، يوافقون على التطبيع الذي سيتم مع إسرائيل دون حل القضية الفلسطينية. هذا عمل جاد

لغاية يشارك فيه العديد من الباحثين ويشارك فيه الآلاف من المستجيبين في العالم العربي.

ما تقوله يقع بالفعل تحت طائلة هذا ولكن لماذا هذا الخطاب لا يجد أي صدى في إسرائيل الحالية ؟

في السياق الحالي الذي يلي ملحمة طوفان الاقصى لحماس ، هذا بالتأكيد ليس الوقت المناسب للترويج ، في إسرائيل ، لخطاب السلام مع الفلسطينيين، مع العلم أنه ، كما تقول ، تمكن اليمين واليمين المتطرف منذ ذلك الحين من كسب الاهتمام السياسي. أود أن أقول إنه بشكل عام ، تطور الوهم داخل الطبقة السياسية الإسرائيلية بأن الاستعمار يمكن أن يستمر مع الإفلات من العقاب. دعونا لا ننسى أننا نحتفل هذا العام ٢٠٢٣ بالذكرى السنوية الثلاثين لاتفاقات أوسلو الأولى ، وباستثناء مبادرة رئيس الوزير السابق إسحاق رابين في عملية أوسلو ، الذي أغلق بسرعة على أي حال بعد (في نوفمبر ١٩٩٥) اغتياله، لم تنفذ إسرائيل هذه الاتفاقات أبدا.

من ناحية أخرى ، شهدنا خلال السنوات الثلاث الماضية توقيع اتفاقيات إبراهيم ، مما ساهم بلا شك أيضا في تعزيز فكرة أن إسرائيل يمكن أن تجد مكانها الكامل في المنطقة دون الاضطرار إلى التخلي عن أي شيء للفلسطينيين، ولكن كما رأينا ، قطعت البحرين أخيرا علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل نوفمبر ٢٠٢٣ ، وعلاوة على ذلك ، يبدو أن المملكة العربية السعودية ، التي كانت في مفاوضات متقدمة مع تل أبيب للتطبيع وفقا لاعتراف ولي العهد الأمير محمد بن سلمان، تخفف من حماسها على أي حال في الوقت الحالي، لذلك من الواضح أن سياسة النعمة الإسرائيلية لا يمكن الدفاع عنها.

